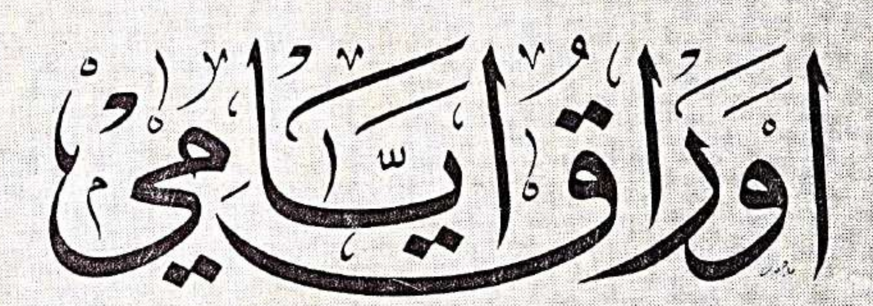
طالب مشتاق



١٩٠٠ - ١٩٥٨



دار الطليعة - بيروت

بيروت في ٥ شباط سنة ١٩٧٠

أوراق أيامي

الطبعة الاولى
تشرين اول (اوكتوبر) ١٩٦٨

طالب مشتاق



الجزء الأول

١٩٠٠ - ١٩٥٨

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الاهـــداء

الى أولادي وأحفادي

أهدي هذه الأوراق للعبرة والذكرى

سجل خدماتي

مـــــن	الـــــى	نــوع الوظيفــة
٩١٩/١١/١٠	١٩٢٠/٨/١	معلم في مدرسة الهويدر الاولية
١٩٢٠/٨/١	١٩٢١/١١/١	كاتب في نظارة المعارف ــ بغداد
١٩٢١/١١/١	—	استقالة اضطرارية بسبب اختلافي مع رئيس الملاحظين الانكليزي
١٩٢٢/١/١	١٩٢٢/٦/١٨	سكرتير خاص لوزير المعارف (السيد هبة الدين الشهرستاني)
١٩٢٢/٦/١٨	١٩٢٢/١٠/١	رئيس كتاب ومحاسب مديريـــــة معارف منطقة بغداد
١٩٢٢/١٠/١	١٩٢٣/٩/١٩	معلم في مدرسة تطبيقات دار المعلمين ــ بغــداد
١٩٢٣/٩/١٩	١٩٢٤/٩/١	رئيس ديوان وزارة المعارف
١٩٢٤/٩/١	١٩٢٥/٨/٥	وكيل مدير معارف منطقة البصرة
١٩٢٥/٨/٥	١٩٢٥/٩/١	رئيس ديوان وزارة المعارف
١٩٢٥/٩/١	١٩٢٥/١١/١٦	مدير معارف منطقة كركوك
١٩٢٥/١١/١٦	١٩٢٧/٩/١	بعثة دراسية الى انكلترة
١٩٢٧/٩/١	١٩٢٩/١٠/١	مدير الثانوية المركزية ــ بغداد
١٩٢٩/١٠/١	١٩٣١/٤/١	سكرتير وزارة المعارف

١٩٣١/٤/١	١٩٣١/٥/٥	مفتش معارف منطقة البصرة
١٩٣١/٥/٥	—	استقالة اضطرارية بسبب خلافي مع مفتش المعارف العام المستر سمرفل.
١٩٣١/١٢/١٢	١٩٣٥/١١/١١	سكرتير السفارة العراقية ـ انقرة
١٩٣٥/١١/١١	١٩٣٧/٨/١٤	مدير الدائرة القنصلية ، وزارة الخارجية ـ بغداد
١٩٣٧/٨/١٤	١٩٣٨/٣/١٢	قنصل من الصنف الاول ـ بيروت
١٩٣٨/٣/١٢	١٩٣٨/٤/١	سكرتير اول بالسفارة العراقية ـ انقرة
١٩٣٨/٤/١	—	فصل بموجب قرار مجلس الوزراء ١٩٣٨/٣/٢٩ لاسباب سياسية .
١٩٣٩/١/٢٩	١٩٣٩/٥/٢٩بظ	مدير عام للمحاسبات ـ بغداد
١٩٣٩/٥/٣٠	١٩٤٠/٣/١٩	مدير عام للدعاية ـ بغداد
١٩٤٠/٣/١٩	١٩٤١/٧/٢	قنصل عام في فلسطين وشرقي الاردن
١٩٤١/٧/٢	—	فصل بقرارمجلس الوزراء الاشتراكي بثورة ٢ ايار ١٩٤١
١٩٤٥/١٠/١	١٩٥٨/١٠/١٢	مدير البنك العربي ـ بغداد
١٩٥٨/١٠/١٢	١٩٦٥/١/١	سفير الجمهورية العراقية في تركية
١٩٦٥/١/١	—	احلت على التقاعد بناء على اكمال السن القانونية (١)

(١) انـي بالحقيقة اكملت السن القانونية للتقاعد في ١/١/ ١٩٦٤ ، الا ان وزارة الخارجية قد استحصلت قرارا من مجلس الوزراء بتمديد خدمتي لمدة سنة اخرى .

مولدي ونشأتي

ولدت في الكاظمية ولست اعرف اليوم والشهر اللذين ولدت فيهما . ولكن والدي المرحوم اكد لي بان ولادتي كانت في العام ١٩٠٠ ميلادية . نقل لي والدي بأن جدي ثابت بك (الذي جاء العراق من مدينة يوزغاد(١)) ينتمي الى اسرة كبيرة ثرية ، ولما مات ابوه اختلف اولاده على كيفية تقسيم الارث الذي تركه ، فتأثر جدي من جراء ذلك تأثرا عظيما وترك كل شيء الى اخوانه وحصل على وظيفة مدير مال في قضاء كفرى واتى الى العراق وتزوج في كفرى من آنسة تنتمي الى عائلة محترمة هناك (هي عائلة سيدلر) ، وبعد ذلك اشغل وظيفة محاسب في كل من الوية كربلاء والحلة والديوانية ،اما والدي فقد ولد في الديوانية ، ولما مات والده كان لا يزال طفلا فتعهده اخواله وخالاته وربي يتيما في كنف هذه العائلة .. وبعد ان ختم القرآن وتعلم القراءة والكتابة في احد الكتاتيب ، قبل مداوما في قلم تحريرات الولاية في بغداد برعاية صديق لوالده . فنشأ هناك وتعلم اصول المكاتبات الرسمية ومارس الكتابة بالتركية وبرع فيها ، ولم يبلغ

---

(١) ولاية تركية تقع في الشمال الشرقي من انقرة ، وتبعد عنها حوالي ١٢٠ كيلومترا .

السن السابعة عشرة حتى عين كاتبا للتحريرات في قضاء الكاظمية .. ثم تزوج في سن مبكرة وبنى عش الزوجية في الكاظمية نفسها . وهكذا فتحت عيني في الكاظمية في دار متواضعة نظيفة ومؤثثة تأثيثا يغلب عليه الذوق في الترتيب ، بعيدا عن الفخفخة والابهة ، بيت موظف صغير صاحب ذوق سليم . امضيت طفولتي وايام صباي في الكاظمية في محيط شيعي متعصب ونشأت شيعيا متعصبا .. لطمت على صدري في مواكب محرم ، وضربت كتفي بالسلسلة (الزنجيل) تألما على الحسين رضي الله عنه ، واشتركت بـ (التشابيه) برفقة السيد عبد الهادي الجلبي (اخي بالرضاعة) وكانت جدتي (لامي) رحمها الله تنصحني دائما ان اترك التشيع واتخذ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مذهبا لي ، وكانت تكرر دائما قولها: (اننا يا بني نحب الكل ونحظى بشفاعة الكل) .. فكنت اهزأ بها ، ولا اعير كلامها اي اهتمام . ولكن افكاري اخذت تتبلور بمر الايام وصرت اشعر ان المغالاة في كل شيء خطأ وان الاعتدال مقبول ومستحسن دائما .. انني الان مسلم احترم المذاهب الاسلامية كلها بما فيها المذهب الجعفري . واحب بادراك آل البيت كما يحبهم اي شيعي مدرك متزن ، واذا حضرت مجلس عزاء الحسين عليه السلام ذرفت عيناي الدموع عليه تحرقا وتألما ..

كان اول بيت في الكاظمية اقمنا فيه واقعا في محلة شريعة أم النومي وكنا مع المرحوم الشيخ عبد الحسين الجمالي (والد الدكتور فاضل الجمالي) جارين متلاصقين : الباب الخارجية واحدة ، يعقبها مجاز صغير ينتهي بدارين متلاصقين . فالدار التي تقع الى اليمين هي دارنا ، والتي تقع الى اليسار هي دار الجمالي .. وكان والد الدكتور الجمالي شيخا وقورا خمري البشرة ، ذا لحية بيضاء تكسو وجهه المدور وتضيف الى جمال شكله هيبة ووقارا . كان المرحوم صديق والدي ويعطيه دروسا في

الصرف والنحو مرتين في الاسبوع على الاقل ، ولا ازال اذكر مشيتـه الوئيدة وهو يتعكز على عصاه ، ويسير ولده فاضل امامه حاملا الفانوس وقت الفجر وهما يسيران متجهين نحو الصحن الكاظمي لاداء فريضة صلاة الصبح .. وكنت آنذاك طفلا لا اتجاوز السادسة من عمري اخرج مـن البيت في نفس الوقت كي اذهب الى الصحن ايضا واؤدي صلاة الصبح ثم اذهب الى مرقد يضم قبرين كان يطلق عليهما آنذاك (مرقد اسماعيل وابراهيم (١)) . حيث كنت ادرس القرآن على الشيخ علـوان (٢) سادن هذين المرقدين .. كان الشيخ علوان يحفظني بالاضافة الى دروس القرآن بعض (الزيارات) وكنت اقوم بالقائها وانا اطوف الزائرين الذين كانت اغلبيتهم من الايرانيين ، وكان ينقدني هؤلاء بعض النقود بسخـاء فكنت اجمعها في احدى الشمعدانات واسلمها الشيخ علوان يوما فيوما . وهكذا امضيت ردحا من الزمن وانا اقوم بوظيفة (مزورجي) في مرقدي ابراهيم واسماعيل ..

وبعدما اكملت ختم القرآن ، صار والدي يأخذني معه في كل يـوم الى مكتبه في السراي ، ويقوم بتدريسي هناك بعض مبادىء القراءة التركية والحساب ، اذ لم تكن في الكاظمية حتى سنة ١٩٠٨ مدرسة ابتدائية .وبعدما تقدمت في القراءة والحساب سجلني والدي في المدرسة الحميدية الابتدائية في بغداد وكان ذلك في سنة ١٩٠٨ تخمينا ، وصرت اذهب يوميا بالترام الذي تجره الخيول الى بغداد لاواظب على دراستي في مدرستي الجديدة واعود عصرا الـى دارنا في الكاظميـة بنفس الطريـق .... ان المدرسة

---

(١) ازيل المرقدان المذكوران مؤخرا من الصحن الشريف لاسباب اجهلها .

(٢) انه الحاج علي الشالجي يشتغل بزازا في سوق البزازين الكبير في الوقت الحاضر .

الحميدية هذه كانت في بناية متصرفية بغداد الحالية وكان مديرها آنذاك السيد عثمان ، والد صبحي عثمان (معاون المدير العام للمصرف العقاري في الوقت الحاضر) .

لم يكن الوصول الى مدرستي بالامر الهين في موسم الفيضان فقد كان نهر دجلة يطغى احيانا وتغمر المياه جزءا من الطريق الذي تمر فيه سكة حديد الترام ، فتضطر عربات الترام في هذه الحالة الى الوقوف في نقطة قريبة من الارض المغمورة بالمياه وينزل الركاب من الترام ويجتازون الارض الغريقة خوضا في المياه تارة وسيرا في الاوحال اخرى حتى يصلوا الى الارض اليابسة في الضفة الثانية من المياه حيث تنتظرهم العربات ، ويستأنفون سيرهم الى بغداد . ليس هذا فقط بل كان هناك خطر آخر يتهددنا .. فالجسر الوحيد في بغداد وكان في موضع جسر (الشهداء) في الوقت الحاضر عبارة عن بضع سفن مرتبطة بعضها ببعض بحبال وقد وضعت أو رصفت فوقها الواح من الخشب تسير فوقه الناس والخيل والحمير والبغال والمواشي الاخرى جنبا الى جنب ، وهذا الجسر (الذي يطير اذا نفخ عليه) ينقطع في موسم الفيضان ونضطر عندئذ الى العبور من ضفة الى اخرى بواسطة القفف (١) ، وكان العبور بواسطة الزوارق نادرا جدا في هذا الموسم لسهولة غرقها ، وهكذا كان افراد عائلتي قاطبة ينتظرون وهم على اشد ما يكونون من القلق والاضطراب عودتي سالما في موسم الفيضان .

بقيت في مدرسة الحميدية في بغداد سنة واحدة ، وعندما فتحت الحكومة ، في السنة التالية مدرسة اولية في الكاظمية التحقت بها وكان

---

١ القفة واسطة عبور وشحن كروية الشكل كانت شائعة الاستعمال في ذلك العهد .

اول مدير لهذه المدرسة السيد نوري البرزنجي ومن رفاق صفي آنـذاك عبد الهادي الجلبي ، باقر الجلبي ، اسد الله الاستربادي ، حمزةالاستربادي المرحوم ، عبد الحميد مازندراني ، وعبد الوهاب العسكري •• ومـن قائمي مقام قضاء الكاظمية الذين اتذكرهم ثلاثة : احدهم تركي والاخران عراقيان • كان القائم مقام التركي « راسم بك » أما العراقيان فكانا حيدر بك الحيدري ورؤوف بك الجادرجي المرحومين •

وفي سنة ١٩١٠ انتقل رؤوف الجادرجي الى قضاء خراسان «بعقوبة» وأصر على استصحاب والدي معه • وهكذا سافرنا من الكاظمية بعربـة من الخشب في صباح اول اذار ١٩١٠ ووصلنا الى بعقوبة في عصر ذلـك اليوم ، وكانت عائلتنا عندئذ تتألف من والدي وامي واولادهم الاربعة : أنا واخي المرحوم اكرم وادهم وثابت ••

التحقت بالصف الاول من المدرسة الرشيدية (١) في بعقوبة واكملتها في سنة ١٩١٣ ، وبعد ذلك ارسلني والدي الى بغداد وخيرني بين الدخول الى الاعدادية العسكرية او الاعدادية الملكية وكان ميلي الـى السلك العسكري شديدا جدا ، واشتد هذا الميل عندي في خلال حربي البلقان وطرابلس الغرب ، اذ كنت اسمع والدي وهو ينقـل الينا المظالم التـي ارتكبتها الدول البلقانية ضد العناصر المسلمة هناك وما جنته ايدي الطليان من قتل وفتك وتدمير في طرابلس الغرب بتأثر عميق وألم مبرح ، فتشتعل في قلبي جذوة الانتقام وأمني النفس بأخذ الثأر من اولئك البغاة المعتدين يوما اشهر فيه سيفي وانا ضابط في الجيش العثماني •• ولكن املي هـذا

---

(١) ان الصفوف الثلاثة الاخيرة من الدراسة الابتدائية كانت تسمى وقتذ (رشدية) .

خاب عندما راجعت المدرسة الاعدادية العسكرية التي رفضت قبولي بسبب صغر سني وضعف بنيتي رغم درجاتي العالية ، حيث كنت الاول في صفي ونلت درجات كاملة مئة في مئة في جميع الدروس • وهكذا اضطررت الى الدخول الى المدرسة الاعدادية الملكية في بغداد وكان ذلك في سنة ١٩١٣ ،وأذكر من ابناء صفي :(عطا أمين ، احمدمختار بابان ، يوسف ضياء، قاسم الكيلاني ، اكرم علي رضا الركابي ، جميل الوسواسي ، عمر موفق آل عبد الجليل ، عبد الستار فارس ، صالح مدلل ، عبد المجيد عريم ، عبد العزيز عريم ، حسن عريم ، صالح يحيى ، عباس مظفر ، شاكر الملا عبدان، نعمان محمد ، عبد الله الشواف ، هاشم كربلائي ، عبد الصمد التكريتي ، شاكر حلمي وغيرهم ••) ان نصف هؤلاء اصبحوا في عداد الاموات عليهم رحمة الله ، أما الاحياء منهم فلهم العمر المديد والعيش الرغيد •

اكملت السنة الاولى بنجاح ، وعندما بدأنا السنة الثانية فوجئنا بشرين مستطيرين : (الاول) غرق بغداد بفيضان كاسح من نهر دجلة (والثاني) نشوب الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) ، وعندما انضمت الدولة العثمانية الى صفوف الالمان اشتعلت نيران الحرب في العراق وسقطت البصرة في ايدي الانكليز ، وأخذ الجيش البريطاني يتقدم نحو بغداد خطوة خطوة • استدعي عدد كبير من رفاقي في المدرسة الى دخول دورات تدريبية تمهيدا لتخرجهم ضباط احتياط • ولم يأت دوري للمشاركة في هذه الدورات نظرا لصغر سني ، ولكن الحماسة اخذت مني مأخذها وصرت اشعر بالعار لبقائي بعيدا عن هذه الدورات ، فتقدمت بعريضة الى الجهات العسكرية ارجوها فيها قبولي متطوعا في احدى دورات التدريب لضباط الاحتياط • واستدعاني رئيس شعبة التجنيد المختصة ، وهو ضابط تركي على جانب عظيم من دماثة الخلق ، ولطف الحديث وخاطبني باللغة التركية قائلا : « مرحى لك بهذا الشعور الوطني الكريم

.. اننا نقدر فيك هذه الروح السامية والمشاعر الصادقة ، وان الوطـن الذي ينجب ابناء مثلك لا يمكن ان يموت مطلقا .. انك لا تزال صغيـر السن يا ولدي ومواظبتك على الدراسة بحد ذاتها عمل وطني يفيد منـه الوطن في المستقبل فائدة عظمى ، وانك بوضعك الحالي لا تقل شرفا عن اي جندي في الوجود . فالجندي يقاتل العدو في الميدان ، وانت تقاتل على رحلات الدراسة الجهل والتأخر فارجع يا بني الى مدرستك واستمر عـلى دراستك والله يوفقك ..» . وهكذا عدت الى مدرستي خائبا متألما للمرة الثانيـــة .

وفي سنة ١٩١٦ استسلم في كوت الامارة الى الجيش التركـي ١٣ الف جندي ومئات من الضباط الانكليز وخمسة جنـرالات بما فيهـم طاونسند القائد العام فعم الفرح العراق قاطبة ، وازدانت بغداد بالمصابيح والاعلام وسعف النخيل ووصلت افواج الاسرى بالمراكب البخارية وقـد تسنى لي ان اصعد الى احد هذه المراكب واشاهد اولئك الاسرى منكودي الحظ الذين كانوا يقاتلون اناسا لا عداوة لهم معهم ولم يسبق ان تعرفوا باحد منهم وانما كانوا مندفعين وراء رجال السياسة والمال دعما لخططهـم الاستعمارية ومطامعهم الاستثمارية ولا شيء اكثر من هذا .. تقدمت الى عريف انكليزي وكان نحيلا ، منهوكا ، خائر القوى ، هزل جسمه مـــن تأثير الجوع الذي انتابهم مدة طويلة وهم محاصرون في داخل قصبـــة الكوت .. لم أكن اعرف آنذاك كلمة واحدة من اللغة الانكليزية ، امـا هو فكان احسن مني حالا ، اذ كان يعرف بعض كلمات باللغة العربية .. سألته : كيف حالك ؟ اجاب بالعربية : « زين .. زين » .. ثم قلت له : كيف وجدت الجيش التركي ؟ ..فتلعثم وقال :«الانكليز دم ..دم..اكو، لكن خبز ماكو ..» وقد فهمت انه يريد ان يقول : ان الانكليز اقويـاء بسلاحهم وبمدفعيتهم ولكنهم محرومون من الارزاق الامر الذي اضطرهم الى الاستسلام .

نقل لي احد الضباط العراقيين الذين اشتغلوا في مقر قيادة الجنرال خليل باشا القائد العام للجيش السادس ان الجنرال طاونسند عندما قابل خليل باشا بعد الاستسلام وقدم اليه سيفه ومسدسه كاسير حرب حسب التقاليد العسكرية رفض خليل باشا تسلمهما وقال لطاونسند « انك جندي شريف وقائد بطل ، لقد قمت كجندي بواجبك خير قيام وارجوك ان تبقي هذا السيف وهذا المسدس لديك تقديرا لكفاحك وتذكارا مني اليك » . وبعد ذلك عرض الجنرال طاونسند مبلغا عظيما من المال يقدمه الى الدولة العثمانية لقاء اطلاق سراحه واستعادة حريته .. فرفض خليل باشا هذا العرض وقال له : اننا لا نبيع حرية القواد بالمال ، ولكنني مستعد ان اطلق سراحك واعيدك الى بلادك معززا مكرما اذا اقسمت بشرفك العسكري . انك سوف لا تشترك في اية جبهة حربية كانت في المستقبل ضدنا او ضد حلفائنا .. فاجاب طاونسند : « هذا وعد يصعب علي اعطاؤه ، لانني عندما تخرجت في الكلية العسكرية اقسمت بشرفي العسكري ان اخلص لبلادي وانفذ اوامر امبراطوري ، فانا عندما استعيد حريتي اكون رهن امر امبراطوري وطوع اشارته ، وان امرني بالقتال فما لي الا الطاعة والانقياد » .

وبعد هذه الهزيمة المنكرة التي مني بها الجيش الانكليزي شمرت الحكومة البريطانية عن ساعد الجد وعزمت على محو هذا العار الذي لحقها ، فجهزت قوات كبيرة من جميع الاصناف ساقتها الى ساحات القتال في العراق ، واخذت هذه القوات تتقدم نحو بغداد خطوة خطوة . والجيش التركي يقاتل ويدافع بشجاعة وضراوة لا نظير لهما في تاريخ الحروب . فالجندي البريطاني كانت تحميه مدفعية ثقيلة مع الدبابات والطيارات ، وكانت انابيب الماء المثلج تصل اليه وهو قابع في خندقه ، والطعام في متناول يده في كل حين ، وهو مدثر بملابس صوفية تقيه

وخزات البرد القارس ، وفي الصيف تهيأ له وسائل الراحة على اكمل وجه ممكن حتى في ساحة القتال .. اما الجنـدي التركي فكان محروما من كل ذلك ، فهو لا يملك ســلاحا غير بندقيته وحربته ، اما المدفعية الثقيلة فتكاد تكون في حكم العدم . واما الطيـارات فلا وجود لها مطلقا عدا عدد ضئيـل من الطيارات الالمانية لا تصلح الا للاستكشاف . ومعظم الجنود حفاة والبستهم رثة ،اما طعامهم فلا يتعدى الـ «قلاطة» (١) . ومن يحصل منهم على حفنـــة تمر معها يعد من الســعداء ومع هذا لم يكونوا يتذمرون او يتألمون ، وكـانت معنوياتهم قوية للغايـة ، لانهم كانوا شديدي الايمان بالله والوطن ..

هكذا كان البون شاسعا بين الجيشين التركي والبريطاني . وفي طبيعة الحال ان مثل هذا البون الشاسع يفقد التوازن بين الطرفينويجعل التفوق، وبالنتيجـة النصر ، لمن كانـت كفته اقوى وارجح ...

وبدأ تراجع الجيش التركي في شهر آذار نحو بغداد بسرعـة وكانت المعركة الحاسمة معركة سلمان باك ، وعندما سقطتهذه بيد الانكليز ، اخذت الحكومة التركية تخلي بغداد بالتدريج . وفي يوم ٩ اذار ١٩١٧ ارســل بطلبي المرحوم فايق بك وكيــل والي بغداد، وكان صديقا لوالدي منذ كان قائم مقاما في بعقوبة (٢). ولما حضرت بين يديه ومعي اخي اكرم المرحوم نظر الينا بتأثر ، والالم يطفح في وجهه وقال : (اننا الان نخلي بغداد ،

---

(١) نوع من العيش المجفف بالافران على شكل اقراص .. لا يتمكن من سحقه ومضغه الا من انعم الله عليه باسنان قوية حادة .

(٢) نبذة عن المؤما اليه وخدماته في العراق في فصل لاحق .

والجيش التركي يتراجع في كل الجبهات ولا يستبعد ان يدخل الجيش الانكليزي الى بغداد غدا او بعد غد ، فعليكما ان تسافرا حالا الى بعقوبة لتكونا مع افراد عائلتكما هناك ، وقد هيأت لكما عربة ، وسيرافقكما شرطي للمحافظة عليكما حتى تصلا الى بعقوبة ...) ان هذا الخبر المشؤوم كان صدمة قوية لي ،كيف نخلي بغداد؟ وكيف نتركها ؟ كيف تدنس سنابك خيل الانكليز المستعمرين تربة هذا الوطن المقدس .. لله ما اقسى الظروف وما اظلم حكم القدر ...

سافرنا الى بعقوبة انا واخي اكرم ظهر ذلك اليوم ووصلناها بعد الغروب بقليل،واستقبلنا والدانا بفرح لا مزيد عليه ،وكانا قلقي البال من اجلنا ، وحمدا الله على وصولنا سالمين .. كان المرحوم والدي مطلعا على الوضع بكامله ،وكان يعرف ان بغداد على وشك السقوط ،وان منطقة ديالي بكاملها ستكون تحت حكم الانكليز حتما ، وبدون حرب اذا سقطت بغداد .. لذلك كان يستعد للانسحاب مع فوج تركي يرابط في بعقوبة . ولما اطلعني على عزمه هذا رجوته ان ارافقه في سفره ،فتردد في بادىء الامر الا انه وافق اخيرا تجاه اصراري وتوسلاتي اليه ...

دخل الجنرال (مود) بغداد في يوم ١١ اذار ١٩١٧ ، وكان يوما مغبرا، قاتما اجتاحت بغداد فيه عاصفة ترابية مدمرة جارفة ، اقتلعت الاشجار ، واطارت السقوف من فوق المباني .. وساعد الله الجيش التركي على تمكنه من الانسحاب في ذلك اليوم وهو يقاوم عدوين قويين : الانكليز من الخلف، والطبيعة من الامام .. اولئك يصلونه نارا حامية وتلك تقذفهم باطنان من غبار يعمي العيون ويخمد الانفاس ...

دخل الجنرال (مود) الى بغداد على رأس جيشه بأبهة وفخفخة، وقيل : ان اليهود استقبلوا الجيش البريطاني المنتصر بالموسيقى والطبول والمزامير، وشاركتهم فرحتهم اقلية من الطائفة المسيحية. اما المسلمون فكانوا في تأثر بالغ والم عميق ... وقد اظهر الموظفون العراقيون من الوفاء وحسن الطوية ، ما اثار اعجاب الامة التركية قاطبة، فقد ترك معظم الموظفين عوائلهم في العراق وساروا وراء الجيش التركي حتى قلب الانضول ، ولم يعودوا الى بلدهم العراق الا بعد عقد الصلح ، ومنهم من لم يرجع الا بعد تأليف الحكومة العراقية وتسنم الملك فيصل الاول عرش العراق ...

اعلن الجنرال مود ، بعد دخوله الى بغداد ، انه لم يأت فاتحا بل منقذا ومحررا . فيا لها من اكذوبة مفضوحة، وغش وضيع، ذلك ان اهل بغداد ، لا بل جميع سكان العراق صاروا يرون بأعينهم ان الانكليز لم يعاملوا العراقيين الا كعبيد ، اوكأسرى ... فأين هي الحرية ؟ واين هو الانقاذ ؟..

هل كنا نحن مستعمرين حقا عندما كان العراق تحت الحكم العثماني ؟ كلا.. كنا امة واحدة تعيش تحت علم واحد وتربطنا رابطة الدين بأوثق الاواصر ويوحد الاسلام بين قلوبنا وبين مشاعرنا ويجعلنا كتلة واحدة يؤازر بعضنا بعضا كالبنيان المرصوص ... صحيح ان بلادنا كانت متأخرة المرض يفتك بنا ، والجهل يعمنا ، والفقر يقتلنا ... ولكن الاتراك انفسهم في قلب الانضول ، هل كانوا احسن منا حالا ؟... ان مدينة قونية مثلا لم تكن احسن حالا من مدينة بغداد ، ولم تكن سيواس ، اعمر من الموصل ، وليست قيصرى ارقى من البصرة

في اي شيء ٠٠ وهذا الوضع لم يقتصر على العراق وحده ، بل يشمل كل اجزاء الامبراطورية العثمانية بما فيها البلاد العربية كلها ٠٠٠

وبعد سقوط بغداد صرنا نتأهب للرحيل عن بعقوبة ، اذ كنا ننتظر بين ساعة واخرى تقدم الانكليز لاحتلالها ، وقرر والدي ان يترك كل افراد عائلتنا في قرية الهويدر ، القريبة من قصبة بعقوبة ، وهكذا رحلناهم الى هناك برعاية المرحوم الحاج عبد اللطيف القره غولي (١) وكان ذلك في صباح يوم ١٢ اذار ١٩١٧ ، واخذنا نجمع بعد ذلك حوائجنا لمغادرة قصبة بعقوبة في صباح اليوم التالي ١٣ اذار ٠٠٠ وفي عصر يوم ١٢ اذار بانت في الضفة الغربية من نهر ديالي اربع سيارات مصفحة انكليزية يظهر انها قدمت لغرض الاستكشاف لا غير ، اذ فتحت نيران رشاشاتها نحو الضفة المقابلة من غير هدف معين مقصود، ولما لم تر اية حركة من الطرف الاخر ، قفلت عائدة الى بغداد ٠٠ الا ان وصول هذه المصفحات وفتحها النار على بعقوبة اجفل الناس وجعلهم يتراكضون من هنا الى هناك بغير هدى قلقين مضطربين ٠

بتنا ليلتنا في احدى الخانات على ان نسافر في صباح اليوم التالي ومعنا كل الموظفين ، عدا عدد ضئيل فضل البقاء لاسباب

---

(١) وفي الواقع انهم كانوا في رعاية كل سكان الهويدر ٠٠ اذ كان اهل الهويدر قاطبة ، يرعون افراد عائلتنا ويعطفون عليهم ويبذلون كل تضحية ممكنة ليخففوا عن وحدتهم وكربتهم فجزاهم الله عنا خيرا وبارك الله فيهم ٠٠٠

معظمها مشروعة ··· ان اكثر الموظفين تهيأوا للهجرة بدون عوائلهم ـ مثلنا ـ والبعض اصطحب كل افراد عائلته معه ··· وكانت وسائط النقل مفقودة او نادرة وبحكم المفقودة · ولم يكن تحت ايدي الموظفين المهاجرين وعوائلهم سوى عدد ضئيل من الحمير وبضعة ثيران ··· فالقائممقام مثلا كان يسير ماشيا ، والقاضي كان على ظهر ثور ، وبعض النساء والاطفال كانوا يمتطون الحمير ، والاخرون يمشون خلفهم سيرا على الاقدام · ومن حسن الحظ كان لوالدي يومئذ فرسان اصيلتان ، امتطى هو واحدة وركبت انا الثانية ··· ومع هذا كنا نترجل بين حين واخر وندعو الاخرين للركوب مساعدة لهم ، وكنا نشعر (والدي وانا) عندئذ ، بشيء من راحة الضمير لاننا نقوم بواجب انساني نحو اخوان لنا في المحنة ···

غادرنا بعقوبة في الصباح الباكر من يوم ١٣ اذار ١٩١٧ وبعد مسيرة دامت حوالي سبع ساعات بتنا ليلتنا في خان مهجور في « ابي جسرة » وليس مع كل منا الا وسادة واحدة وغطاء واحد ·· ولا ازال اتذكر تلك الليلة الاليمة : اضطجعت على نصف الغطاء وتغطيت بالنصف الثاني ، وقد ربطت رسن فرسي بيدي اسوة بوالدي خوفا من سرقتها من قبل اللصوص وقطاع الطرق ، وما اكثرهم في تلك الايام الحالكة ·· ورغم متاعب السفر لم يغمض لي جفن طوال الليل ، ولم اذق طعم الكرى وبقيت ساهدا حتى الصباح ··· والقلق على مصير عائلتنا يساورني والالم يحز في قلبي على ضياع وطني ، والبغضاء تتزايد في نفسي ضد الطامعين المستعمرين من صانعي الحروب

وسفاكي الدماء اولئك المجرمين الذين لا يخافون الله ولا يردعهم وازع ديني او اخلاقي ...

بزغت الشمس ، واخذنا نستعد لمتابعة السير نحو شهربان ، وما كدنا نتقدم بضع خطوات حتى فوجئنا بعويل واستنجاد من بعض الاعراب المجاورين لقرية ابي جسرة ، ولحسن الحظ كان يرافقنا عدد من افراد الدرك « جندرمة » ومفرزة من الجيش التركي . وبعد لحظات فهمنا ان جماعة من قطاع الطرق هجموا على القرية محاولين نهبها .. ويحتمل انهم كانوا يقصدوننا بالذات لتجريدنا مما نملك والعودة الى ديارهم بغنائم وافرة من مال وسلاح وعتاد ، ولكن القوة المسلحة التي كانت ترافقنا ، جبهتهم بنار حامية فتراجعوا مدبرين خاسرين ، ووقانا الله شر المعتدين .. وبعدما قطعنا مسافة ساعتين سيرا ، وصلنا الى موقع يسمى « عرب حسين الجواد » . ورأينا هناك عددا من الرجال المسلحين واقفين على جانبي الطريق فأخذوا يفحصوننا بنظرات مضطربة ، حادة ومريبة . ولما تبينوا القوة التي معنا وجموا واستكانوا ولم تبدر منهم اية محاولة للاعتداء علينا . بل صاروا يجاملوننا ويرحبون بنا ويظهرون استعدادهم للقيام بأية خدمة ممكنة لنا ... ولكننا فهمنا من بعض الناس هناك ، ان هذه الجماعة كانت ايضا من قطاع الطريق الذين ينتظرون المارة فان وجدوهم ضعفاء سلبوهم كل ما يملكون ، وان كانوا اقوياء عرضوا عليهم الخدمة والقيام بواجب الضيافة ... وهم في الوقت نفسه يتصيدون بعض افراد الجيش او الدرك يقتلونهم ويستحوذون على ما لديهم من سلاح وعتاد ..

وبعدما غادرنا هذا المكان وسرنا حوالي ثلاث ساعات وصلنا الى ناحية شهربان التي كانت قائمة على قـدم وساق ، فأشراف القصبة اتفقوا على توطيد دعائم الامن في قصبتهم . وألفوا لهذا الغرض جماعات مسلحة من الشباب تجوب الاطراف آناء الليل واطراف النهار لصد غارات العشائر والوقوف في وجه كل مـن يفكر بالسلب والنهب او يحاول اقلاق الراحة العامة بما يصدر عنه من اعمال الاستفزاز والاعتداء ... ان مثل هذا العمـل المثمر الجبار كان في الواقع فخرا خالدا لاهالي شهربان ومدار حديثنا وموضع اعجابنا وتقديرنا ، وشكرناهم على هذه الهمة واطرينا رجولتهم وصدق عزيمتهم وجليل اهتمامهم بالصالح العـام ...

وأرى لزاما علي وانا ادون مذكراتي عن تلك الايام الحالكة السواد ، ان اذكـر باعجـاب اريحية اهالي شهربان .. انهـم استقبلوا المهاجرين من بعقوبة بصدور رحبة ، واستضافت كل عائلة في القصبة عددا من المهاجرين ، واكرمت مثواهم وانزلتهم في دارها ضيوفا معززين ، وقامت بمقتضيات حسن الضيافة على اكمل وجـه ممكن ... وكنـا (والدي وانا) ضيفين في دار الوجيه خورشيد جلبي ، وقد رأينا من هذا الشخص النبيل كرما لا يوصف وترحيبا صادقا منقطع النظير .. انـه الان لا شك يرقد هانئا تحت التراب .. رحمة الله عليه في نعيم جناته .. فله منا جزيل الشكر ..

بقينا في شهربان خمسة ايام كاملـة .. وتقرر ان نستأنف سفرنا في يوم ١٩ اذار ١٩١٧ ، واجتمعنا في مقر منزل الجيش ، وكان الموظفون العسكريون والمدنيون في شهربان منهمكين فـي

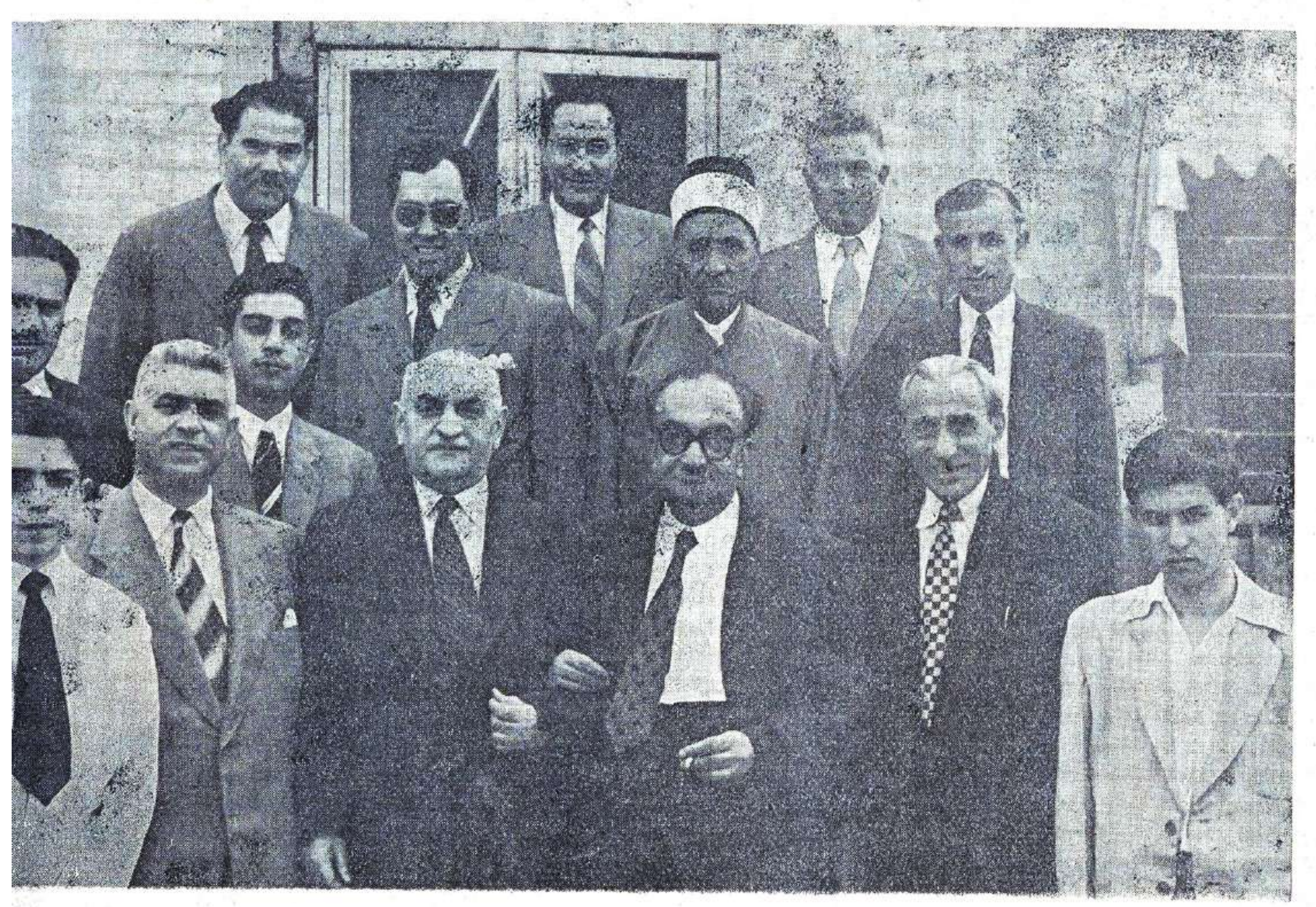
حرق الاوراق والملفات الزائدة في هذا المقر ٠٠٠ وبينما كنا نستعد للسفر واذا بطائرة انكليزية تحوم فوق رؤوسنا ، فانتابنا شيء من الخوف والاضطراب ، اذ كنا نتوقع ان ترمينا ببعض قنابلها ، ولكنها لم تفعل ٠٠ ويظهر انها كانت تطير بقصد الاستكشاف ٠٠٠ وبينما نحن في حالة من القلق والهيجان واذا بوالدي يتقدم الي ، وينصحني ان أعود الى بعقوبة تجنبا لي من المتاعب والمشاق التي سنلاقيها في سفرة مجهولة العواقب، ورفضت هذا التكليف بكل اصرار وقلت له : هذا امر في حكم المستحيل علي تطبيقه ، لاني لا ارجع وسأسير معكم واشارككم حياتكم في السراء والضراء ، ولا سيما وانا لا استطيع رؤية وطني العزيز اسيرا بيد الانكليز تلوث تربته المقدسة اقدام جنودهم القذرة ، وهم يسومون شعبنا سوء العذاب ويتحكمون في رقابهم كالعبيد ، بل اذل من العبيد ٠٠ فتراجع والدي عن رأيه ، وقد رأيت عينيه قد اغرورقتا بالدموع من شدة التأثر والانفعال ٠٠٠ وهكذا ، اخذنا طريقنا ووجهتنا كركوك ٠ وكان علينا ان نعقب الخط التالي في سيرنا : بروانة ، شروين ، دلي عباس ، جسر نارين ، قره تبه ، كفرى، طوزخورماتو، داقوق، تازه خورماتو، كركوك ٠٠ وعلى طول هذه السفرة واجهتنا مصاعب ومشاق اليمة لا تحتمل ٠٠٠ ففي بروانة مثلا كان علينا ان نعبر نهر ديالي ، ووسائل العبور هناك مفقودة ، عدا قفتين اثنتين تعود ملكيتهما الى الحكومة ، فعبرت بهاتين القفتين كل القافلة وما تحمله معها من حاجات وارزاق واستغرق ذلك نهارا كاملا ٠٠ اما فرسانا وسائر الحيوانات التي معنا فقد عبرت النهر سباحة ٠٠٠ على اننا استأجرنا خوفا على فرسينا الاصيلتين شابا ركب

على ظهر احداهما وقاد الثانية الى جنبه وعبر النهر بكل خفة ومهارة ، وقد نقده والدي « مجيدي » (١) ٠ وكان ذلك اجرا سخيا بالنسبة لذلك الوقت ٠٠٠

وبعدما عبرنا نهر ديالي اصبحنا في مأمن من كل خطر ، فلا الجيش الانكليزي يتعقبنا ، ولا الطيارات الانكليزية تهددنا ٠ ولكننا جوبهنا بصعوبات جمةفي تأمين الطعام لنا اينما حللنا ... فالاسواق في كفرى مثلا كانت مقفلة ، والحوانيت المفتوحة لا تحتوي الا على اموال تافهة لا تسمن ولا تغني من جوع ، ومرد ذلك يرجع الى ان الباعة ، كانوا يرفضون العملة الورقية التركية « بنكنوت » واخلوا حوانيتهم ونقلوا بضائعهم الى البيوت ٠٠٠ واضطررنا تجاه هذه الحالة ان نطوف بالبيوت نتوسل الى اصحابها ان يبيعونا شيئا من الخبز والجبن والبيض ، ولم يكونوا ليسلمونا شيئا مما تبقى قبل ان يقبضوا الثمن بعملة فضية ٠٠ صحيح ان لوالدي اقارب والدته في كفرى ، حاولنا ان نتصل بهم وسعينا كثيرا الى الوصول اليهم لكننا لم نجد لهم اثرا ولم نعثر على احد يدلنا عليهم ٠٠٠ ويظهر انهم سمعوا خبروصولنا واتوا الينا صباح اليوم التالي وعانقونا واظهروا اسفهم على عدم معرفتهم بنا الا في صباح هذا اليوم ٠٠ وكانوا قد حملوا معهم من الطعام لنا ما يكفينا مدة لا تقل عن ثلاثة ايام ٠٠٠ واخيرا ، وبعد سفر دام أربعة عشر يوما وصلنا الى كركوك في عصر يوم ٢٧ اذار ١٩١٧ ٠

---

(١) المجيدي ، سكة فضية تعادل خمس الليرة الذهبية ٠٠٠



القائم مقام فايق في دار أخي أدهم مشـــتاق سنة ١٩٥٤
الصف الاول من اليسار الى اليمين : باسم مشتاق ، طالب مشتاق ، فائق بك ، فخري الحجيل ، ابراهيم الواعظ ، سالم مشتاق . الصف الثاني من اليسار الى اليمين : خالد الجوربه‌جي ، حازم مشتاق ، بهاء عوني ، السيد حبيب العيدروسي ، ثابت مشتاق . الصف الاخير من اليسار الى اليمين : الدكتور عبد الرحمن الجوربه‌جي ، اسماعيل الجوربه‌جي ، أدهم مشتاق .

لقاؤنا مع فائق بــك خورشيد

عندما كان والدي كاتب تحريرات قضاء بعقوبة ، واعلنت الحرب العامة الاولى ، استدعي الى الخدمة العسكرية كجنـدي احتياط .. ولكن فائق بك وقد كان قائم مقاما في بعقوبة انذاك توسط لدى بعض المقامات العسكرية العليا واخذ موافقتها على ابقائـه في امرة القائم مقام واستمراره عـلى عملـه ــ كاتب تحريرات ــ وهكذا تخلص والدي من الخدمة العسكرية الفعلية، وان كان قد بقي اسمه مسجلا جندي احتياط في دائرة تجنيـد

بعقوبة ... ولما وصلنا الى كركوك كان لزاما عليه ان يراجع الجهة العسكرية ويتلقى تعليماتها للالتحاق بخدمة الاحتياط.. ولكن الحظ ساعدنا واراد الله لنا الخير فاحاطنا بلطفه وكريم عنايته ... اذ لم تطأ اقدامنا ارض كركوك حتى سمعنا ان فائق بك قد وصل اليها قبل ايام وتسلم فيها وظيفة المتصرف .. كان هذا النبأ بالنسبة لنا بشارة عظمى وهرعنا حالا الى دار المتصرفية، وبعد قليل كنا بباب غرفة المتصرف ، وكان في الباب عريف شرطة لا يسمح بالدخول الى المتصرف الا باذن منه .. فكتب والـدي اسمه على ورقة صغيرة وطلب الى العريف ان يسلمها المتصرف، وبعد لحظات فتح الباب واستقبلنا فايق بك بترحاب حار وعطف كريم وبشاشة تنم عن حب وتقدير ... وبعد السؤال عـــن الصحة والاستفسار عن الخاطر ، قصصنا عليه كل ما لقيناه من المتاعب والمشاق اثناء رحلتنا فقال : والان ؟ .. اجاب والدي انني كما تعلم جندي احتياط وعلي ان اراجع المقامات العسكرية للالتحاق بالجهة التي تعينها لي .. فقال فائق بك لا تستعجـل واترك الامر لي ادبره واعطيك القرار النهائي بعد بضعة ايام ... شكره والدي على هذا العطف الكريم والشعور الانساني العظيم وودعناه وعدنا الى «المنزلخانه» التي استأجرنا فيها غرفة لسكنانا ...

وبعد ثلاثة ايام ، استدعى فائق بك والدي واخبره بانــــه حصل على أمر من القائد خليل باشا ينص على ترك محمد مشتاق افنــدي كاتب تحريرات قضاء بعقوبــة في امرة متصرف اللواء وعدم ملاحقته كجندي احتياط ... وفي نفس ذلك اليوم صدر أمر بتعيين والدي رئيسا للكتاب في مجلس ادارة اللـــواء ... وهكذا انقذنا فائق بك من متاعب جمة ، ومصير مجهول فأمن لنا رفاه العيش وحياة الاستقرار ...

كان فائق بك هذا من خيرة الموظفين الاداريين الذين اتوا الى العراق ··· جاء قائم مقاما لقضاء بعقوبة في سنة ١٩١٢ على ما اتذكر ، وكنت لا ازال انذاك تلميذا في المدرسة الرشدية في بعقوبة ، وكان يأتي الى مدرستنا كل يوم تقريبا للتفتيش ·· يدخل الى الصفوف ويمتحن الطلاب ويراقب سير التدريس ويأتي الينا بنسخ من مجلة «التدريسات الابتدائية» التي كان يصدرها يومذاك ساطع الحصري في استانبول ويحفظنا بعض المقطوعات الشعرية منها ··· كان حريصا جدا على ان يسير العمل في المدرسة سيرا منتظما ، وان يقوم المعلمون بواجباتهم على اكمل وجه ، وكان المرحوم حسن غصيبة مدير مدرستنا يومئذ وكان مدمنا على شرب الخمر والسهر الى ساعات متأخرة من الليل ، وفي الغالب لا يحضر الدرس الاول في الصباح ، وقد لاحظ فائق بك هذا الاهمال من المدير ، فلفت نظره مرة ومرتين ، وفي الثالثة عيل صبره وشتم حسن غصيبة غاضبا وضربه بعصاه على كتفه مرتين وقال له : اذا لم تواظب على الدوام في الوقت المناسب يوميا سأطردك من المدرسة واعيدك الى بغداد بدون انذار ···

وقد عرف كل اهالي ديالي فائق بك القائم مقام اداريا حازما، وموظفا نزيها ، ومساعدا للضعيف المغدور، وعدوا لدودا للقوي الظالم ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، وكان عينا ساهرة لا يغمض لها جفن عن مراقبة كل شيء في مركز القضاء وخارجه ، وقد بذل جهودا جبارة في اعمار مركز القضاء ، ومن اعماله العمرانية: انشاء مدرسة عصرية في بعقوبة ، وفندق كبير استعمل بعد السقوط دائرة لمديرية الشرطة وهو الان مركز لبلدية اللواء ··· وهو اول من اسس ماكنة لطحن القمح وعمل الثلج في بعقوبة وجدد الجسر على نهر ديالي وفتح شارعا ـ اثناء الحرب العالمية الاولى ـ من منتصف شارع الجسر مخترقا البساتين الواقعة في الجهة الشمالية من مركز القضاء ، وكان يمتد هذا

الشارع الى الطريق العام الذي يؤدي الى شهربان (١) ٠٠ وانشأ عدة قناطر خشبية على جدول خراسان وكانت معظم هذه القناطر قبلا عبارة عن جذعين من النخل ملتصقين بعضها ببعض ٠٠٠ وكذلك بنى قنطرة جميلة من الآجر على جدول خراسان بالقرب من «شريعة البيضة» كي تمر عليها نقليات الجيش الالية مخترقة الشارع الجديد في طريقها الى شهربان (٢) . وخلاصة القول انه قام باعمال عمرانية شبيهة بما قام بها مدحت باشا اثناء ولايته على بغداد ٠

ان معظم اصدقاء هذا القائم مقام الفذ في لواء ديالي قد لقوا ربهم ، ولكن اولادهم واحفادهم لا يزالون يذكرون فائق بك وان لم يعرفوه شخصيا ٠٠ وانهم قد سمعوا الكثير عنه من ابائهم او أجدادهم وهم يكنون له في قلوبهم كل محبة واعجاب وتقدير ٠٠

انه زار بغداد في ربيع سنة ١٩٥٤ ونزل ضيفا كريما عزيزا علي وبقي في هذه الديار التي يحبها حبا جما مدة شهرين ، رافقته في خلالهما اثناء زيارته بعقوبة ٠٠٠ وعندما سمع اهالي بعقوبة بمجيئه الى بغداد ورغبته في زيارة بعقوبة أتى منهم وفد في حوالي عشرين سيارة واصطحبوه من بغداد الى بعقوبة ٠٠٠ وكان يوم وصوله الى بعقوبة كعيد مرتقب استقبله الاهلون بكل حفاوة واكبار وتبجيل ، حتى ان اصحاب المقاهي صاروا يسقون موكبه وجميع المارة في الطريق القهوة بالمجان ٠٠ وكان هو يستقبل هذا التكريم بدموع الاعتراف بالجميل وكان يسير

(١) قام الموما اليه بفتح هذا الشارع ، كي لا تضطر الجيوش التركية التي تساق الى جبهة إيران ان تمر بداخل سوق بعقوبة ، حفظا لراحة الاهالي وتسهيلا لسير الجيش ٠

(٢) عند انشاء هذه القنطرة وضع في كل جانب من مدخلها لوحة من الرخام كتب على الجانب الايمن منها بالتركية (شارع خليل باشا) وعلى الجانب الايسر « من اثار القائم مقام فائق بك » ولكن حكومة الاحتلال رفعت بكل إسف هاتين اللوحتين ٠

ومنديله في يده يجفف به دموع عينيه ، دموع الشعور براحة القلب واطمئنان الضمير ٠٠٠ وقد اقام له الوجيه حسين علي الضامن في داره العامرة مأدبة غداء فاخرة دعا اليها كل اشراف القضاء ووجهائه ٠

ولما غادرنا بعقوبة في طريق عودتنا الى بغداد ودعه عدد كبير من الناس حتى الجانب الاخر من نهر ديالي ٠٠٠ وفي الطريق كان يتكلم والتأثر باد على محياه مما رأى وسمع ٠٠٠ فقلت له: ليس هذا بالامر العجيب يا سيادة البيك ،انك تحصد ما زرعت وان اهالي بعقوبة لم ينسوا اياديك البيضاء على منطقة ديالي برمتها ٠٠

لم يقتصر حب فائق بك على العراق واهل العراق فحسب ، بل كان يشمل هذا الحب كل البلاد العربية وكل العرب ٠ اما حبه جمال عبد الناصر وتثمين اعماله البطولية وتقدير خدماته ومساعيه في سبيل الوحدة العربية فيفوق كل تثمين وتقدير ٠٠ كتب لي في احدى رسائله يقول : « ان جمال عبد الناصر هبة من عند الله للامة العربية ، وعلى كل فرد عربي ان يلتف حول هذا البطل ويسير في ركابه ٠٠٠ انه بسمارك العرب، وانني لا اشك في انه سيوحد كلمة العرب حتما لانني اتوسم فيه الجرأة الكافية وبعد النظر والاقدام وصدق العزيمة وكل الصفات التي يجب ان تتوفر في زعيم عظيم خلق ليقود الجماهير من نصر الى نصر ٠٠ »٠

خدم فائق بك في العراق، مدة تقارب الستة اعوام ، قائم مقاما في بعقوبة ، ومتصرفا في العمارة ، وفي الديوانية وقبيل سقوط بغداد عين وكيلا لوالي بغداد ، وبعد السقوط عين متصرفا في كركوك ، وبعد ذلك عين واليا لولاية ملاطية في الانضول ثم نقل الى ولاية « اردو » على ساحل البحر الاسود ، وانتخب هناك لعضوية المجلس الوطني الكبير في دورته الثانية ممثلا ولاية

اردو . واخيرا انسحب من الميدان السياسي وانتخب رئيسا لمجلس ادارة شركات السكر في استانبول ثم تقاعد نهائيا واعتكف في داره ، وتوفاه الله في يوم ٢٥ نيسان ١٩٦٧ .

دخولي الى المدرسة السلطانية في كركوك (١) وسفري الى استانبول

بعدما استقر والدي في كركوك صرت افكر في مستقبل دراستي، ورأيت لزاما علي ان اسرع في تسجيل نفسي في المدرسة السلطانية في كركوك قبل فوات الاوان ... وهكذا تم تسجيلي في الصف العاشر وفق شهادة النقل التي احملها من مدرستي في بغداد . وقد نجحت الى الصف الحادي عشر بعد الامتحانات النهائية ... وبتوسط المتصرف فائق بك ومساعيه وافقت وزارة المعارف في استانبول على تسفيري اليها وادخالي الى احدى المدارس السلطانية الداخلية على نفقة الحكومة ، وفي حوالي منتصف أيلول ١٩١٧ غادرت كركوك بعربة خشبية يجرها ثوران ، خصصتهما لي الجهة العسكرية بصورة استثنائية ، وكان سائق العربة جنديا تركيا من الانضول كريم النفس هادىء الطبع ورعا تقيا لا يترك صلاته حتى في هذه السفرة الشاقة ... وفي تلك الاثناء صادفت السيد سعيد فيهم (٢) في كركوك ، وكان قد

---

(١) ان المدارس السلطانية كانت مدارس ذات ١٢ صفا وتعتبر الصفوف الثلاثة الاولى دراسة اولية والصفوف الثلاثة الثانية دراسة ابتدائية ، اما الصفوف الستة الباقية فتشمل الدراسة المتوسطة والثانوية .

(٢) مدير الدائرة الثقافية بالجامعة العربية سابقا .

عين مديرا لاحدى المدارس الابتدائية النموذجية في الانضول ، واتفقنا على السفر بهذه العربية سوية ، وهكذا كان ...

قطعنا المسافة بين كركوك والموصل في اربعة ايام .. وبعد وصولنا الى الموصل راجعنا قائد المنزل العسكري ورجوناه ان يساعدنا على السفر الى حلب بأسرع وقت ممكن ، وبعدما اطلع على الوثائق التي نحملها وتأكد من صحتها عين لنا يوما للسفر في احدى السيارات العسكرية الكبيرة التي كان يقودها يومئذ سواق نمساويون ، وقد توقفت هذه السيارات في محل يدعى « تل هيلف » وهو يقع بعد قصبة نصيبين بمسافة بضع ساعات بالسيارة ، ومن هناك يبدأ الخط الحديدي الى حلب . وفي تل هيلف تلاقينا مع المرحوم عبد العزيز بك رئيس المحاكم في بعقوبة وزوجته وولده كمال عزيز صديق العمر كله في بعقوبة وفي المدرسة الاعدادية في بغداد ، وقد دامت صداقتنا الى يومنا هذا ولا نزال نتخابر بين حين واخر ، هو في استانبول وانا في بغداد ..

كانت « تل هيلف » عبارة عن ارض صحراوية قاحلة لا اثر للعمران فيها ... وكانت محرومة حتى من محطة للقطار ، وليس فيها سوى بعض الخيم التي كان يؤمها بعض موظفي القطار ومستخدميه . سألنا عن موعد سفر القطار فقيل لنا انه يأتي مرتين في الاسبوع ، وقد غادر هذه المحطة يوم امس وعليكم ان تنتظروا مجيئه بعد ثلاثة ايام ... رباه ... ما هذا الحظ العاثر؟ اذا علينا ان نبقى في العراء ثلاثة ايام نقاسي نهارا حر الشمس

ونعاني ليلا زمهرير الهواء ، وعلى كل فنحن تجاه امر واقع لا اختيار لنا فيه ولا قدرة لنا على تغييره . سلمنا امرنا الى الله ، واخذنا نفتش عن بقعة مناسبة تتخذها مقاما لنا حتى يأتي القطار ... وبينما كان كل منا يشكو لصاحبه ما قاساه من شظف العيش والمتاعب والحرمان منذ مغادرتنا بغداد حتى يومنا هذا واذا بصافرة تشق عنان السماء « وقاطرة ترمي الفضا بدخانها » كما يقول المرحوم معروف الرصافي شاعرنا العظيم واذا بقطار يتقدم نحونا وهو يطوي الارض طيا ... هرولنا الى خيمة المحطة وسألنا بلهفة عن سر مجيء القطار في هذا الوقت غير المنتظر فقيل لنا : ان هذا قطار خاص ينقل الجنرال الالماني فالكنهايم القائد العام لجيش الصاعقة الذي انيطت به مهمة استرداد بغداد (١) . وقد اتى لتفتيش هذه المنطقة وسيقفل راجعا الى حلب بعد بضع ساعات .. وتساءلنا : الا يمكن السماح لنا بالسفر به ونحن على هذه الحال من البؤس والشقاء ؟ .. وكان الجواب : هذا من رابع المستحيلات ... عدنا ادراجنا واخذنا نفكر بمشروع يكفل لنا السفر بهذا القطار ، واخيرا اتفق الرأي على ان اذهب بنفسي الى مرافق الجنرال واشرح له وضعنا ، واستعطفه للسماح لنا بالسفر في احدى عربات القطار الى حلب ... ذهبت وقلبي يخفق بشدة والامل يشجعني ويدفعني الى الاقدام بجرأة للقيام بهذه المهمة الشاقة وانا لم ازل شابا لا يتجاوز عمره السبعة عشر عاما ... دخلت الى خيمة المرافق واديت له التحية العسكرية ، وكنت ارتدي ملابس الكشافة والانورية (٢) على رأسي ، وملابس الكشافة كانت لا تختلف عن الملابس

---

(١) ان قيادة هذا الجيش ، انيطت بعدئذ بمصطفى كمال (اتاتورك) .

(٢) « الانورية » كانت لباس الرأس للجندي التركي ، ابتدعه انور باشا وزير الحربية خلال الحرب العظمى الاولى وهي مصنوعة من القماش الخاكي كخوذة مخروطية الشكل .

العسكرية ، فرد المرافق تحيتي بلطف وادب وكان عقيدا تركيا ، سألني : ما خطبك يا بني ؟ ... شرحت له وضعنا جميعا وابرزت له الكتاب الذي احمله من متصرف كركوك الى وزارة المعارف في استانبول ، وقلت له : اننا هنا نقيم في العراء لا خيمة لنا ولا مسكن ، والمدارس قد فتحت واخشى ان تأخرت اكثر من هذا ، ان يفوت الوقت علي واحرم من سنة دراسية كاملة ، وهذه خسارة اعتقد انكم لا ترضونها لشاب مهاجر مثلي ؟ كان المرافق يصغي الى كل حرف من كلماتي ، وقد لمحت ان علائم التأثر بانت على محياه ... ففكر لحظة ثم نهض وقال لي : انتظر هنا وسأعود اليك توا ... وترآى لي انه ذهب ليستأذن الجنرال فالكنهايم بهذا الامر ... وعاد الى الخيمة بعد دقائق قليلة والبشر يطفح في وجهه .. وقال : هيا استعدوا للسفر ، وسنخصص لكم احدى العربات التي يمكنكم استعمالها منذ الان ، فالقطار يتحرك في الساعة الثامنة ليلا ... ونادى احد الضباط وزوده بتعليمات لمساعدتنا في تخصيص احدى العربات والسماح لنا بالصعود اليها منذ الان ... عدت الى جماعتي ، وكادوا يطيرون فرحا بما اتيتهم من بشرى لا تقدر بثمن في مثل تلك الظروف الحرجة ، ونقلنا امتعتنا وصعدنا الى العربة المخصصة لنا بمعرفة ذلك الضابط التركي وصرنا ننتظر ساعة الحركة بشوق واستعجال .. تحرك القطار في الموعد المعين ووصلنا الى حلب في اليوم الثاني قبيل الظهر . كانت حلب مزدحمة بعشرات الالوف من الجنود والضباط والمهاجرين وغيرهم ... تجولنا ساعات عديدة في عشرات من الشوارع والازقة نحاول ان نجد لنا مأوى في فندق او خان او بيت او اي مكان يمكن ان نقيم فيه ، وكنا نتلقى جوابا واحدا : « ليس لدينا اي مكان شاغر » ... واخيرا وجدنا ضالتنا في بيت قديم شبيه بخرابة فحططنا رحلنا في غرفة

عفنة ظلماء ليس فيها الا نافذة صغيرة واحدة تطل على فناء الدار ....
ومع ذلك حمدنا الله على هذا النجاح الذي يعتبر باهرا في تلك الظروف ...كان همنا الاول ان ندبر امر السفر بالقطار . وكانت السكك الحديد يومئذ في امرة السلطة العسكرية ولا يسمح بالسفر عليها الا بموافقة خاصة من هذه السلطة التي تتمثل في شخص مدير المحطة وهو ضابط تركي برتبة عقيد .

ذهبنا اليه ، وعرضنا وضعنا عليه .. انه كان ذا مزاج عصبي حاد وطبع خشن ، لا اثر للمجاملة في كلامه ، غليظ القول متجهم الوجه ، له عينان تلحظان شزرا وقلب اغلظ من اكباد الابل كما يقولون ... تردد في بادىء الامر ، ثم لان قليلا ووعدنا بايجاد محل لنا في القطار في خلال اسبوعين اثنين ... استعطفناه وصرنا نتوسل اليه ، ويشرح كل منا وضعه : فهذا عزيز بك رئيس محكمة وهو مضطر الى الالتحاق بوظيفته التي عين فيها في ارزنجان بأسرع وقت ممكن ، وهذا سعبد فيهم عين مديرا لاحدى المدارس في قلب الانضول والسنة الدراسية قد بدأت واذا لم يلتحق بعمله بسرعة يفقد وظيفته ويصيبه خسران بليغ ، اما انا فطالب في المدرسة السلطانية والمدارس فتحت وعلي ان اسرع بالدوام والا فقدت سنة واحدة من عمري ، واخيرا وبعد كلام طويل والتماس كثير وافق على تسفيرنا بعد ثلاثة ايام ، وزودنا حالا ببطاقات في عربات من الدرجة الثالثة (١) ... غادرنا حلب وتحرك بنا القطار في الموعد المعين ، وكنت

(١) كان الخط الحديد العريض يومئذ غير كامل بين حلب واستانبول وكان المسافرون يتركون عربات القطار في موقع بالقرب من جبال طوروس ويركبون في عربات صغيرة تجرها قاطرة صغيرة ايضا حتى يصلوا الى اولوقشلة ثم ينقلون الى الخط العريض ويستأنفون السفر حتى محطة حيدر باشا في استانبول .

طول الطريق غارقا في تأملات وعوامل نفسية متناقضة .. كنت اشعر بالبهجة والاغتباط عندما افكر بأنني سأرى استانبول مقر الخلافة ومدينة الآمال والاحلام الجميلة ... كانت استانبول كعبة رجال العراق الطامحين فمن اراد وظيفة مرموقة ، ملأ حقيبته بالهدايا الثمنة وهرع الى استانبول ، ومن اراد ترقية وترفيعا ملأ جيبه بعشرات الليرات الذهبية وجاء استانبول ، ومن اراد من العوائل الموسرة ان يثقف ولده ثقافة عالية اوفده مدللا ومعززا الى استانبول ، وكان اكثرهم يلتحق اما بكلية الحقوق او الملكية الشاهانه (كلية العلوم السياسية والادارية) كما نسميها اليوم ... اما العوائل الفقيرة فكانت تلحق ابناءها بالمدرسة الاعدادية العسكرية في بغداد ليتسنى لهم اكمال تحصيلهم العالي في الكلية العسكرية في الاستانة ويتخرجوا فيها ضباطا في الجيش العثماني بعد دراسة ثلاث سنين ... الا ان شعوري بالغبطة والابتهاج كان ينقلب فجأة الى الم مبرح ، وكآبةمريرة عندما افكر انه كلما تقدم القطار الى الامام ابتعد عن وطني العزيز وعائلتي الحبيبة واصدقاء لي في ارض الوطن كرام اعزاء ... وقد طفحت الكآبة في نفسي الى اقصى مدى بعدما فارقني رفاقي في السفر ، عبد العزيز بك وعقيلته وولده كمال عزيز صديقي . ومعهم ايضا سعيد فيهم ، في منتصف الطريق للالتحاق كل بوظيفته في بعض مدن الانضول ...

وفي خلال القسم الثاني من هذه السفرة تعرفت بشيخ وقور معمم ذي وجه وسيم تحيط به لحية كثة يغلب فيها البياض السواد ، ويستطيع ان يتبين المرء النبيه في هذا الوجه الوسيم كرم المحتد والخلق النبيل ... سألني هذا الشيخ الجليل عن وجهتي في السفر ، فرويت له قصتي بتفاصيلها واخبرته انني قاصد استانبول لاكمل دراستي فيها .. قال : وهل تعرف احدا هناك ؟ قلت : كلا .. ثم تأمل مليا ، وقال : ان مدينة استانبول مزدحمة الآن بشكل لم يسبق له مثيل . انها تعج بالالوف من الجنود

والضباط والمهاجرين ، وتكاد تكون كل فنادقها ومنازلها ومحلات السكن فيها طافحة بالسكان ، ومن الصعب جدا ان يجد المرء فيها موطىء قدم ... ومع ذلك سأقوم بمساعدتك ، ولن اذهب الى بيتي قبل ان اؤمن راحتك في مكان امين .

وصلنا الى محطة حيدر باشا في ساعة متأخرة من الليل وكانت البواخر التي تنقل الناس عادة من الضفة الاسيوية الى الضفة الاوربية قد توقفت عن السير بسبب انتهاء ساعات عملها ، واضطررنا الى العبور بزورق عادي وخرجنا في « سركه جي » وهو ميناء صغير يقع في الضفة الغربية من خليج القرن الذهبي ، وتركنا حاجاتنا في مكان امين وطفنا بالفنادق في سركه جي ، واحدا بعد آخر .. صاحبي الشيخ الذي ارسله الله الي رائدا ومرشدا يسير بخطى سريعة ، وانا اكاد اهرول خلفه ... واينما ذهبنا ، واستفسرنا عن غرفة لاقامتي ، جوبهنا بجواب واحد : « آسفون .. لا شاغر لدينا » ... واخيرا قطعنا الامل وعدنا الى حاجاتنا وتسلمناها ، وقد استأجر هذا الرفيق العطوف ، الذي لا اعرف اسمه حتى الان ، عربة يجرها حصان واحد وأمر الحوذي ان يعبر الى حارة « بك اوغلو » ... فمررنا على الجسر المسمى « الجسر الجديد » الواقع على خليج القرن الذهبي ، واخذنا نعيد طوافنا بالفنادق حسب الترتيب ، وبعد ان امضينا حوالي ساعة واحدة ونحن نطرق باب هذا الفندق ونذهب الى غيره محاولين العثور على غرفة شاغرة وجدنا ضالتنا في فندق صغير ، فنقلت حاجاتي حالا الى غرفة صغيرة فيه تطل على شارع فرعي في حارة « بك اوغلو » وعندئذ ودعني الشيخ ورجع ادراجه .. فقبلت يده وشكرته على حسن صنيعه وعظيم مساعدته وعطفه ...

انني حتى وصولي الى استانبول لم اكن اعرف شيئا عن النور الكهربائي ، وقد رأيت المصابيح الكهربائية تتلألأ لاول مرة في حياتي في

شوارع استانبول وعماراتها الضخمة التي كانت تتمثل امام عيني بكل عظمة وفخامة ، وكنت اجيل الطرف في مختلف الشوارع معجبا منبهرا . وكانت هذه المناظر تبعث في نفسي فرحة لذيذة والى ثغري بسمة سعيدة لا تنسى ... كانت غرفتي مضاءة بمصباح كهربائي ، ولما حان الوقت لاستسلم للكرى استنجدت بخادم الغرفة ورجوته ان يعلمني كيف يطفأ المصباح الكهربائي وكيف يفتح ، فاعطاني درسا قصيرا بذلك وهو يبتسم ابتسامة ساخرة ثم ودعني ومضى في سبيله ...

افقت من نومي في ساعة متأخرة من النهار ، على صوت اجراس عربات الترام ودوي عجلاتها .. خرجت الى شرفة غرفتي ومن هناك رأيت الترام لاول مرة في حياتي ايضا ..

كان همي ، في اول يوم من حياتي في استانبول ، ان اجد رفاقا من العراقيين يساعدونني على مهمتي ويرشدونني الى حلها ... فأسرعت الى منطقة سركه جي وصرت افتش عن بغيتي في مختلف مقاهيها ، وقد كنت اسمع في بغداد ان معظم العراقيين يؤمون مقاهي سركه جي وبايزيد ، ووجدت ضالتي هناك عندما قابلت اولا المرحوم الملازم محمد صالح العزاوي وبعدئذ بعض طلاب المدرسة الحربية ، وفيهم اصدقاء لي من بغداد هم : المرحوم مظفر فهمي وحسين كيلان وحسين حلمي مصطفى السراج ، فرحبوا بي ، واكرموا مثواي وارشدوني الى كثير من الامور التي كنت في حاجة الى معرفتها .. وبعد ذلك راجعت وزارة المعارف وقدمت اليها الكتاب الذي كنت احمله من متصرف كركوك حول قبولي في احدى المدارس السلطانية الداخلية على نفقة الحكومة ... كانت قضيتي من اختصاص المدير العام للدراسة الثانوية ، ولما واجهني اخبرني انني وصلت متأخرا ولم يبق لديهم اي مكان شاغر في مدارس استانبول ، ولهذا السبب سيرسلني الى مدرسة ايزميت

السلطانية ، وهـي اقرب مدرسة الى استانبول • ان مدينة ايزميت هذه هي مركز لواء « قوجه ايلي » المستقل (١) • وتقع على خليج ايزميت المنبثق من بحـر مرمرة •

وبينما كنت استعد للسفر الى ايزميت ، سمعت ان غليوم الثاني قيصر المانية سيصل الى استانبول في زيارة رسمية بعد يومين •• وصممت على ان لا اغادر استانبول قبل ان اتفرج على المراسم الضخمة والاستقبال الفخم الذي سيجري بهذه المناسبة في محطة سركه جي ••• نهضت باكرا في يوم وصول القيصر وذهبت مسرعا الى محطة سركه جي ، وانتقيت مكانا يشرف على مرور الموكب بكل تفرعاته بسهولة تامة ، وبقيت واقفا في هذا المكان المختار اكثر من ثلاث ساعات ••• وصل القيصر حوالي الظهر بقطار خاص مقبلا من بلغارية ، وصدحت الموسيقى العسكرية بالسلامين الملكيين : الالماني والتركي •

وبعد قليل ظهرت طلائع الموكب : مفرزة من الخيالة بملابسها المزركشة ورماحها الطويلة ، تعقبهم عربة انيقة مفتوحة تجرها ستة جياد مطهمة ووراءها مفرزة اخرى من الخيالة مجهزة بنفس الملابس والرماح ، ثم عربات اخرى تحمل رئيس الوزراء(٢) والوزراء و كبار القادة من العسكريين.. وكان القيصر جالسا الى اليمين ، والسلطان محمد رشاد الى يساره وامامهما انور باشا وزير الحربية ببزته العسكرية ووجهه الوسيم وابتسامته

---

(١) اى ان متصرف اللواء مسئول تجاه وزارة الداخلية مباشرة وليس مرتبطا بولاية .
ان التشكيلات الادارية في الوقت الحاضر ألغت « الالوية » وجعلت الوحدات الادارية في تركية ثلاثا : ناحية ، وقضاء ، وولاية ...

(٢) الصدر الاعظم .

الساحرة .. وكانت الشوارع مكتظة بعشرات الالوف من الاهلين وهم يحيون الموكب بهتافات مدوية وتصفيق شديد ... انني لا ازال اذكر ذلك اليوم ، وكلما ذكرته تجددت في نفسي مشاعر الغبطة والسرور التي طغت على كل حواسي في ذلك اليوم المشهود ...

وبعد يومين اخذت القطار صباحا ، وكنت بعد ساعتين من الزمن في محطة ايزميت . وقد احببت ايزميت من اول نظرة .. انها مدينة ساحلية جميلة تحيط بها الخضر والبساتين من جميع اطرافها . مياهها عذبة (١) وهواؤها نقي يشفي العليل ، وتخترق سكة حديد بغداد ـ حيدر باشا قلب هذه المدينة وتضيف الى سحرها رونقا وجمالا ..

ذهبت الى المدرسة فور وصولي وسجلت طالبا في الصف الحادي عشر في نفس اليوم . وقد تهافت الطلاب علي من كل حدب وصوب يهنئوني بالسلامة ، ويرحبون بمقدمي وكأنهم يعرفونني منذ اعوام ...

ورغم ما اتصفت به مدينة ايزميت من رونق وبهاء ، بما حبتها الطبيعة به من جمال المنظر والخيرات ، فقد كانت محرومة حتى ذلك التاريخ من النور الكهربائي وكانت ازقتها وشوارعها تنار ليلا بالفوانيس كما كانت عليه الحال في بغداد . وكنا في المدرسة ندرس ليلا ، ونذاكر دروسنا في ضوء مصابيح نفطية كبيرة كانوا يسمونها « آويزة » ... ولم تنعم المدينة بالنور الكهربائي الا بعد سنة واحدة من وصولي اليها .

ولم تمض الا شهور قليلة حتى ذاع صيتي بانني اقوى طالب في

---

(١) يوجد في ايزميت منبع ماء اسمه «جنه» تنقل مياهه في الوقت الحاضر بأوان من زجاج ضخمة « قرابة » تباع في انقره وغيرها من المدن التركية

المدرسة في الانشاء التركي وكان الكثيرون من الطلاب يستكتبوني عرائض الى دائرة المعارف او شكاوى يقدمونها الى مدير المدرسة وغيرها من الامور التي تحتاج الى تنميق وتنسيق في الانشاء ... وبعد قليل من الزمن سعيت في تأليف جمعية اقتصادية تعاونية هدفها شراء ما يحتاج اليه الطلاب من القرطاسية على اختلاف انواعها وبعض الفواكه والمأكولات بالجملة وبيعها في داخل المدرسة بأرباح معقولة ، وكانت اسعار البيع في هذه الجمعية اقل بكثير مما هي عليه في الخارج .. وقد جعلنا الشركة ، شركة مساهمة واقتسم سهامها الاساتذة والطلاب كل حسب رغبته في الشراء .... وفي الاجتماع الاول الذي عقدناه لانتخاب الهيئة الادارية لهذه الشركة انتخب استاذنا في التاريخ رئيسا ، وانتخبت انا محاسبا ، وتلاني اربعة طلاب من الصفوف المتقدمة اعضاء في هذه الهيئة ... وبعدما استقرت امور هذه الجمعية التعاونية ولقيت نجاحا باهرا في اعمالها ، شجعني مدير مدرستنا المرحوم علي حيدر بك على تأليف لجنة للخطابة والتمثيل ، تهدف الى تعويد الطلاب على الخطابة وتمثيل بعض روايات تاريخية واجتماعية تلقن الطلاب شعورا وطنيا ، وتغرس في نفوسهم حب الفضيلة وتملي عليهم دروسا في الاخلاق العالية والسجايا الكريمة ... وفي حفلة الافتتاح ألقيت كلمة ارتجالية عقب عليها مدير المدرسة بالثناء والتقدير مما شجعني على ارتجال خطابات عديدة في اجتماعات لاحقة ...

ومما يجب ان اذكره في هذه المناسبة ان الصفوف الثلاثة الاخيرة من المدرسة كادت تخلو من الطلاب لان معظمهم سبق ان استدعي الى دورات ضباط الاحتياط ، فكان الصف العاشر مثلا لا يحتوي الا على ستة طلاب ، والصف الحادي عشر ضم ثلاثة طلاب فقط : طالبا واحدا (هو أنا) في الفرع الادبي وطالبين اثنين في الفرع العلمي ، اما الصف الثاني عشر فلم يبق له اثر في المدرسة لان كل طلابه كانوا في خدمة العلم ...

وبعد الثلث الاول من سنة ١٩١٨ شحت الارزاق في كل انحاء المملكة العثمانية ، وبطبيعة الحال ظهرت آثار ذلك في حياتنا المعاشية في داخل المدرسة ... فالخبز الذي صار يوزع علينا قلت كميته وتغير نوعه واصبح خليطا عجيبا يحوي مواد كثيرة عدا دقيق الحنطة .. وكان عبارة عن اقراص من مزيج مكون من دقيق الشعير والذرة وحشيش المكانس وكمية من الرمل ايضا مطبوخة في الافران .. وهكذا اصبحنا نشعر بالجوع ، ولا اتذكر انني نمت شبعان يوما واحدا الى نهاية السنة الدراسية ...

انتهت السنة الاولى بسلام ونجحت الى الصف الثاني عشر نتيجة الامتحان النهائي ... وعندئذ جبهتني مشكلة اخرى وكانت هذه صدمة هائلة بالنسبة الي ... فالطلاب جميعهم تفرقوا : منهم من ذهب الى بلده ومنهم من بقي في ايزميت بين اهله وعشيرته ... والمدرسة تغلق عادة مطبخها وليست هناك اية مخصصات تعطى للطلاب الداخليين الذين لا مأوى لهم في خلال العطلة الصيفية ... وقد بلغت بأنني استطيع ان ابقى في داخل المدرسة وأبيت فيها ولكن علي في هذه الحالة ان اعيل نفسي ... اذاً كان لزاما علي ان اشتغل وان اكسب قوت يومي بعرق جبيني ... وبعد تفكير طويل قررت ان اعمل في احدى المزارع القريبة من مدينة ايزميت ، وقد سمعت ان هذه المزارع بحاجة الى أيد عاملة بالنظر الى تجنيد عدد كبير من عمالها بسبب الحرب ... فذهبت الى اقرب واحدة منها وكانت تبعد عن مدينة ايزميت ساعة واحدة مشيا على الاقدام ... راجعت الشخص المسئول عن المزرعة ولا ادري اذا كان هذا الشخص مالكها او موظفا مأجورا فيها ، وعرضت عليه مشكلتي وقلت له انني افتش عن عمل يبعد عني الجوع اثناء عطلتي المدرسية .. ويظهر ان الرجل كان طيب القلب وتفهم حراجة موقفي بألم ... فاستجاب الى طلبي

وسألني عن الاجر الذي اطلبه .. قلت له اي اجر تنسبه انت ... قال : سنعطيك ليرة واحدة (١) في اليوم ورغيفا من الخبز وقطعة جبن وقت الظهر ، فهل يوافقك ذلك ؟ قبلت العرض طبعا بكل سرور ، واشتغلت في هذه المزرعة خمسة ايام .. ابدأ في العمل منذ الساعة السابعة صباحا وانتهى منه في الساعة الرابعة بعد الظهر ، مع فترة للاستراحة وقت الظهر مدة ساعة واحدة فقط .. اما عملي فكان نقل الحصاد من مكانه في عربات يدوية الى البيادر المخصصة له وكنت اقوم احيانا بحصد الزرع بالمنجل ايضا ، على ان هذا العمل الاخير كان اصعب علي من دفع العربات اليدوية الى البيادر طبعا ... ويظهر ان مدير مدرستي سمع بقصتي ، فلما عدت الى المدرسة في مساء اليوم الخامس من عماي قيل لي ان المدير يريد مواجهتي غدا ويطلب الي ان لا اذهب الى المزرعة بعد اليوم ...

وفي صباح اليوم التالي حضر المدير الى المدرسة واستدعاني الى غرفته ، ولما دخلت عليه سألني مبتسما : سمعت انك تشتغل الآن في احدى المزارع فهل هذا صحيح ؟.. فأجبته وقد طفح الدم في وجهي من شدة الانفعال : نعم يا سيدي ، وكيف استطيع ان احصل على قوت يومي اذا لم افعل ذلك ؟ فنظر الي طويلا وقال : انني اهنئوك يا ولدي على هذه الروح العالية ، فانت ذو عزم وجلد . وأبشرك بانك ستكون رجلا في قابل الايام ... واردف بعد ذلك : ان العمل الشريف وان كان مقبولا في كل مكان وفي كل زمان الا ان وضعك وضعف بنيتك لا يؤهلانك للاعمال الشاقة .

انني تكلمت مع متصرف اللواء في أمرك وقد امر المحاسب ان يجد

---

(١) كانت الليرة التركية الورقية تساوي سدس الليرة الذهبية في السوق آنئذ ...

لك عملا يكفل لك رغد العيش طول العطلة المدرسية ، فشكرت المدير على لطفه وعنايته واهتمامه في أمري ، وهرعت الى السراي طالبا مواجهة محاسب اللواء .. دخلت على المحاسب ، وكان رجلا اقرب الى الشيخوخة منه الى الكهولة ذا لحية كظة يكاد يقتسمها السواد والبياض على حد سواء .. رفع رأسه ونظر الي من وراء نظارته متسائلا : هل انت الطالب في المدرسة السلطانية والمهاجر من بغداد ؟ .. أجبته : نعم يا سيدي .. فقال : ان سعادة المتصرف أمر بتعيينك مأمورا للاعشار في قريتي « دوكمه جيلر » و « يني كوى » ثم اجلسني امامه واخذ يوضح لي معنى الاعشار ويشرح لي طريقة استيفائها واخيرا طلب الي ان احضر كل يوم ساعتين لمدة ثلاثة ايام ، كي أتمرن على كيفية مسك دفاتر الاعشار واصول احتسابها على يد احد الموظفين في قلم المحاسبة . ولما انتهت مدة تدريبي تسلمت الدفاتر والاوراق ـ الخاصة بمهمتي الجديدة وسافرت الى قرية « دوكمه جيلر » بعربة خشبية يجرها ثوران ، عائدة الى بعض القرويين من تلك القرية . وصلت قرية « دوكمه جيلر » وقدمت الامر الذى احمله الى مختار القرية واسمه عاشر أغا ، فرحب بي واظهر استعداده لمساعدتي بكل ما احتاج اليه ، ثم رافقني الى « دار الضيافة » وهي عبارة عن غرفة متوسطة ملحقة بصالة كبيرة يؤمها سكان القرية لأداء فرائض الصلاة .. وخاطبني قائلا : انك اليوم ستكون ضيفا علي تتغدى وتتعشى في بيتي ، ومنذ صباح الغد سيأتيك الطعام يوميا ثلاثة اوقات ، وقد فهمت ان اهالي القرية متفقون بينهم على ان يقوموا بتزويد الطعام اليومي للضيوف كل بدوره حسب الترتيب (١) . وبعد يومين

---

(١) ان في كل قرية من قرى الانضول غرفة خاصة تسمى بـ «دار الضيافة» وان اهالي القرية كلا بدوره يتناوبون تقديم الطعام الى الضيوف المقبلين على القرية ...

اثنين من وصولي ذهبت الى قرية «يني كوى» ومعناها بالعربية «القرية الجديدة» وهي تبعد عن «دوكمه جيلر» ثلاثة كيلو مترات لا اكثر .. وهناك زرت ايضا مختار القرية وسلمته امر تعييني واخبرته بأنني سأتخذ قرية «دوكمه جيلر» مقرا دائما على ان ازور قرية «يني كوى» مرتين في الاسبوع او ثلاثا لاقوم بما تقتضيه متطلبات وظيفتي هناك . وبعد ذلك ارسل في طلب وجهاء القرية وهيئاتها المختارة (الاختيارية) وتم التعارف بيننا وتغديت في دار المختار ، وبعد استراحة قليلة عدت الى قريتي الاولى مشيا على قدمي كما اتيت ...

كانت القريتان من توابع ناحية «ارميشة» التابعة لقضاء «آدا بازاري» أي «سوق الجزيرة» وهما واقعتان في وديان فسيحة تحيط بها الجبال المكسوة بالاشجار من جميع الجهات ... وفي اثناء اقامتي في هاتين القريتين واختلاطي بالقرويين فهمت اشياء كثيرة عن عاداتهم وعقائدهم ... انهم قبل كل شيء اناس طيبو السريرة ، بسطاء ، بعيدون عن ايقاع الاذى في اى كائن حي ، مسالمون متدينون وليست لهم اية فكرة عن القوميات — انهم يعتقدون ان الناس على وجه الكرة الارضية منقسمون الى طائفتين : ترك وكاوور «اي كافر» . فالمسلمون كلهم يدخلون في زمرة الترك وما تبقى من غير المسلمين فهم «كاوور» ... ولما علم أهالي القرية انني «عربي» من بغداد ازداد تعلقهم بي وتضاعفت محبتهم لي ، حتى ان البعض منهم كان يقبل يدي اجلالا وتكريما . واصبحت غرفتي في القرية موئلا لكل سكانها . واصبحت انا في القرية ليس مأمور اعشار حسب ، بل كاتبا ومرشدا ورائدا وطبيبا.. راجعتني يوما امرأة قروية وهي تحمل ولدها البالغ من العمر حوالي ست سنوات وكشفت عن فخذه وأرتني اياه وقالت انظر يا سيدي كيف انه متورم ، والطفل لا ينام ليله ونهاره من الحمى التي تلازمه والالام

المبرحة التي قلبت حياته الى جحيم .. انك رجل عربي ، واننا نعلم ان العرب هم من احفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأستحلفك بجدك العظيم ان تقرأ على فخذ هذا الطفل عل الله يشفيه اكراما لجاهك عنده ؟.. انني في الحقيقة تحيرت في امري فماذا اقول لها ؟.. اذا قلت لها الحقيقة سأخيب آمالها ، واذا فعلت مـا تريد اكون قـد قمت بدور المشعوذ والغشاش ... وعلى كل قررت ان اقوم بعملية قد تنتج فائدة وليس فيها ضرر على الاطلاق ... وفي تلك اللحظة تذكرت ان جدتي في بغداد كانت تصنع عجينا ثم تغطيه بزيت مغلي وتضعه علـى اصابع ارجـلنا او اي مكان اخر من جسدنا عندما كان يصيبه تورم . وعلى هذا ، قـرأت اولا بضع آيات قرآنية ونفخت على فخذ الطفل ، ثم أشرت عليها ان تعمل عجينة على طريقة جدتي وتضعها على الجزء المتورم من فخذ الطفل ثم تشده جيدا بقطعة قماش نظيفة ، وقلت لها : انني اتضرع الى الله ان يستجيب دعائي ، وارجو ان تزول هذه الاورام من فخذ طفلك ويستعيد صحته وعافيته بأذن الله ... وفي صباح اليوم التالي قدمت المرأة الي وهي مشرقة الوجه هاشة ومسكت يدي وقبلتهـا ، وقالت الحمدللـه على لطفه وكرمه فقد استجاب دعاءك واصبح الولد ذا نشاط عجيب ، فالحمى ولت والاورام خفت وستزول عنه كلية في خلال يومين باذن الله .. ثم اخبرتني بانها عملت صينية « بورك » وستقدمها لي هدية وقت الظهر اعترافا منها بالجميل ورجتني قبولها ..

Hamad Khalifa

من اول نظرة ،،،

كنت في احد الايام اتمشى بالقرب من نبع الماء الذى كانت تستقي منه القرية بأجمعها للشرب والغسيل ، وفي لحظة خاطفة لم ار نفسي الا وانا امام فتاة رشيقة القوام ذات عينين خضراوين وشعر طويل متهدل على كتفيها كالابريز •• كانت تسير باعتزاز وكبرياء كحمامة جميلة •• نظرت اليها فلم اقو على التمعن في وجهها وصعقت بجاذبيتها مـــن اول نظرة •• رجعت الى غرفتي وانا في حالة نفسية غريبة •• افكاري مشتتة ونفسي مضطربة وقلبي شديد الخفقان بحبها واصبحت عيناي لا تريـــان الا خيالها •• نمت تلك الليلة نوما متقطعا ، كثير الهواجس ، قلق البال •• وفي اليوم التالي لبيت رغبة في نفسي وسرت بخطوات سريعة نحو نبع الماء وانتظرت هناك حتى اقبل ذلك الملاك الطاهر • كانت تمشي مشيتهـــا المطمئنة كالمعتاد ، وبيدها اناء الماء ، شربت من النبع حتى ارتوت ، ثـــم ملأت اناءها وعادت به في طريقها الى القرية •• استمر حضوري الى هذا النبع في كل يوم في نفس الوقت •• وكنت اكتفي بارواء روحي المتعطشة الى هذا الحب العذري بنظرات بريئة ، ولا شيء اكثر من ذلك • سألـــت عنها وعرفت اسمها واسم اخيها الكبير الذى كان ولي أمرها ، اذ كانت

يتيمة الاب منذ طفولتها .. اختلقت الاسباب للتعرف بأخيها .. واصبح صديقا لي يزورني في غرفتي وازوره في بيته .. وكانت «...» هي التى تقدم القهوة الي ، فأتناول الفنجان منها بيد ترتجف ، وقلب يكاد تسمع ضرباته ... كنت اسمع قصصا وحكايات عن الحب العذري ولـم أعبأ بها ، بل كنت غير مصدق لها . ولكنني آمنت بمثل هذا الحب منذ رأيت وجه « .... » بأول نظرة ... ويشهد الله أنه رغم هذه العاطفة الجارفة والحب الهائل والشعور المتبادل بين قلبينا لم يجر بيننا اكثر مـن احاديث عادية في ظروف واوقات مختلفة ... واخيرا فكرت في الزواج منها وفاتحت بعض اقاربها لجس النبض ، ولما فوتح اخوها برغبتي هذه اظهر موافقته على ذلك ، ولكنه اشترط علي ان اقيم في القرية اقامة دائمة بعد الزواج ...

انه في واقع الامر شرط صعب التحقيق .. كيف أقيم اقامة دائمة في هذه القرية ؟ .. ولاجل ان أحقق هذا الشرط كان علي ان اترك دراستي واهجر وطني الى الابد وانفض يدي من كل افراد عائلتي .. وبعبـــارة اخرى كان علي ان اشطب على مستقبلي بجرة قلم واحدة ، واقضي عمري في هذه القرية قرويا بسيطا يكسب عيشه بما يتناوله من القرويين اجرا عن بعض اعمال كتابية او هدايا نقدية او عينية لقيامه بمعالجة المرضـى من القرويين على طريقة المطببين المشعوذين والدجالين .. انني في بـادىء الامر لم ارفض هذا الشرط رفضا باتا ، بل طلبت تأجيل البت في ذلك الى بعد عودتي الى ايزميت ، واكمل السنة الاخيرة من دراستي فيها ... وبعدما اكملت مهمتي في قريتي « دوكمه جيلر » و « يني كوى » عدت الى ايزميت وقلبي يتلظى من حرقة الالم .. كنت شارد الذهن ، زائـــغ النظرات قليل الاختلاط حتى بأصدقائي المقربين الي في المدرسة دائما ... وفي الاخير آمنت ان زواجا مثل هذا يقضي على مستقبلي قضاء مبرما ..

ويبعدني عن وطني ويحرمني العيش في كنف عائلتي ويميت في نفسي كل طموح وأمل في الحياة ••• فأصدرت قراري الاخير وقلت ان هـذا الزواج يجب ان لا يتم مطلقا ••• وبعد ذلك ارسلت رسالة رقيقة الى أخ « •••• » الحبيبة شرحت له فيها كل الاسباب المعقولة التى تحول بيني وبين اقامتي اقامة دائمة في قرية « دوكمه جيلر » •• وهكذا زال كل امل وانقطع كل رجاء في بناء عش سعيد يضم قلبين متحابين ، وانتصر العقل على العاطفة في هذه المعضلة ••• صحيح انني قطعت حبل الوصال بيدي ،ولكنني بقيت مدة طويلة ، حتى الى ما بعد عودتي الى بغداد ، وانا احتفظ بذلك الحب الخاطف ، وقد عاشت ذكريات قرية « دوكمه جيلر » في مخيلتي سنين وسنين •••

وفاة السلطان محمد رشاد

وأنباء انكسارات الجيش التركي

في اواخر صيف العام ١٩١٨ نعت الينا الاخبار السلطان محمد رشاد خان الخامس ، فعم الحزن كل ابناء القرية من رجال ونساء وشيوخ وشباب . وصارت بعد ذلك تتوارد علينا اخبار مقلقة مزعجة .. ان الهزائم تتوالى على الجيش التركي في كل الجبهات ... كما ان الالمان وحلفاءهم الاخرين يصابون ايضا في كل يوم بخسائر فادحة ويتراجعون امام جيوش الحلفاء في مختلف الجبهات الغربية .. وكانت الجرائد التركية تبحث عن احتمال طلب بلغارية عقد هدنة منفردة بينها وبين الحلفاء ، وكانت في الوقت نفسه تشير من طرف خفي الى ان تركية تقترب من الهوة خطوة بعد خطوة وتستبعد امكان اي انتصار لجيوش الحلفاء بعد الان ... وفي اثر هذه الاخبار المزعجة صرت اضاعف جهدي لاكمال معاملاتي في قريتي كي اعود الى ايزميت في اسرع وقت ممكن ... وانهيت اعمالي واتممت حساباتي ونظمتها في جداولها الخاصة بها وعدت الى مدرستي في حوالي منتصف ايلول من العام ١٩١٨ .

وعندما عدت الى ايزميت كنت احمل في جيبي اربعمائة ليرة من البنكنوت العثماني ، وهذا المبلغ يعتبر مبلغا مهما بالنسبة الي في ظروفي

القاسية وحرماني من اية مساعدة مالية ، ذلك ان الاتصال بعائلتي في العراق كان منقطعا ولم اتسلم منها طوال السنتين اللتين امضيتهما في ايزميت الا كتابا واحدا ، وصلني بوساطة جمعية الصليب الاحمر الدولية ....

ان المبلغ المذكور لم يكن حصيلة رواتبي حسب ، بل يضاف الى الرواتب ما كسبته من ارباح تجارة طفيفة مارستها اثناء عملي في قريتي « دوكمه جيلر » « ويني كوى » ... كانت الحكومة قد خصصت لي ثماني ليرات اجورا شهرية مقطوعة ... الا انها لم تدفع لي هذه المخصصات ليرات ورقية نقدية ، بل كانت تعطيني مقابل ذلك كمية من القمح بالسعر الرسمي ، وكنت ابيع القمح الذى اتسلمه بخمسة اضعاف سعره الرسمي في اسواق ايزميت .. وفضلا عن ذلك ، كنت اشتري من قرية « دوكمه جيلر » كميات من القمح والجبن والبيض ، واحيانا بعض الفواكه ، انقلها بوسائط النقل التي تشحن فيها عائدات الحكومة من الحبوب (١) الى ايزميت وابيعها هناك بسعر مضاعف تقريبا .. وهكذا كانت الاربعماية ليرة التي كسبتها في خلال العطلة المدرسية هي حصيلة رواتبي ومكاسب تجارتي المتواضعة في خلال ما يقارب الاربعة اشهر من الزمن ... ان المبلغ المذكور امن حاجتي الى النقود الى ان وصلت مدينة حلب في طريق عودتي الى بغداد في صيف ١٩١٩ .

توفي السلطان محمد رشاد الخامس قبيل عودتي الى ايزميت وخلفه السلطان محمد وحيد الدين السادس ، وكانت تركية آنذاك على وشك الانهيار .. تعاني آلاما مبرحة من الجوع والفقر والمرض ، واشد من كل ذلك فزع الناس مما سيصيبهم من مرارة الهزيمة وما سيلحقه بهم

---

(١) كنا نستوفي حصة الحكومة من الاعشار عينا لا بدلا ...

الاعداء المتربصون من ذل واحتقار ... وهكذا عشنا اياما والالام تحز في قلوبنا ، والمستقبل المظلم يتجسم امامنا فتخفق فينا القلوب فزعا ، ويشتد قلقنا جزعا ...

واخيرا ، صدر حكم القدر وحلت النكبة وتم التوقيع على اتفاقية هدنة « موندروس » ــ بشروط قاسية فرضها العدو فرضا ، وتوالت بعد ذلك الاحداث وتعددت النكبات ... فقوات الحلفاء دخلت الى استانبول ، وشجع الحلفاء اليونان بل ساعدوهم على احتلال ازمير ذلك البلد التركي الجميل ، واصبحت تركية مناطق نفوذ الدول الحليفة المختلفة بحجة مراقبة تنفيذ شروط الهدنة ، فمدينة استانبول كانت مشتركة بين الجميع ، وكنا نرى الشرطي الاميركي يسير بجنب زميله الشرطي الانكليزي والفرنسي والايطالي ، اثناء قيامهم باعمال الدوريات في مختلف اقسام المدينة ... ومنطقة البحر الاسود اصبحت من نصيب الولايات المتحدة الاميركية ، والفرنسيون اختصوا بكليكية ، اما الطليان فقد اكتفوا بولاية قونية وحواليها ...

فقبل الشعب التركي الهزيمة الحربية بهدوء واستكانة ووجوم ... ولكنه انتفض انتفاضة الكريم الصاخب عندما رأى الاعتداء الاثيم الذي اصابه في الصميم باحتلال ازمير من قبل اليونانيين وقام قومة واحدة في كل مكان معلنا احتجاجه وسخطه ونقمته .. وشمر كل واحد من هذا الشعب الابي عن ساعد الجد مطالبا بعودة الحق الى اصحابه والعدل الى نصابه .. واخذت المظاهرات تشتد يوما بعد يوم والاجتماعات تعقد في الجوامع والميادين والخطباء تحث الجماهير على اليقظة والحذر وتشديد المطالبة بالحق الصريح...(١) واكثرالخطيبات حماسة كانتخالدةاديب (٢)

(١) كنت قد اشتركه في احدى المظاهرات الشعبية التي اقيمت في مدينة ايزميت والقيت خطابا حماسيا احتجاجا على احتلال ازمير من قبل اليونانيين المعتدين ..

(٢) اصبحت وزيرة المعارف في اثناء حرب الاستقلال ...

الادبية التركية الذائعة الصيت •• فكنا نصغي الى كلماتها الملتهبة بكل جوارحنا وعيوننا تذرف دموعا ساخنة من شدة التأثر والانفعال •• وفي هذه الفترة قررت وزارة المعارف البدء بالامتحان النهائي فورا ، وانهائه في اقصر وقت ممكن بالنظر الى الاحوال السائدة في البلاد •••

وفي تلك الايام الحالكة السواد ، سمعنا ان مصطفى كمال باشا القائد العظيم وبطل حرب الدردنيل غادر استانبول متخفيا على ظهر باخرة تركية ووطأت قدماه ارض صامصون في يوم ١٩ ايار ١٩١٩ فاتجهت نحوه الانظار وهي تحمل بريقا من الامل في رفع الضيم الثقيل عن جسمها النحيف •• وبينما كانت المسيرات والمظاهرات تزداد في كل يوم شدة في القسم التركي من استانبول (جهات : سلطان احمد ، وبايزيد ، وفاتح) (١) ، اخذ الاروام المقيمون في جهة (بك اوغلو ، وغلطة) ينظمون مظاهرات مضادة تهتف بحياة الحلفاء وتحمل صورا كبيرة لفنيزلوس رئيس وزراء اليونان ويصرخون باصواتهم المنكرة : يعيش فنزيلوس ، يحيى فنزيلوس ، والموت للأمة التركية ••• انقلبت وقتئذ حارة بك اوغلو الى مدينة يونانية ، فالاعلام اليونانية تغطي كل واجهات المخازن والبيوت وصور فنزيلوس وملك اليونان معلقة على كثير من الجدران ، واذا مر من هناك تركي مهما كانت صفته ومهما كان مركزه يلقى من الشتائم اعنفها ومن الاهانات ابشعها ومن الضرب المؤلم اشنعه ••• وقد لقي البعض من الاتراك حتفهم نتيجة مثل هذه الاعتداءات عليهم •••

كنت عازما حتى ذلك التاريخ على ان ابقى في استانبول ، واشارك الشعب التركي مصيره ••• وكانت الدراهم في حوزتي تنفد يوما فيوما ••

---

(١) حتى العلم التركي في تلك المحنة الاليمة اصطبغ بالسواد ، واصبح العلم اسود يحمل في وسطه الهلال والنجم بلونهما الابيض العادي .

وصرت افكر : كيف سأعيش اذا نفدت كل دراهمي ؟ لذا اخذت افتش عن عمل يقيني شر الجوع وينقذني من البطالة والتشرد ، وصرت اراجع كل الدوائر الرسمية وشبه الرسمية باحثا عن عمل ••• وكانت مراجعاتي تلقى فشلا ذريعا مرة بعد اخرى ، ولما يئست من دوائر الدولة اتجهت نحو الشركات الخاصة والبيوت التجارية والمخازن مكررا طلبي بتوسل ورجاء •••فكان الجواب الذي اتلقاه واحدا : « نأسف على ان لا شاغر لدينا » واخيرا راجعت بعض العراقيين لاستمزج رأيهم في امري علني اجد فيهم عونا على حل مشكلتي ••• ووجدت البعض منهم يتهيأ للسفر والعودة الى بغداد • ولما استفسرت منهم : كيف تمكنوا من تدبير امر سفرهم فهمت ان في استانبول ممثلا للشريف حسين هو العقيد رشدي الصفدي الذي كان مكلفا بتشجيع العرب الموجودين في تركية ، من ضباط وجنود وموظفين مدنيين وطلاب على العودة الى بلادهم ، وكان يمهد لهم الطريق ويهيىء لهم ما يلزمهم لاتمام رحلتهم ••• وهكذا اصبحت على الطريق الذي ينتشلني من شر البطالة وذل الفاقه ، فراجعته وابرزت له ما لدي من شهادات مدرسية واوراق هوية ، ووافق على تدوين اسمي في قائمة العرب الذين يسفرون على حساب الممثلية العربية (١) • وقال لي : يمكنك منذ الان ان تذهب الى « ثكنة السليمية » الواقعة بين اسكدار وحيدر باشا على الساحل الانضولي من البوسفور ، وزودني بكتاب الى ضابط عربي ، كان مسئولا عن تنظيم سفر العرب وتسهيل معاملاتهم ••• ذهبت الى الثكنة المذكورة فرحا مستبشرا ، فقد تبددت آلام اليأس وانفتحت امامي ابواب الامل ، وصرت امني النفس بالعودة الى الوطن ، وكان قلبي يخفق وضرباته تزداد كلما فكرت في انني سألقى افراد اهلي ورفاقي بعد ايام

---

(١) ان كل عمل في هذه الممثلية كان يجري بالتشاور مع السلطات الانكليزية في استانبول وباشرافها ..

معدودة واعيش في كنفهم مرفها سعيدا ...

استقبلني الضابط المسئول (١) في المكتب الخاص بتسفير العرب في الثكنة استقبالا جميلا وكلمني بلغة عربية قريبة الى الفصحى وتسلم مني كتاب رشدي الصفدي واخبرني انه ينظم تسفير الراغبين من العرب كل بدوره وعلي ان انتظر دوري ، وانه قد لا يطول اكثر من عشرة ايام .. ثم امر مراسله ان يصطحبني الى قاعة كانت مجهزة بعدة سرر ، وبجنب كل سرير طاولة صغيرة .. واشار المراسل الى واحد من هذه السرر ، وقال : هذا هو سريرك .. وبعد ذلك اخذني الى قاعة الطعام ، وأراني مقعدا على طاولة طويلة وقال : وهذا مكانك اثناء الطعام .. ان الطعام يجهز لك ولجميع زملائك هنا ، بثلاث وجبات واعلمني الساعات المقررة للفطور والغداء والعشاء ... وهكذا صرت في حرز من الجوع والفاقه ، وكنت اقضي معظم اوقاتي بالقراءة متمددا على سريري ، واذهب احيانا الى قهوة قريبة من الثكنة اقضي فيها بعض الوقت . وقد تعرفت في خلال مدة بقائي في الثكنة ببعض الرفاق من العرب ، وكانوا مثلي عازمين على العودة الى الاوطان . وكان هؤلاء خليطا من السوريين والفلسطينيين والعراقيين وعددهم لايتجاوز العشرين شخصا ... بقيت ضيفا على ثكنة السليمية ، مدة احد عشر يوما وفي صباح اليوم الثاني عشر نقلنا الى محطة حيدر باشا بسيارة عسكرية كبيرة تابعة الى الجيش الانكليزي ، ووضعنا هناك في احدى عربات الحمل ، وكان عددنا خمسة عشر شخصا . اما العراقيون فكنا ثلاثة فقط : رجلا مسنا يظهر انه من قدامى الموظفين في الدولة العثمانية ، ومعه ولده وهو شاب انيق حسن الصورة ذو شاربين اصفرين وكان لا يزال مرتديا بدلة ضابط احتياط عثماني ... كانت عربتنا نظيفة

---

(١) انني لا اذكر اسم هذا الضابط في الوقت الحاضر ، ولكنني اذكر انه كان من بيت الخالدي في القدس ...

ومعقمة بمحلول الاسيدفينيك ، واختص كل منا بمحل في داخل العربة وفرش فراشه ورتب اموره •• وبعد قليل صعد ضابط انكليزي قرأ اسماءنا واحدا بعد الآخر وتأكد من وجودنا جميعا ••• ثم نادى جنديا انكليزيا كان مرافقا له وامره ان يسلمنا ارزاقنا ، فتسلم كل واحد منا ، صفيحة تحتوي على ارزاق تكفيه خمسة ايام على الاقل • وكان ضمن هذه الارزاق : (الشاي والسكر ، والخبز والبسكت ، وبعض المعلبات من سمك الساردين واللحوم) واخيرا ودعنا الضابط الانكليزي متمنيا لنا سفرا سعيدا ، واخبرنا ان سفرتنا هذه تنتهي في حلب ، وعلى كل منا ان يدبر حاله هناك •••

انني في الحقيقة ، الى حين مراجعتي ممثل الشريف حسين في استانبول ، لم يسبق لي ان سمعت شيئا عن ثورة الشريف وقيامه على الدولة العثمانية معلنا استقلال العرب في مكة المكرمة ، ولكنني عرفت الشيء الكثير بعد ذلك ••• عرفت ان الشريف حسين اعلن قيام دولة عربية باسم « المملكة الحجازية » وعرفت انه نادى بنفسه ملكا على الحجاز وان الشريف فيصلا نجله قاد الجيوش العربية وكان اول من دخل الى الشام ، ثم اعلن بعد ذلك استقلال سورية وتنصيب نفسه ملكا عليها • كما فهمت ان عددا كبيرا من الضباط العراقيين التحقوا بثورة الشريف وانهم تسنموا الان وظائف كبيرة وقيادات مهمة في دولتي سورية والحجاز •• وفي اثناء السفر بالقطار اطلعت على اسماء أشهر الضباط والقواد العراقيين الذين شاركوا بالثورة العربية • وكان اسم ياسين الهاشمي في مقدمة هؤلاء القادة ، ولم يكن اسم ياسين مجهولا لدي فقد ذكر اسمه مرارا بالثناء والتقدير في صفحات الجرائد التركية ، كقائد مغوار وبطل عظيم اثناء قيادته الجيش التركي في جبهة « غاليسية » وانتصاراته الباهرة على الجيش الروسي •• وبعد اسم ياسين الهاشمي سمعت اول مرة اسم

جعفر العسكري ، ونوري السعيد ، وجميل المدفعي ، ومولود مخلص وغيرهم ..

كان قطارنا يسير ببطء ممل نظرا الى فقدان الوقود ، والفحم الحجري اصبح نادرا كالماس ، والقاطرة تسير بالحطب الذي لا يزال طريا وكنا نتوقف احيانا ساعات كثيرة ، اما بسبب خلل يطرأ على ماكنة القاطرة ، او بسبب فقدان الوقود .. وهكذا لم نصل الى حلب الا بعد ستة ايام من مغادرتنا استانبول .

واخيرا وصلنا الى حلب الشهباء .. ورأينا العلم العربي لاول مرة يرفرف فوق الابنية الرسمية ، فتملكنا عندئذ شعور غريب لم يسبق لنا ان شعرنا بما يماثله من قبل — انه شعور العزة والكرامة الوطنية .. لقد كنا عثمانيين حتى تلك اللحظة ، واصبحنا عربا لنا كيان بين الامم ، ولنا دولة بين الدول ، وعلم بين الاعلام ..

نزلت في حلب في فندق صغير متواضع وحسبت ما تبقى في جيبي من النقود فكانت بضعة « مجيديات » (١) لا غير ، وكانت هذه المجيديات تسد نفقاتي لاربعة او خمسة ايام لا اكثر . اذا كان علي ان ادبر امر سفري الى العراق باسرع وقت ممكن ... سألت عن واسطة نقل تسير الى بغداد فقيل لي : ان هناك عربات تسير مرة في الاسبوع على طريق دير الزور — البوكمال — عنه — بغداد ، فذهبت افتش عنها حتى وجدتها ... تكلمت مع سائق العربة الذي اخبرني ان الاجرة اربع ليرات ذهبية ... فوقفت مذهولا ، مرتبكا .. من اين لي هذا المبلغ ؟ وكيف استطيع الحصول عليه ؟... رجعت اثر ذلك في طريقي الى الفندق .. وفي اثناء

---

(١) المجيدى يعادل ٢٠٠ فلس في عملتنا الحاضرة .

سيري في الشارع صدفت المرحوم عبد اللطيف نوري (١) وكنت اعرفه ، مذ كان ضابط درك في بعقوبة ، وكانت بين عائلتينا صداقة تربط افرادها بأوثق وشائج الالفة والمحبة • فرحب بي وعندئذ افضيت له بما لـــدي وشرحت له مشاكلي •• فقال : عليك ان تراجع مولود مخلص قائد الفرقة السادسة •• انه عراقي موصلي وسيمدك حتما بما تحتاج اليه من المخصصات المستورة ، وانني لا اشك في انه سيسهل لك امر تسفيرك الى بغداد •

وفي صباح اليوم التالي كنت في غرفة مرافق مولود مخلص فـــي مقر الفرقة السادسة •• فعرضت عليه وثائقي ، وتقدمت اليه بمطلبـــي ورجوته ان يفسح لي المجال لاقابل القائد مولود مخلص كي ارجوه مد يد المساعدة لي لاتمكن من العودة الى بلدي بغداد •• ذهب المرافق وعاد بعد دقائق معدودات ليخبرني ان القائد مشغول وليس له اي مجال لمقابلتي ، وهو ينصحني ان اراجع السلطات الانكليزية في حلب لتسهيل امر سفري الى بغداد ، لان العراق لا يزال تحت الاحتلال الانكليزي وليست لـدى السلطات العربية مخصصات لتسفير العراقيين الى بلادهم ••• خاب املي في هذا القائد العراقي وتحطم رجائي امام عتبة غرفته ، فلو تنازل وقابلني وشرح لي الوضع بلطيف الكلام وزودني ببعض الارشادات التي تساعدني على تذليل العقبات لما عاتبته وغضبت عليه ، ولكن رفضه مقابلتي كـــان بمثابة طرد جرح كرامتي وترك في نفسي ابلغ الالم واشده ••• فعـــدت من حيث اتيت خائبا مكسوفا ••• وفي نفس ذلك اليوم كنت وجها لوجه مع ضابط طويل القامة انيق الملبس خمري اللون وفي ملامحه رجـــولة وسيمة •• لقيته صدفة في دائرة قائد موقع حلب ، وكنت افتش واتساءل عن مقام •• او سلطة تستطيع ان تحل مشكلتي وتنقذني من المحنة التي

---

(١) وزير الدفاع في وزارة حكمة سليمان الانقلابية .

كنت اتخبط في دياجيرها مكتئبا يائسا ... ودفعتني الصدفة الى هـذا الضابط سعيد التكريتي (١) الشهم الذي استقبلني اجمل استقبال وارشدني الى اقصر الطرق للوصول الى بغيتي .. وقال لي : لا ينهي قضيتك الا رجل واحد هو جعفر العسكري ، الحاكم العسكري لولاية حلب فأذهب اليه واشرح له قضيتك ... انه سيهتم في امرك حتما وسيفعل كل شيء لتسهيل سفرك الى بغداد .. ثم اعطاني عنوان بيت العسكري واوضح لي كيفية الوصول اليه ... وفي عصر ذلك اليوم الذي لا اتذكر تاريخه كنت في طريقي الى دار جعفر باشا العسكري الحاكم العسكري لمدينة حلب ، ووصلت اليها دون اي عناء ... سألت عن الباشا ، فقيل لي : انه لم يعد بعد . وقفت خارج الدار منتظرا اقباله ... ولم تمض بضع دقائق حتى تقدم نحو الدار رجل ببزة عسكرية ممتطيا جواده ، وكان جميل المنظر معتدل القامة اسمر اللون ذا عينين براقتين يقرأ الناظر فيهما كل آثار النباهة والنبل والذكاء .. وكان يتبعه خيالان هما مرافقه وحارسه .. وفي الحال علمت انه جعفر باشا العسكري الذي اقصده ... ولم يكد يهبط عن صهوة جواده حتى تقدمت اليه وحييته تحية طالب لقائد عسكري ، فرد علي التحية بأحسن منها .. وانني ان انس لن انسى تلك المقابلة الاولى لهذه الشخصية النادرة ... لقد رد على تحيتي بثغر باسم وعينين يشع منهما حنان ابوي ، ووجه تدل كل تقاطيعه على ما في قلب هذا الرجل من دعة ورأفة .. وسألني فورا « ماذا تبغي يا ولدي ؟ » .. فقصصت عليه قصتي وقلت له :انني بحاجة الى مساعدتك يا باشا حتى اتمكن من العودة الى وطني والتحق بعائلتي هناك .. ففكر لحظة ثم مد يده الى جيبه واخرج منه ليرة ذهبية وضعها في يدي وقال : « اصرفها يا بني وتعال الى مقابلتي غدا في السراي وانا ارتب لك ما يلزم لتسفيرك

---

(١) اللواء المتقاعد

الـى بغداد » ••• وفي اليوم التالي ذهبت الى السراي وسرت رأسا الـى غرفة الباشا حيث يقف ببابها عسكري برتبة عريف ، ضخم الجثة طويـل القامة ذو شاربين كثين مفتولين اذا تعلقت بواحد من طرفيها استطـاع ان يرفعني شبرا عن الارض ••• قلت لهذا العريف الضرغام : انني عـلى موعد مع الباشا واريد مقابلته الان ••• قال : يستحيل ان تدخل عليـه ، انه مشغول ولا يريد ان يقابل احدا ••• توسلت اليه ان يسمح لي بالدخول وحاولت اقناعه بأنني اتيت بناء على طلبه ، ولكن جميع توسلاتي ومحاولاتي ذهبت عبثا ••• واحتد الجدال بيني وبينه وطال النقاش وصرت اكلمـه بغضب وانفعال وبصوت عال يكاد يصل الى درجة الصراخ •• ويظهـر ان الباشا سمع صوتي وهو في مكتبه فنادى حارسه العريف بصوت عال فيه نبرة الحدة والغضب وقال له : دعه يدخل يا •••• دخلت على الباشا فاستقبلني كعادته بلطف وبشاشة ورحب بي اجمل ترحيب ثم سألني :والان، قل لي كم يكفيك للسفر الى بغداد ؟••• فأجبته : ان اجرة العربة يا باشا اربع ليرات ذهبية ، واحتاج الى اربع ليرات اخرى لتسديد نفقات الفندق وما يتبقى منها مصرفي « خرجية » للطريق •• فقال : حسن •• لك ما تريد ولمس زرا كهربيا كان الى يمينه وبعد لحظات دخل مرافقه (١) عليه وادى التحية العسكرية وقال : ماذا تأمر يا باشا ؟ قال : خذ هذا الشاب معـك وادفع له ثماني ليرات لقاء وصل يوقع عليه •• وهكذا تم لي ما اردت بفضل هذا القائد الكريم والمواطن النبيل الذي اتخذ عمل المعروف شعارا له طول حياته •• كان هذا اول فضل غمرني به جعفر العسكري ، وبعـد

---

(١) انه المرحوم ابراهيم الشاوي مدير الشرطة العام في العراق سابقا .

ذلك مرت الايام وانقضت بضع سنين ، والايام تمر والسنون تنقضي كلمح البصر واذا بالباشا في بغداد واذا هو وزير الدفاع .. بينما كنت آنئـــذ موظفا صغيرا في وزارة المعارف ، فقابلته يوما صدفة في مجلس واذا بـــه يعرفني من اول وهلة ويصافحني مصافحة حارة كأنه صديق لي منذعشرات السنيـــن ...

* * *

في طريق العودة الى الوطن

غادرت دائرة الحاكم العسكري في حلب وكأنني قد ملكت الدنيا بهذه الليرات الثماني . قويت معنوياتي ، واستتب الاطمئنان في نفسي ، وزالت عن افكاري كل هواجس القلق واليأس والاضطراب .. ذهبت فورا الى الخان الذي تتحرك منه العربات الى بغداد وحجزت لي مقعدا ودفعت الاجرة وكانت اربع ليرات ذهبية .. وفي اليوم المعين تحركت بنا العربة وهي تحمل ستة مسافرين ، اربعة منهم كانوا قاصدين دير الزور والبوكمال ، وكنا عراقيين اثنين فقط متوجهين نحو بغداد .. انا وضابط احتياط مسرح اسمه رشيد رؤوف ، شاب من الاعظمية صدفته مرارا في بغداد ، بعدما اشتغل معلما في احدى المدارس الابتدائية الرسمية ... كانت سفرتنا الى دير الزور مريحة وسهلة وقد دامت اربعة ايام .. كنا نسير طول النهار ونقضي ليالينا في احد الخانات المعدة لمثل هذا الغرض في منازل تكاد تكون متقاربة من حيث المسافة ...

وعند وصولنا الى دير الزور فوجئنا بخبر مزعج .. الطريق بين دير الزور والحدود العراقية مقطوع بسبب بعض الاضطرابات التي وقعت بين العشائر القاطنة في تلك المناطق ، ولا يسمح للمسافرين بالعربات الا ان

يسيروا بقوافل تحت حراسة قوات مسلحة من الجيش ... وهذه القوافل لا تخرج الا مرتين في الشهر ... كان علينا اذا ان نختار احد امرين : اما ان ننتظر حركة القافلة او نفكر في طريق اخر . وبعد التأمل والتفكير والاتصال ببعض الناس الخبيرين في طرق السفر ، قررنا ان نسافر نهرا في احدى وسائط النقل النهرية الشبيهة بما نسميه نحن بالـ « كلك » (١).. وعلى اثر ذلك اتفقنا مع صاحبنا الحوذي على ان يعيد لنا نصف الاجرة ويحتفظ بالباقي .. وفي اليوم التالي ، صدفنا فعلا (شختورا) متهيئا للسفر نحو البوكمال ورضي اصحابه ان يأخذونا معهم الى هناك ، او الى عنه ـ لا اذكر ـ لقاء اجرة بسيطة .. ونقلنا امتعتنا اليه فورا .. وسرنا بمجرى نهر الفرات على بركة الله .. الا انه لم يكتب لنا في لوح القدر الاستقرار على حال ، ولا اطمئنان القلب وراحة البال ... اذ بعد مسيرة لم تطل اكثر من ليلة واحدة ونهار واحد ارتطم (الشختور) بمسناة قديمة متآكلة في موضع بالقرب من الساحل ، فتفكك وتبعثرت اخشابه ، وقد تمسك كل واحد منا بخشبة ، وانقذنا الله من غرق محتم ، وخرجنا الى الساحل ناجين بارواحنا .. اما حاجاتنا ، فعلى قلتها ، فقدنا قسما منها ، وساعدنا عمال (الكلك) على انقاذ ما امكن انقاذه من طعام ومتاع ... جلسنا على ضفة النهر مرتبكين حائرين لا ندري ماذا نفعل والى اين نسير ... وبعد استراحة دامت اكثر من ساعتين اخذنا نسير نحو الطريق العام وقد تركنا خلفنا انقاض (الشختور) وعماله منهمكين بجمع الاخشاب وسائر اجزاء (الشختور) المنكوب .. ولم نسر اكثر من نصف ساعة حتى وجدنا انفسنا على الطريق العام ، وقد لاحت لنا من بعيد قافلة

---

(١) الكلك واسطة نهر قديمة كانت تستعمل لاغراض السفر ونقل التجارة بين الموصل وبغداد وهي تسير بمجرى الماء فقط ولا تسير ضده ، وهي عبارة عن عواميد من خشب القوق مصفوفة على جربان منفوخة بالهواء .

تتقدم نحونا ، ولما اقتربت منا لاحظنا انها تتألف من عدد من الحمير بعضها محمل وبعضها غير مجمل ، يقودها ثلاثة اشخاص استوقفناهم ورجوناهم ان يأخذونا معهم بدراهم قليلة معدودات .. فوافقوا على ذلك .. الا انهم اخبرونا في الوقت نفسه ان وجهتهم عنه ، وعلينا ان ندبر امر سفرنا منها الى بغداد بواسطة قوافل اخرى ، وهي متوفرة كل يوم تقريبا ... وعند وصولنا الى عنه تذكرت رجلا من اهاليها كان يشغل وظيفة امين صندوق قضاء بعقوبة اسمه السيد عبد الاله ، وهو من اصدقاء والدي المقربين وكثيرا ما سمعت والدي يثني على اخلاقه ويمتدح نبله وشهامته .. فلماذا لا اسأل عنه اذا واواجهه اذا كان موجودا هنا ؟ .. كان اليوم يوم الجمعة ، ونحن في عز الصيف وفي اواخر شهر تموز من سنة ١٩١٩ . سرت متوجها الى مركز الشرطة وسألت اول شرطي صدفته هناك : هل تعرف السيد عبد الاله من اهالي قضاء عنه .. فنظر الى وجهي نظرات فيها بعض الشيء من الشك وقال : وماذا تريد منه ؟ .. قلت : انه صديق والدي وبودي ان ازوره .. قال : انه معاون الحاكم السياسي هنا وقد تجده الان في داره ، ووصف لي موقع الدار واشار بيده الى الطريق الذي يجب ان اسلكه للوصول اليها .. فسرت الى الدار ، وانا في حالة رثة .. لقد فقدت معظم ملابسي في حادث ارتطام (الشختور) وكان حذائي باليا اجره جرا ، وسروالي لا يعرف لونه من كثرة الاوساخ المتراكمة عليه ، وحال قميصي كان اردأ بكثير من الحالة التي كان فيها سروالي .. وصلت الى الدار وسألت خادما في الباب عن السيد عبد الاله ، فقال :انه في الديوان ... وصلت الى الديوان ، وكان عبارة عن صالة رحبة رصت في صدرها وعلى جانبيها الكراسي والمقاعد وهي مزدحمة بالزائرين الذين قدموا لتحية صاحب الدار بمناسبة يوم الجمعة . شاهدت السيد عبد الاله من اول لحظة .. كان جالسا في صدر القاعة يتحدث الى زائريه بنشاط ولباقة واهتمام ... فلما صرت في وسط القاعة التفت الي واخذ يرمقني بنظرات

غريبة . انه لم يعرفني لاول وهلة ، ولكنه ميزني بعد قليل وصاح : طالب .. ماذا جاء بك الى هنا ؟.. ومن اين اتيت ؟ ثم نهض وسار نحوي واخذ يقبلني ويضمني الى صدره بحنان ابوي وعاطفة انسان كريم ... وبعد ذلك قدمني الى الحاضرين ابنا لاعز صديق عنده ... ثم نظر الى تعاسة حالي وقيافتي الرثة ، واوضحت له سوء الحظ الذي لازمنا من دير الزور حتى وصولنا الى عنه ... فاصطحبني الى السوق ، وجهزني (ببذلة) صيفية كاملة ، وقميص وحذاء جديدين مع جميع اللوازم الاخرى من جوارب ومناديل وسراويل .. وعدنا بعد ذلك الى البيت حيث زودني (بزنبيل) مملوء بالمأكولات المختلفة من خبز وجبن ودجاج وبعض الفواكه، كما ارسل معي من يسهل امر سفري الى بغداد في رفقة احدى القوافل ، بعدما دفع عني الاجرة من جيبه الخاص ... ومن حسن الحظ اننا وجدنا فورا قافلة على اهبة السفر الى بغداد التحقت بها ، وامتطيت حمارا كان سريع الحركة كثير النشاط ... وبعد ايام لا اتذكر عددها وصلنا الى الفلوجة وكنا في حالة لا نحسد عليها من العناء والتعب .. فتقرر ان نقضي شطرا من الليل في الفلوجة ، على ان نستعد لاستئناف السفر بعد منتصف الليل توقيا من حر النهار ولفحات الشمس المحرقة ونحن في اوائل آب ١٩١٩ ... وهكذا تركت امتعتي ، وهي عبارة عن رزمة صغيرة تحوي بعض القمصان والسراويل وغيرها .. اما حقيبتي فكانت قد تلفت اثناء غرقنا في نهر الفرات كما سبق تبيانه ـ وحملت زنبيل الطعام بيدي وذهبت الى مقهى قريبة من الخان اتناول فيها الطعام واشرب الشاي وكان الوقت حوالي الساعة الثانية بعد الظهر .. وقد استقر بي المكان على احد المقاعد (التخوت) في المقهى ، واخرجت طعامي من الزنبيل وصرت اتناوله بشراهة لان الجوع كان قد استبد بي بشكل فظيع ... وبينما كنت التهم اللقمات بشهية لاحظت ان الشخص الذي كان جالسا امامي يحدق في وجهي بامعان ويراقب كل حركاتي وسكناتي ، فأستغربت تصرفه هذا وحاولت ان ابتعد

عنه علني اتخلص من هذه النظرات الغريبة التي اثارت الشكوك في نفسي .. غيرت مكاني وطلبت شايا آخر ، بعدما تناولت قدح شاي في مكاني السابق ، على ان هذا المراقب الغريب الحاد النظرات لحقني وبادرني الكلام دون سابق انذار : مرحبا يا اخي ، فرديت عليه التحية واضفت عليها : اهلا وسهلا ... قال : ومن اين مقدمك ؟.. قلت : من إستانبول ، كنت ادرس فيها ، وقد اكملت دراستي الثانوية ، واضطررت للعودة الى وطني بسبب الظروف القاهرة التي حالت بيني وبين اكمال دراستي العالية هناك ... قال : وما اسمك ؟ .. قلت : طالب مشتاق . فنظر في وجهي محدقا وكرر : طالب مشتاق .. قلت نعم ، طالب مشتاق . قال : وماذا تكون من اكرم مشتاق ؟.. قلت : اخوه الاكبر ... فارتمى علي وصار يقبلني ويكرر قوله : اكرم مشتاق .. انه اعز صديق لدي ، لا بل هو اخي الحميم واقرب الناس الي ... وسألني بعد ذلك وكيف ستذهب الى بغداد ؟.. قلت : على ظهر حمار في قافلة لبعض (المكارية) قال : لا ، هذا تضييع للوقت .. قم وأت بأمتعتك حالا ، وانني سأوصلك الى بغداد بعد ساعة واحدة بالسيارة بدلا من ان تقضي نهارين كاملين في الطريق ... قمت فورا واتيت برزمة حاجاتي من الخان وجلست جنبه في سيارة (بيك اب) صغيرة كان يقودها بنفسه ، واخذت السيارة تنهب الارض نهبا ، ولم يمض علينا اكثر من ساعة واحدة حتى تبينا الكاظمية وهي تلمع بمنائرها وقببها المذهبة ، وبعد دقائق قليلة كانت منائر بغداد وابنيتها على مرأى منا بوضوح كامل ... وفي اثناء الطريق سألت هذا الرفيق الذي ارسلته العناية الالهية لمساعدتي : عفوا يا اخي ، انك غمرتني بفضل كبير وانقذتني من سفرة يومين على ظهر الحمير ، فهل لك ان تخبرني باسمك ؟.. فأجابني مبتسما : انا حافظ القاضي (١) من محلة باب الشيخ ... في بغداد .

---

(١) التاجر العراقي الشهير ...

وصلنا الى بغداد قبيل العصر ، ونزلت من السيارة بعدما عبرنـــا الجسر القديم وودعت حافظ القاضي شاكرا اياه على فضله وكريم عنايتـــه ... اخذت طريقي مارا بسوق السراي على غير هدى .. كنت افكر طـــول الطريق بما يجب علي ان افعله ، هل اسافر الى بعقوبة رأسا ؟ ام امضي في بغداد ليلتي واستأنف سفري صباح الغد الى الهويدر حيث تقيم عائلتي؟. وبينما تتلاطم افكار متضاربة في رأسي ، صادفت بالقرب من سوق الهرج في الميدان احد اصدقاء والدي ، وكان موظفا في بعقوبة في العهد العثماني ... اسرعت اليه فورا وسلمت عليه وسألته عن حال والدي ، فأخبرني : انه لا يزال مقيما مع افراد عائلتي في الهويدر ، الا انه الان في بغـــداد حيث قدم اليها لانجاز بعض الاشغال الخاصة ، وانه نزل ضيفا علـــى دار المرحوم امين افندي اليوقلمهجي في محلة جديد حسن باشا في الزقـــاق العرضاني المؤدي الى شارع الاكمكخانة .. اسرعت خطاي الـــى تلك الدار التي كنت اعرفها جيدا ودخلت الى الدار وكان الوقت حوالي الساعة الرابعة زوالية بعد الظهر ، وفهمت من الخادم ان والدي لا يزال نائما فـــي « سرداب » الديوانخانة (١) . دخلت الى السرداب وانا اسير على رؤوس اصابع قدمي ، لئلا اوقظ والدي من نومه الهادىء وازعجه .. كان متمددا على سرير ويغط في نوم عميق .. جلست امامه على اريكة مقابلة منتظرا ساعة يقظته ... وبعدما انقضت حوالي خمس عشرة دقيقة وانا في هـــذه الحالة ، فتح عينيه ونظر الي نظرة غريبة ثم عاد واغمض عينيه ، وقد ترأى لي انه عرفني ، ولكنه تخيل انه يرى خيالي في المنام ... وبعد لحظـــات فتح عينيه ثانية ونظر الي فزعا ، ثم قفز من السرير وصاح : طالب ... واحتضنني وانهال علي بقبلات لا ازال اشعر بحرارتها كلما تذكرت ذلـــك

(١) الديوان خانة اصطلاح فارسي كان يستعمله العراقيون اسما لدار الضيافة التي كانت تجاور قسم الحريم من دور العوائل العريقـــة في بغداد ...

الموقف المؤثر ... كان كلانا يذرف دموع الفرح ونقبل بعضنا بعضا قبلات فيها كل معاني الحب والعطف والحنان ... سألني متى قدمت ؟ قلت له قبل ساعة واحدة من الزمن ، وقصصت عليه ما لقيت منذ مغادرتي استانبول حتى وصولي الى بغداد ... وبعد استراحة قليلة ، قال : هيا نسافر حالا الى الهويدر فامك واخوانك هناك سيطيرون فرحا بلقياك ... واستأجر والدي بعد قليل عربة خاصة من العربات التي تشتغل بين بغداد وبعقوبة وسافرنا حالا ... وكان والدي يحث الحوذي على ان يسرع في السير باقصى ما يتمكن ، وهكذا قطعنا المسافة بين بغداد وبعقوبة بمدة خمس ساعات فقط وتكاد تكون هذه المدة رقما قياسيا في قطع مثل هذه المسافة في تلك الايام ... وصلنا الى الهويدر في ساعة متأخرة من الليل وطرقنا باب دارنا هناك ، وفتحت الخادمة لنا الباب ، ولما اخبرها والدي بمقدمي ركضت الى والدتي وايقظتها من النوم وبشرتها بالخبر المسر ، فاسرعت والدتي بين مصدقة ومكذبة نحوي وهي تعانقني وتكيل لي القبلات والدموع تسيل من مقلتينا سيلا لا ينقطع ... وبعد قليل افاق كل اخواني من النوم ايضا وتزاحموا بغية الوصول الي وكانوا يتسابقون فيما بينهم ليحظى الواحد منهم بعناقي قبل اخيه ... وكانت تلك الليلة من ليالي العمر التي لن انساها ، بقينا فيها حتى الصباح ساهرين ، نتجاذب اطراف الحديث ونتبادل عبارات الوجد والشوق بلهفة زائدة وعطف كبير ...

انني منذ مغادرتي استانبول كنت منشغل البال طول الطريق . كان علي ان اعمل لتخفيف العبء عن كاهل والدي . كنت افكر دائما بمسئولية والدي العائلية ... قضى كل عمره موظفا صغيرا ، يقتر على نفسه في كل شيء ، وينفق على تربيتنا ... وتثقيفنا كما ينبغي من راتبه الضئيل . والتربية والتثقيف في نظري اغلى ما يورثه والد بنيه . وهكذا قررت بعدما اخذت قسطا من الراحة في الهويدر ان اعمل ... كانت باب الوظائف في حكومة

الاحتلال مفتوحة ليس لمن يحمل شهادة كشهادتي ، بل حتى لشبه الاميين من الناس ••• ولكن نفسي ابت ان اشتغل في حكومة اجنبية لم تدخل الى الحرب الا لتنفيذ مخطط استعماري ولم تفتح العراق الا لاستنزاف ثروته وكل ما فيه من موارد وخيرات ••• وبهذا الشعور استبعدت عن ذهني كل تفكير في وظائف الدولة ، وقررت ان اشتغل في عمل حر ••• ان والدي ، عندما وصلت الى بغداد ، كان يشتغل وكيلا لدى عبد الجبار باشا الخياط في ادارة املاكه في الهويدر ، وكان يتقاضى عن هذه الوكالة مئة ربية شهريا •• وبطبيعة الحال ان مبلغا زهيدا كهذا لا يكفي لاعالة عائلة لا يقل عدد افرادها عن سبعة انفار ، واضطر بحكم الظروف الى استقراض مبلغ من المال ، ولما كثر هذا الدين ولم يجد اي مجال لتسديده طلبت اليه والدتي ان يبيع دارين لها في محلة دكان شناوة كانت قد ورثتهما عن عمها ؟ وكان هذا هو سبب مجيء والدي الى بغداد عندما وجدتهفيها اثناء عودتي الى الوطن ••• باع والدي هاتين الدارين ببضعة الاف منالربيات ووفى دينه وبقيت لديه حوالي اربعة الاف ربية ، وعندما فاتحته بعزمي على الاشتغال بعمل حر ، قال لي : انه مستعد الى دفع الفي ربية لي رأس مال لاي عمل اختاره ••• وبعد التأمل والتفكير ، قررت ان افتح مخزنا في بعقوبة يحوي كل الحاجات المطلوبة والمرغوبة في ذلك الوقت ، وتسلمت الالفي ربية من والدي وقصدت بعقوبة ، وبعد التحري الطويل عثرت على حانوت مناسب في احسن مكان من السوق ، فاستأجرته حالا وسافرت الى بغداد فورا ، وتسوقت من سوق السراي والشورجة بضائع مختلفة : احذية ، فانيلات ، جوارب ، مناديل ، عطريات ، شايا ، سكرا ، قهوة ، صابون وغيرها •• وعدت الى بعقوبة ببضاعتي وقلبي يطير فرحا بتجارتي التي اعتقدت انها رائجة حتما ••• وبدأت بتنظيم مخزني باندفاع وشوق ورغبة ••• وبعد ايام قليلة كان الحانوت انظف واحسن وابهج مخزن في بعقوبة على الاطلاق ••• حتى ان الانكليز من ضباط وجنود ومدنيين

كانوا يتوقفون عندي عندما يمرون بالسوق ويتفـرجون على تنسيـــق محتويات مخزني ونظافته وحسن ترتيبه ، وصار لي منهم زبائن عديدون ، حتى ان بعضهم كان يطلب تزويده ببعض الحاجات بكتاب تحريري يردني من دلتاوة او شهربان او خانقين ، وكنت البي طلبهم بكل امانة وارســـل اليهم على طريق البريد طلباتهم برزمات مرفقا بها قائمة الحساب وكانـت تصلني محتوياتها بحوالة بريدية تارة وتارة بصك على أحد بنوك بغداد ..

Hamad Khalifa

اندفاعي في التيار السياسي

سارت اعمالي بنجاح تام في المخزن ، وكان معدل ارباحي لا يقل عن مائتي وخمسين ربية شهريا ... ولكن مرت بي ظروف وطغت على نفسي مشاعر دفعتني الى ان انغمس في السياسة في مرحلة مبكرة من حياتي.. كنت أرى بأم عيني المظالم المؤلمة التي يقترفها الحكام السياسيون ضد بني قومي ، فكرامات الناس تداس تحت الاقـدام ، وحقوقهـم تغتصـب ، ومقدساتهـم تهـان ، والشريف اصبـح وضيعـا ، والوضيع شريفا ... وفي أثناء سفراتي العديدة الى بغداد بسبب مقتضيات عملـي التجاري تعرفت بطبقة من الشباب كانوا مندفعين بحماسة وصدق عزيمـة الى الجهاد لاستعادة الحقوق المغتصبة والحصول على الاستقلال التـام التي لا تشوبه شائبة من شوائب الانتداب او الحماية الاجنبية ، وكان في مقدمة هذه الطبقة من الشباب المتحمس السيد عبد الغفور البـدري ، والقاسم العلوي ، وصادق حبة فتعرفت بهم وكانت مشاعرنا متجاوبـة وأهدافنا واحدة وآراؤنا متفقة . فمن الطبيعي اذا ان تربط بيننا صداقـة متينة وتقارب رصين .. وفضلا عن ذلك فهمت ان في بغداد حزبا سياسيا سريا يدعى بـ (حزب حرس الاستقلال) وان القائمين به من خيرة رجال البلد ومفكريه ، وكان لولب اعمال هذا الحزب السيد علي البازركـان

مؤسس المدرستين : الاهلية (١) والتفيض في بغداد ، وكانت هاتان المدرستان بمثابة مركزين مهمين للمثقفين والوطنيين يجتمعون فيهما من حين الى حين ، ويتداولون في مختلف الشؤون السياسية ، ويضعون الخطط لتوجيه الرأي العام نحو اهداف وطنية تحقيقا لطرد الاجنبي والحصول على الاستقلال التام ... ثم سمعت بالاستفتاء الذي وجهه السير اي ، تي ويلسون الحاكم السياسي العام يومئذ الى اهالي العراق ، طالبا ابداء رأيهم في الادارة التي يرغبون فيها ويتضمن هذا الاستفتاء اسئلة ثلاثة :

١ ـ ما هي حدود العراق ؟

٢ ـ نوعية الحكومة التي يرغب فيها اهل العراق ؟

٣ ـ من هو الملك الذي يود الشعب ان يمنحه التاج ؟ (٢)

ويقول الاستاذ علي البازركان في الصفحة ٦٥ من كتابه (الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية) ان جواب البغداديين الذي قدم الى الحاكم العسكري والسياسي بلفور كان كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ـ لما علم ان الغاية التي ترمي اليها كل من دولتي بريطانيا العظمى وفرنسا في الشرق هي تحرير الشعوب وانشاء حكومات وادارات وطنية ، وتأسيسها تأسيسا فعليا في كل من سورية والعراق حسبما يختاره السكان الوطنيون ، فاننا ممثلو الاسلام من

---

(١) المدرسة الجعفرية بعدئذ .

(٢) هذه الاسئلة مقتبسة من كتاب (الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية) لعلي آل بازركان صفحة ٦٤ .

الشيعة والسنة من سكان مدينة بغداد وضواحيها ، بما اننا امة عربية اسلامية قداخترنا ان تكون لبلاد العراق الممتدة من شمال الموصل الى الخليج الفارسي (١) دولة عربية واحدة يرأسها ملك عربي مسلم هو احد انجال الشريف حسين مقيدا بمجلس تشريعي وطني مقره عاصمة العراق بغداد . ١٨ ربيع ثان ١٣٣٧ ، ٢٢ كانون ثان ١٩١٩ . ثم يتابع المؤلف كلامه :

« فاقول بوصفي احد الخمسين الذين انتدبهم قاضيا السنة والشيعة بحضور جمع كبير من اشراف بغداد : بعد ان وصلنا صباح يوم الاربعاء في الساعة التاسعة الى محل الاجتماع في حديقة الامة (ملت باغجه سي) (٢) شاهدت في الباب اربعة عمالقة من الانكليز يرتدون لباس الشرطة ويحمل كل منهم مسدسا في جيبه وفي يده رزمة من البطاقات ، وهم يوزعونها على الداخلين ، وقد اعطوني عدة بطاقات منها حينما دخلت . ولما اخذت مقعدي ، قرأت البطاقات المذكورة فاذا هي تحتوي على اجوبة اهالي النجف والبصرة والشامية والمنتفك والحلة والموصل وكربلاء بخصوص الاسئلة الثلاثة التي وجهها الحكام السياسيون ومضمونها جميعا هو ابقاء الحكم البريطاني في العراق مع بيان محاسن الادارة البريطانية ، وان يكون ملك العراق هو السير برسي كوكس (المندوب السامي البريطاني) ولما حضر الحاكم العسكري والسياسي الميجر بلفور قدم لنا المستر مرغليوث المستشرق البريطاني المعروف ليخطب فينا خطبة هذا ملخصها : « ان العراق قد تعود على حكم الاجانب منذ القديم ، فقد

( ) يقصد المؤلف (الخليج العربي) وكان الاتراك يومئذ يسمونه بـ (خليج البصرة) .

(٢) مكانها يبتدىء من اوتيل السندباد وينتهي في وزارة الاقتصاد في الوقت الحاضر .

حكمه المغول وحكمه الاتراك ، وحكمه الايرانيون ، وهو لا يستطيع ان يحكم نفسه ••• وعلى ذلك يجب على العراقيين ان يختاروا الانكليز اوصياء عليهم او تحت انتدابهم او حمياتهم •••» لما انتهى المستشرق من القاء خطبته قال الميجر بلفور نحن ننصرف الان وانتم حرروا الاجوبة وآتوا بها الينا • فطلبت انا من عزرة مناحيم ومن المطران جرجس دلال ان يبديا رأيهما بشأن الاجوبة التي عزما على كتابتها فاجاباني بانهما يحتفظان الان بسريتها ••• وبعد ان سلمنا محضر آرائنا الى عبد الرحمن الحيدري وجعفر ابي التمن لايصالها الى الحاكم العسكري والسياسي ، عرفت ان البريطانيين قد روجوا شائعات فحواها : ان المسلمين يريدون تكوين حكومة اسلامية بحتة وابعاد اليهود والنصارى عن البلد ، وقد روجت تلك الشائعات لدفع اليهود والنصارى الى المجاهرة ببقاء الاحتلال البريطاني في العراق لحمايتهم من التعصب الاسلامي ، وقد وفقوا في ذلك اذ ان بعض اليهود والنصارى اخذوا ينادون بالاستقلال تحت حماية الانكليز (١)

وبعد ان توطدت علاقتي بعدد من الشباب المتحمس في بغداد، وتعرفت ببعض زعماء الحركة الوطنية الداعية الى الاستقلال التام (امثال السادة : جعفر ابي التمن ، وعلي البازركان والسيد محمد الصدر والسيد يوسف السويدي والشيخ احمد الداود وغيرهم) اندمجت في الحركة السياسية وانا في ريعان الشباب ولم اكن انذاك قد اكملت التاسعة عشرة من عمري • ومع انني لم انتم رسميا الى حزب معين ، فقد كنت احضر مجلس هؤلاء الزعماء برفقة المرحوم عبد الغفور البدري واصغي الى مناقشاتهم واستمع الى آرائهم ، فتزداد عقيدتي بحق الشعب رسوخا وتلتهب مشاعري ضد الانكليز بغضا ونفورا •••

---

(١) ان هذه الحوادث جرت قبل عودتي الى بغداد وقد اقتبستها استكمالا للفائدة وخدمة للتاريخ .

وفي اثناء زياراتي المتكررة لبغداد حبذ لي بعض الاصدقاء ان اصفي مخزني في بعقوبة واتتسب الى المعارف معلما في مدرسة ابتدائية ، فراق لي هذا التحبيذ واستهواني . ولم تمض الا ايام قليلة حتى تقدمت بعريضة الى (نظارة المعارف) طالبا اليها تعييني معلما في احدى المدارس الابتدائية، واحيلت عريضتي الى لجنة الامتحانات ... حضرنا الامتحان في الموعد المقرر له ، وكان عددنا حوالي ثلاثين شخصا . وقد اعلنت النتائج بعد ايام ثلاثة ، وكنت في الامتحان الفائز الاول ويظهر ان الكابتن بيز معاون ناظر المعارف قد لفتت نظره درجاتي العالية فاستدعاني لمواجهته ، وكان يتكلم اللغة العربية بطلاقة ولباقة ، واخذ يسألني : اين تقيم ؟ واين اكملت دراستك الثانوية ؟ ولماذا اخترت مهنة التعليم وفضلتها على غيرها من الوظائف ؟ وكنت اجيبه على ذلك بهدوء ووضوح ومن غير اسراف في الكلام او تطويل ... وبعد كل هذا ، اجرى لي اختبارا مستعجلا بالرياضيات والطوبوغرافية وفي جملة الاسئلة التي وجهها الي : كيف تقيس عرض هذا النهر (١) بالة (تيئودولايت) ؟ وكنت موفقا في كل اجوبتي فوقف وصافحني مهنئا اياي بالنجاح وقال :ان امر تعييني سيصدر في خلال يومين وعلي ان اراجع المرحوم عبد الكريم جلبي لاتفق معه على المكان الذي ساعين فيه ... وفي مقابلتي عبد الكريم الجلبي أخبرته بأنني أرغب في تعييني بمدرسة الهويدر الاولية لان جميع افراد عائلتي يقيمون هناك ويصعب على ان اقبل اي عمل في محل اخر .. وبالنظر الى نتائج امتحاني، وبعدما احرزت المرتبة الاولى بين الناجحين ، كنت أمني النفس بأنني سأنال أعلى راتب بين زملائي ... ولشد ما دهشت عندما صدرت اوامر التعيين ، ورأيت ان راتبي كان اضأل راتب بين الناجحين : ثمانين ربية شهريا تضاف اليها ثلاثون ربية اكرامية الخارج ... بينما

---

(١) كانت غرفته مطلة على نهر دجلة في بيت دلة القديم في شارع النهر .

لاحظت ان هناك عددا من زملائي قد خصص لهم راتب مئة وخمسين ربية شهريا عدا اكرامية الخارج ••• كانت هذه المفاجأة غير المنتظرة ، لطمة شديدة لي خيبت كل آمالي وحطمت معنوياتي بشكل مريع ••• كدت ان لا اصدق انني تجاه حقيقة واقعة في بادىء الامر ، وجزمت على ان هناك خطأ غير مقصود ، فأخذت امر تعييني بيدي وهرعت الى الكابتـــن بيــز وعرضت عليه أمر التعيين ، وقلت له اخشى يا سيدي الكابتن ان يكــون هناك خطأ في تقدير راتبي ••• انني كما تعلم فزت بالدرجة الاولى فـــي الامتحان ، ولكن راتبي في هذا الامر قدر بشكل لا يتناسب ودرجـــــة نجاحي ، وهناك عدد من الناجحين لم ينالوا اكثر من نصف ما نلته انا من الدرجات ومع ذلك خصصت لهم رواتب اكثر من راتبي ؟••• فنظر الــى الكابتن بيز ، مبتسما وسألني : كم عمرك ؟•• اجبته : تسعة عشر عامــا ، فاردف : وهل انت متزوج ؟ قلت : لا بل انــا اعزب ••• قال : وكيــف تريدني ان ادفع لك راتبا يساوي الراتب الذي ادفعه لرجل بلغ الثلاثيــن من العمر ، متزوج وله عدة اطفال ؟•• اننا لا نخصص الرواتب يا بنـــي بالنسبة الى الدرجات ، بـــل بالنسبـــة الى حالة الشخص المدنيـــة والاجتماعيـــــة • انـــك اعزب وتستطيع ان تعيش بمئـــة ربيـة شهريا ولكن المتزوج وله ثلاثة اطفال مثلا لا يستطيع ان يعيش ويعيـــل عائلته باقل من ضعف هذا المبلغ ؟•• الا تتفق معي في ذلك ؟•• اذهـب يا بني ومارس عملك الجديد بحرص ونشاط • انك لا تزال شابا وابواب المستقبل مفتوحة لك على مصراعيها •••

عدت الى الهويدر وباشرت عملي في صباح ١٠/١١/١٩١٩ ، وطلبت الى اخي ادهم ان يتولى تصفية المخزن في بعقوبة بالتدريج ••• واستمـر

ادهم علـــى مهمته هــــذه حتــــى احتلال بعقوبــة من قبل الثوار في خلال الثورة العراقية التي اطلقت فيها اول رصاصـــة في صبـــاح ٣٠ حزيران ١٩٢٠ في قصبة الرميثة (١) ...

في خدمة وزارة المعارف

اخذت امارس عملي الجديد في مدرسة الهويدر بكل ما اوتيت من همة ونشاط ... وكنت احاول ان اكون لطلابي ليس مدرسا عـــاديـــا فحسب ، بل مرشدا ورائدا وصديقا ... كنت اقص عليهم قصصا مـــن امجاد العرب ، وبطولات بعض رجالهم في التاريخ ، واغرس في نفوسهـــم حب الوطن واثير في قلوبهم شعورا قوميا ، ثم الفت انظارهم الى ما آلـــت اليه بلادنا من الانحطاط وما يقاسيه شعبنا من ظلم وجور وتعسف عـــلى ايدي الحكام الاجانـــب الذين غزوا بلادنا ، واذاقونا ذل الاسر والعبودية بجميع اشكالها القذرة والوانها البشعة ... وصرت اشعر ان الطـــلاب اخذوا يتحسسون باقوالي ويطلبون الي المزيد من المعلومات . وقد كـــان المتقدمون في السن اكثر اهتماما بهذه المواضيع من غيرهم بطبيعة الحال . وكنت اطلب الى طلابي ، ان يقصوا ما القيه عليهم من هذه الدروس الوطنية على آبائهم وامهاتهم واخوانهم وكذلك علـــى كل اصدقائهـــم في خـــارج المدرسة ، وكنت بدوري ايضا اثير هذه المواضيع الوطنية والقومية في كل مجلس أؤمة ... سواء اكان ذلك في المقاهي ام في مجلس اعيـــان القـــوم واشرافهم . ومن اهم المشاكل التي جبهتني في مدرسة الهويدر عقليـــة المدير (...) وما كان يلقيه في اذهان الطلاب من خرافات وسخافات .كنت ادرس طلابي يوما كروية الارض ودورانها على محورها ، وحول الشمس

---

(١) نهب الثوار من العشائر التي احتلت بعقوبة عددا من الحوانيت في سوق بعقوبة ومن سوء الحظ كان مخزني في عداد الحوانيت التي نهبت .

فاعترضني طالب في الصف قائلا : لا يا سيدي ان الكفار وحدهم هم الذين يقولون بكروية الارض ، فالارض لا تدور ولو دارت لانقلب كل من عليها رأسا على عقب ... انها ثابتة على قرني ثور بقدرة الله الذي هو قادر على كل شيء ... وانها منبسطة لا كروية ، وهذا ثابت في عدد من الايات القرآنية ويعلمه كل من درس القرآن الكريم ... فسألته : من اين لك كل هذه المعلومات ؟ قال : درسنا اياها ... (مديرنا) قلت أحقا ما تقول ؟ وشهد جميع طلاب الصف بصحة قوله ... وبعد انتهاء الدوام ذهبت الى غرفة المدير ونقلت اليه ما دار بيني وبين الطلاب حول الموضوع ، فأيد ما قاله للطلاب واخرج من احد ادراج مكتبه كتابا اصفر الوريقات ومده الي ، وقال : اقرأ ، وهل تظن انني القي القول جزافا ؟.. ان كل ما ذكرته انا للطلاب ، مدون في هذا الكتاب ... وعبثا حاولت ان اقنعه ان هذا كتاب سخيف وانه من بقايا القرون الوسطى ، وان العلوم الحديثة اثبتت كروية الارض ودورانها ، وتركته وشأنه ... ولكنني تأثرت تأثرا بالغا لوجود مثل هذا الشخص في رئاسة مدرسة جل اهدافها تثقيف النشء وتهذيبه ... ومهما كان الامر ، فانني اخذت ابحث الموضوع مع طلابي في دروس عديدة ، حتى اقنعتهم بان الصواب هو ما اقوله انا ، وان معلومات المدير في هذا الشأن لا تستند الى نظريات وحقائق علمية حديثة بل هي مستمدة من كتب سخيفة ... هي من بقايا القرون الوسطى ...

ومن باب الفكاهة اود ان انقل القصة التالية ايضا عن هذا المدير الفذ ، كي يعلم القراء المستوى الذي كانت عليه مدارسنا في تلك الايام والجهل الذي كان يتخبط في دياجيره كثير من معلمي المدارس ومديريها.. كانت نظارة المعارف قد اصدرت امرا الى جميع المدارس الاوليةوالابتدائية بوجوب عمل (حوض رملي) في كل مدرسة ، والحوض الرملي هذا عبارة عن حفرة متوسطة الحجم تملأ رملا يستعمله معلم الجغرافية اثناء

التدريس ليفهم الطلاب بطريقة عملية ما هي الجزيرة مثلا وما هي شبه الجزيرة ؟ ما هو الخليج وما هو المضيق ؟ وغير ذلك من الاصطلاحات الجغرافية .. وفي احدى الزيارات التفتيشية للكابتن بيز سأل مديرنا هذا وكان جالسا على كرسي في غرفته : اين الحوض الرملي ؟ فقفز حضرة المدير من مكانه اثر هذا السؤال وتقدم نحو الخارطة التي كانت معلقة على الجدار وصار ينظر فيها بامعان ... فصاح به المفتش : ماذا تفعل يا سيد؟ فأجاب بجزع وارتباك : افتش عن (الحوض الرملي) يا سعادة المفتش .. فاطلق المفتش ضحكة عالية من فمه ، ثم قام واخذ يربت على كتف المدير ، قائلا : لا ، سوف لا تجد الحوض الرملي في هذه الخارطة حتى لو فتشت عنه اناء الليل واطراف النهار ، واخذ يوضح له الحوض الرملي ، وكيف يستعمل في التطبيقات العملية في دروس الجغرافية ... ومع ذلك منح المدير زيادة سخية على راتبه في قائمة الزيادات التي صدرت في اول نيسان ١٩٢٠ ...

طلائع الثورة في بغداد

وبينما انا منكب على عملي في الهويدر ، واذا بالاخبار تتوارد الينا تباعا .. نشاط الشباب في بغداد يبلغ اوجه ... حزب حرس الاستقلال يعقد اجتماعات سرية ويحضر هذه الاجتماعات كثير من الزعماء ورؤساء العشائر ... الشعب يتظاهر ضد الاحتلال ، وينادي بالاستقلال التام تحت ستار مجالس تعزية الحسين وحفلات المواليد النبوية التي تنظم في مختلف الجوامع ... استهوتني هذه الاخبار وصرت اشعر برغبة ملحة في السفر الى بغداد ، وسافرت اليها بعد الظهر في احد ايام الخميس واتصلت هناك ببعض الرفاق من المتغلغلين في المعامع السياسية واطلعت على كل مجريات الامور ، وفهمت ان النية متجهة نحو ثورة مسلحة لان الانكليز ماضون في استخفافهم بمطالب الشعب ولا يعيرونها اي اهتمام

كان ••• واصبح شعار الوطنيين :الاستقلال يؤخذ ولا يعطى •• الاستقلال التام او الموت ••••

عدت الى الهويدر وانا على يقين ان الثورة علــى الابــواب ، وان البركان يوشك ان ينفجر لا محالة ••• وفي قلبي شحنة كبيرة من الامنيات وفي مخيلتي آمال جسام لنيل الحرية والاستقلال ••• ومنذ وصولي الى محل اقامتي ، صرت اهيء الخطب لالقيها في الاجتماعات المقبلة في بغداد• وكان المعتاد ان تنظم مثل هذه الاجتماعات في ليلة كل جمعة من كـــل اسبوع ••• وهكذا القيت خطبتي الاولى في جامع الحيدر خانة والثانية في الحضرة الكيلانية والثالثة في الصحن الشريف في الكاظمية والرابعــة في جامع الحيدرخانة ايضا (١) وكانت كلها خطبا حماسية تدعو الناس الى الصمود في وجه الانكليز والاصرار على المطالبة بالاستقلال ، وطرد الاجنبي الذي استهان بكل المقدسات منذ لوثت اقدامه هذه التربة العزيزة مـــن وطننا الغالي ••• وكان عدد من الشباب المثقف يشارك في هذه الاجتماعات• وكانت الخطب التي تتلى والقصائد التي تلقى توقد في قلوب الناس جذوة الحماسة ، وتوقظ في نفوسهم شعور العزة والكرامة ، وتدفعهم الى الامام للمطالبة بالحرية والاستقلال بكل عزم واصرار ••• ومن حق التاريـــخ علي ان اذكر في هذه المناسبة ان الدكتور الشيخ مهدي البصير كـــان (ميرابــو) الثورة بلا منازع وكانت خطبه الثورية وقصائده الناريـــة تلهب مشاعرنا وتغمرنا بفيض من الحماسة وتدفعنا دفعا نحو الاهـــداف الوطنية بشكل عجيب •• اما قصيدته التي القاها في جامع الاحمدية فـي يوم ١٤ رمضان ١٣٣٨ هـ ، فحالفها التوفيق والنجاح بشكل لم يسبق لــه

---

(١) كم كنت اود ان أدون هذه الخطب في مذكراتي هذه ، ولكنها كانت مــع الاسف بين كثير من اوراقي وكتبي التي استولت عليها سلطات الامــن و « الحرس القومي » اثناء تفتيش داري في العهدين الملكي والبعثي ..

مثيل ••• وكان الناس على اختلاف اعمارهم وامزجتهم ، يحفظونها ويترنمون بها وكأنهم ثمالى شربوا الراح من كؤوس الحرية والاستقلال • وانني اعيد تلاوتها في نفسي حتى يومنا هذا وأشعر كأني عدت شابا من شباب الثورة ، يتطلع الى مستقبل زاهر بثقة واطمئنان ••• اما هذه القصيدة الفريدة فكان مطلعها :

ان ضاق يا وطني علي فضاكا   فلتتسع بي للامام خطاكا

لك قد خلقت ومنك فيك فنسبتي   تقضي علي بانني ارعاكا

بعثت ثراك دمي فان أنا خنتها   فلتنبذني ان ثويت ثراكا

بك همت او بالموت دونك في الوغى   روحي فداك متى اكون فداكا

الى ان يقول

ومتى بحبك للمشانق رتقي   كي ترتقي بعدي عروش علاكا

واحمل وساما فوق صدرك من دمي   ما كان احلاه اذا حلاكا

والى آخره من غرر الشعر الحماسي الذي يثير العواطف الوطنية حتى في النفوس الخامدة ••• ثم توالت بعد ذلك الاحداث ••• والقي القبض على السيد عيسى عبد القادر بعدما القى قصيدة حماسية في جامع الحيدرخانة •• ونفي نجل الامام الشيرازي مع عدد من الوطنيين من كربلاء والحلة ، وكان في عداد هؤلاء المرحوم السيد رؤوف الامين رئيس بلدية الحلة سابقا ••• وبدأت اثر ذلك مظاهرات صاخبة في بغداد تحتج على هذه الاعمال التعسفية وتطالب باعادة المنفيين الى العراق • وفي اثناء هذه المظاهرات قتل احد المتظاهرين واسمه عبد الكريم رشيد الاخرس تحت عجلة سيارة الميجر بلفور الحاكم العسكري والسياسي •• وشيعت

جنازته باحتفال كبير كان بمثابة مظاهرة احتجاج على استهانة الحكـــام البريطانيين بارواح الناس ومقدراتهم ...

وفي ٢٦ مايس ١٩٢٠ قامت في بغداد تظاهرة ضخمة ضمت عشرات الالوف من الوطنيين وتم في هذه المظاهرة انتخاب خمسة عشر مندوبا تقرر ان يتقدموا بمطالب ثلاثة الى السلطات البريطانية ، وتتلخص هذه المطالب بما يلي : (١)

اولا ــ الاسراع في تأليف مؤتمر يمثل الامة العراقية ليعين مصيرها ويقرر شكل ادارتها في الداخل ونوع علاقتها بالخارج .

ثانيا ــ منح الحريات للمطبوعات ليتمكن الشعب من الافصاح عـن رغائبـــه وافكـــاره .

ثالثا ــ رفع الحواجز الموضوعة في طريق البريد والبرق بين انحاء القطر والاقطار المجاورة له والممالك الاخرى للتفاهم والاطلاع عـــلى السياسة الراهنة في العالم .

وفي طبيعة الحال ان هذه المطالب التي قدمها المندوبون الخمسة عشر الى الحاكم الملكي والسياسي في يوم ٣ حزيران ١٩٢٠ وضعت فوق الرف ان لم تكن رميت في سلة المهملات كما هي عادة الانكليز في تلك الظروف.

ومن الامور التي سببت ارتياح الرأي العام الوطني في تلك الايـام وقوت عزائمه هو الاتحاد التام بين الطائفتين الكبيرتين اللتين يتألف منهما الشعب العراقي ، فلم يبق اي اختلاف بين سني وشيعي ، والكل مواطنون

---

(١) من كتاب (الوقائع الحقيقة في الثورة العراقية) لعلي آل بازركان .

عرب قد تشابكت ايديهم واتفقت كلمتهم وساروا جنبا الى جنب يكافحون الاجنبي ويطالبونه بالحقوق الطبيعية المغتصبة منهم ، ألا وهي الاستقلال التام الناجز التي لا تشوبه شائبة من شوائب الحمـــاية او الانتـداب • فالسني كان يحضر مجلس عزاء الحسين (ع) والشيعي يحضر مجالس المولد النبوي •• وهذا يصلي في مسجد ذاك ، وذاك يصلي فـي مسجد هذا ، وكلهم اخوان مؤمنون بالله ينطقون بشهادة واحدة ، ويؤمنـــون برسالة سيد الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام ، ويتمسكون بكتـاب الله الذي هو مرشدهم ورائدهم نحو نور الهداية وسبيل الرشاد ••

واخيرا انفجر البركان ، وانطلقت الرصاصة الاولى في الرميثة معلنة نشوب الثورة ضد السلطة الانكليزيـة الغاشمة • كـان ذلـك يوم ٣٠ حزيران ١٩٢٠ أثر اعتقال الشيخ شعلان ابي الجون من قبل الميجر ديلـي الحاكم السياسي في الديوانية • ان السبب الحقيقي لاعتقال الشيخ شعلان ابي الجون كان اندفاعه في التيار الوطني وتأييده للحركة الوطنية الثورية التي كانت تتسع يوما بعد يوم في بغداد ، ولكن الميجر ديلي تجاهل ذلك كله وادعى ان توقيف الشيخ كان بسبب عدم دفعه ما ترتب في ذمته مـن ضرائب مستحقة للحكومة ••• ان هذه الحركة الطائشة من قبل الميجـر ديلي اثارت عشائر بني حجيم ، وعلى رأسهم الشيخ غثيث ابن عم الشيخ شعلان ابي الجون فاتفق مع عدد من اقوى رجال عشائره واشدهم مراسا في القتال وهجموا على السجن وقتلوا بعض افراد من الشرطة ، واخرجـوا الشيخ شعلان من سجنه ومضوا في سبيلهم وهم ينشدون اهازيج النصر ويهوسون هوسات الوعد والوعيد ••• ومنذ ذلك الحين اندلعت نيران الثورة وعمت معظم انحاء العراق ••• واستمرت حفلات المولد النبـوي في بغداد ، واستمر الخطباء والشعراء يحرضون على تأييد الثوار والتضحية بكل غال ونفيس في سبيل انجاحها لنيل الاستقلال التام ••• ولمـا رأى

الانكليز ان الامور تتأزم وان الموقف يتحرج يوما بعد يوم منعوا هـــذه الاحتفالات منعا باتا ، واصدروا اوامرهم بالقاء القبض على عدد من زعماء الحركة الوطنية هم : جعفر ابو التمن ، ويوسف السويدي ، والشيـــخ احمد الشيخ داود وعلي البازركان .. ثم اعلنوا الاحكام العرفية ، وكان ذلك يوم ١٢ آب ١٩٢٠ .

انني ، حتى اواخر تموز ١٩٢٠ ، كنت اجيء الى بغداد في كل يـــوم خميس بعد الظهر ، اما لالقاء خطاب في احدى احتفالات المولد النبـــوي او لاحضر اجتماعا وطنيا في بيت احد الاصدقاء ، ثم اعود الى الهويدر عصر الجمعة مزودا بمناشير وتعليمات كان علي ان اوزعها على سكان منطقتي واقوم بكل ما يلزم لتوعية الرأي العام هناك ، وافهام الناس ، مبـــادىء الثورة واهدافها وما يجب عمله لمساعدتها دعما للثوار وتقوية معنوياتهم ... وفي صباح احد ايام الجمعة جاءني السيد نجيب الراوي (١) وسلمني كتابا من نظارة المعارف ، وكان الميجر بومن ، ناظر المعارف يومـــذاك ، يطلب الي في كتابه هذا ان احضر الى دائرة المعارف في صباح يوم السبت لمواجهتم ... انني بطبيعة الحال فهمت سبب هذه المواجهة ولم استبشر بها مطلقا وتوجست كل شر منها ، ومع ذلك لم افزع وعزمت على مواجهـــة الموقف بكل جرأة وشجاعة .. دخلت على الميجر بومن في الموعد المضروب فاستقبلني بنظرات حادة فيها كل معاني الشر المستطير ... وبعد لحظات من التأمل سألني : هل انت طالب مشتاق ؟.. قلت : نعم .. قال : ولكنك لا تزال شابا صغيرا ، ومع ذلك تشتغل بالسياسة ؟.. اجبته : ان ذلـــك واجب علي وعلى كل مواطن يغار على مصلحة بلاده ... وفي اثناء هـــذا الحديث ضغط على زر كهربي ودخل الفراش ووقف امامه منتظرا الامر ..

(١) في بيت محمد امين افندي اليوقلمه جي في محلة جديد حسن باشا .. وكنت معتادا ا ن انزل ضيفا عليه كلما اقبلت على بغداد .

فقال الميجر : قل لعبد الكريم جلبي (١) ان يتفضل الى هنا .. ولما اتى عبد الكريم جلبي وقف بجانبي ، ولم يأذن له الميجر بالجلوس على احد الكراسي التي كانت موضوعة في جانبي الغرفة .. وتسآل الميجر : عبد الكريم جلبي .. هل تعرف هذا الشاب ؟.. اجابه : نعم اعرفه ، ان والده مشتاق افندي رجل طيب وهو احد اصدقائي .. قال الميجر : ولكن هذا الشاب مشاغب يخطب في الجوامع ، وهو معلم عندنا ، فكيف يجوز ذلك ؟ فانبريت له بجواب حازم : انه واجب وطني يا سعادة الميجر ، اقوم به في سبيل الانعتاق والاستقلال . وفي هذه الاثناء كان المرحوم عبد الكريم جلبي يمسك بطرف (سترتي) ويجرها الى الاسفل ويهمس في اذني : صه .. لا تتكلم بهذه اللهجة ، ومهما قال لك الميجر قل له : نعم (٢) .. وبعد حوار طويل ونصائح مسمومة ابداها لي الميجر بومن ، وعبد الكريم جلبي يهز رأسه يصدقها ، مد الميجر يده الى احد ادراج مكتبه واخرج كتابا عرضه علي وقال : اقرأ .. قلت : لا اتقن اللغة الانكليزية ويا للاسف . قال : الا تعرف ان تقرأاسم موقع الكتاب على الاقل ؟قلت : بلى قال:من هو ؟.. قلت ، اي ، تي ، ويلسون الحاكم الملكي والعسكري العام ... انتصب آنذاك انتصاب بطل مغوار وقال : (انتبه يا طالب مشتاق .. ان اي ، تي ، ويلسون يقول في كتابه هذا ليسفر طالب مشتاق الى هنجام) .. ثم توقف قليلا .. وبعدها ضرب يده على مكتبه ضربة قوية وقال : ولكن الميجر بومن يقول : ان طالب مشتاق لا يسفر الى هنجام .. فأجبته : شكرا يا سيدي ، هذا فضل منك علي ورعاية لي لن انساهما .. واستطرد بعدذلك قائلا : ولكن اريد منك ان تعدني بانك سوف لا تشتغل بالسياسة ...

---

(١) كان المرحوم عبد الكريم الجلبي انذاك مديرا للقلم العربي في نظارة لمعارف.

(٢) ان هذه النصيحة تكاد تكون النصيحة ذاتها التي شاعت عن اليهود ابان الاحتلال : (اشكل ما يقلك الصاحب قلو : يس ...)

فتولى عبد الكريم الجلبي الجواب نيابة عني وقال : لا .. لا يا سعادة الميجر انا كفيله ، انه سوف يترك الاشتغال بمثل هذه السفاسف .. وبعد ذلك سألني الميجر : هل تقبل بنقلك الى بغداد ؟ انني في الحقيقة كنت راغبا رغبة شديدة في النقل الى بغداد لانني كنت ارغب في الالتحاق بكلية الحقوق التي تقرر فتحها في ابتداء السنة الدراسية ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ فأجبته على الفور : بكل سرور يا سيدي .. واصدر امره الى عبد الكريم جلبي: انقلوه الى بغداد كاتبا في القلم العربي في نظارة المعارف براتب قدره (١٤٠) ربية شهريا .. وهكذا باشرت عملي الجديد اعتبارا من صباح ١/٨/١٩٢٠ .

والقلم العربي آنذاك كان عبارة عن غرفة واحدة في مبنى بيت دلة يشتغل فيها موظفو القلم جميعهم وهم : عبد الكريم الجلبي مدير القسم وعبد الله بك مظفر المعاون الشخصي لناظر المعارف ، ويوسف بك ابراهيم باشا المعاون لناظر المعارف ، ومحمد بشقه المترجم وعباس حمودي وانا .

ان العناوين التي كان يحملها كل من عبد الكريم الجلبي وعبد الله مظفر ويوسف ابراهيم لم تكن الا « القاب فخفخة في غير موضعها .. » اذ ان كلا منهم في حقيقة الامر لا يقوم الا باعمال روتينية تافهة ، فعبد الكريم جلبي مثلا ليس له عمل سوى تحضير بعض الاجوبة الروتينية على مخابرات بعض المدارس الاولية والابتدائية ، وعبد الله بك مظفر يزور بعض المدارس عندما تكون في حاجة الى عمل رحلة مدرسية اوسبورة او تنظيف البالوعات ليتأكد من احتياجها ويقدم تقريرا بذلك .. وحتى عمله هذا لا يقوم به الا بعد ان يتلقى امرا من ناظر المعارف او معاونه الانكليزي ...واما يوسف بك ومحمد بشقة فانهما يقومان بتعريب الاوامر والتعليمات الصادرة عن الرؤساء الانكليز ، وعباس وانا نقوم بالاستنساخ على الالتين الكاتبتين العربيتين .. وكثيرا ما تجري في هذه الغرفة حوادث

تضحك الثكلى ... ولا ازال اذكر الحادثين التاليين انقلهما لطرافتهما : كان عبدالله بك مظفر يبذل جهودا مضنية في تعلم اللغة الانكليزية ،وكان كتاب تعليم اللغة الانكليزية لا يفارق يده .. انه يقرأ على طول الخط ، ولكنني على يقين انه لم يكن في استطاعته ان يتعلم كلمة واحدة في اليوم الواحد .. وفي يوم من الايام ، وعلى حين غرة واذا به يطلق من فمه قهقهة عالية ... ويقول : سبحان الله ، ما اعجب الانكليز وما اغربهم ... أتعلمون ماذا يسمون السكينة ؟.. انهم يسمونها : « كنيف » ؟

وفي احد الايام كلفني عبد الكريم جلبي ان اكتب جوابا على كتاب وارد من احدى المدارس الابتدائية ، وحررت الجواب وقدمته اليه ، وكانت فيه جملة مفادها « لم نر من المناسب ان ... » . فتناول عبد الكريم الجلبي قلمه ، وغطسه في الحبر الاحمر ، واضاف حرف « ى » الى كلمة « لم نر » .. انني كنت آنذاك حديث عهد في النحو العربي ، ولكنني على كل حال كنت اتقن حروف النصب والجزم وغيرها من مبادىء علم النحو فاعترضت عليه وقلت : لا لزوم للألف المقصورة يا حضرة المدير لان «لم» من حروف الجزم وتجزم الفعل المضارع بحذفها الياء ...فنظرني نظرة شزراء وصرخ في وجهي : « طيب ولتكن « لم » من حروف الجزم ، ولكن ما ذنب الألف المقصورة لتطير ؟...»

صحيح انني بعدما عينت كاتبا في القلم العربي في نظارة المعارف تركت الخطابة في الجوامع وكان تنظيم المواليد قد منع اصلا بأمر الحاكم الملكي والعسكري في شهر آب ١٩٢٠ ، وانتهزت فرصة اقامتي في بغداد ودخلت الى الصف الاول من كلية الحقوق التي فتحت في مبدأ السنة الدراسية ١٩٢٠ ــ ١٩٢١ ، الا انني لم اترك نشاطي السياسي بل ازدادت رغبتي في هذا النشاط واشتد اندفاعي الى الميدان السياسي بشكل عجيب

فكنت لا اترك اجتماعا سياسيا يعقده عدد من الشباب الوطني المثقف الا حضرته ، ولا اتقاعس عن تحرير المناشير وتوزيعها على الطبقات المختلفة في دور السينما والمقاهي والشوارع وغيرها ... واصبحت ملازما للمرحوم السيد عبد الغفور البدري « صاحب جريدة الاستقلال » في جميع روحاته وغدواته ... وبدأت آنئذ اكتب بعض الاخبار المحلية في جريدة الاستقلال واصبحت بعد قليل احرر بعض المقالات ايضا فتنشرها لي الجريدة بعد ان يقوم بتصحيحها الصديق الكريم السيد القاسم العلوي رئيس تحرير الجريدة .. وهكذا صرت في عداد افراد عائلة جريدة الاستقلال اقضي معظم اوقاتي فيها .. وقد خصص لي المرحوم عبد الغفور البدري غرفة لي في ادارة الجريدة (١) .. اصبحت لي بمثابة منزل دائم ابيت فيه ايضا .

Hamad Khalifa

---

(١) كانت جريدة الاستقلال انذاك تشغل بناية مستقلة في شارع النهر بالقرب من المحكمة الشرعية الان ...

الاسباب الحقيقية للثورة العراقية

كتب الكثيرون : من اجانب وعراقيين عن الاسباب المباشرة للثورة العراقية منهم من زعم انتردي الحالة الاقتصادية بعد الاحتلال أدى الى البطالة بين افراد الشعب العراقي وسبب تذمرا بين الناس أدى الى انسياقهم في تيار تحريض السياسيين واندفاعهم نحو الثورة ، ومنهم من قال ان السبب كان محض عمل شخصي عندما هجم الشيخ غثيث ومعه جماعة من عشائر بني حجيم على سجن الرميثة واطلاق سراح الشيخ شعلان ابو الجون ابن عمه ، كما ان البعض الاخر عزا الثورة الى تحريضات خارجية واموال ومساعدات اجنبية ... الا ان الحقيقة التي لا غبار عليها هي ان الثورة العراقية كانت ثورة عراقية روحا وقالبا ... واليك بعض الاسباب لاندلاع هذه الثورة العارمة حسب رأيي ومعتقدي :

١ ــ ان الروح القومية بدأت تنتشر في العراق ــ في بغداد خاصة ــ منذ تأسيس المنتدى الادبي من قبل بعض الشباب العراقي الذين اكملوا دراساتهم في استانبول في العهد العثماني ...

٢ ــ ان منشور القائد الجنرال مود فاتح بغداد ، الذي قال فيه : « اننا أتينا منقذين ولسنا بفاتحين » قد بعث في نفوس العراقيين رغبة

صادقة في الاستقلال ، ولما جربوا الانكليز ووجدوهم غير جادين في وعودهم وان جميع تلك الوعود لم تخرج عن كونها كلمات معسولة لا تغني ولا تسمن من جوع ، ازدادت نقمتهم على السلطة المحتلة وتبنوا شعار : « ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى » .

٣ ــ انامل العراقيين ، لا بل العرب جميعهم خاب في الانكليز منذ اطلاعهم على بنود اتفاقية (سايكس ــ بيكو) تلك الاتفاقية التي وضعت البلاد العربية تحت نفوذ بريطانية وفرنسة ، لا سيما وان هذه الاتفاقية تمت بعد مدة وجيزة من الوعود التي قطعتها بريطانية للشريف حسين في امر استقلال البلاد العربية استقلالا ناجزا ...

٤ ــ اصبح الشعب العراقي لا يطيق تعسف الحكام السياسيين وطغيانهم في ادارة البلاد ، فالظلم قد اصبح ديدنا ، وهدر كرامات الناس عادة يتسلى بها اولئك الحكام المتعجرفون .. وها انني انقل في ادناه ثلاث حوادث سمعت بعضها ورأيت البعض منها بأم عيني :

أ ــ كنت يوما في قصبة دلتاوة اجلس في مقهى مع بعض الرفاق ، واذا بشرطي حامل بيده عصا غليظة ويسير بخطوات سريعة وهو يصيح بأعلى صوته : قوموا .. قوموا .. فنهض الجالسون في المقهى جميعهم وقوفا على ارجلهم ــ وانا من بينهم طبعا ــ واذا بضابط انكليزي يسير على قدميه ثم يرفع يده اليمنى يحي الواقفين بابتسامة ساخرة واستخفاف مقيت ..كنت انذاك قد عدت من استانبول قبل زمن يسير ولم يسبق لي ان شهدت منظرا كهذا ولم اسمع بمثل هذا العمل السخيف المهين للكرامات .

ب ــ كان لزوجة الحاكم السياسي في بعقوبة قطة جميلة ، تعتز بها وتحبها اكثر من كل شيء آخر ... غابت هذه القطة عن الدار يوما ....

فقامت الدنيا وقعدت •• ارتبكت الأمور في دوائر الحكومة ، واضطرب كل الناس في البيوت والمخازن والشوارع وكل مكان آخر •••• ان القطة يجب ان تظهر ، وتعاد الى صاحبتها حالا ، والا فالويل والثبور لكل الناس في البلد ••• مرت ثلاثة ايام ، والقطة لم تظهر •• رغم كل التحريات والتشبثات والاجراءات والاستفسارات ••• ذابت القطة كفص ملح في ماء ساخن •• واخيرا بعد ثلاثة ايام ملاىء بالقلق والانزعاج صدر امر الحاكم السياسي •• على اهل بعقوبة ان يدفعوا ثلاثة الاف ربية غرامة عن القطة •• (١) فجمع المبلغ في خلال ساعات وسلم الى عقيلة الحاكم السياسي •

جـ ـ كان احد شيوخ العشائر يوما عند الحاكم السياسي في بعقوبة ••• وبينما كان الحاكم والشيخ يتجاذبان اطراف الحديث واذا بكلب الحاكم يدخل الى الغرفة ، ويتقدم نحو الشيخ يشم طرف عباءته ، فنهض الشيخ كالمذعور ، وصاح : « عوذة ، عوذة •• » فاستغرب الحاكم هذا الوضع ، وسأل الشيخ : ماذا جرى ؟ لماذا جفلت ؟•• انه كلب مؤدب ، لا يؤذي احدا بحضوري مطلقا •• فأجابه الشيخ : انا لست بخائف منه ، ولكنه نجس يا حضرة الصاحب ••• فازداد الحاكم غربة •• وصاح بوجه الشيخ : لا ، لا هذا ليس نجس ، انه انظف منك •••

ان كل هذه الاعمال والاتجاهات هيأت الناس الى الثورة وجعلتهم يؤمنون بان لا نجاةالا بالثورة ولا اعتماد الا على قوة السلاح •• وعليهنا ان اؤيد رأي القائلين من الكتاب : « ان فكرة المطالبة بالحكم الوطني والتحرر من الانتداب والاستعمار بدأت في بغداد قبل ان تبدأ في اي مكان اخر» • اما العشائر في الفرات الاوسط وفي غيره من انحاء العراق ، فلها

---

(١) الربية تساوي ٧٥ فلسا بعملتنا الحالية ..

الفضل في قبول الفكرة المنبثقة من شباب بغداد وتنفيذ خططها بالسلاح ... ومع ان الثورة الفعلية باستعمال السلاح بدأت في الرميثة ، ثـم انتشرت الى الفرات الاوسط وعمت الديوانية والحلة والكوفة وكربلاء والنجف الاشرف وسائر انحاء العراق ، الا ان عددا من الضباط الاحرار البغداديين (١) التحق فعلا بالثوار وقدم لهم خدمات جليلة في القيادة والتنظيم وادارة الحركات حتى ان المدفع الذي غنمه الثوار نتيجة معركة الرارنجية الشهيرة قد استوردت بعض اجزائه المعطلة من بغداد على ايدي هؤلاء الضباط وتم اصلاحه بنظارتهم وارشاداتهم ، ثم استعمل في قصف الباخرة «فاير فلاي» البريطانية التي كانت مرابطة في ساحل الفرات في الكوفة واغرقها في الموقع الذي كانت ترسو فيه .

استمرت الثورة مستعرة اشهرا عديدة ، والثوار يهجمون ويدافعون بشجاعة منقطعة النظير ، وبعد اربعة اشهر من قتال مرير اخذت حدة الثورة تخف ولهيبها يخبو واصبح امل النجاح بحكم العدم ، وساد الاعتقاد بان استمرار القتال معناه سفك دماء غزيرة بدون اي مبرر ، فتوقف القتال واستسلم الثوار للامر الواقع وعادت السلطات الانكليزية تحتل الاماكن التي استولى عليها الثوار ، وبدأت حياة الاستقرار تعود الى المدن والقصبات ولو بشكل مزيف يخفي وراءه جروحا بليغة في النفوس وآلاما مبرحة في القلوب وحقدا متزايدا ينتظر جولة قابلة للاخذ بالثأر والانتقام .

ولقد كانت خسائر البريطانيين حسب الاحصاءات البريطانية (٤٢٦) قتيلا و(١٢٢٨) جريحا و(٦١٥) مفقودا ، اما خسائر العراقيين فانها تزيد على ثمانية الاف قتيل حسب ما تدعيه المصادر الانكليزية ...

---

(١) اذكر منهم سامي النقشلي وشاكر القره غولي وحسين علوان ...

خرج الانكليز بطبيعة الحال منتصرين من هذه المجزرة البشرية التي كان سوء ادارة حكامهم سببا لها ، على انهم في الوقت نفسه تأكدوا من ان العراق ، لا يمكن حكمه حكما مباشرا ... اما فكرة الحاقه بحكومة الهند فانها بعيدة المنال وفي حكم المستحيل ، ولذلك اخذوا يفكرون في شكل من الحكم الوطني يكفل مصالحهم في البلاد ، ويخفف من حدة التوتر السائد على الاذهان في مختلف انحاء العراق .

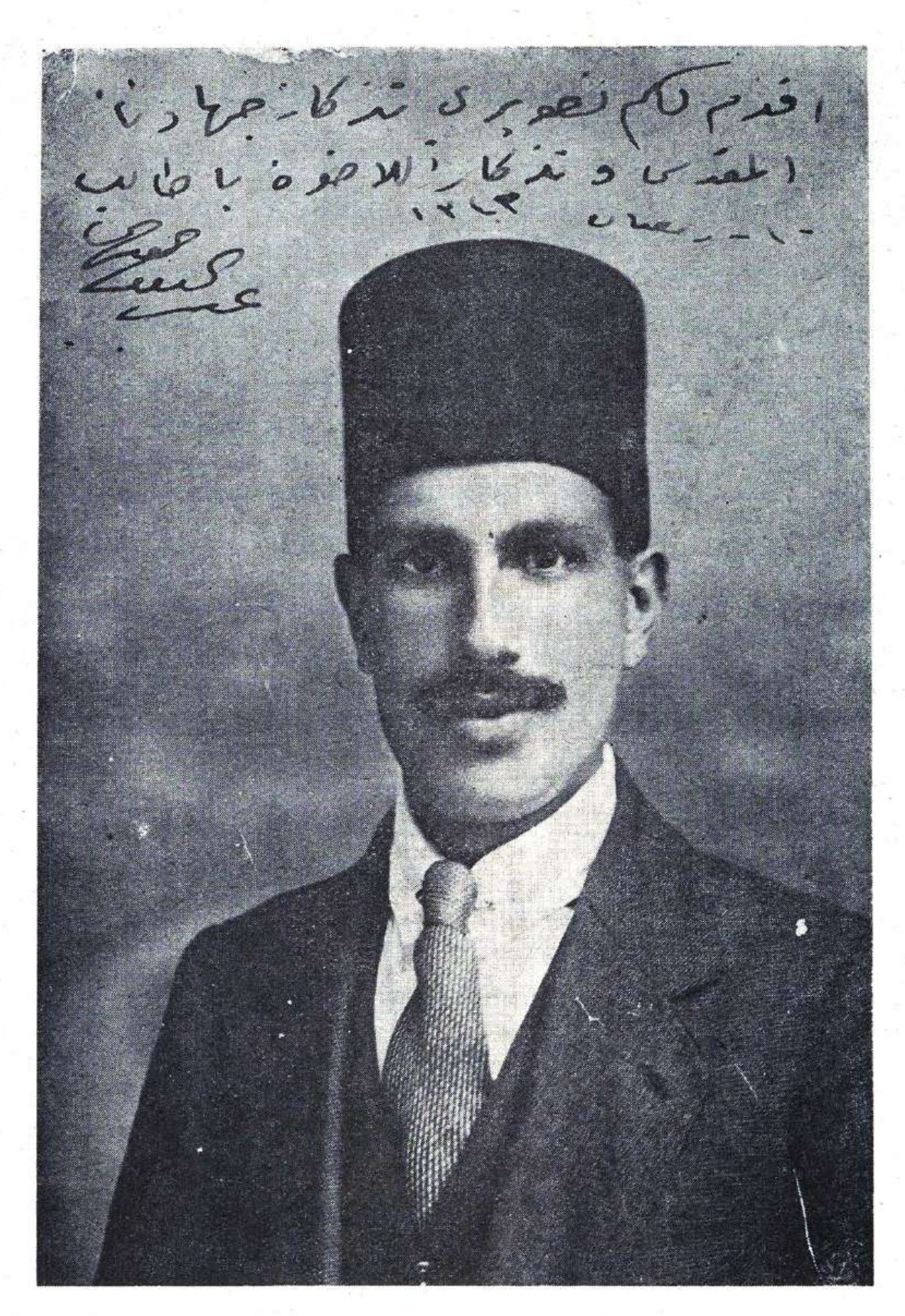
وبعد انتهاء القتال بقليل ، صرنا نسمع شائعات مفادها ان السربرسي كوكس عائد الى العراق ، وانه سيقوم بتأليف حكومة وطنية في بغداد تمهيدا لاعلان استقلال العراق وتنصيب ملك على عرش العراق يختاره الشعب بمحض رغبته وارادته ... وقد صحت هذه الشائعات التي روج لها الانكليز انفسهم ، فوصل السر برسي كوكس الى بغداد في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين اول ١٩٢٠ وجرى له استقبال حافل من قبل الحكومة المحلية ، شارك فيه عدد لا بأس به من المتملقين والمتزلفين الذين كان الشعب يحتقرهم ويعتبرهم اذنابا للمستعمرين وفي مقدمة هؤلاء كان المرحوم جميل صدقي الزهاوي الذي القى قصيدة رحب فيها بمقدم السر برسي كوكس وكانت مليئة بالرياء والتزلف جعلت افراد الشعب يستقبحون هذا التصرف من قبل شاعر عراقي كبير ، وقد اعتبروا كل كلمة وردت في هذه القصيدة تحديا للشعور العام وطعنا في الكرامة الوطنية .

وبعد وصول السر برسي كوكس الى بغداد بثلاثة اسابيع تقريبا تألفت الوزارة العراقية الاولى برئاسة السيد عبد الرحمن الكيلاني نقيب اشراف بغداد ، وهي تضم ثمانية وزراء عدا الرئيس مع عدد من رجال يعتبرون من المتنفذين في ذلك العهد يحملون لقب « وزير بلا وزارة » ... وقد اجتمعت الوزارة الاولى للحكومة المؤقتة ، كما كانوا يسمونها في ذلك الوقت لاول مرة في دار رئيسها في اليوم الثاني من تشرين اول ١٩٢٠

بحضور السربرسي كوكس نفسه ... وكان مفهوما لدى الخاص والعام في ذلك الحين ان هذه الوزارة ما هي الا واجهة تختفي وراءها السلطة الانكليزية وتملي ارادتها بوحي من المصالح البريطانية ، وان الحكومة الجديدة لا تستطيع ان تقوم حتى بأتفه الامور الا بامر او بموافقة من السر برسي كوكس ، المندوب السامي البريطاني ...

وفي هذه الفترة من الزمن اخذ الناس يتكلمون عن الشخص الذي سيتبوأ عرش العراق : فمنهم من يرى ان يكون الملك عراقيا ، ومنهم من يقول ان احد اولاد الشريف حسين اولى بالملوكية من اي شخص اخر . ومن المعلوم ان المؤتمر العراقي الذي انعقد في دمشق يوم ٨ اذار ١٩٢٠ قرر اعلان استقلال العراق ، وطالب ان يكون « الامير عبد الله » ملكا يتبوأ عرش العراق .. هذا صحيح ، ولكن عندما فقد الملك فيصل عرشه في سورية نتيجة مؤامرة دبرها الافرنسيون بالتعاون مع الحكومةالبريطانية اتجهت الانظار الى الملك فيصل ، وصار معظم المثقفين في العراق ، وفي مقدمتهم زعماء الثورة (لا سيما اولئك الذين التجأوا الى الحجاز) يرشحونه لعرش العراق ، وقد كتب بعضهم فعلا الى الملك حسين يرجوه ارسال الملك فيصل الى بغداد لينتخبوه ملكا لدولة العراق الفتية ..

على ان هناك طبقات من الناس ذات ميول مختلفة وافكار واتجاهات متباينة كانت ترى غير ذلك ، وعلى هذا الاساس اصبحنا نسمع من بعض الافواه مرشحين لعرش العراق لا ناقة لهم في العراق ولا جمل ، ولا نسب لهم مع العروبة ولا حسب : كالامير العثماني برهان الدين ، ووالي يشتكوه ، واغاخان ... وكان البعض يرشح السيد عبد الرحمن النقيب الا ان هذا كان زاهدا في اي مركز في الدولة ، حتى لو كان هذا المركز ملكا ... واقلية من الناس الذين يركضون وراء المنافع الخاصة كانت تتردد على السنتهم اسماء الشيخ خزعل ، وشيخ الكويت ، او احد انجال الملك عبد



المجاهد الوطني عبد الغفور البدري صاحب
ومؤسس جريدة الاستقلال

العزيز بن السعود .. والبعض من الانكليز كان يقدم اسم الجنرال عبد الهادي العمري مرشحا للعرش : ومما لا شك فيه ان السيد طالب النقيب وزير الداخلية في اول حكومة مؤقتة ، كان اقوى المرشحين بعد الملك فيصل ... انه كان يبذل المال بسخاء في سبيل الدعاية له ، وينفق بلا حساب على طبقة من الدعاة التفوا حوله ... اقمنا مرة حفلة تمثيلية لمنفعة (١) احدى المجلات الوطنية ، فتبرع لنا السيد طالب النقيب بمبلغ ستة الاف ربية آملا ان يجذبنا الى حزبه ، الا ان عمله هذا لم يزدنا الا تمسكا بمبادئنا واندفاعا في سبيل الدعاية للملك فيصل نجل الشريف حسين ... كان السيد طالب النقيب يكره فيصلا بشكل عجيب ، ولم يطق سماع اسمه وطارد دعاته مطاردة عنيفة ادخلت البعض منهم الى السجون . ولقد كانت جريدة الاستقلال يومئذ بمثابة منبر للدعاية للملك فيصل ، وكان الشبان الذين يحررون هذه الجريدة مندفعين غاية الاندفاع في تأييدهم فيصلا ومطالبتهم بمجيئه وتسنمه عرش العراق ... ولا ازال اتذكر السيد طالب النقيب وقد طلب يوما عبد الغفور البدري المرحوم صاحب جريدة الاستقلال ومؤسسها وعرض عليه اثني عشر الف روبية قائلا : لا اريد ان تقوم باية دعاية لشخصي ، وانما الذي اطلبه لقاء هذا المبلغ هو ان لا تذكر اسم « الملك فيصل » في جريدتك ... ورفض البدري العرض باباء واستمر على السير في جريدته وفق منهجها الوطني المعروف ، وهي تدعو الناس الى المطالبة بفيصل ولا ترضى عنه بديلا ...

واخيرا عادت السياسة الانكليزية تنظر الى الامور بعين مصالحها .. وشعرت انها قامت بعمل لا اخلاقي عندما وافقت الفرنسيين على وأد

---

(١) مثلت في هذه الحفلة رواية وفود النعمان على كسرى . وقد قام بتمثيل الدور الرئيسي في هذه الرواية (دور النعمان بن المنذر) السيد قاسم العلوي ومثلت انا دور (المنخل اليشكري) .

الحكومة السورية الفتية في مهدها وتقويض عرش فيصل وتشريده ،ورأت في فيصل الشخص اللائق المطلوب لعرش العراق ، وبذلك تكون قد اعطت قبل كل شيء ترضية مناسبة للملك ذاته ويكون عملها في الوقت نفسه مطمئنا رغبة العراقيين الناقمين على ادارتهم وسوء تصرفاتهم في العراق ••• والملك فيصل الذي جرب سياسة التصلب والعناد في سورية ورأى نتائجها المؤلمة سوف لا يعود الى نفس السياسة في العراق وسيكون اكثر اعتدالا وتقربا من الانكليز حفظا على عرشه ومصالحه ••• وعلى هذا الاساس انعقد مؤتمر القاهرة برئاسة المستر تشرشل في يوم ١٢ اذار ١٩٢١ وحضره من العراق السير برسي كوكس المندوب السامي البريطاني والمس بيل سكرتيرة الشؤون الشرقية في دار الاعتماد البريطاني في بغداد ، وجعفر العسكري وزير الدفاع ، وساسون حسقيل وزير المالية ، والجنرال هلدن القائد العام للقوات البريطانية في العراق وغيرهم (١) ••• وتم الاتفاق في هذا المؤتمر على ان يكون فيصل ملكا على العراق •••

وفي عصر ٢٩ حزيران ١٩٢١ وصل فيصل الى العراق وفي معيته عدد من العراقيين الذين هربوا من العراق اثر فشل الثورة العراقية ، وكان ذلك اليوم مشهودا في تاريخ العراق خرجت فيه بغداد برمتها لترحب بمقدم الامير الهاشمي محط آمال العراقيين وموضع رجائهم ••• وقد حضرت هذا الاستقبال في محطة جنوبي بغداد ومعي السيد احمد زكي الخياط الصديق الكريم ، ونزل فيصل من القطار ، مشرق الوجه مبتسما، تكسو وجهه ملامح رجولة وسيمة ••• وعلا التصفيق ودوت الهتافات

---

(١) من المعلوم انه قد ألقي القبض على السيد طالب النقيب من قبل الانكليز بناء على تفوهه ببعض كلمات يهددهم بها في حالة اصرارهم على انتخاب فيصل ملكا للعراق ، ونفي الى جزيرة سيلان قبيل انعقاد هذا المؤتمر .

بحياته ملكا هاشميا على عرش العراق ••• وبعد الانتهاء من المراسم المعتادة توجه موكبه الى الكاظمين للقيام بواجب الزيارة للامام موسى الكاظم عليه السلام • وقد كنا جماعة من الشباب المتحمس يومئذ نشكل حلقة تحيط بالملك المحبوب وتبعد عنه الناس وتشق له الطريق بين هذه الامواج المتلاطمة من الكتل البشرية ، وكنا (الاخ احمد زكي الخياط وانا) نمسك بذراعيه ونسير به الى الامام خطوة بعد اخرى الى ان اوصلناه الى سيارته ••• وفي الكاظمية كانت الجماهير محتشدة في مدخل الصحن الشريف ، وفي الصحن نفسه نحرت عشرات القرابين عندما وضع قدميه على عتبة المدخل ••• كان الوقت صيفا قائظا وكنت ألبس يومئذ بدلة بيضاء تلطخت في مختلف اقسامها ببقع دماء القرابين وقد احتفظت بتلك البدلة سنين عديدة ذكرى ذلك اليوم التأريخي العظيم ••

لقي الملك فيصل في العراق تأييدا شاملا ••• كان الانكليز يريدونه لانهم وجدوا فيه الزعيم الذي يأتمنونه على حفظ مصالحهم ، والحكومة العراقية المؤقتة ترحب به تملقا لاسيادها الانكليز وتزلفا لهم ، والاقليات غير المسلمة أيدت ترشيحه مسايرة للانكليز وانقيادا لايعازهم •• اما الوطنيون فقد وضعوا فيه كل آمالهم في الاستقلال والانعتاق و اعتبروه رمزا شامخا لعزتهم وكرامتهم ••• وجرى الاستفتاء في كل انحاء العراق ــ عدا لواء السليمانية ــ وتهافت الناس على توقيع المضابط الانتخابية بشوق عظيم ورغبة ما فوقها رغبة ، واعلنت النتائج التي اظهرت ان ٩٦ ٪ من افراد الشعب صوتوا للامير ملكا للعراق ••• وبعد ذلك تقرر ان تكون حفلة التتويج في صباح يوم ٢٣ اب ١٩٢١ ، وكنت احد حاضري هذه الحفلة التي ابتدأت بوصول الملك في الساعة السادسة الى ساحة السراي حيث وضعت منصة واسعة في المكان الذي تشغله وزارة العدل في الوقت الحاضر ، وفرشت الساحة بالسجاد الايراني الفاخر ، وجلس

فيصل على كرسي ضخم ووقف على يمينه السر برسي كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق ، ووقف على يساره الجنرال هلدن قائد القوات البريطانية واصطف خلفه عدد من المرافقين عراقيين وانكليز . وعندئذ تقدم السيد محمود النقيب المرحوم نجل رئيس وزراء الحكومة العراقية المؤقتة وتلا دعاء تمنى فيه للشعب العراقي كل خير ورفاهية في عهده الجديد وتضرع الى العلي القدير ان يوفق فيصل الاول ملك العراق ويأخذ بيده في مساعيه ويكلل اعماله بتوفيق من عنده ... ثم نهض الملك فيصل الاول وشكر الشعب العراقي على ثقته فيه وحسن ظنه ولم ينس في هذه المناسبة ان يقدم للحكومة البريطانية شكره الجزيل على مناصرتها القضاياالعربية ؟؟.. وبعد ذلك تطرق الى احوال العراق من جميع نواحيها وبين مواطن الضعف في الشعب العراقي ، ووعده ان يتولى معالجة تلك الاوضاع بعناية تامة وبحرص شديد ... ويظهر ان المليك اراد ان يوقع على صك للحكومة البريطانية يتضمن اخلاصه لهم وحرصه على دوام حسن العلاقات معهم فقال في خطابه « وقد صرحت مرارا بان ما نحتاج اليه لترقية هذه البلاد يتوقف على امة تمدنا باموالها ورجالها ، وبما ان الامة البريطانية اقرب الامم الينا واكثرها غيرة على مصالحنا فاننا سنستمد منها ونستعين بها وحدها على الوصول الى غايتنا المنشودة في اسرع وقت » . ان هذه الفقرة من الخطاب زرعت في قلوب الوطنيين اول بذرة من الشك والارتياب في تصرفات الملك وسلوكه مع الانكليز في قضايانا الوطنية ... وقد اخذ بعض الشباب الوطني يتكلم علانية ينتقد الملك على تصريحه هذا الذي جاء ليس مخالفا للواقع حسب ، بل ومحطما ما وضعته الامة فيه من آمال جسام ايضا ، وصار بعضهم يقول ان الملك فيصل اشبه بتاجر مفلس ، استعاد اعتباره بمساعدة بعض اصدقائه ودخل الى السوق وجلا حذرا ، لا يستطيع ان يقوم بأية صفقة تجارية ما لم يضمن النجاح بمساعدة بعض مشجعيه في العمل ... والملك الجديد يخشى ان يكون مصيره في العراق كمصيره في

سورية ، لذا يريد ان يضمن تأييد الانكليز وتشجيعهم أياه قبل اي شيء اخر ...

اعود الان الى وضعي في نظارة المعارف ... ، فبعد مضي بضعة اشهر على تعييني كاتبا في القلم العربي في ديوان نظارة المعارف ، سافر الميجر بومن الى لندن ، واتى محله الكبتن فارل ،وكان مديرا للمعارف في منطقة الموصل .. انه رجل فظ ، سيء الخلق ، عصبي المزاج وقد جمع في نفسه كل صفات المستعمر الوقح الذي يستهين بكل شيء ولا يتردد في اتيان اي منكر للوصول الى هدف من اهداف الاستعمار ... وفي زمن هذا المستعمر المتعجرف تقرر ارسال اول بعثة عراقية لاكمال الدراسة في الجامعة الاميركية في بيروت ، وراجعته مرشحا نفسي لهذه البعثة اذ كانت جميع الشروط المطلوبة متوفرة في .. نظر الي نظرة فيها كل علامات الحقد والبغضاء وقال : انت كنت ولا تزال تشتغل في السياسة ضد الانكليز ، اليس كذلك ؟ .. سكت ولم اجبه .. واستطرد : وكنت تخطب في جامع الحيدرخانة وتسير مع المتظاهرين احتجاجا على السلطات البريطانية ... انني اعلم كل ذلك عنك واكثر ، فكيف تجرأ والحالة هذه ان تطلب الي ضمك الى عداد بعثة علمية بنفقة الحكومة ؟ اذهب الى عملك ولا تراجعني مرة اخرى ... خرجت من غرفته وقد ازددت حقدا على حقد ونقمة على نقمة على كل مستعمر من امثال هذا الانكليزي الصلف ... وزاد في الطين بلة في تلك الاثناء تعيين رجل بريطاني اسمه المستر ويليمسن بوظيفة رئيس ملاحظين في نظارة المعارف . وكان هذا أيضا لا يقل عجرفة او غطرسة عن رئيسه الكبتن فارل ، وان كان اقل منه ثقافة واوفر جهلا ... وقد بدأت مشاكسته اياي من اول يوم بدأ العمل فيه.. كان يخلق الاسباب خلقا لينتهرني ، او ليحملني مسؤولية مخالفة لا دخل لي فيها مطلقا ... واضطررت اخيرا الى تقديم استقالتي التي قبلت في اول

لحظة قدمتها ، وكان ذلك في اول تشرين ثاني ١٩٢١ ... وفي اثرهـــا شمرت عن ساعد العمل واستأجرت غرفتين في خان يقع في شارع الجسر القديم . واشتريت آلة كاتبة عربية ، وجهزت الغرفتين بما تحتاجان اليه من اثاث ، وطبعت اعلانا بافتتاح « المكتب الوطني » ووزعته على طبقة كبيرة من المحامين والتجار والشركات وغيرها ... كان مشروعي يتضمن القيام بالاعمال التالية : طبع اللوائح القانونية للمحامين بنسخ عديدة على الآلة الكاتبة (١) ، تدريس اللغة العربية مساء ، تدريس اللغة الانكليزية مســاء ايضا ... وكان الاستاذ بهجة الاثري قد تعهد بتدريس اللغة العربية واخذ السيد فتحي المصري المحاسب في نظارة المعارف على عاتقه تدريس اللغــة الانكليزية ... ولكن هذا المكتب لم يستمر مع الاسف اكثر من شهرين اثنين استدعاني بعدهما السيد هبة الشهرستاني المرحوم وزيــر المعارف طالبا مواجهتي ، ولما حضرت بين يديه قال لي : انني في حاجة ماسة الــى سكرتير خاص ينجز بعض مكاتباتي الرسمية ، ولم اجد احدا بين موظفي الوزارة يستطيع القيام بهذه المهمة على الوجه الذي ارغب فيه .. وقــد ذكر لي بعض الاصدقاء اسمك ، واثنوا على اخلاقك ، ومواقفك الوطنية اثناء الثورة وبعدها ، كما انني سمعت من داخل الوزارة الشيء الكثيــر عن كفاءتك ومقدرتك ، هذا بالاضافة الى انني علمت ايضا انك قــدمت استقالتك لاختلافك مع بعض الانكليز فهل ترغب والحال هذه ان تعــود ثانية سكرتيرا خاصا بي ؟.. لقد ترددت في بادىء الامر ، ولكنني وافقت بعد اصرار الوزير والحاحه ... على انني اخبرته بانني لااعود الــــى المعارف ثانية براتب اقل من مئتي ربية شهريا ، علما ان راتبي كان مئة

---

(١) لم يملك حتى ذلك التاريخ ، احد من المحامين الة كاتبة عربية ، فكانوا جميعهم يستنسخون لوائحهم القانونية بأيديهم فجاء مشروعي بنعمــة لهم غير مرتقبة واخذ الكثيرون منهم يراجعونني لاستنساخ لوائحهم بأجور لا بأس بهــا .

وستين ربية عند استقالتي ... وفي اثر ذلك طلب الوزير محاسب الوزارة واستفسر منه عما اذا كان الملاك يساعد على اعادة خدمتي الى المعارف براتب مئتي ربية شهريا ، وكان جواب المحاسب مؤيدا امكانية هذا التعيين .. وهكذا بدات عملي الجديد في الوزارة سكرتيرا خاصا بوزير المعارف بتاريخ ١٩٢٢/١/١ . لم ابق بوظيفتي هذه اكثر من ستة اشهر ، وفي الحقيقة انني سئمتها لان كل اعمالي انحصرت في تنظيم بعض المخابرات الخاصة بالوزير وبعض اصحابه ومراجعيه ، وكانت اعمالا رتيبة مملة لا تتفق ورغبتي وطموحي ... وصدف ان وضعت آنذاك اسس تشكيل مديرية معارف بغداد ، على ان يديرها مدير عراقي ، ووقع الاختيار على يوسف بك ابراهيم باشا ليكون مديرها ، فتشبثت في ان اعين رئيسا لكتاب هذه المديرية ، ونجح مسعاي وصدر امر تعييني رئيسا ومحاسبا لمديرية معارف بغداد بتاريخ ١٩٢٢/٦/١٨ .

كانت الاحزاب السياسية العلنية قد تألفت في بغداد وقتذاك ، وكان كل من الحزبين الوطني والنهضة يمثل الجبهة الوطنية التي تطالب بالاستقلال التام وتعارض المعاهدة العراقية ـ الانكليزية . اما الحزب الحر المعتدل فلم تتعد اهدافه تأييد الوزارة واخراج المعاهدة العراقية ـ البريطانية الى حيز الوجود ، وموالاة الانكليز ومسايرتهم في كل ما يرغبون فيه (١) ...

ومما لا شك فيه ان الاكثرية الساحقة من سكان بغداد ، بالاضافة

---

(١) كان جعفر ابو التمن زعيما للحزب الوطني ، والحاج امين الجرجفجي زعيما لحزب النهضة ، اما الحزب الحر المعتدل فكان زعيمه السيد محمود النقيب ، النجل الاكبر للسيد عبد الرحمن النقيب رئيس الحكومة .

الى عدد كبير من رؤساء العشائر وسكان الفرات ، كانوا يؤيدون الحزب الوطني وكان الاقبال على التسجيل في هذا الحزب شديدا . فراجعني في تلك الاثناء عبد الغفور البدري المرحوم ورجاني ان اطلب اجازة شهر واحد اقوم خلاله بتسجيل الراغبين في الانتماء الى الحزب ومساعدة رئيس الحزب في انجاز بعض المخابرات ... فنفذت الطلب برغبة وحرص شديدين ... وصرت اقوم بعملي يوميا من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل ، في بناية الحزب الواقعة في مدخل زقاق العاقولية .

ولقد قرر الحزب الوطني ، يؤازره في ذلك حزب النهضة القيام بمظاهرة كبرى في يوم الذكرى الاولى للتتويج (٢٣ اب ١٩٢٢) .. وفي صباح ذلك اليوم احتشدت جموع غفيرة في شوارع بغداد وسارت نحو السراي وهي تندد بالمعاهدة العراقية الانكليزية (١) بهتافات مدوية .. كان الملك فيصل يقيم يومئذ في دائرة الوالي القديمة التي تطل على نهر دجلة، في وسط ساحة السراي او (القشلة) كما كان اسمها في العهد العثماني (٢) ولما حضر السر برسي كوكس لتقديم التهاني الى الملك بمناسبة مرور عام واحد على تتويجه ، كانت الجماهير تتلاطم كالامواج الصاخبة في بحر هائج ... ولما رأت السر برسي كوكس مقبلا ليصعد السلالم كي يصل الى الحضرة الملكية دوت الهتافات بسقوط المعاهدة ، وحياة الاستقلال التام دون حماية او وصاية ... فحافظ السر برسي كوكس على هدوئه امام الشعب الصاخب وتقدم الى الامام بخطوات متزنة هادئة كأنه لم ير ما يجري حوله ولم يسمع ما يخدش اذنه . ويغلب على الظن انه لم يفاتح

---

(١) شاركت شخصيا في هذه المظاهرة وسرت في مقدمتها وهتفت بحياة الاستقلال بلهفة وحماس .

(٢) اقتلعت هذه الدائرة اخيرا من الاساس وشيدت فوقها عمارة رئاسة الوزارة القديمة .

الملك فيصل بهذه المظاهرة العدائية التي كانت بمثابة لطمة على وجهه ، ولكنه بعدما عاد الى قصره ارسل احتجاجا شديد اللهجة الى الملك معتبرا المظاهرة الصاخبة التي جوبه بها وهو مقبل على البلاط لتقديم التهنئة الى الملك اهانة لشخصه ، فضلا عن انها تمس كرامة الحكومة البريطانية والشعب البريطاني برمته •• وقد اعتبر في احتجاجه هذا ان مسئولية هذه الاهانة تقع على عاتق الاستاذ فهمي المدرس رئيس التشريفات يومئذ ، وطلب عزله ترضية على ماتعرض له من امتهان في كرامته ••والحقيقةان وضع مسئولية ما جرى على عاتق رئيس التشريفات كان امرا غريبا في بابه •• لان الحزبين الوطنيين : الوطني والنهضة هما اللذان نظما المظاهرة ، والجماهير المحتشدة كانت تهتف بدافع عن شعورها وحماستها ونقمتها على الانكليز بسبب خططهم الاستعمارية • ولم يكن في مقدور الاستاذ فهمي المدرس او في مقدور الملك فيصل نفسه ، ان يحول دون تلك الهتافات حتى لو تدخلت الشرطة بجميع افرادها واسلحتها ••• ومع ذلك فقد اعطيت الترضية المطلوبة دون اي تردد او اعتراض الى المندوب السامي واقصي فهمي المدرس عن منصبه !

وبعد هذه الحادثة اكفهر الجو من جديد في بغداد وأخذ ينذر بالانفجار حتى ان بعض المتطرفين اخذ ينادي بثورة مسلحة من جديد والا فان حقوق العراق ضاعت وان استقلاله مهدد بخطر وبيل ••• ومما زاد الحالة حراجة في ذلك الوقت تدهور صحة الملك فيصل واتفاق كلمة الاطباء على ضرورة اجراء عملية الزائدة الدودية له ••• فشعر المندوب السامي حراجة الموقف ، وخشي ان يفلت الزمام من يده وتعم الفوضى والاضطراب وتصاب البلاد بنكسة جديدة قد تكون عاقبتها وخيمة ومخيفة في الوقت نفسه ، فوزارة النقيب سبق لها ان قدمت استقالتها تجاه ضغط الرأي العام من جهة واصرار الملك من جهة اخرى ،

والملك نفسه يجتاز مرضا لا يخلو من خطورة على كل حـال ••• والتوتر سائد بين الناس بشكل مريـع ، وسفينة الدولة تتأرجح بـين أمـواج مضطربة •• وازاء هذه الالتباسات والاختلاطات اتخذ المندوب السامي قرارا حاسما بتولي الامر بنفسه ، واصدر امرا بغلق الحزبين الوطنـي والنهضة (١) وسد الجرائد الوطنية (ومنها جريدة الاستقلال) ونفـي عدد من الزعماء الى جزيرة هنجام •• وبهذه الاجراءات العنيفة استطاع ان يمسك الزمام بيده ويعيد الى البلاد حالة اشبه ما تكون بهدوء واستقرار مصطنعين ••

وبديهي ان مشاركتي في مظاهرات يوم ٢٣ آب ١٩٢٢ واشتغالي بالامور الكتابية في الحزب الوطني بلغا مسامع الانكليز فـي وزارة المعارف على طريق التحقيقات الجنائية (.C. I. D) وكان المستر كلن معاون المستشار شديد الاهتمام في امري وتقدم الى الاستاذ ساطـع الحصري (وكان يومذاك معاون وزير المعارف) باقتراح فصلي عن عملي او ابعادي معلما في احدى المدارس الابتدائية الى منطقة نائية عن بغـداد • وكان الاستاذ الحصري في طبيعة الحال يعطف على الشباب المتحمس ويشجـع الروح الوطنـي فيهم ويدرك في الوقت نفسه اننـي لم اندفع في كل الاعمال التي تكونت منها التهم ضدي الا بدافع مشاعـري الوطنية فكيف يسمح اذا للمستر كلن ان ينتقم مني بمثل هذه العقوبة القاسية؟

---

(١) عندما داهمت الشرطة المركز العام للحزب الوطني كنت في داخل الحزب اقوم ببعض الاعمال الكتابية ، الا انهم لم يتحرشوا بي اذ ليس لديهم امر بتوقيفي وغادرت الحزب بسلام اثر دخولهم اليه •

لقد طلب الى المستر كلن ان يتريث في امري ، وحاول ان يفهمه ان العقوبة في مثل هذه الظروف والاحوال تضر ولا تنفع لانها تكون سببا في اغلب الاحوال الى مضاعفة الاندفاع في العمل ، واثارة شعور النقمة والغضب ضد السلطات . وقد دعم المستر رايلي المفتش العام في الوزارة الاستاذ الحصري في آرائه هذه ، وكان رايلي استراليا ، دمث الاخلاق ، نبيـــل الشعور ، حر التفكير ، ينبذ كل مظهر من مظاهر الاستعمار ... فقد اتفق والاستاذ الحصري على عدم معاقبتي بأي شكل كان والاكتفاء باسداء بعض النصائح لي ولفت نظري الى ان الاشتغال بالسياسة امـــر ممنوع على الموظفين وعلي ان ابتعد عن العمل في هذا الميدان ... اما المستر كلن فكان مصرا على نقلي الى خارج بغداد ، وبقي الامر على هذا الشكل من الاخذ والرد بضعة ايام ... وفي احد الايام استدعاني الاستاذ الحصري وتكلم معي في هذا الموضوع وسألني اذا كنت مستعدا للعمل معلما في احدى المدارس خارج بغداد ام لا ؟ فأجبته ان ذلك امر يستحيل علي ، لانني مواظب في نفس الوقت على دراستي في الصف الاخير مـن كلية الحقوق ... وافهمته انني مستعد ان اضحي بوظيفتي ، ولكنني غير مستعد للتضحية بدراستي .. وعندئذ سالني الاستاذ الحصري وهل تستطيع ان تواظب على دراستك دون عمل ؟. قلت له : انني رجل فقير ووالدي مكلف باعالة عائلة كبيرة ، ويقيم في بعقوبة ، ووظيفته مدير تحريرات اللواء ، وليس في امكانه ان يمدني بمساعدة مالية في اي حال من الاحوال . فقال الاستاذ : وكيف تستطيع اذن ان تنهي دراستك اذا تركت عملك فـي هذه الوزارة او استغني عن خدمتك ؟ .. قلت: انني سأعمل وانهي دراستي حتما ؟ واذا اضطررت الى كسب لقمة العيش لن اتردد في حمل سطل بيدي وابيع « شربت الزبيب » كبائع متجول مرتاح الضمير .

ويظهر ان الاستاذ الحصري تأثر من مقابلتي هذه وعزم على ان يكون في جانبي مهما كلفه الامر ، واتفق اخيرا مع المستر كلن على حل وسط لقضيتي . وكان الحل نقلي من وظيفة رئيس كتاب ومحاسب مديرية معارف منطقة بغداد ، الى وظيفة معلم في مدرسة تطبيقات دار المعلمين في بغداد ، وعلى هذا الاساس باشرت وظيفتي الجديدة في ١/١٠/١٩٢٢ .

Hamad Khalifa

Hamad Khalifa

على هامش الأحداث

أود ان أدون فيما يلي بعض ذكريات بقيت عالقة في ذهني ، دون ان اعرف تواريخ وقوعها بدقـة :

١ ـ من المعلوم ان حكومة الاحتلال لم تسمح بفتح الاحزاب السياسيـة الا بعد مدة من تأليف وزارة النقيب المؤقتة ، وعدد كبير من الشباب وغير الشباب في تلك الفترة كان تواقا لمثل هذه الاحزاب •• كانوا يريدون ان يجتمعوا ويتداولوا بما يجب عمله لانقاذ الوطن من محنته والحصول على الاستقلال بأية طريقة ممكنةوبأي ثمن كان ، لذلك اخذوا يؤلفون الاحزاب السياسية السرية ••• ورغم كثرة الجواسيس في ذلك الزمن ، وتشديـد المراقبة على الاشخاص المشتبه بهم ، اخذ الشباب يجتمعون بتكتـلات صغيرة في احد البيوت ويتبادلون وجهات النظر ، ويضعون الخطط والمناهج لمقاومة الانكليز واذنابهم تمهيدا للحصول على الاستقلال التام الناجز ، الخالي من كل شائبة من شوائب الوصاية او الحماية او ما شابه ذلك من الاصطلاحات التي كانت تصطنعها حكومة الاحتلال لتثبيت اقدامها فـي البلاد وترسيخ دعامات حكمها الغاشم ••• وعلى هذا الاساس تعـددت الاحزاب السرية ، وكان كل عشرة اشخاص او اكثر يجتمعون في مـا

بينهم ويؤلفون حزبا سريا يضعون منهاجه ويتصلون بمن يثقون بـه من الوطنيين فيدعونه الى الانتماء الى حزبهم السري . وتكاد تكون هـــذه الطريقة متبعة في كل الاحزاب على السواء ، وكان الشخص الواحد ينتمي الى عدة احزاب في وقت واحد ولا يرى اي محذور في ذلك نظرا لتقاربها من حيث المبادىء والاهداف ، وكلها كان يسير وراء الحصول عـــلى الاستقلال التام للعراق ... على ان هذه الاحزاب اخذت تصفـي نفسها بنفسها بمر الايام ولم يبق منها الا العدد القليل . وكان أقوى التي بقيت منها عاملة في الخفاء هو «حزب الاستقلال» السري ... وتتألف هيئته الادارية من احد عشر شخصا اذكر منهم : صالح جبر ، وصادق البصام ، وسعد صالح ، وصادق حبة المرحومين ، ومن الاحياء : انور النقشلـي ، واحمد زكي الخياط وانا ...(١)

كانت تنظيمات حزبنا في غاية الاتقان ، ونقوم بكل عمل من اعمالنا بتبصر وحذر تامين ... اما الانتماء الى الحزب فيجري بالطريقة التالية : يتقدم اولا احد اعضاء الهيئة الادارية باسم شخص يقترح انتماءه . فاذا وافقت الهيئة الادارية على انتمائه فوضت العضو المقترح ان يفاتح ذلك الشخص ويعرض عليه منهاج الحزب ، فاذا وافق على الانتماء يطلب اليه الحضور في يوم معين وساعة معينة ومكان معين ... وعندما يجتمـــع عضو الهيئة الادارية بالمرشح للانتماء يقدم له « نظارة » مطلى زجاجها من الطرفين بمادة سوداء ، ويطلب اليه ان يضعها فوق عينيه ، ثم يقوده مـــن ذراعه ، ويركبه عربة تسير بهما في شوارع مختلفة حتى يصلا الى الدار

---

(١) وبناء على مراجعاتنا وافق الزعيم ياسين الهاشمي المرحوم على ان يكون رئيساً للحزب ، وكان يزودنا بكثير من التوجيهات والاراء دون ان يحضر أي اجتماع معنا .

المعدة للاجتماع (١) . وتكون الهيئة الادارية مجتمعة عندئذ في احـدى غرف الدار حول طاولة مستديرة وضع عليها القرآن الكريم ، وفي جانبه مسدس ... ويرتدي اعضاء الهيئة الادارية جميعهم اردية سوداء تغطـي الجسم بكامله من أعلى الرأس الى أخمص القدم ... وليس في هذا الرداء لا ثلاثة ثقوب : اثنان حول العينين وواحد حول المنخرين تسهيلا للرؤية وتأمينا للتنفس . وعندما يصل المرشح الى الدار برفقة وسيطه عضـو الهيئة الادارية ، يصطحبه هذا الى مكان الاجتماع ويرفع النظارة عـن عينيه في وسط الغرفة ، فيكون المرشح وجها لوجه امام هذا المنظـر الرهيب ... والمنظر يكون رهيبا حقا في هذه الحالة ، وقد شاهدت بـأم عيني بعض المرشحين يرتجفون جزعا من المنظر الذي يفاجئهم ، وكانـت أسنانهم تصطك عندما يؤدون اليمين المقرر من شدة الرهبة وأيديهم ترتجف وهي تمسك المنهاج الذي يترتب عليهم تلاوته جهرا قبل اداء اليمين ...

ان الفعاليات التي كنا نبديها في هذا الحزب السري تتلخص في :

أ ـ طبع وتوزيع المناشير ضد سلطات الاحتلال ، وقد كنا (انـور النقشلي وانا) مكلفين بهذا العمل ، وكان انور النقشلي يحرسني وبيـده المسدس عندما كنت الصق المناشير على الجدران ، وكنا نتعمد لصقها على جدران السفارة البريطانية خاصة . اما التوزيع فنقوم به في دور السينما وخاصة اثناء اطفاء النور والبدء بعرض الفيلم ...

ب ـ ارسال كتب تهديد الى بعض رجال الحكومة ، واحيانا الـى الملك فيصل نفسه نحذرهم فيها من الافراط بحقوق الشعب والسير فـي

(١) وكانت هذه الدار داري التي اقيم فيها في جانب الكرخ بالقرب من جامع عطا وكنت قد استأجرتها من بيت الدخيل .

ركاب المستعمرين والانقياد الى أوامرهم غير مكترثين بمصلحة البـــلاد ورغبات الرأي العام في الحرية والاستقلال ...

ان ذاك الـرداء الاسود المخيف كـاد يفضـــح سرنـــا يومـــا ويسوقنا الـى غياهـــب السجـــون .. وتفصيـــل ذلك : اننا نتفرق على انفراد بعد كل اجتماع لئلا نلفت النظر ونجلـــب الشك فينا ... في احد الايام ، خرج صادق البصام المرحوم من الاجتماع يحمل الرداء برزمة في يده ... وبعدما عبر الجسر ووصل الى شـــارع العباخانة ، لا ادري كيف وسوس له الشيطان بأن شخصا ما يراقبـــه ، وانه على وشك ان يقبض عليه حتما . وفي تلك الحالة النفسية من الارتباك والاضطراب أسرع في خطواته ودخل الى احد الازقة العرضانيـــة مـــن الشارع ، ورمى رزمته الى جانب من جوانبه ، وعاد مسرعا الى الشارع العام ... وفـــي اليوم التالي طرق مسامعنا ان شرطة العباخانة عثرت على تلك الرزمة وانها جادة في تعقيباتها لاقتفاء آثار الجمعية السرية التـــي ترتدي هذا الرداء اثناء قيامها بالعمل ... وبعد ذلك اضطر كل منا الى حرق ردائه تخلصا منه لئلا يكون اداة من ادوات الاثبات ضدنا ...

٢ ـ جاءني يوما ، والثورة مشتعلة في منطقة الفرات صادق حبـة المرحوم وبيده ورقة قدمها الي وقال : انها وردتنا من النجف ويطلبون الينا طبع ما لا يقل عن مئتي نسخة منها ، وقرأتها واذا هي منشور يحث العشائر وكل الناس على القتال ضد الانكليز ومقاومة الاستعمار بكل اشكـاله والوانه ... قلت له : هيا بنا ... قال : الى اين ؟.. قلت الى بيت داود سلمان (١)... وكان بيت داود سلمان يقع في رأس الزقاق العرضاني الذي

---

(١) انه العقيد داود سلمان شقيق الشهيد محمود سلمان ، وكان معنا في معتقـــل الفاو والعمارة خلال الحرب العالمية الثانية .

يتفرع من شارع النهر وينتهي في ساحل دجلة بالقرب من بيت عبد الرحمن باشا الحيدري ... وكانت دائرة البلدية الثانية التي يرأسها يومئذ عبد الرزاق منير المرحوم ملاصقة تماما لهذه الدار ... طرقنا الباب ، وكان الوقت عندئذ قريبا من الغروب ، فخرج السيد داود سلمان مرحبا ومؤهلا ... قلت له نريد ان نشرب الشاي عندك .. قال : انكم في داركم تأمرون ما تشاؤون وما علينا الا الرضوخ والطاعة ... جلسنا في مجاز الدار ، واديرت علينا بعد قليل كؤوس الشاي . وفي هذه الاثناء تناولت الحديث مع مضيفنا وقلت له : اخي داود .. أتيناك في مهمة وطنية ونريد مساعدتك ، قال : انا في خدمتكم وعند حسن ظنكم ان شاء الله .. قلت : ان الدار الملاصقة لداركم هي دائرة البلدية الثانية ، اليس كذلك ؟ قال : نعم .. قلت : وهل تكون خالية تماما في الليل ؟.. قال : لا يكون فيها انس ولا جن بعد الدوام على الاطلاق ... قلت : حتى ولا حارس يحرسها ليلا ؟ قال : ابدا ، وقد تطوف فيها العفاريت بسلام واطمئنان ؟ ... قلت : علي اذا ان اصارحك بالامر الذي اتيناك من اجله ... وعرضت عليه مسودة المنشور الذي احمله واردفت قائلا : اننا نريد ان نطبع ما لا يقل عن مئتي نسخة من هذا المنشور وعليه سنقفز من سطح دارك الى الدار المجاورة وننقل الالة الكاتبة العربية من تلك الدار الى دارك مع جميع اللوازم التي نحتاج اليها من ورق ابيض و « كاربون » وغيرها ، وانك لا شك ستخصص لنا مكانا مناسبا لاقوم بالطبع حتى انتهى من العدد المطلوب من هذا المنشور ... قال : هذا واجب مقدس سأقوم به برضى وارتياح ... وهكذا انجزنا هذه المهمة بعد ان بقيت اطبع على الالة الكاتبة مدة تقرب من العشر ساعات . وقد اعدنا الآلة الكاتبة الى مكانها عند بزوغ الفجر وعدت الى داري وانا في حالة يرثى لها من التعب والاعياء ، ولكنني كنت في الوقت نفسه هانىء البال ، مرتاح الضمير ...

٣ ـ وبعد بضعة ايام من هذه الحادثة اتاني عبد الرحمن خضر المرحوم وكان يشتغل انذاك كاتب ضبط في محكمة البداية ويدرس في مدرسة الحقوق ونظر الي مبتسما وقال : هل تحسن الطبع على آلة الرونيو ؟.. قلت : على أحسن ما يكون .. قال تعال الي اذن قبيل الغروب وسأكون في انتظارك في غرفتي في المحاكم ... فذهبت اليه في الوقت المعين وكان يبدو عليه بعض الارتباك ، وهو يجمع الورق المشمع لآلة الرونيو والورق الخاص بهذه الآلة مع الحبر وسائر الادوات الضرورية للطبع ، وبعدما اكمل جمعها ، وفحصتها انا ايضا لاتأكد من عدم وجود اي نقصان فيها ، قال : هيا بنا نحزمها بشكل لا يثير اي شك او ارتباك .. وعندئذ سألته مستفسرا : انني لم افهم لحد الآن ماذا تعني وماذا تريد .. فأطلق عندئذ ضحكة من ضحكاته المشهورة وقال : اما فهمت ؟ لدينا منشور يجب ان تطبع عليه بضع مئات من النسخ .. اننا سنسرق آلة الرونيو لهذه الليلة فقط سنأخذها الى بيتي وسنقوم بطبع العدد المطلوب .. قلت :ان الطبع بسيط .. واخراج الورق امر لا صعوبة فيه ايضا، ولكن كيف نخرج الآلة من باب المحاكم وساحة الدار تعج بالحراس من الشرطة ؟ قال انني اخذت لكل شيء عدته ، ثم فتح احدى الخزانات واخرج منها حبلا طويلا وقال : سنشد آلة الرونيو بهذا الحبل وندلي بها من هذه النافذة الى ساحل النهر ، وهناك سيتلقفها احد الرفاق ويسير بها فورا الى الدار... وقد اكملنا هذه الخطة بكل نجاح ، وطبعت العدد اللازم من المنشور وتم توزيعه وفقا للمطلوب ... وقد اخبرني عبد الرحمن خضر انه أعاد الآلة الى مكانها في دائرة المحاكم صباح اليوم التالي بحالة طبيعية وبشكل لا يثير الشك والارتياب ...

٤ ـ وما دمنا قد توغلنا في سرد هذه القصص المثيرة ، والمغامرات التي قمنا بها لانجاز المهام التي انيطت بنا في طبع المناشير الوطنية وغيرها

على اكمل وجه لا أرى بأسا في اضافة القصة التالية ايضا في عداد تلك الذكريات :

قرر حزب الاستقلال السري أن نوجه كتابا شديد اللهجة الى الملك فيصل الأول نلفت فيه نظره الى كثرة الموظفين الهنود ، والعدد الذي يزداد يوما بعد يوم من الموظفين البريطانيين واهمال الطبقة المثقفة من أبناء هذا البلد ، وغلق أبواب الدوائر الحكومية في وجوههم ، وتدهور الحالة الاقتصادية في العراق ، وتزايد عدد العاطلين ليس بين الشباب المثقف حسب ، بل وبين اصحاب المهن والعمال العاديين ايضا . وقد كلفت بقرار من الحزب ان أقوم بطبع هذا الكتاب وأرسله في البريد بعنوان الملك فيصل ... وللقيام بهذه المهمة حضرت يوما بعد الدوام الى غرفتي في وزارة المعارف ، وكان ذلك في عهد السيد محمد هبة الدين الشهرستاني وزير المعارف ، وبدأت طبع الكتاب المذكور على الآلة الكاتبة ... وبعد دقائق معدودة من مباشرتي الطبع فتحت الباب واذا المستر رايلي مفتش المعارف العام وجها لوجه امامي ، وأخذ يتقدم نحوي ، ولما اقترب مني سألني ماذا تطبع ؟ ومد عنقه الى الماكنة ليرى الموضوع الذي أطبعه ... فنهضت فورا تجاه هذه المحاولة وغطيت الكتابة بورقة كبيرة بيضاء وخاطبت المستر رايلي قائلا : عفوا يا سيدي أن ما أطبعه كتاب خاص بمعالي الوزير ، وقد كلفني أن اطبعه سريا ، وأوصاني أن لا يراه احد مطلقا ... وعند ذلك تراجع المفتش العام قائلا : عفوا ، .. وعاد من حيث أتى بعدما ترك في نفسي شيئا من القلق والاضطراب ... وبعد أن اكملت طبع الكتاب المبحوث عنه ، وضعته في غلاف كتب عليه العنوان بالآلة الكاتبة أيضا ، واسرعت به الى دائرة البريد حيث الصقت الطابع عليه ووضعته في صندوق البريد ... وفي مساء ذلك اليوم ، ذهبت الى دار السيد محمد هبة الدين الشهرستاني المرحوم ، وقصصت عليه ما جرى

بيني وبين المستر رايلي ، ولما سألني عن موضوع الكتاب الذي اطبعـــه ؟ قلت له : انه منشور وطني أراد توزيعه جماعة من الشباب الوطني ... ولم يشأ الشهرستاني المرحوم أن يطيل الحديث معي ، بل اكتفى بقوله : لا ضير عليك يا بني ، انك كنت تطبع حقا كتابا سريا ، طلبت اليك انا نفسي كتابته وأوصيتك ان لا يراه أحد مطلقا ، فاذهب وشأنك والله معك ...

٥ ــ لا أتذكر التاريخ بالضبط ، ولكن أعرف أن ذلك كان في زمن السيد طالب النقيب عندما كان وزيرا للداخلية ، في وزارة السيد عبـــد الرحمن النقيب المرحوم ... كنت أقيم يومئذ .. كما سبق ذكره .. في احدى غرف ادارة جريدة الاستقلال في شارع النهر بالقرب من المحكمة الشرعية ... وذات يوم في ساعة مبكرة من الصباح والشمس لما تشرق بعد ، سمعت طرقا خفيفا على الباب الخارجية لادارة الجريدة .. قمـت على عجل وناديت : من في الباب ؟.. أجابني صوت أجش : افتح الباب ياطالب ، انا انور النقشلي ... فتحت الباب ، ودخل أنور ، وصعدنا فورا الى غرفتي .. كان يلهث من التعب ، وتبدو على سيمائه علائم القلـــق والاضطراب ... قلت : خيرا انشاءالله ... قال : كل الخير ...دخلنا الى دار احد الانكليز بقصد ايذائهم ... وكسرنا بعض ما لديهم من مقتنيات ثمينة ووضعنا في جيبنا ما يمكن وضعه منها .. وعندما هممنا بالخروج احس بنا صاحب البيت ، فأطلق علينا بضع طلقات من مسدسه ، ورددنـا عليه بطلقات مماثلة ، ثم هربنا ولم يلحق بنا احد ... وبعد ذلك اخرج من جيبه «ساعة كرونوميتر» تستعمل عادة في سباق الخيل وسكينة غريبـة الشكل ، جميلة المنظر ، لا مثيل لها في اسواق بغداد على الاطلاق ،وقال : خذهما واحتفظ بهما تذكارا مني اليك .. وبعد أيـام معدودات من هذه الحادثة وبينما كنت انا في غرفتي مضطجعا على سرير اقضي ساعة القيلولة بعد الغداء ، واذا برجال مسلحين من الشرطة يداهمون ادارة الجريـدة

وغرفتي ، وكان على رأسهم الكبتن كوري ، مدير شرطة بغداد يومئذ ...
سألني الكابتن كوري عن اسمي ، فذكرته له .. ثم نظر في ورقة كانت بيده ،وقال يخاطبني : انك موقوف بأمر الحكومة ، فاستعد لاصطحابك الى خان دلة (١) ... وقبل أن يتلقى جوابي أمر أحد افراد الشرطة بجمع كل ما في غرفتي من أوراق وكتب وغيرها من مطبوعات ووضعها في كيس كبير لنقله الى خان دلة . وبعد أن نفذت الشرطة اوامره صرخ في وجهي : هيا ، احمل هذا الكيس وانزل به الى تحت ... فأجبته : ليس ذلك في مقدوري ، فامر احد افراد الشرطة أن يأتي بحمال لنقل الكيس وانا مستعد أن ادفع اجرة الحمال من جيبي الخاص ... ويظهر انالكابتن الشجاع (!!) اعتبر جوابي تحديا له ، فما كان منه الا ان رفع قبضته وهوى بها على صدري بـ «بوكسين اثنين» ... فتملكني الغضب وصرت أرتجف من شدة تأثري وعصبيتي وصرخت في وجهه: انا لست بحمال ، ولا حق لك ان تعتدي علي بالضرب ... فرماني بنظرة حاقدة وقال : هيا سر امامي ، ثم امر احد افراد الشرطة بحمل كيس اوراقي وكتبي ونزلنا من ادارة الجريدة ، ووقفنا في الشارع الى ان انتهوا من قفل باب الادارة الخارجية وختمها بالشمع الاحمر ، ثم سرنا بعد ذلك نحو خان دلة الشهير ...

ادخلت في خان دلة الى غرفة واسعة في الطابق الثاني ... ووجدت الكثيرين من رفاقي وزملائي موقوفين هناك قبلي ... واتذكر من بينهم الآن ، الشيخ مهدي البصير ، وعبد الغفور البدري ، والقاسم العلوي ، وبهجة زينل ، وعبد العزيز السنوي ، وانور النقشلي ، وغيرهم من الشباب الوطني الذين كانوا يقضون مضاجع السيد طالب النقيب والانكليز على حد سواء في ذلك الحين ... كان الارتباك والاضطراب ظاهرين على

---

(١) كان خان دلة يومئذ مقر مديرية شرطة بغداد ، وفي الطابق الاسفل منه غرف خاصة لتوقيف السياسيين الوطنيين فيها ..

وجهي بشكل واضح ، وصار البعض من الموقوفين يهدؤني ويشجعنـــي بالعبارات المعتادة في مثل هذه المواقف ••• وكنت أجيبهم بابتسامـــة خافتة وعبارات أحاول أن أظهر فيها عدم اهتمامي واكتراثي بمـــوضوع التوقيف ••• ولكنني في الواقع كنت خائفا ومضطربا وقلقا وكنت محقا في هذا الخوف والقلق والاضطراب لأني كنت احمل سرا لا يعرف كنهه أي من الموقوفين الآخرين ••• كانت اوامر التوقيف صادرة في الغالـب عن السيد طالب النقيب نفسه ، والسبب في توقيف هذا العدد الكبير من الشباب المتحمس هو توزيع مناشير قبل ايام قليلة كلها طعن في وزيـــر الداخلية ، وتفنيد مرير لكثير من اعماله واجراءاته واتهام فظيع لشخصيته المضللة وأنانيته ••• كانت مسودة هذا المنشور قد وضعت بخط احمـد زكي الخياط وكانت هذه المسودة في جيبي عندما اوقفني المستركوري••• ليس هذا حسب ، بل كانت ساعة سباق الخيل «كرونوميتر» والسكينـة الانكليزية التي اهداني أياهما أنور النقشلي في جيبي أيضا مع مسودة المنشور ••• ولو فتشت آنئذ لوقعت الطامة الكبرى في رأسي ••• ولكن الله جلت قدرته أراد ان يرعاني بلطفه وكرمه ، وأن يشملنـــي بعطفـــه وعنايته فأرسل لي الميجر بومن (١) ينقذني من موقفي ويبعد عني الخطر الجسيم الذي يتهددني ••• نعم ، في تلك الساعة الكئيبة وأنا أعيش في دوامة من الهواجس والتخيلات واذ «بسارجن دين» ، أحد موظفي الشرطة البريطانيين يدخل الى الغرفة ويتساءل : من هو طالب مشتاق ؟•••فنهضت عندئذ واقفا وقلت : نعم ؟ •• قال : تفضل معي ، وخرجت معـه الـــى غرفته •• وهناك اخبرني بأن الميجر بومن علم بتوقيفي ، وأنه طـلـب مواجهتي الآن في مكتبه في نظارة المعارف ••• ثم أوعـز الى شرطـي يرافقني الى نظارة المعارف في بيت دلة ويسلمني الى الميجر بومن نــاظر

---

(١) ناظر المعارف الذي أبطل أمر نفيي الى هنجام بالنظر لصغر سني ونقلني من مدرسة الهويدر الى القلم العربي في نظارة المعارف في بغداد .

١

المعارف ... وفي أثناء سيري في صحبة الشرطي مررت بمطعم رشيد الحاج خليل ، الواقع في شارع النهر بالقرب من دار السيد داود سلماز (وقد مر ذكرها في الفقرة الثانية من بحثنا هذا) ، وهناك خطرت ببالي فكرة ... لماذا لا أتخلص مما أحمله في جيبي قبل أن أصل الى الميجر بومن ؟.. وقفت والتفت الى الشرطي واستأذنته بأسلوب رقيق ان ادخل الى هذا المطعم أقضي حاجتي فيه ، لأني لا أستطيع أن اخطو خطوة واحدة الى الأمام بوضعي هذا . وكان الشرطي على ما يظهر رقيق العاطفة وأبن حلال ووافق على مطلبي ودخل معي الى المطعم .. جلس هو على احدى الكراسي ودلفت انا الى الداخل متظاهرا بقضاء الحاجة .. كان اصحاب هذا المطعم وجميع خدمه ، وحتى الطباخ ومعاونه يعرفونني تمام المعرفة لأني من زبائن المطعم الدائمين أتناول فيه وجبتين من طعامي على الاقل ان لم تكن ثلاث وجبات يوميا ... ولما تأكدت من ان الشرطي غافل عني ولا يراقبني اندفعت الى المطبخ مسرعا واخرجت مسودة المنشور من جيبي ورميتها في أحد المواقد فاشتعلت واصبحت رمادا ، ثم اومأت الى « حسين» أحد مستخدمي المطعم .. وجذبته الى زاوية المطبخ ، وأعطيته السكين وساعة السباق وطلبت اليه أن يحفظهما عنده الى حين (١) وعدت بعد ذلك الى الشرطي ، شكرته على حسن صنيعه ، واستأنفنا سيرنا الى نظارة المعارف ....

ابتدرني الميجر بومن عندما دخلت عليه قائلا : لقد نكثت وعدك لي ، وعدت الى الاشتغال بالسياسة أليس كذلك ؟ .. أجبته بلهجة جازمة:

---

(١) أنني حتى يومنا هذا لم افاتح «حسينا» بالامانة التي تركتها عنده ،ولم يفاتحني هو فيها أيضا ، رغم عدة مواجهات تمت بيننا بعد ذلك التاريخ ...

كلا سيدي الميجر ، انني لم أعد اشتغل في السياسة •• ولكنني شاب ضعيف الحال وأهلي يسكنون قرية الهويدر ، وانا هنا في بغداد أشتغل في معيتك وأدرس في الوقت نفسه في مدرسة الحقوق ، وليس لي في بغداد أقارب اسكن معهم ، وراتبي قليل لا يساعدني على استئجار غرفة في فندق أو بانسيون •• واصحاب جريدة الاستقلال اصدقاء قدامى لي ، واذ اطلعوا على وضعي سمحوا لي بالسكنى في ادارة الجريدة وخصصوا لي غرفة بها ، وبينما كنت أستريح في غرفتي بعد الظهر لم أر الا الشرطة تداهمني وتستولي على كتبي وأوراقي وتقودني موقوفا الى خان دلة ••• فتمعن في وجهي وقال : أليست لك علاقة بجريدة الاستقلال ؟ قلت : كلا•• قال : ألم تشارك في تحريرها ؟ قلت : هذه أعداد الجريدة وتستطيعون فحصها وتدقيقها فاذا وجدتم فيها كلمة لي فانني أتحمل مسئوليتها •

وبعد هذه المحاورة القصيرة بينه وبيني ، أخذ سماعة التلفون وتكلم باللغة الانكليزية مع جهة مجهولة لدي ، ثم وضع السماعة وطلب رقما آخر وأجرى مع صاحب الرقم الاخير محادثة ثانية ••• انني لم أكن أعرف آنذاك حرفا واحدا من اللغة الانكليزية ، ولكنني كنت أسمع اسمي يتردد اثناء الحديث ••• وعندما انتهى الميجر بومن من محادثته الثانية التفت الي وقال : أنني توسطت لك في هذه المرة أيضا وأنقذتك من التوقيف ، ولكنني سوف لن أتدخل في أمرك ثالثة مطلقا • اذهب الآن وشأنك وعليك ان تجد مكانا آخر لسكناك واياك ان تعود مرة اخرى الى جريدة الاستقلال• شكرت الميجر بومن وخرجت من لدنه مطلق السراح مستريح البال •••

٦ ــ كانت الاغلبية الساحقة من العراقيين ضد كل المعاهدات التي

ابرمت بين العراق والحكومة البريطانية ابتداء من معاهدة ١٩٢٢ وانتهاء في معاهدة ١٩٣٠ ، ذلك أنهم كانوا يعتبرونها معاهدات غير متكافئة ،وانها وضعت مصلحة الانكليز فوق كل مصلحة أخرى ، وان حقوق العراقيين قد غمطت وان الحكم المزدوج ـ القريب من الحكم المباشر ـ بقي على حاله ولم يتغير من حيث الجوهر وان الانتداب قد تأيد بحكم هذه المعاهدات ، لا بل زادت وطأته رغم تبرقعه ببرقع الاستقلال الموهوم ... يلقبون كل من يؤيد المعاهدة مع الانكليز (انكليزيا) وكل معارض لها (وطنيا) ... فالناس كانوا اذن ينقسمون آنذاك الى طبقتين اثنتين ؛وطنيين وانكليز ... والحزبان (الوطني والنهضة) حزبان وطنيان وكل من ينتمي اليهما او يؤازرهما هو وطني ، والحزب الحر المعتدل حزب انكليزي وكل من ينتمي اليه أو يؤازره هو انكليزي ... وكان في المجلس وقتئذ عضوان بارزان يؤيدان الانكليز في كل شيء دون قيد أو شرط ، هما : الشيخ عداي الجريان والسيد سلمان البراك ... وكان الناس يذكرون اسميهما ويندون بهما في كل ندوة او مجلس ... والمتطرفون من الوطنيين في ذلك الزمان ، وجلهم من الشباب المتحمس ، كانوا منقسمين الى كتل ، تكاد كل منها تكون شبيهة بالأخرى من حيث المبادىء والاهداف .. وكل كتلة من هذه الكتل كانت تسمي نفسها حزبا ولها منهاجها الخاص ، وتشكيلاتها السرية الخاصة بها . ويظهر ان واحدا من هذه الاحزاب أراد ان يلقي درسا على من يظهر ولاءه للانكليز ويسير في ركابهم متحديا الشعور العام وقرر اغتيال عداي الجريان وسلمان البراك ... وفي يوم ٢٠ـ٤ـ١٩٢٤ ضجت في بغداد شائعة مفادها : ان شخصين مجهولي الهوية حاولا اغتيال كل من عداي الجريان وسلمان البراك بالقرب من سينما رويال في باب الاغا بأن اطلقا عليهما بضع رصاصات من مسدسيهما ، الا ان

المجنى عليهما سلما من الموت بمعجزة ولم يصب الا الشيخ عداي الجريان برصاصة في رجله ...

وقبيل هذه الحادثة بأيام صدف أن عقد اجتماع كبير في قاعة سينما رويال حضره جمهور غفير من المحامين والشباب المثقف وغيرهم ونوقشت فيه بنود المعاهدة الاولى ، وشرح الخطباء اضرار المعاهدات وكشفوا زيفها ، وبرهنوا على انها الانتداب بعينه ، لا بل اثقل وطأة من الانتداب .. وناشدوا المسؤولين عدم المصادقة عليها ورفضها مهما كلفهم الأمر ...

وعلى هذا اعتبرت الحكومة العراقية ، ومن ورائها السلطات البريطانية ، ان حادثة الاغتيال ان هي الا نتيجة هذا الاجتماع الذي سبق عقده .. وان القائمين بعقد الاجتماع هم الذين حرضوا على مؤامرة الاغتيال ، وبناء على ذلك صدرت الأوامر بتوقيف عدد كبير من منظمي الاجتماع المذكور وممن خطبوا فيه أو حضروه .. وامتلأت مراكز التوقيف في شرطة السراي والكرخ والعباخانة بعدد كبير من الموقوفين انني لا أستطيع ذكر اسماء كل الموقوفين لأني في الحقيقة لا أعرفهم بالضبط الا انني اتذكر من كان منهم معي في غرفة واحدة في مركز العباخانة وهم : الاستاذ نصرت الفارسي ، القاسم العلوي ، محي الدين ابو الخطاب ، رشيد الصوفي ، وبعد اخذ الافادات أمام المحاكم وعقد جلسات عديدة للمرافعات ، تركزت الشبهات والاتهامات على اثنين من الموقوفين هما : الاستاذ علي محمود الشيخ علي وعوني النقشلي المحامي وقيل في حينه ان المجني عليهما هما اللذان وجها التهمة اليهما واكدا انهما

يشبهان الشخصين اللذين أطلقا الرصاص عليهما ... على أنني استنادا الى ما لدي من معلومات دقيقة ، أستطيع أن اؤكد ان الاستاذين علي محمود وعوني النقشلي بريئان من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب ... وان ليس لهما أية علاقة كانت بالحزب الذي قرر الاغتيال ... وقد ظهرت براءتهما واضحة نتيجة المحاكمات التي دامت اشهرا عديدة واطلق في اثره سراحهما بعدما تجشما متاعب كثيرة خلال التوقيف والمحاكمات ...



في مدرسة تطبيقات دار المعلمين

كنت مرتاحا جدا من تعييني معلما في مدرسة تطبيقات دار المعلمين في بغداد ، لأنني كنت اشعر في نفسي ميلا طبيعيا للتدريس لا سيما بعدما جربته في مدرسة الهويدر ، وعليه أقدمت على عملي الجديد بنشاط عظيم ورغبة صادقة وبدأت تدريس الدروس التي تغرس في نفوس الطلاب الروح القومية ، وحب الوطن وتثير فيهم شعور الاعتزاز باعمال الاجداد المخلدين ... دروس المعلومات المدنية والاخلاقية في الصفين : الرابع والخامس الابتدائي ، والتاريخ في الصفين الخامس والسادس ، عدا دروس اخرى ثانوية في بعض الصفوف ...

ونظم الاستاذ ساطع الحصري في تلك السنة الدراسية دروسا تطبيقية في احدى المدارس الابتدائية ، وكان يحضر حصة كاملة في صف من صفوف احدى المدارس الابتدائية ، ويعين لاحد المعلمين موضوعا ثم يطلب اليه تدريسه في يوم وساعة معينين ... وكان يحضر هذه الدروس جمهرة كبيرة من معلمي المدارس الابتدائية ومديريها ، وبعد انتهاء المعلم من القاء درسه ينصرف الطلاب وتجري مناقشة الدرس بين المدرس من

جهة والمدرسين المستمعين من جهة اخرى ، ويكون الحكم في اعطاء القرار الاخير الاستاذ الحصري نفسه ••• وفي احد الأيام استدعاني السيد هاشم الآلوسي المرحوم مدير مدرستنا يومئذ واخبرني بان الاستاذ الحصري يطلب الي ان أتهيأ لالقاء درس في القراءة العربية على احد الصفوف الرابعة الابتدائية ، وعين لي زمان ومكان القاء ذلك الدرس ، ومنذ تلك اللحظة بدأت استعد لاجتياز هذا الاختبار بنجاح • كانت لدي مجموعة كبيرة من اعداد «مجلة التدريسات الابتدائية» التي كان يصدرها ساطع الحصري عندما كان مدير دار المعلمين في استانبول ، ورحت افتش بين هذه الاعداد عن انموذج لدرس القراءة ووجدت ضالتي في احد اعدادها ••• صرت ادرسه بدقة وامعان ، وكررت تجربته على صفي في مدرسة تطبيقات دار المعلمين •• وفي اليوم المعين حضرت الى مكان الاجتماع وبدأت القاء الدرس الذي اتقنته اتقانا تاما ، وكنت واثقامن النجاح ومطمئنا من كسب رضا الاستاذ الحصري لأني أطبق نظرياته عينا وأتبع الأصول التي ذكرها في مجلته بحذافيرها ••• انتهيت من الدرس ، وأنصرف الطلاب وبدأت المناقشة بين المستمعين من مديري المدارس والمعلمين وبيني ••• كان الكثيرون منهم يناقشون على غير هدى ولمجرد حب الظهور ، او ليقال عنهم انهم يناقشون ••• وكنت أرد على كل اعتراضاتهم بمنطق سليم ، وأشير الى بعض قواعد اصول التدريس التي مرت في أثناء مطالعاتي كثيرا من مقالات ساطع الحصري وكتبه ••• وبعد ما وصلت المناقشات الى نهايتها نهض الحصري وشرح وجهات نظره فيما دار من نقاش ، وقرر ان درسي كان ناجحاً وان معظم الاعتراضات التي سردها المناقشون كانت في غير محلها •• ثم شكرني

وتمنى لي التوفيق والنجاح في مهنتي وعملي ...

ولم تمر على هذا الدرس أيام قليلة حتى فاجأني الاستاذ الحصري يوما بحضوره الصف الرابع من مدرسة التطبيقات ، وكنت منهمكا آنئذ في القاء درس المعلومات المدنية على طلابي ... جلس الاستاذ على آخر مقعد في الصف ، واستمع الى الدرس من اوله الى آخره ... وعندما انتهى الدرس ودق الجرس ذهب توا الى غرفة المدير واستدعاني اليه ... ولما حضرت بين يديه ، شكرني على حسن الطريقة التي اتبعتها في القاء الدرس وقال : لقد كنت موفقا جدا في اجتذاب الطلاب اليك . انهم كانوا يصغون بانتباه وشوق الى كل كلمة تصدر عن فمك ، وهذا أهم شيء يجب ان يسعى اليه كل معلم يطمح في النجاح بعمله ... وبعد ذلك قال : ان مدارسنا الابتدائية تحتاج احتياجا مبرما الى الكتب المدرسية في الوقت الحاضر وانني اقترح عليك ان تبدأ فورا بتحضير كتاب وفق المنهج المقرر في الدروس الاخلاقية والمدنية ... ثم اردف : تعال غدا صباحا الى مكتبي في وزارة المعارف لأزودك ببعض الايضاحات التي تسهل عليك العمل في هذا الأمر . وفي صباح اليوم التالي كنت جالسا امام الاستاذ في مكتبه وهو يشرح لي كيف يجب ان أبدأ الدرس ، وكيف انهيه ، ويوضح لي بعض النقاط التي يجب ان اعيرها اهتماما عند الكتابة ،ويشير علي أن اجتنب التعقيد وأستعمل في كل ما اكتب لغة مبسطة يفهمها الطلاب دون ادنى تعب ... واخيرا طلب الي ان ابدأ فورا كتابة الدرس الأول من المعلومات المدنية وآتي به بعد الانتهاء منه . وبعد يومين اثنين ذهبت اليه حاملا بيدي الدرس الأول ... قرأه بامعان ، واشار علي ببعض النقاط التي صححتها وفق طلبه . وفي خلال أسبوع قدمت له اربعة دروس ،

وكانت فيها اغلاطي تتقلص بعد كل درس يصححه • وعندما طالع الدرس الخامس اظهر اعجابه به وقال : الآن أصبحت على الطريق السوي •• قدم مسوداتك الى المطبعة فورا ، ولا تعرض علي ما تكتبه بعد الآن ، ولكن كن حذرا ، واتهج في عملك وفق ما اشرت به عليك في الدروس السابقة ••• وهكذا تم طبع أول كتاب من تأليفي : «المعلومات المدنية والاخلاقية ـ الجزء الاول : المعلومات المدنية • مقرر الصفوف الرابعة الابتدائية ، وأصبح في متناول الطلاب في بدء السنة الدراسية ١٩٢٣ـ ١٩٢٣ • (١)

* * *

---

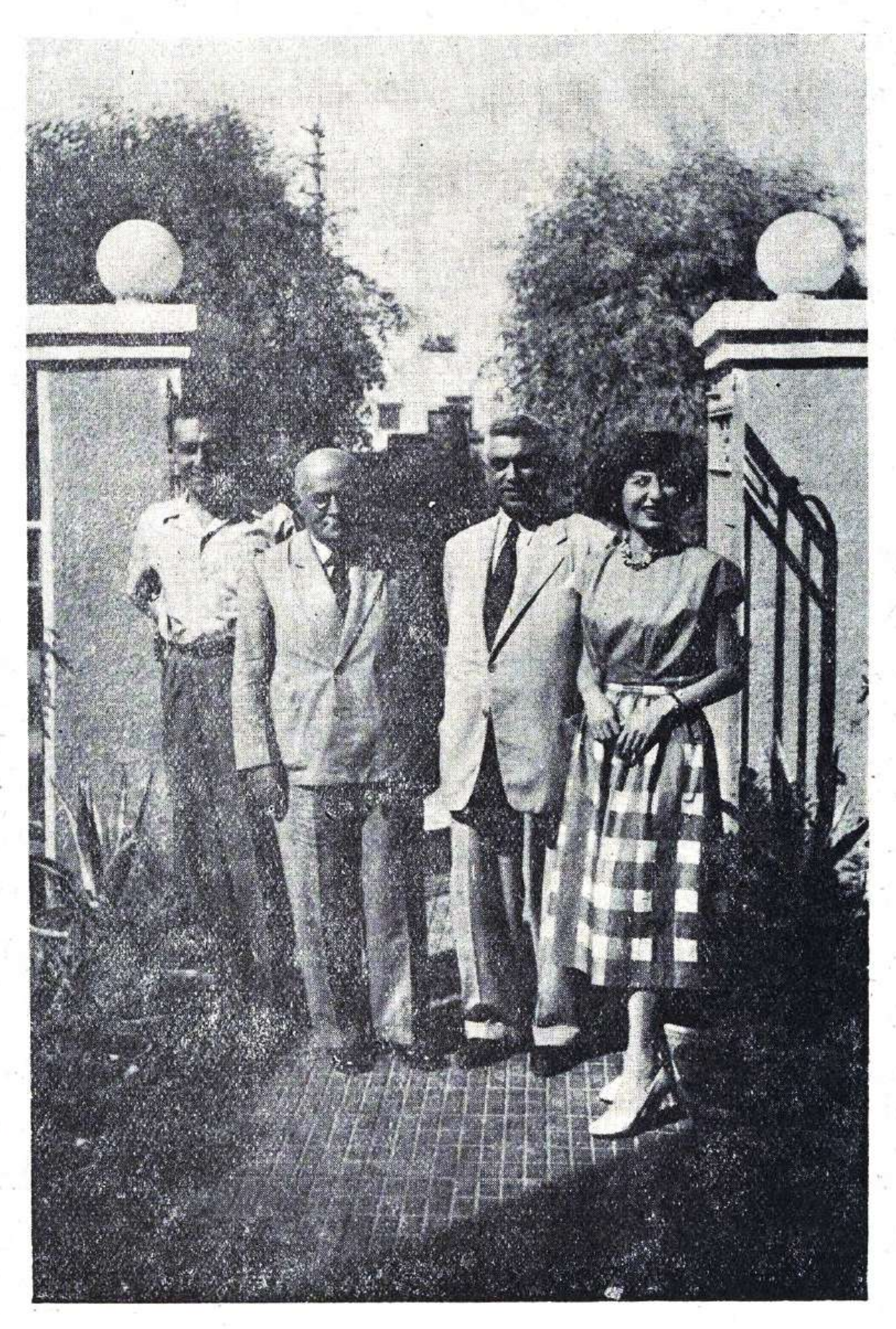
(١) تم طبع الجزء الثاني ـ المعلومات الاخلاقية للصفوف الخامسة الابتدائية في بدء السنة الدراسية ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ .

Hamad Khalifa

توطيد علاقتي بالاستاذ الحصري

كانت معرفتي بالاستاذ الحصري قديمة جدا .. معرفة غيابية ، قبل أن أرى وجهه واتعرف به شخصيا . كنت أعرفه في مجلته « تدريسات ابتدائية مجموعة سي » (أي مجلة التدريسات الابتدائية) التي كان يصدرها في استانبول . كنت وقتئذ طالبا في مدرسة بعقوبة الابتدائية ، في عهد القائمقام فائق بك ، وكان القائمقام يوزع على بعض الطلاب المتقدمين اعدادا من هذه المجلة ، ويحفظنا بعض مقطوعات شعرية منها ... وفي المدرسة الاعدادية الملكية في بغداد كنا ندرس بعض كتبه في الطبيعيات والفيزياء وكان اسمه عند ذاك «مصطفى ساطع» ... وفي سنة ١٩٢٢ قابلته لأول مرة في المعهد العلمي (١) في بغداد حيث قدمني اليه الاستاذ حسن غصيبة المحامي المرحوم . ويظهر أن الاستاذ اراد اختبار عقليتي ومداركي من شتى الوجوه ، فصار يحدثني في مواضيع مختلفة ويوجه الي اسئلة كثيرة في شؤون وزارة المعارف ، لا سيما بعدما عرف انني موظف فيها . وكنت أجيبه بدقة في التفكير والتعبير ، واجتزت هذا الامتحان

(١) المعهد العلمي مؤسسة انشأها ثابت عبد النور المرحوم غايتها تعليم الاميين القراءة ومبادىء الحساب وتزييد ثقافة الشباب المنور عن طريق المحاضرات وغيرها .



مع الاستاذ ساطع الحصري في مدخل دارنا
الى اليسار نجله خلدون والى اليمين كريمته سلوى

بنجاح تام ، وتركت في نفسه انطباعا عني لا بأس فيه ... وقد اخبرني الاستاذ غصيبة في ما بعد ، ان الاستاذ الحصري كان ممتنا من اجوبتي ووصفني أمام الاستاذ غصيبة بقوله : «ديريدر ، ديري » (١)

وكانت مقابلتي الثانية معه عندما استدعاني اثناء الأزمة التي ثارت بينه وبين المستر كلن في موضوع نقلي من بغداد الى الخارج . وكانت المقابلة الثالثة يوم القائي درسا في القراءة على احد الصفوف الرابعة الابتدائية ، وكانت المقابلة الرابعة في مدرسة تطبيقات دار المعلمين عندما حضر درسا من دروس المعلومات المدنية ... وقد ركزت كل هذه المقابلات انطباعات حسنة عني في نفسه وجعلته يحسن الظن بي ويقربني منه ... ومنذ ذلك التاريخ اخذت العلاقات بينه وبيني تتوطد يوما بعد يوم حتى انقلبت الى صداقة متينة دامت حتى يومنا هذا دون أن يطرأ عليها اي وهن او خلل ...

ان المصلحين في كل زمان وفي كل مكان يصطدمون بطبقة من الناس تفزع من اصلاحاتهم وتبدأ تحاربهم بشتى السبل ومختلف الأساليب ، وفي سبيل الوصول الى هدفها الضال لا تتردد في استعمال كل سلاح ... انها تكذب ، وتفتري ، وتسوق الاتهامات جزافا ، وتضلل الافكار بالأراجيف وتختلق الشائعات الوهمية ، وترتكب كل المساوىء التي لا تقرها الشرائع ولا يرتضيها الخلق الرفيع بقصد تحطيم خصمها والحيلولة دون اصلاحاته ... وفي دور اصلاح المعارف الذي بدأ باقبال الاستاذ ساطع الحصري على العراق وتسلمه زمام الأمور ، بصفته معاون وزير او مدير عام للمعارف ، برزت هذه الطبقة بشكل معيب لا ذوق فيه

---

(١) باللغة التركية ومعناها « انه ممتلىء حيوية » .

تنوخي ، تطمين بعض النزوات والحصول على بعض المنافع المادية حتى وان كان ذلك على حساب الحاق الضرر بالمصلحة العامة وهدم الكيان ...انني أسمي هذه الطبقة من الناس ، وكان اكثرهم مـن منتسبـي المعـارف المشاغبين ... وهم اصناف :

أ . الناقمون على الاصلاحات ، خوفا من ابعادهم عن العمل بسبب عدم اللياقة والكفاءة .

ب . المتعصبون طائفيا ، لا سيما بعداجراءاتاتخذها الحصري ضدالعناصر غير العربية سواء اكان ذلك في سلك التعليم أم الادارة .

جـ . الحاسدون الذين كانوا ينظرون بعين الغيرة الى رواتب المدرسين من سوريين ولبنانيين من حاملي الشهادات العالية من الجامعة الاميركية في بيروت (١) الذين كانوا يقومون بالتدريس في المدارس الثانوية ودار المعلمين في بغداد .

د . الطامعون الذين كانوا يحاولون الارتقاء الى مناصب أو درجات عالية وليست لهم مؤهلات كافية ، وكان ضمن هؤلاء اناس يطالبـون بالتدريس في المدارس الثانوية وهم لم يحملوا حتى شهادتها !

هـ . الملتفون حول وزراء المعارف الذين يختلفون مع الحصري لجهلهـم الامور ، او عدم تقديرهم بعض اجراءاته فـي سبيـل اصلاح المعارف وشؤون التعليم وكانت هذه الطبقة تحاول دائما الاصطياد في الماء

---

(١) علمنا ان كثيرا من هؤلاء استقدموا قبل وصول الاستاذ الحصري الى العراق .

العكر آملة ان تخرج لها شبكتها يوما سمكة طرية تغنيها بعد فقر وتشبعها بعد جوع .

ومما لا شك فيه انه كانت هناك طبقة اخرى من الشباب المتعلم لم تأل جهدا في مناصرة الحصري والدفاع عن آرائه واجراءاته . وكنت في طبيعة الحال في عداد هؤلاء الشباب .. أحرر المقالات وانظم الاحاديث ، واشجع بعض الصحف الوطنية على صد كيد المشاغبين والدفاع عن الحصري ، واقابل هذا واجري حديثا مع ذاك في هذا السبيل .. ومما هو بالذكر جدير ، ان جريدة الاستقلال يومئذ اخذت على عاتقها اكبر قسط من الدفاع عن اعمال الحصري ومبادئه ، وفتحت اعمدتها لكل من يرغب في الكتابة في هذا الموضوع ، وكانت تنشر الدفاع تلو الدفاع عنه حتى اخرست المشاغبين وافحمتهم بما نشرته من آراء صائبة منطقية حرصا على المصلحة العامة وبدافع من روح وطنية صادقة وايمان قويم ... ومن الغريب اننا كثيرا ما كنا نشاهد البعض من أولئك المشاغبين يتهجمون على الاساتذة السوريين ويلقبونهم الدخلاء الذين أقبلوا على هذه البلاد ليستنزفوا ثروتنا ويمتصوا دماءنا عندما يتكلمون عن القومية والوحدة . حتى ان الحصري نفسه لم يسلم من لقب « دخيل» !!!

وبسبب مناصرتي الحصري ووقوفي الى جانبه ضد أولئك الضالين من المشاغبين ، تعرضت الى تهجمات عنيفة واهانات بذيئة في مناسبات كثيرة اضطررت معها الى مراجعة المحاكم اكثر من مرة وكان الصلح يتم بين خصمي وبيني بعد ان يعتذر لي اثناء المرافعات امام المحاكم ..،

ويشهد الله أنني اناصر الحصري وأوآزره الا ايمانا بمبادئه وتقديرا لخدماته وجليل اعماله ... ولم اكن انتظر جزاءا أو احسانا لقاء ما قمت به لا سيما وانني لم افكر يوما أن ابقى في وزارة المعارف بعد تخرجي في كلية الحقوق ، وكنت أروم الاشتغال في المحاماة ، واتغلغل في الحياة السياسية وامتهن الصحافة جنبا الى جنب مع المحاماة ، واعيش عيشة حرة غير مقيدة بسلاسل الوظيفة الحكومية واضعا عنقي في طوق عبوديتها .

❋ ❋ ❋

الحصري لا يسمح
لي بترك عملي في وزارة المعارف

انتهت السنة الدراسية ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ واكملت في نفس الوقت دراستي في مدرسة الحقوق وأخذت أستعد لاستقبال عهد جديد في حياتي ... وكنت تواقا الى الاشتغال بالمحاماة وكنت أشعر بميل شديد للصحافة ... وكان عبد الغفور البدري المرحوم قد كلفني ان اكون من المحررين الدائمين في جريدته « الاستقلال » وعرض علي شروطا مغرية، في جملتها : أن يخصص لي غرفة خاصة بمكتب للمحاماة في داخل ادارة الجريدة وخيرني بين أن أتقاضى راتبا مقطوعا أو ان اكون شريكا معه بنسبة معينة في الجريدة . وقد قبلت مبدئيا هذا العرض ، وكتبت استقالتي من معلمية مدرسة تطبيقات دار المعلمين وذهبت بها الى الاستاذ الحصري ورجوته ان يوعز بقبولها ، وكان ذلك في حوالي منتصف شهر ايلول ١٩٢٣ . وعندما اطلع على الاستقالة ،وسمع ما عرضته عليه من الاسباب الموجبة اجابني بحزم وعناد : لا هذا غير ممكن .. اننا نريد ان نحتفظ بخدمتك في وزارة المعارف ، وليس من المصلحة في شيء ان نجيبك على طلبك ... انك شاب وطني ، ولك

مواقف طيبة في المجالات الوطنية ، فلماذا لا تستمر على خدمتك في هذه الوزارة ؟ ان الخدمة في وزارة المعارف من أنبل الخدمات غاية وانضجها ثمارا وأوفرها مجدا وشرفا ... قد يكون العمل الذي خططته في المحاماة ، والتحرير أكثر نفعا لك من الوجهة المادية، ولكن تذكر ان الدولة وفي الاخص وزارة المعارف ، بحاجة قصوى الى جهود ابنائها المخلصين ، وعلى هؤلاء الابناء ان يشمروا عن ساعد الجد ويتهافتوا برغبة صادقة وعزم اكيد على اداء واجباتهم في مثل هذه المؤسسات غير ناظرين الى المنافع المادية ، وفي التضحية الشخصية نفع عميم للجموع في ظروف كهذه ... لم أنبس ببنت شفة تجاه هذه الرغبة الملحة ، والمنطق السليم الذي لا يقبل اي جدل او نقاش . وكان سكوتي في طبيعة الحال دليلا على الرضا والقبول وعندئذ اردف الاستاذ : اننا نحاول تقليص عدد الموظفين الانكليز في مركز الوزارة ، وقررنا على هذا الاساس الاستغناء عن خدمات المستر ويليمسن رئيس الملاحظين والغاء وظيفته ، واحدثنا وظيفة جديدة في الميزانية بعنوان «رئيس ديوان وزارة المعارف» وانني مكلفك ان تقبل هذه الوظيفة ، وارجوك أن تجيبني الآن بالقبول ليصدر الأمر الوزاري بتعيينك ... انني في الحقيقة عندما سمعت أن الشخص الذي سيستغنى عنه هو المستر ويليمسن خصمي اللدود الذي اجبرني على الاستقالة من وظيفتي قبل هذا ، ابتهجت وغمرت مشاعري فرحة عظمى ، أما حلولي محل هذا الانكليزي المغرور المتعجرف ، فقد زادني غبطة وحبورا ... أجبت الحصري دون تردد : أمرك يا استاذ ، انني لا اخالف لك قولا ولا أرد لك امرا ...

وبعد ذلك صدر أمر تعييني رئيسا لديوان وزارة المعارف اعتبارا من

صباح يوم ١٩ ايلول ١٩٢٣ . وفي نهاية السنة الدراسية ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ حصل عبد الرزاق ابراهيم المرحوم مدير معارف منطقة البصرة ، على زمالة دراسية في جامعة كاليفورنية وسافر اليها ... وعندئذ كلفني الحصري وكان آنذاك مديرا عاما للمعارف ، أن اسافر الى البصرة واقوم بأعمال مديرية معارف المنطقة وكالة ... فقبلت التكليف بالمسرة والترحيب ، لأن مجال العمل في ادارة مديرية معارف منطقة كان أوسع بكثير من تلك الحدود الضيقة والأعمال الرتيبة في رئاسة الديوان ... وباشرت عملي في البصرة ابتداء من صباح اول ايلول ١٩٢٤ .

أحداث طريفة مع وزراء المعارف

اشتغلت في معية وزراء عديدين منذ تعييني في مركز نظارة المعارف في بغداد ونتيجة اتصالاتي بهم حدثت بعض احداث طريفة ادونها ضمن أوراق أيامي لاعطي القارىء فكرة عامة عن عقليات أولئك الوزراء ودرجة مداركهم العقلية وبعض تصرفاتهم الشاذة ، دون ان اذكر اسم اي واحد منهم تجنبا للاساءة الى شخوصهم او تجريحهم وهم يقيمون الآن في الدار الآخرة وعند ربهم يرزقون ...

١ ـ صدر ذات يوم أمر وزاري ... يطلب الى جميع رؤساء الدوائر في وزارة المعارف الحضور الى مكتب معالي الوزير للمذاكرة في بعض الامور المهمة ... وطلب حضوري ايضا بصفتي سكرتير الجلسة ... حضرنا الاجتماع في الوقت المعين ... والجميع ينظرون الى الوزير منتظرين ما سيتفوه به من الامور المهمة التي عقد الاجتماع من اجلها ... وبعدما أديرت كؤوس القهوة على الحاضرين تنحنح معالي الوزير ثم أخذ يداعب لحيته بأنامله وبدأ الكلام بكل وقار وقال : « قررت ان أجعل كل لوحات العناوين المستعملة في داخل الوزارة باللغة العربية ... وقد جمعتكم اليوم لاستمزج رأيكم في الالوان التي يجب ان نستعملها في تلك الالواح أي بأي لون يجب ان يكون وجه اللوحة ، وبأي لون

يجب ان تكون الكتابة عليها ؟••• وبدأت الاقتراحات واحتدت المناقشات ••• أراد البعض ان يكون وجه اللوحة اسود والكتابة بيضاء ، وآخرون ارتأوا ان يكون الوجه احمر والكتابة بيضاء • واقترحت فئة اخرى ان يكون الوجه بنيا والكتابة بيضاء ••• ودامت الاقتراحات واستمرت ما يقرب من الساعتين واخيرا تناول الوزير الحديث وقال : لا أنني افضل ان يكون الوجه ازرق والكتابة بيضاء ••• فصاح الجميع بصوت واحد : هذا هو الصواب • « ورأي الوزير وزير الآراء » !!! • واختتمت الجلسة بعد هذا القرار الجماعي وتفرق الحاضرون كل الى مكتبه •

٢ ـ شارك في الوزارة (•••) المرحوم وزيرا للمعارف وولج مقر وزارته وهو يتبختر في مشيته ويلتفت يمينا وشمالا ، يرفع يده الى هذا ويهش في وجه ذاك • واخيرا انتصب على كرسيه الدوار ، وصار يمعن النظر في بعض الأوراق والملفات التي لقيها موضوعة على جانبي مكتبه ••• وفي هذه الأثناء دخل عليه الموظفون واحدا بعد آخر ، بحسب العادة الجارية مع كل وزير جديد ، يقدمون التهاني ويتمنون له نجاحا وتوفيقا في العمل ••ولما حاولت أن اخرج استبقاني حتى خرج الموظفون جميعهم••• ثم التفت الي وقال : ان لدي مشكلة اريدك أن تحلها •• قلت : خيرا يا صاحب المعالي انني طوع امرك ورهن اشارتك ••• قال وهو يشير الى آلة التلفون : انني لم أجرب يوما المكالمة تلفونيا ولا احسن استعماله فكيف العمل ؟ قلت : هذا امر بسيط يا معالي الوزير فعندما يدق الجرس ارسل في طلبي وانا اكلم المتحدث في بادىء الامر ، وبعدئذ نفكر بطريقة ناجعة لحل هذا المشكل ••• وهكذا ، كان يطلبني الوزير كلما دق جرس التلفون وانا أقوم بمحادثة المتكلم نيابة عنه ••• وبعد ان مرت بضعة ايام على هذه الطريقة في استعمال التلفون ، وجدت ان هذا الاسلوب

غير مجد لأنه يسبب ارتباكا في الحديث احيانا ويخلق بعض الصعوبات وهو في الوقت نفسه مضيعة للوقت ويشل العمل ويعيق الانتاج ... وعند ذاك خطرت ببالي فكرة ... لماذا لا أربط تلفوني بتلفون الوزير ، وأمرنه على التكلم تلفونيا بمحادثات اجريها معه من غرفتي مباشرة ؟.. وكانت فكرة ناجحة حقا اذ تم الارتباط بين التلفونين في اليوم التالي وصرت اطلب الوزير ويطلبني ، ونتكلم في شتى الامور كل يوم عندما يجد وقتا مناسبا لذلك . كان الوزير في بادىء الامر يتكلم بصوت عال وكان عندما يتكلم يسمع صوته كل من كان جالسا في الغرف المجاورة ..فافهمته ان الصوت العالي يشوش الحديث في التلفون والمخابرة السليمة هي التي تكون بصوت معتدل ، لا همس ولا صراخ ... وجرب معاليه هذا الاسلوب بعد ذلك ، واتقن المخابرات التلفونية بعد أسبوع واحد من التمرين .

٣ ـ كان من المقرر ان تحتفل المدرسة الثانوية المركزية بمناسبة (لا اتذكرها جيدا في الوقت الحاضر) وقد رجا مدير المدرسة هذا الوزير نفسه ان يلقي خطابا في ذلك الاحتفال ... رحب الوزير بهذا التكليف وقبل الرجاء عن طيبة خاطر ، وصار يحضر الموضوع ويكتب ونحن نستنسخ ما يكتبه على الآلة الكاتبة . وعندما يتم الطبع وتقدم الاوراق الى معاليه يعيد قراءتها فلا تعجبه بعض الجمل والتعابير ، ويجري تصحيحات واضافات فيها ثم يعيدها لاعادة الطبع ، فنستنسخ من جديد .. وفي هذه المرة ايضا لا يستحسن بعض ما جاء في الخطاب ويحذف ما يشاء ويضيف اليه ما يريد ، وترسل الى الطبع ، وكاتب الطابعة يشكو ويتذمر ويكفر ويتوب ... واذا لم تخنني الذاكرة لقد تكرر طبع خطاب معاليه ما لا يقل عن أربع مرات ... وأخيرا أصبح الخطاب جاهزا بأحسن وجه يرتضيه وطلبني في صباح اليوم المقرر للحفل وقال لي : اريدك ان تصحبني الى مكان الاحتفال ، وأرى من المناسب ان تلقيه أنت بنفسك

نيابة عني •• قلت : أمرا وطاعة ••• واتفقنا على ساعة معينة نحضر فيها الى الوزارة ومنها نسير الى المدرسة الثانوية المركزية ••• حضرنا الى الوزارة وامر الوزير باحضار عربة توصلنا الى مكان الاحتفال ، وكانت السيارات في بغداد نادرة في ذلك الوقت ولا أثر لسيارات الاجرة فيها ••• حضرت العربة ، وخرجنا الى الشارع لنستقلها •• الوزير يسير بخطوات متئدة وانا اسير خلفه ••• ولما تقدم الى العربة صعد اليها وجلس في منتصف صدرها ومد يده الى الجانبين ، واراد ان يفهمني بحركته هذه أنه يفضل ان اجلس في المقعد الذي أمامه ••• اما انا فاعتبرت الجلوس في المكان الذي يريده الوزير اهانة لي وقررت ردها بأي شكل كان وبخفة قفزت الى المقعد الذي يجاور الحوذي وجلست فيه ••• ارتبك الوزير تجاه عملي هذا وشعر بغلطه البعيد عن الذوق السليم وأسرع يخاطبني : لماذا صعدت الى هناك يا طالب افندي ؟ تفضل واجلس جنبي••• نزلت عندئذ وجلست الى يساره في صدر العربة •• وحضرنا الاحتفال وألقيت كلمة الوزير نيابة عنه ، وعاد كل منا الى قاعدته بسلام .

في معارف البصرة

طلبت موعدا لمقابلة احمد باشا الصانـع المتصرف والميجـر ويلسن المستشار عقب وصولي الى البصرة في صباح اول ايلول ١٩٣٤ ، وفـي صباح اليوم التالي استقبلني المتصرف ورحب بمقدمي وتمنى لـي النجاح في عملي الجديد ... كان المتصرف يرتدي الملابس العربية المعتادة ويضع على رأسه العقال الملفوف (اللف) فوق «يشماغ» احمر اللون وكان يتكلم بلهجة اقرب الى اللهجة النجدية منها الى اللهجة العراقية ، هكذا : (البصرة يا وليدي متأخرة والمدارس عندنا قليلة ... واهالي البصرة ناس مسالمون، كل منهم يشتغل بعمله ، وينفرون من السياسة ويبتعدون عن الانخراط في مسالكها جهد الامكان ... ولذلك ترانا هنا ننعم بالهدوء وراحـة البال ، لا احزاب لدينا ولا مشاغبات ...) وقد ظهر لي ان سعادة المتصرف يؤمن بأن الانكليز هم حلفاؤنا الطبيعيون ، وان العراق لا يستطيع ان يخطو خطوة الى الامام الا بمساعدتهم ومساندتهم ... وأخيرا أثنى ثناء عاطرا على الميجر ويلسن مستشاره لما يبديه من مساعدات واستشارات سديدة له ، واوصاني ان لا اهمل زيارته بعد خروجي من حضرته ... فطمأنته بأنني على موعد معه الآن وسأزوره بعد مغادرتي هذه الغرفة .

وبعد دقائق معدودة من هذا الحديث طرقت باب الميجر ويلسون ،

وكانت غرفته بالقرب من غرفة المتصرف ، واستقبلني واقفا على قدميه ، ولما قدمت له نفسي ،شعرت انه قد اعتراه شيء من العجب والاستغراب ••• أشار علي ان أجلس على كرسي أمام مكتبه وسألني بعد ذلك : احق انك طالب مشتاق ؟ أجبت : ومن اكون اذن اذا لم اكن طالب مشتاق ؟ •• قال : لم يسبق لي ان تعرفت بك قبلا ولكنني لم اجهل اسمك الذي كان يرد في كثير من الاحيان في تقارير التحقيقات الجنائية قبيل الثورة واثنائها وبعدها ••• انك كنت من خطباء جامع الحيدرخانة ومن المشاركين في عدد من المظاهرات العدوانية ضد الحكومة ومن المنتمين الى الحزب الوطني ••• اليس كذلك ؟ قلت : كل هذا صحيح ، لكنني لم اكن اعمل ما عملت بغضا للشعب البريطاني ، وانما حبا لوطني وبني قومي ، واحتجاجا على تصرفات رجال الحكومة البريطانية في العراق ، لانني اعتقد ان تلك التصرفات كانت مضرة بالمصالح البريطانية والعراقية على حد سواء ••• قال : قد تكون محقا بعض الشيء ولكن ليس في كل شيء ••• ثم ابتسم وقال : انني عندما كنت أرى اسمك في بعض التقارير او اسمعه من الافواه اتخيلك رجلا كبير السن ، عملاقا كالشيخ احمد الشيخ داود او كجعفر ابي التمن •• ولشد ما كانت دهشتي عندما دخلت علي وانت شاب قد لا تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرك ؟ ••• وعندئذ سألني : كم عمرك يا ترى ؟••• اجبته ٢٤ عاما •• قال : انك لا تزال في ريعان الشباب ومع ذلك تحتل مركزا مهما ذا مسئوليات جسيمة • ان ادارة منطقة المعارف تحتوي على ثلاثة الوية (١) ليست بالامر اليسير وانني أتمنى ان تكون أعمالك مثمرة وناجحة ••• وبعد ذلك تجاذبنا الاحاديث في مواضيع شتى •• والميجر ويلسن ، كزميله المتصرف اعاد على مسمعي المزايا التي يتحلى بها اهالي البصرة : انهم اناس طيبون ،

(١) ان منطقة معارف البصرة كانت تضم الوية البصرة والعمارة والمنتفك .

كرماء ، كل يشتغل في عمله ولا يهمه شيء آخر •• أن معظمهم تجار وملاكون يكرهون الاشتغال في السياسة وينقادون الى اوامر الحكومة انقيادا تاما ويبتعدون عن الضوضاء والمشاغبات ••• واظن ان المتصرف ومشاوره ارادا بهذه المقدمات عن اهالي البصرة ان يفهماني بأن كل محاولة من جانبي لتعكير هذا الهدوء (في مصطلحهم) او لتغيير جو الخمول هذا (في مصطلحي) تؤول الى الفشل لا محالة • وارادا ان يقولا لي ضمنا : أياك ان تحاول بث الروح الوطنية في هذا المحيط لأنك لن تجد أرضا صالحة لغرس بذورك هنا •••

امضيت شهرا كاملا في زيارة مدارس الالوية الثلاثة أتفقد شؤونها المختلفة وابحث في احتياجاتها ، وافكر في طرق اصلاح نواقصها ضمن ما لدي من امكانيات ••• وبعدما اكملت جولاتي وعدت الى مركز عملي، حصلت لدي قناعة بأنني استطيع أن أوفر خمسة عشر معلما في ملاكات الالوية الثلاثة للمدارس الاولية والابتدائية ـ اذا ما طبقت توحيد بعض الدروس في صفين او اكثر • وكنت سمعت الحصري يقول ان ذلك ممكن في عدد من الدروس : كالخط ، والقراءة ، والاملاء ، والاناشيد لا سيما في الصفوف التي يكون عدد طلابها قليلا ••• وعلى هذا الاساس باشرت تطبيق هذه الخطة التي لم يجربها أحد قبل الآن في أية مدرسة من مدارس العراق ووفرت خمسة عشر معلما فعلا فتحت بهم ثلاثة عشرة مدرسة اولية ، ذات صف واحد أو صفين ، في ثلاث عشرة قرية من قرى البصرة والمنتفك ، وفتحنا البعض من هذه المدارس في الخيم ، والبعض منها في ابنية بسيطة من اللبن والآجر • وكان الاهلون يتسابقون الى جمع التبرعات لتحضير الابنية المطلوبة وتأثيثها بما تحتاج اليه من رحلات مدرسية وسبورات وكراسي وغيرها •

Hamad Khalifa

ـــ الميجر ـــ !

كان الميجر ويلسن كل شيء في البصرة ••• انه ضابط مستعمر يخشى كل حركة تقدمية ، ويبطش بكل من يرتفع له صوت في المجالات الوطنية ••• أوامره مطاعة ، كلمته نافذة ••• أهالي البصرة قاطبة ، الاشراف والتجار ، والملاكون يلقبونه «الميجر» كلهم له أطوع من البنان ••• يأتمرون باوامره ، دون قيد او شرط ••• مخالفته جريمة لا تغتفر ، والانقياد الى اوامره وتنفيذ رغباته من مكارم الاخلاق وحسن الصفات ••• ساءني هذا الوضع المخزي ، وصعب علي ان يتغطرس مثل هذا الاجنبي ويتصرف في مقدرات البلد تصرف السيد مع عبيده ، وبدأت اكتب مقالات متسلسلة بعنوان «الميجر» وبتوقيع مستعار في جريدة «المفيد» البغدادية لصاحبها ابراهيم حلمي العمر المرحوم أندد فيها ببعض أعماله ، وأفضح بعض تصرفاته ، وأوجه اللوم الى أهالي البصرة لانقيادهم هذا الانقياد الاعمى لمشيئته وارادته ••• جن جنون «الميجر» وحامت الشبهات حولي وحاول البعض من اصحابي ان يستدرجوني لابوح له بما لدي من معلومات عن كاتب هذه المقالات ، وكنت أتجاهل الامر

وانكر معرفتي بالكاتب بصلابة وحزم ... واخيرا استدعاني المتصرف وتكلم معي في نفس الموضوع وقابلته بنفس الصلابة ونفس الحزم : « ليست لدي اية علاقة بهذه المقالات ، ويمكنكم ان تجروا تحقيقا بواسطة اجهزة وزارة الداخلية في بغداد عن الكاتب ...» كان المتصرف مقتنعا قناعة تامة بأن الكاتب هو أنا وليس غيري ... وكان يردد قوله : « ما لنا يا وليدي بمثل هذه الامور ؟ انها تضر ولا تنفع ... البصريون لايحبون القلاقل والمشاغبات وأذواقهم لا تأتلف والاشتغال في السياسة .. الميجر رجل طيب ، ويحمل نوايا طيبة تجاه البصريين . أرجوك يا وليدي ان تعطي حدا لهذه الكتابات ، اذا كنت انت كاتبها حقيقة كما يدعي البعض هنا ..» وكنت أؤكد له أن ليس لي علم بالكاتب ، وليست لي أية علاقة بما يكتب ... وقد فهمت اخيرا ان متصرفية اللواء كتبت الى وزارة الداخلية متهمة أياي بكتابة هذه المقالات ، وأن وزارة الداخلية كتبت الى وزارة المعارف في هذا الامر ، فوجهت لي وزارة المعارف اثر ذلك كتابا تسألني فيه ، عما اذا كانت المقالات المنشورة في جريدة «المفيد» بقلمي او بايعاز مني ؟ .. فأجبتها أنني لست بكاتبها ، ولم يصدر عني اي ايعاز بكتابتها... اغلقت القضية بعد ذلك وكففت انا ايضا عن الكتابة مكتفيا بما نشر حتى ذلك التاريخ ...

Hamad Khalifa

محاضرة عن الاشتراكية

كانت في البصرة مكتبة تقع في محلة السيف ، وكانت طبقة من الشباب تجتمع عصرا في هذه المكتبة وتطالع بعض الكتب ، وتقرأ ما تيسر من الصحف والمجلات فعزمت على ان افيد من اجتماع هذه الكتلة من الشباب لأثير في نفوسهم الروح الوطنية ، وأغرس في قلوبهم المشاعر القومية ، وأبذل كل جهد ممكن لتوعيتهم وتوسيع مداركهم بمحادثات ومحاضرات وندوات في فروع مختلفة من علمية واقتصادية واجتماعية ... وصرت من المداومين في هذه المكتبة عصر كل يوم . وتعرفت بهذه الطريقة بعدد كبير من هؤلاء الشباب ، وكانت تجري بيننا محادثات ، ومناقشات في الابحاث سالفة الذكر ، وتوفقت بعد ذلك في تأليف لجنة من بعض هؤلاء الشباب (اسميناها لجنة المحاضرات) اخذت تنظم محاضرات اسبوعية شارك فيها عدد من الرجال المثقفين امثال : محمد زكي المحامي المرحوم وسليمان فيضي المحامي المرحوم وغيرهم من رجال العلم والقانون ...

وفي احدى الامسيات القيت محاضرة كان عنوانها « الاشتراكية والنظام الرأسمالي » شرحت فيها مساوىء النظام الرأسمالي السائد والبون الشاسع بين طبقات المجتمع ، وما يقاسيه العمال والفلاحون من غمط في

حقوقهم واستهتار في كراماتهم ، ثم تكلمت عن النظام الاشتراكي الذي بدأ ينتشر في بعض الدول الاوربية ، وأفضت في تبيان محاسنه وذكرت بأنه النظام الذي سيسود في العالم ، وأنه السبيل الصالح لانقاذ البشرية من الفقر والجوع والمرض • وقد لقيت محاضرتي هذه استحسانا عظيما من الحاضرين ، وبقي أهالي البصرة يتحدثون في موضوعها في مجالسهم الخاصة منهم من يرى فيها شيئا من الحقيقة ومنهم من يقول : انها استفزاز وتحريض على الثورة ، وهناك من اتهمني بالتحريض على اعتناق الشيوعية والدعاية لها •••ولم يكن في مقدور «الميجر» طبعا ان يغض النظر عن مثل هذا العمل ويظهر إنه كتب كعادته الى بغداد ، ولا ادري ما كتب ،ولكنني بعد مدة من القاء محاضرتي هذه وردني كتاب من وزارة المعارف تسألني فيه عن موضوع المحاضرة • أجبت على ذلك بانها محاضرة علمية واجتماعية بحتة لم انطق فيها بأية كلمة من عندي ، بل كان محتواها مقتبسا من كتب مطبوعة تباع في اكثر المكتبات في بغداد وفي غيرها من المدن العراقية ••• وهكذا اغلقت هذه القضية أيضا بسلام وصفاء •

بناية المدرسة التي أرادوا أن يجعلوها كازينو وملهى

مررت يوما ، ومعي صديق بصري ، بدار كبيرة تقع على ساحل نهر العشار في البصرة . وكانت مهجورة ومتهدمة لفتت نظري وسألت صديقي ما هو هذا البناء ؟... أجابني انها بناية قديمة ، كانت مدرسة كبيرة في العهد العثماني ، واستولى عليها الجيش البريطاني في ايام الاحتلال واستعملها مستشفى عسكري سنين عديدة ، ثم تركها على حالتها الحاضرة خربة مهجورة لا يهتم بها ولا يحاول الافادة منها احد .

وفي صباح اليوم التالي ، قمت بزيارة المتصرف وذكرت له هذا البناء المهجور وقلت له : ان مدرسة السيف الابتدائية ، وهي اكبر مدرسة في البصرة تضم بين جدرانها المئات من الطلاب تشغل خانا لا يليق ان يكون الا اصطبلا . فلماذا لا تتشبث بتعمير هذه المدرسة القديمة وننقل اليها مدرسة السيف ... قال : والله يا وليدي انا لا استطيع ان اجيبك على هذا الموضوع ... وانما الذي اعلمه أن المستر تيودور (١) كلم «الميجر»

---

(١) رجل يوناني أقبل على البصرة فقيرا وأصبح من الاثرياء المعدودين بسبب تقربه من الانكليز والاعمال المشبوهة التي كان يقوم بها دون وازع او تأنيب ضمير ...

في موضوع هذه البناية مقترحا استئجارها من الحكومة اجارة طويله على ان يعمرها ويفتح فيها (كازينو) وملهى ، فالاوفق ان تواجه «الميجر» في هذا الموضوع ... خرجت من المتصرف وذهبت الى غرفة «الميجر» وأرسلت له بيد الفراش بطاقتي ، فاذن لي بالدخول ... استقبلني الميجر استقبالا فاترا واجلسني على كرسي امامه . كان في طبيعة الحال متأثرا مني : (اولا) لتأكده من ان المقالات التي نشرت في جريدة «المفيد» كانت بقلمي ، (ثانيا) للنشاط الذي خلقته في مكتبة البصرة والمحاضرة التي ألقيتها هناك في موضوع « الاشتراكية والنظام الرأسمالي» ... ومع ذلك لم يفاتحني قط في أي أمر يتعلق بهذين الموضوعين ... ولما فاتحته في موضوع المدرسة القديمة واظهرت له عزمي على المطالبة بها واستعادتها الى وزارة المعارف امتعض وظهرت حورا علائم الاكفهرار على وجهه المتجهم ... وأجابني : ان هذه البناية لم تعد تصلح مدرسة ، لأن تعميرها يحتاج الى مبلغ جسيم وميزانية الدولة لا تتحمل مثل هذه النفقات في الوقت الحاضر ... قلت : الا ترون انه من الافضل ان نحيل الأمر الى المهندس الاجرائي في منطقة البصرة ليقدم لنا كشفا بالتعميرات المطلوبة وما تقتضيه هذه التعميرات من نفقات ؟... قال : لا مانع لدي وسأطلب الى المهندس الاجرائي ان يقوم بذلك ، وعليك ان تراجعه في الموضوع في موعد تتفقان عليه ... فاكتفيت بهذا القدر من الاجراء وشكرت الميجر ورجوته ان يعير القضية ما تستحقه من اهتمام لأن معارف البصرة بحاجة شديدة الى هذه البناية ...

وبعد أيام واجهت المهندس الاجرائي ، وكان انكليزيا ايضا لا يعرف حرفا واحدا من اللغة العربية الامر الذي اضطرني الى استصحاب مترجم عندما ذهبت اليه ... ولقد كان مؤيدا رأي «الميجر» تماما محاولا ان يقنعني ان هذه البناية لا تصلح ان تكون مدرسة في الوقت الحاضر ،

واذا ارادت الحكومة ان تجري الاصلاحات المطلوبة فيها سيكلفها ذلك مبالغ طائلة ليس في وسعها ان ترهق ميزانيتها بهذا العبء الثقيل ... ولما استفسرت منه عن المبلغ الذي يخمنه لهذه التعميرات ، زودني بكشف مفصل بكل التعميرات المقتضية ، وكان مجموع المبلغ المخمن يتجـــاوز خمسة وسبعين الف ربية ...

وبعد ان اطلعت على المعلومات ، واقتنعت بأن الرجال المسئولين في البصرة (من الانكليز وغير الانكليز) لا يميلون الى اعادة هذا البناء الى صاحبه الشرعي(وزارة المعارف) ويفضلون اهداءه لقمة سائغة الى المستر ثيودور ليجعل منه (كازينو) وملهى ، كتبت الى وزارة المعارف شارحـا الموضوع بكل دقائقه ومقترحا أن تعيره الوزارة كامل اهتمامها وتصر على اعادته اليـها ، نظـرا لأن معــارف البصرة فـي اشــد الحاجـة اليـه ولأن هذه الدائرة احق من سواها بالتصرف فيه والافادة منه ... واتخذت بعد ذلك خطوة اخرى : استدعيت احد المعمارين البصريين واستصحبته الى البناء نفسه ليجري عليه كشفا عاما ويدون في ورقة التعميرات المطلوبـة بتفاصيلها ، ويذكر امام كل مادة منها المبلغ التقديري للتعمير ... وفي اليوم التالي أتاني الى مكتبي وقدم لي قائمة مفصلة بما طلبت ... وكــان مجموع المبلغ المخمن لكل التعميرات لا يتجاوز ثلاثة عشر الف روبية الا بمبلغ زهيد ... أخذت هذه القائمة وارفقتها بكتاب الى وزارة المعارف طالبا الاسراع باستعادة البناء قبل أن يتم الاتفاق مع المستر ثيودور علـى تسليمه اياه ... وأردفت كتابي الرسمي بكتاب خاص بالاستاذ الحصري بينت فيه ما لدي من معلومات ، وما قمت به من اتصالات ، وما تلقيته من اجوبة من الرجال المسئولين وما في تلك الاجوبة من دلائل توحي بالشك والارتياب في حسن نواياهم ... ويظهر أن الحصري تفهم الموضوع تفهما تاما ، واعاره كل اهتمامه ، وبذل في سبيل تأييدي كل جهد ممكن . وبعد

ايام قليلة من مراجعتي وزارة المعارف ، أقبل على البصرة المستر سمث مفتش المعارف العام لتدقيق القضية بنفسه والاطلاع على حقيقة الأمر بعينه . ان المستر لاينل سمث لا يشبه الرجال الآخرين من الانكليز الذين تشعبت افكارهم بالمبادىء الاستعمارية وفسدت اخلاقهم بطباع المستعمرين انه استاذ اكمل دراسته في جامعة اكسفورد وعين استاذا خاصا بولي عهد بريطانية ، اما ابوه فكان عميدا لكلية «يلبيل» في جامعة اكسفورد فهو اذا عالم ابن عالم ، وفضلا عن هذا كان يتصف باخلاق ومزايا نادرة : هادىء الطبع ، حسن النية ، متواضع ، لطيف المعشر ، سريع النكتة ، والخلاصة انه رجل «جنتلمن» بكل معنى الكلمة ... زارني مباشرة بعد وصوله الى البصرة وتحدثنا في موضوع المدرسة من جميع جوانبه ، ثم رافقته الى البناية المتنازع عليها اولا ، فمدرسة السيف الابتدائية ثانيا واطلعته على حالة البناية التي تشغلها فأيدني بانها لا تصلح الا اصطبلا ... ولما عدنا الى الدائرة اطلعته على كشفالمهندس الاجرائي الانكليزي وكشف المعمار البلدي ، ولفت نظره الى الفرق الكبير في المبالغ المخمنة في الكشفين وقلت له بصراحة : ان في الأمر مؤامرة على حرمان وزارةالمعارف من هذا البناء ... فلم يبد وجهة نظره لي بصراحة أو ما حصل لديه من انطباع في هذه القضية ، الا انني شعرت أنه اقتنع بصواب رأيي وفي أحقية وزارة المعارف في حيازة هذا البناء ... وبعدما أكمل مهمته معي ذهب الى زيارة الميجر ويلسن مشاور المتصرف ، ولا أدري ما جرى بينهما من حديث ، واغلب الظن انه افهم الميجر بأحقية مطالبي وأبان له ان وزارة المعارف لا تستغني عن استعادة هذا البناء ، وانها عازمة على اعتماد المبالغ اللازمة لتعميره والافادة منه ، ذلك ان الامور عادت الى مجاريها الطبيعية بعدما عاد المستر سمث الى بغداد بأسابيع قليلة ووصلتنا المخصصات اللازمة لأكمال التعميرات ، وقمنا بالتعمير وتسلمنا البناية ،ورجع المستر ثيودور وصديقه «الميجر» بخفي حنين ...

المستر فانيس ومدرسته

المستر فانيس مبشر امريكي أقبل على البصرة قبل عشرات السنين ؛ وأسس فيها مدرسة تدرجت من الصفوف الأولية حتى وصلت الى الصفوف الثانوية ••• تغلغل الرجل في محيط البصرة ، وتعلم لغة البلد لحد الاتقان، واندمج في صفوف الاهلين فكسب ثقتهم ومحبتهم واحترامهم ••• وكان معظم الشباب البصريين ، حين وصولي الى البصرة من خريجي مدرسة المستر فانيس : المدرسة الوحيدة في اللواء التي فاقت شهرتها كل شهرة سواها ، وذاع صيتها بين الخواص والعوام على حد سواء ••• وكان معظم اهالي البصرة يعتبرون المستر فانيس الأب الروحي لكل سكان اللواء •••

أردت أن أقوم بعد أن اكملت زياراتي للمدارس الرسمية ، بجولة تفتيشية للمدارس الخصوصية أيضا : الاهلية منها والاجنبية ، وطلبت ملفة المدرسة الامريكية (مدرسة المستر فانيس) ••• ولشد ما كانت دهشتي عندما فوجئت بجواب الكاتب : «لا ملفة لدينا لهذه المدرسة يا سيدي » ••• فسألته : أليست لديكم حتى جداول الدوام لهذه المدرسة ؟ فكان الجواب نفيا ••• وفهمت فضلا عن ذلك ان هذه المدرسة لم تفتش بالمرة من قبل مفتش معارف المنطقة ، وان مدير معارف المنطقة نفسه لم يقم بزيارة لمدرسة المستر فانيس منذ تشكيلات المعارف العراقية في اللواء

حتى يومنا هذا ... فعزمت على تخطي كل الاعتبارات والقيام بزيارة
فجائية للمدرسة ... وفعلا ذهبت اليها في احد الأيام دون سابق انذار
ففاجأت المستر فانيس بحضوري ، الذي قد يعتبره تطفلا .. وقد استقبلني
الرجل بارتباك ظاهر ، ثم استعاد رباطة جأشه بسرعة ، ورحب بي واجلسني
الى يمينه وأخذ يستفسر عن صحتي ويحدثني احاديث لا تخرج عن حدود
المجاملات العادية في مثل هذه الاحوال ... وكنت أجيبه في غاية اللطف
والادب بما يناسب المقام ... وبعد أن أمر بفنجانين من القهوة ،وشربناها
بسرعة ، اظهرت له رغبتي في زيارة بعض صفوف المدرسة ، فرحب بطلبي
ورافقني الى بعض الصفوف . وقد لاحظت اثناء جولتي بين الصفوف أن لغة
التدريس بالانكليزية ، وان معظم المعلمين من الاميركيين بينهم عدد محدود
من العراقيين الذين تتلمذوا على المستر فانيس في مدرسته ، وأن الواح
العناوين المعلقة على ابواب الصفوف مكتوبة كلها باللغة الانكليزيـــة
وحدها ... اكملنا هذه الزيارة الخاطفة بسرعة وعدنا الى غرفته ... وفي
اثناء الحديث قلت للمستر فانيس : من الغريب أن احدا من رجال معارف
البصرة لم يقم بزيارة تفتيشية لمدرستكم ولم يقدم أي تقرير عنها ؟...
فأجابني بشيء من العصبية : ان مدرستنا أميركية ، وحكومة الولايـات
المتحدة الاميركية لم تعترف لحد الآن بحكومة العراق ... ولذلك لا يحق
لمفتشي المعارف ان يزوروا مدرستنا ، فأجبته عند ذلك بشيء من العصبية
ايضا : اسمع يا مستر فانيس، ان الحكومة الاميركيةاذا لم تعترف بحكومة
العراق فان حكومة العراق لا تعترف بمدرستها ايضا ... انك بحكم
القانون العثماني المرعية احكامه في الوقت الحاضر ، ملزم بتزويد دائـرة
معارف البصرة بكل المعلومات والايضاحات التي تطلب اليكم .. وعليــه
انني اطلب اليك ان تزود دائرتنا باحصائيات أسبوعية عن عدد الطلاب ،
ودوامهم ، وان تقدم الينا قائمة بالكتب التي تدرس في هذه المدرسة ايضا
مع تزويدنا بنسخة من كل كتاب ... واود ان أقول لك علاوة على ذلك ،

أنني سأطلب الى مفتش معارف المنطقة ان يزور مدرستكم من حين الى آخر ويقدم لي تقارير عنها حسب الأصول المتبعة في تفتيش المدارس الاهلية والاجنبية ... وعندما فوجىء المستر فانيس بهذه الشدة والصراحة من قبلي حاول ان يتراجع (وينزل عن بغلته) فقال : انك أسأت الفهم يا سيدي ، انني لم أرد ان امتنع عن امتثال الأوامر التي تردنا من السلطات العراقية ، ولكنني كنت أقصد أن اوضح لك (لمجرد التوضيح) ان حكومة الولايات المتحدة الاميركية لم تعترف حتى الآن بالحكومة العراقية ، وهذا ما جعل السلطات العراقية لا تعير المدارس الاميركية اهتماما ولا تشملها بالعناية والرعاية ... ودعت المستر فانيس بعد هذا الحديث وعدت الى دائرتي مسرعا وكتبت الى الحصري كتابا مفصلا شرحت فيه موضوع المدرسة الاميركية بكل دقائقه ، ونقلت له قول المستر فانيس بعدم اعتراف الحكومة الاميركية بحكومة العراق وجوابي عليه في هذا الموضوع .. وبعد مدة وردني كتاب مشجع من وزارة المعارف تؤكد فيه أن المدرسة الاميركية وغيرها من المدارس الاهلية والاجنبية خاضعة للتفتيش ، وان هذه المدارس ملزمة في الوقت نفسه بتقديم كل الاستمارات التي تقدم عادة من قبل المدارس الرسمية الى مديريات المناطق ، وعلينا أن لا نتساهل في تطبيق الأنظمة المرعية بل ان نشدد في تطبيقها على المدارس غير الرسمية دون أي تقاعس أو تردد . فأصدرت في أثر وصول هذا الكتاب الى بيانا الى جميع المدارس الأهلية والاجنبية في لواء البصرة طلبت فيه ما يلي:

١ ــ ان مديرية معارف البصرة ستعنى من الآن وصاعدا بتفتيش المدارس غير الرسمية وسترسل مفتشيها الى هذا المدارس من حين الى آخر . فيرجى تقديم كل التسهيلات لتمكين المفتشين من القيام بواجباتهم اثناء التفتيش .

٢ ــ على كل المدارس الاهلية والأجنبية ان ترسل الى هذه المديرية

استمارات عدد الطلاب مع احصائية دوامهم الرسمي ، مرة واحدة في كل أسبوع .

٣ ـ ترسل المدارس غير الرسمية قائمة مفصلة بالكتب المستعملة في كل صف من صفوفها المدرسية مع نسخة أصلية من تلك الكتب ...

٤ ـ ان الواح العناوين المستعملة في المدارس غير الرسمية يجب ان تكتب باللغة العربية ، ويجوز للمدرسة ان تستعمل اللغتين : العربية والانكليزية في هذه الألواح .. وفي هذه الحال يجب ان تكون اللغة الانكليزية في أسفل اللغة العربية وان تكون حروفها أصغر من الحروف العربية .

وهكذا تم لي ما أردت وانتصرت على المستر فانيس ، ذلك القس المتعجرف .. وصرت أرسل طه مكي المرحوم مفتش معارف المنطقة الى المدرسة الاميركية وغيرها ليقدم تقاريره عن هذه المدارس حسب الاصول ... اما المواد الأخرى من الاعمام فيسرني أن اقول انها نفذت بحذافيرها خلال اسبوعين اثنين من ارساله .

Hamad Khalifa

في مدرسة الراهبات للبنات

من المؤسف أن اقول : ان المؤسسات الاجنبية في البصرة لم تكن تقيم وزنا للحكومة العراقية أو تعير اهتماما للشعور الوطني ، فكل منها يعمل لاغراضه الخاصة : سياسية كانت تلك الأغراض أم اقتصادية أم تبشيرية • وكان البصريون لا يهمهم شيء من امر هؤلاء فهم يمرون بكل استهتارهم مر الكرام ويتفرجون على كل تصرفاتهم الشائنة وكان معظمها يخدش العزة القوميةويجرح الكرامة الوطنية ، دون اكتراث او تجريح•••

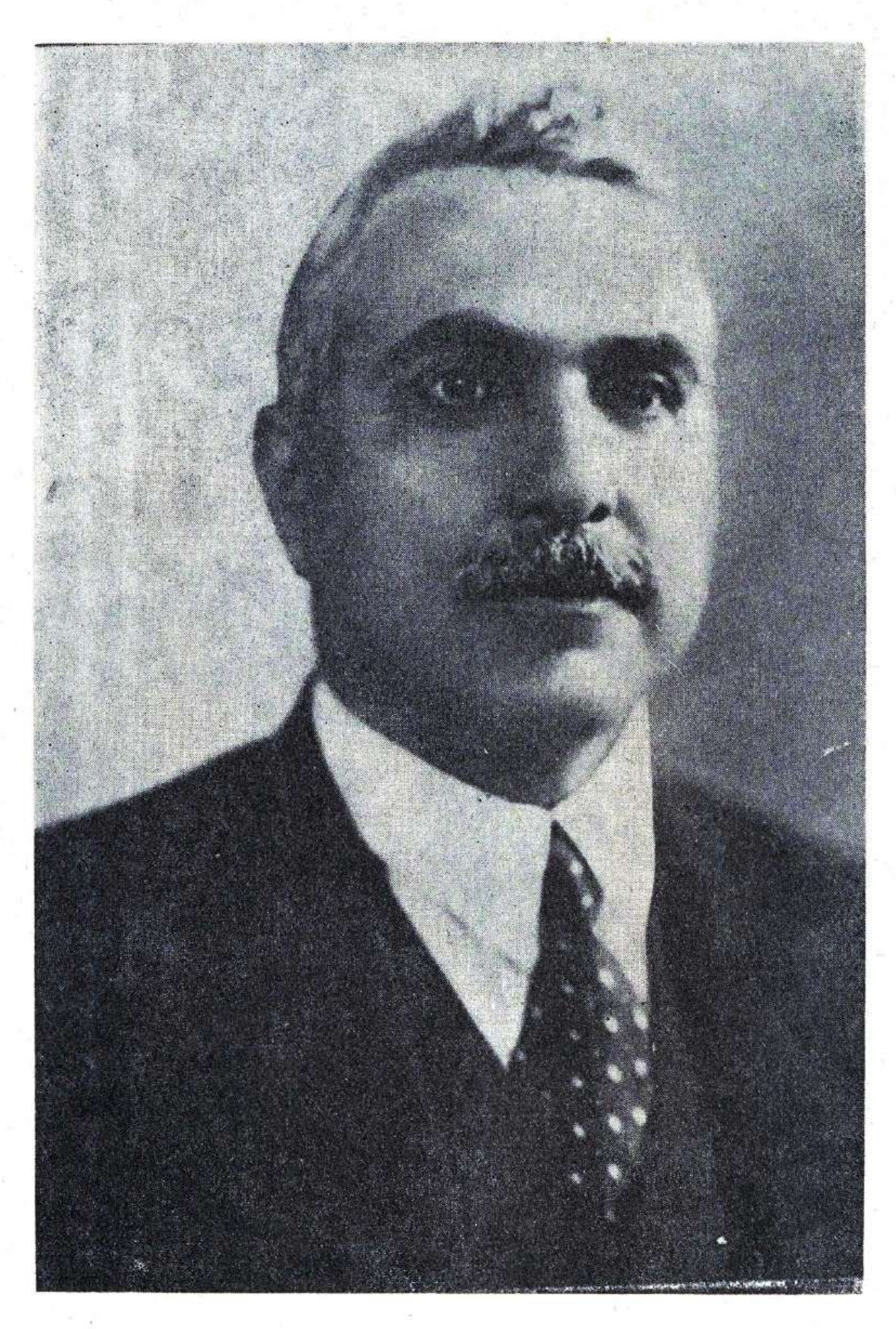
دعيت في ذات يوم الى احتفال في مدرسة الراهبات للبنات وحضرت الى المدرسة في الموعد المعين للاحتفال • كانت القاعة محتشدة بعدد وافر من المدعوين (الموظفين ذوي المناصب العالية ، والتجار ، والملاكين ، وأشراف البلد ووجوههم من شيوخ وشباب ، ورجال ونساء ••) وأخذت موقعي في الصف الأول امام المسرح وصرت اتلفت يمينا وشمالا ••• كان المسرح مزينا بأعلام فرنسية من ثلاثة أطراف وكذلك كانت جدران القاعة ••• الأعلام الفرنسية ترفرف في كل مكان بألوانها الزاهية «الازرق، والابيض ، والاحمر » • أدرت الطرف في كل الجهات كأني أفتش عن شيء افتقدته ــ أي والله افتقدته ــ أنه العلم العراقي المحبوب الذي كان يجب ان يحتل معظم اطراف هذه القاعة ••• انه لأمر غريب أن تحتفل مدرسة

أجنبية كل تلميذاتها عربيات ، في بلد عربي ، ويحصر الاحتفال هذا الحشد الهائل من العرب ويستبعد العلم العراقي العربي من قاعة الاحتفال ليحل محله علم اجنبي ؟ وهؤلاء الحاضرون : أليست لكل منهم عينان تنظران ؟ .. اما تحركت في نفوسهم مشاعر العزة والكرامة ؟ ألم تستفزهم هذه الاعلام الاجنبية وتلهب في قلوبهم نيران الغضب والثورة ؟.. كيف لا تثور ثائرتهم ، امام هذا المنظر الشائن المهين ؟ ... بلغ تهيجي عندئذ اقصى مداه ، وتوترت اعصابي وتشنج كل عضو في جسمي وصارت شفتاي ترتجفان ورجلاي تهتزان ، وبدني يختض من الحقد والألم ... وعندئذ انتصبت واقفا وصحت بصوت متهدج : اين المديرة ؟ ...تقدمت الي احدى الراهبات وقالت : تفضل يا حضرة المدير ماذا تأمر ؟ ... وصرخت في وجهها قائلا : انك في بلد عربي ، تحكمه حكومة عربية ... افما كان من اللياقة وحسن الأدب ان يكون العلم العراقي بين هذه الاعلام الفرنسية ؟.. ساد القاعة في تلك اللحظة سكون عجيب .. المدعوون جميعهم ينظرون لي والحيرة تبدو مرتسمة على وجوههم لا يعرفون ماذا يفعلون ... وأردفت قائلا : انني بصفتي مديرا لمعارف هذه المنطقة أمنعك من البدء بالحفلة قبل ان تعلق في هذه القاعة اعلام عراقية لا تقل من حيث العدد عن هذه الاعلام الفرنسية ... ارتبكت المديرة واضطربت واعتذرت بصوت مرتجف وقالت : آسفة يا سعادة المدير ، ليس لدينا علم عراقي واحد في هذه المدرسة ، فما العمل ؟.. قلت ترسلين الآن شخصا الى دائرة البلدية يستعير منها عددا كافيا من الاعلام العراقية ويأتي بها الى هنا ، وبعد أن تعلق هذه الاعلام تبدأين بالحفلة ... وبعد حوالي نصف ساعة كان عدد من معلمي المدرسة ومستخدميها منهمكين في وضع علم عراقي جنب كل علم فرنسي ، وأذ اصبح عدد الاعلام العراقية في القاعة مساويا عدد الاعلام الفرنسية أو يزيد بدأت الحفلة متأخرة ساعة واحدة عن موعدها المضروب ...

ياسين الهاشمي في البصرة

عندما كنت أشغل مديرية معارف منطقة البصرة وكالة كان ياسين الهاشمي المرحوم رئيسا للوزارة ، وقد قام في تلك الفترة بزيارة تفقدية للبصرة ••• وفي طبيعة الحال كانت دائرة المعارف موضع عنايته واهتمامه ••• زارني يوما في مكتبي الرسمي وتحدث معي في شتى الامور ،منها ما يخص شئون المعارف ومنها ما يخص الحالة السياسية العامة في العراق • ثم رافقته في زيارة عدد من المدارس في مركز اللواء وشرحت له كل الانجازات التي تمت في تلك السنة الدراسية ••• وقصصت عليه مواقفي مع المتصرف ومع مشاور اللواء من المدرسة التي أرادوا ان يجعلوها (كازينو وملهى) •• الى وقفتي امام المستر فانيس وتصرفي في مدرسة الراهبات •• واخبرته انني فتحت خلال هذه السنة ١٣ مدرسة في المنطقة ذات صف واحد او صفين دون أن اكبد وزارة المعارف فلسا واحدا من ميزانيتها ••• فابتهج مما عرضته عليه وشجعني بكلمات فيها الثناء والتقدير ، كعادته كلما واجهته في امر من الامور •••

وفي الحفلة التكريمية التي نظمها السيد كاظم الشمخاني المرحوم ، تكلم الهاشمي عما لاحظه من التقدم في معارف البصرة وأثنى على جهودي فيها ، وطلب الى اهالي البصرة ان يكون كل منهم عونا لي في اعمالي التي تعود بالنفع الجزيل على مصالحهم قبل كل شيء •••



ياسين الهاشمي المرحوم سنة ١٩٣٦

عودتي الى بغداد

انتهت السنة الدراسية بخير ، وقرب موعد وصول عبد الرزاق ابراهيم المرحوم من كاليفورنية لاستئناف عمله مديرا لمعارف منطقـــة البصرة . واستأذنت وزارة المعارف للعودة الى بغداد وأذنت لي بذلك ، وعدت الى عملي في ١٥ آب ١٩٢٥ رئيسا لديوان وزارة المعارف . على انني لم ابق في وظيفتي هذه الا مدة تقل عن الشهر الواحد ، وصدر الأمر بتعييني مديرا لمعارف منطقة كركوك التي كانت تضم ألوية : كركوك ، اربيـــل والسليمانية . وباشرت عملي الجديد في يوم ١ــ٩ــ١٩٢٥ ...

وفي خلال تلك السنة اشتدت الازمة الاقتصادية فـــي العـــراق ، وأصبح لزاما على كل الوزارات ان تخفض مصروفاتها تخفيفا عن كاهل الميزانية ، فألغيت وظائف عديدة في وزارات مختلفة وشمل الالغاء مديرية معارف منطقة كركوك ، فانفصلت عن عملي وعدت الى بغداد بتاريـــخ ١٦ــ١١ــ١٩٢٥ .

سفري الى انكلترا

واجهني الاستاذ الحصري بعدما عدت الى بغداد وأخبرني أنه قــرر ايفادي الى انكلترة مدة سنتين دراسيتين • واذ سألته عن مهمتي هناك ، اوجزها بمادتين :

اولا ــ حضور بعض المحاضرات في التربية واصول التدريس فــي جامعة اكسفورد •

ثانيا ــ مرافقة بعض المفتشين الاختصاصيين من مفتشي المدارس الثانوية اثناء قيامهم بالتفتيش والاطلاع على اصول التفتيش في هــــذه المدارس واكتساب خبرة بذلك •••

انني سررت في الحقيقة كثيرا بهذا الترتيب فقد كنت تواقا جدا الى مشاهدة اوربة ، لا سيما لندن ، والاطلاع على معالم التقدم والرقــي في تلك البلاد ذائعة الصيت ••• كان سفري من بغداد في اوائل كانون اول من العام ١٩٢٥ بالسيارة الى بيروت ومن هناك ركبت باخرة صغيرة مسافرة الى مرسيلية • وصلنا الى مرسيلية بعد سفر مضن محفوف بالمخاطر ستة أيام وذلك ان من خصائص البحر المتوسط ان يكون هائجا باستمرار خلال

موسم الشتاء ، وقد لقينا من هول الزوابع ساعات مخيفة رهيبة • وكان الدوار قد لازمني منذ حركة الباخرة حتى وصولها الى ميناء مرسيلية ، فلم اغادر مقصورتي طوال مدة السفر ولم اذق من الطعام الا بعض الفواكه والعصير ، وكنت اتقيأ كثيرا حتى صرت أشعر بأن امعائي ستخرج من فمي ••• وهكذا وصلت الى ميناء مرسيلية بحالة يرثى لها خشيت معها ان اضع قدمي على الارض ، فقد خيل لي بأن الارض تميد تحت قدمي ••• هكذا وصلت الى محطة مرسيلية بعد غروب الشمس ، وسافرت حالا ببطاقة الدرجة الثانية من القطار السريع الذي غادرها في الساعة الثامنة مساء •

ان أول ما لاحظته في محطة مرسيلية ، بعدما اخذت مكاني في احدى عربات القطار الباعة المتجولين الذين يحملون في ايديهم بعض العلب ويمرون بنوافذ العربات عارضين بيعها على المسافرين ••• ولما استفسرت عما تحتويه هذه العلب قيل لي : وجبة عشاء كاملة ••• اشتريت واحدة منها ، ولما فتحتها وجدت فيها « سندويشات» مختلفة : باللحم ، والجبن والطماطم ، مع فواكه وقطعة من الحلوى ونصف قنينة ماء معدني • كانت حقا وجبة عشاء كاملة، تحوي كل ما يحتاج اليه الانسان من مواد غذائية كاملة ، بسعر رخيص جدا اذا قيس بأسعار مطاعم الدرجة الثانية •••

كان القطار ينهب الارض نهبا ويطويها طيا بسرعة جنونية لا تقل عن ١٢٠ كيلو مترا في الساعة ••• وفي الحقيقة كان شيء من الشعور بالخوف ينتابني كلما فكرت في هذه السرعة لأنني لم اركب قطارا يسير بمثل هذه السرعة حتى ذلك التاريخ ، وقطارات العراق في ذلك التاريخ لم تكن تزيد سرعتها على اربعين كيلو مترا في الساعة ••• انبلج الصبح وانتشرت اشعة الشمس الذهبية مشرقة وهاجة ، وصرت اتطلع من النافذة الى ما اغدقته الطبيعة من جمال رائع وحسن بديع على هذه البلاد •••

اشجار مثمرة ، خضرة سندسية تكسو سفوح الجبال ، غابات كثيفة الاشجار ،انهر وجداول لا تعد ولا تحصى مزارع كثير الحركة والنشاط ، قرى صغيرة ، بيوت ذات الوان زاهية ، وحركة دائبة في كل شبر من الارض ••• يا لله !••• هذا هو سر تفوق الغربيين وتقدمهم ••• انني لا ابالغ اذا قلت انني لم الحظ شبرا واحدا من الارض قفرا منذ ساعة حركتنا من مرسيلية الى ان وصلنا الى باريس ••• بانت مرسيلية وكأنها متصلة بباريس اتصالا تاما بالقرى المتلاصقة ، والمزارع المتجاورة ، والمدن الكبيرة المتلاصقة ، وبكل آثار المدنية والعمران ••

وصلنا الى باريس قبيل الظهر ، وبانت لي هذه المدينة الفريدة كأنها عروس تختال في ابهى حلل الزينة والجمال والاحتشام ••• ومع ذلك رأيت ان لا أضيع الوقت في باريس ، وأن اصل الى لندن في اسرع وقت ممكن لأنظم منهج دراستي في مدرسة أبيت فيها واستقر ••• لهذا اسرعت الى توماس كوك ، شركة السياحة العالمية ، اسألها موعد سفر القطار الى لندن ، وفهمت منها ان هناك قطارا يسير بعد الظهر ويصل الى لندن في حوالي الساعة الثامنة مساء • طلبت الى الموظف المختص ان يزودني ببطاقة سفر وقفزت الى سيارة (تاكسي) تقلني الى محطة الشمال التي يتوجه منها القطار الى لندن ، ووصلت الى لندن في الساعة الثامنة مساء متوقعا ان يكون في استقبالي في محطة فكتوريا عطا امين الصديق العزيز والسكرتير الاول في سفارتنا في لندن يومئذ ، وكم كانت خيبتي أليمة ، عندما وصلت اليها ولم اجد اثرا له هناك ؟••• تحيرت في أمري ماذا افعل ؟ والى اين اسير ؟••• حاولت ان اتصل تلفونيا بممثليتنا ولكنني لا اعرف رقم تلفونها او عنوانها • استنجدت عندئذ بأحد المارة في المحطة وأفهمته بلغتي الانكليزية المختلة مشكلتي • اهتم الرجل بي ، كما هي عادة اي جنتلمن انكليزي ، وقادني الى غرفة التلفون ووجد رقم الممثلية

وطلبها وسلمني السماعة ، تكلمت مع شخص هناك ولما سألته عن عطا امين قال لي : انه سافر الى ايطالية وسيعود الى لندن بعد ايام قليلة ... وعندئذ صافحت الانكليزي وشكرته على حسن صنيعه ومساعدتـــه ، وخرجت من المحطة متوجها الى شرطي كان واقفا هناك ، سلمت عليه وقلت : انني رجل غريب وصلت الى لندن توا وأريد ان ترشدني الى فندق مـن الدرجة المتوسطة ... اشار علي ان اذهب الى فندق (نسيت اسمه الآن) يقع قريبا من المحطة . كان الجو آنذاك مكفهرا ، والامطار تنهمر بشدة والبرق يخطف الابصار والرعد يلقي الرعب في قلب اشجع الشجعان ... ومن حسن حظي انني وجدت غرفة خالية في هذا الفندق وكانت الغرفـة متوسطة الحجم ، مستكملة كل وسائل الراحة ، نظيفة الاثاث بسيطة ، لا أثر للزخرف فيها ... وهل اطمع انذاك ، بأكثر من فراش نظيف وسريـر مريح ؟ ... خلعت ملابسي واندسست في فراشي ... ولم أكد امـد رجلي حتى شعرت بنار تكوي قدمي ، فرفست الغطاء وتركـت الفراش منذعرا ... لا ادري ماذا جرى .. هل الفراش يحترق أم لدغتني عقرب ام لسعتني افعى ؟... لا أدري . ولما رفعت الغطاء جيدا ، وجدت تحته قنينة من البورسلن كبيرة ملأى بماء مغلي وضعت لتدفئة الفراش (١) ... ضحكت على نفسي عندئذ واعدت ترتيب الفراش ، ونمت نوما عميقا حتى ساعة متأخرة من النهار ...

صدف يوم وصولي الى لندن في ٢٥ كانون الاول ١٩٢٥ ، اي فـي أول يوم من ايام عيد الميلاد (الكريسمس) وكانت الدوائر والمؤسسات العامة معطلة ، واضطررت الى تأجيل مراجعتي وزارة المعارف البريطانية(٢)

---

(١) لم نكن معتادين في العراق ، حتى ذلك التاريخ على استعمال مثـل هذه الوسائل في تدفئة فراشنا حتى في اشد ايام البرد في الشتاء .

(٢) *Board of Education*

الى ما بعد أيام العيد ... كنت احمل كتاب توصية وتقديم من المستر سمث مفتش المعارف العام الى احد موظفي وزارة المعارف الكبار يرجوه فيه ان يساعدني في تسجيلي في مدرسة مناسبة أدرس فيها اللغة الانكليزية حتى بدء السنة الدراسية القابلة ... وفي الحقيقة أبدى هذا الرجل (الذي نسيت اسمه في الوقت الحاضر) كل اهتمام في أمري ، واستطاع أن يسجلني تلميذا داخليا في احدى مدارس دار المعلمين (١) وكنت مغتبطا جدا بهذا النجاح ... كان الدكتور ووركمن مدير هذه المدرسة شيخا جليلا وعالما من علماء التاريخ يشار اليه بالبنان وله مجلدات عديدة في هذا الموضوع ويد طولى في سائر العلوم الاجتماعية والفلسفية وعلم النفس ... استقبلني هذا الشيخ الوقور استقبالا جميلا ، ورحب بمقدمي احسن ترحيب ... ثم دعا بعض طلاب الصفوف المتقدمة وعرفني بهم ، وطلب اليهم ان يكونوا لي اصدقاء مخلصين يساعدونني في كل ما أحتاج اليه ، ولا يتركوني أشعر بالوحشة او الغربة في محيطي الجديد ... وفي الواقع انني لقيت من حسن معاملة اولئك الاصدقاء والزملاء ومساعداتهم القيمة والوفاء ما أذكره حتى الآن ببالغ الامتنان والتقدير ... كان مجموع عدد الطلاب في هذه المدرسة لا يتجاوز ١٥٠ طالبا ، يبيت كل منهم في غرفة مستقلة مجهزة بما يحتاج اليه الطالب من اثاث ... كان عدد غرف النوم الخاصة بالطلاب وحدهم اذن «١٥٠» غرفة عدا غرف المنام الخاصة ببعض أعضاء الهيئة التعليمية وعدا قاعات الاستراحة ، والتدخين ، والمكتبة ، والالعاب الرياضية الشتوية ، والطعام ، وغيرها من المرافق والمشتملات ... وقد عهدت ادارة المدرسة بأحد الاساتذة تنظيم منهج خاص بي لتعلم اللغة الانكليزية ، وكنت اتلقى وفقا لهذا المنهاج ثلاث دروس باللغة الانكليزية يوميا تتضمن القراءة ، والانشاء ، والاملاء ...

---

(١) *West Minister College*

على انني رغم كوني تلميذا خصوصيا لا أتبع المنهج المقرر للدراسة في هذه المدرسة ، فقد اندمجت في كل الفعاليات المدرسية للطلاب ، وكنت احضر المسابقات الرياضية ، وأشارك في حفلات الرقص وارافق بعض جماعات الطلاب الى المسابح العامة وأشاركهم في السباحة ، واخرج مع زمرة منهم الى سن جيمس بارك ، للتريض سيرا على الاقدام في صباح كل يوم ، ولم اذهب الى السينما الا مع عدد من هؤلاء الرفاق الذين احببتهم كثيرا واحبوني كثيرا ... (١) .

وبعد أن تذاكرت مع مديرنا (الدكتور ووركمن) في موضوع دراستي في السنة الدراسية القابلة أشار علي ان اذهب الى اكسفورد ، واحضر محاضرات التربية واصول التدريس التي تلقى في معهد خاص بمدرسي المدارس الثانوية ويتبع الجامعة ، ووعد بمعونتي لدى الدكتور هندي مدير المعهد ، فهو يعرفه جيدا وتربطهما صداقة قديمة ... وبدوري كتبت الى المستر سمث في بغداد ان يزودني بتوصية الى مدير هذا المعهد ... وبعد أيام قليلة وصلتني رسالة من المستر سمث وفيها توصية الى مدير المعهد .

ان من الاصول المتبعة في التقاليد الانكليزية ، انهم عندما يزودون شخصا بكتاب توصية لا يغلقون غلاف ذلك الكتاب ، بل يتركونه مفتوحا ليطلع على محتوياته الشخص الذي يعنيه الأمر .. ولكني لاحظت أن التوصية التي وردت الي من المستر سمث موضوعة في غلاف مغلوق خلافا للعادة ... وقد لفت هذا الامر نظري وجلب انتباهي ، وشعرت ان غريزة حب الاطلاع عندي بلغت حدها الأقصى ... أردت أن اقرأ ما جاء في هذه التوصية بأي ثمن كان ، وعزمت على فتح الغلاف والاطلاع على

---

(١) كنت احضر في كثير من الاحيان الطقوس الدينية في كنيسة المدرسة .

محتوياته ••• فتحته باعتناء ، بطريقة يمكن معها اعادتها الـى وضعـه السابق بيسر وسهولة ، وقرأت ما جاء فيه ••• كان المستر سمث يقدمني الى الدكتور هندي شابا ذكيا نشيطا ، ولكنني منجرف فـي التيـارات السياسية ولي فعاليات ونشاطات ضد الادارة البريطانية في العراق •• وخلاصة القول أنه يصفني بمعـاداة البريطانييـن ، ويستعمـل عـبارة Anti British تعريفا اساسيا لشخصيتي ••• ويختم كتابه بقوله: « ومع هذا فأنا لا اعرف ، اذا كانت صفته هذه لا تؤهله للالتحاق بجامعة أكسفورد طالبا رسميا ؟ ••• لم يخرج المستر سمث عن الواقع في كـل ما جاء في توصيته هذه ، ولكنه كان مخطئا بوصفي :انني ضد البريطانيين، اذ انني كنت في الواقع ضد تصرفات بعض المستعمرين من البريطانييـن في العراق ولم اكن يوما ضد البريطانيين بهذه الصورة المطلقة التي وردت في رسالته ، ذلك اني كنت ولا أزال اقدر في الشعب الانكليزي كثيرا من الخصائص والمزايا التي تجعله في مرحلة متفوقة على كل شعوب العالم •••

واخيرا ، بعد مخابرات طويلة بين الدكتور ووركمن والدكتور هندي رئيس معهد مدرسي المدارس الثانوية في أكسفورد من جهة وبيني وبيـن هذا الاخير من جهة أخرى ، تقرر قبولي طالبا خصوصيا في المعهد المذكور ابتداء من السنة الدراسية الجديدة ١٩٢٦ ــ ١٩٢٧ ، وعلى هـذا الاساس كرست كل قوتي وبذلت كل ما في طاقتي من الجهد في درس اللغـة الانكليزية ولما انتهت السنة الدراسية ودعت الدكتور ووركمن مديرنـا وبعض أساتذتي في ويست مينستر كولدج وكل زملائـي في هذه الكلية وسافرت الى أكسفورد حيث أمضيت العطلة كلها في هذه المدينة الجامعية، المشهورة بجمالها وطابعها العلمي الخاص ، منتظرا بدء السنة الدراسية الجديدة ••• وطبعا لم افرط في الوقت خلال العطلة ، بل اتفقت مع استاذ

للغة الانكليزية يدرسني ساعتين يوميا الى ان يحين موعد افتتاح الموسم الدراسي في جامعة اكسفورد ...

وقد تلقيت ، قبل مغادرتي لندن ، كتابا من وزارة المعارف تخبرني فيه بأن مؤتمرا كشفيا دوليا سيعقد في «كندرستك» (١) وان الحكومة العراقية قررت المشاركة فيه بوفد يتألف من عضوين اثنين هما : ياسين عمر وانا (٢)... وقد عينتني رئيس هذا الوفد بدرجة مفتش منطقة «DISTRICT COMMITIONER» وأرسلت لي الوثائق الرسمية تؤيد هذا التعيين ، مع خطاب خاص (القيه اثناء انعقاد الجلسة الاولى للمؤتمر) نيابة عن رئيس الوزارة العراقية وكان يومئذ عبد المحسن السعدون المرحوم على ما اتذكر ... وهكذا امضيت اكثر من اسبوعين في سويسرة، زرت خلالها اشهر مدنها ، وتمتعت بقسط وافر من حياة هانئة بين جبالها الخضراء ، وعلى بحيراتها الزرقاء وفي مدنها الجميلة الخالية من الصخب والضوضاء ... وسنحت لي الفرصة ان أتعرف بعدد كبير من اعاظم الرجال في هذا المؤتمر كان فيهم ولي عهد اليابان (٣) ، والسير بادن باول رئيس الكشافة العالمية ، واللورد هيميتن المندوب البريطاني في هذا المؤتمر ، ورئيس الجمهورية السويسرية يومذاك (الذي دعانا الى مأدبة غداء فاخرة نظمت في فندق فخم في مدينة اينترليكن احلى المدن السويسرية على الاطلاق) ووالي مدينة برن (الذي نظم هو الآخر مأدبة غداء انيقة لنا

---

(١) قرية جبلية في سويسرة .

(٢) كان يدرس في كلية المعلمين في اكستر في انكلترة على نفقة الحكومة ايضا .

(٣) الامبراطور الحالي .

في فندق كبير في تلك المدينة) وغيرهم كثيرون ممن لا أتذكر اسماءهم في الوقت الحاضر ...

افتتح الموسم الدراسي في جامعة اكسفورد في الأسبوع الاول من شهر أيلول ١٩٢٦ وصرت اواظب على المحاضرات بانتظام ، ولا أذكر انني أهملت حضور اية واحدة منها . ولقد عين الاستاذ آيسلي ، استاذ التربية في المعهد استاذا خاصا بي TUTER يراقب اعمالي ، ويرشدني الى بعض المصادر لمطالعتها ، ويعهد بي بعض المواضيع لأكتبها بشكل مقال ESSAY ثم اعرض ما اكتبه عليه لتجري بيننا مناقشة في الموضوع يصحح لي خلالها اغلاطي ، ويوضح ما خفي علي من ملاحظات اخرى ...

وبالاضافة الى دراستي النظرية هذه نظم لي منهج خاص بزيارة مدارس عديدة (ابتدائية وثانوية ومهنية) بصحبة مفتشين اختصاصيين . وقد جرت مخابرات بين الدكتور هندي مدير المعهد والمستر تووين مدير معارف منطقة برايتن ، تنفيذا لهذا المنهج ، ليستضيفني ثلاثة اسابيع (١) اقيم معه في داره ، وأرافقه اثناء عمله في دائرته ، واصطحبه في زياراته المدارس المختلفة في منطقته اثناء تفتيشها وتفقدها ، كانت سفرتي الى برايتن ممتعة للغاية ، وكنت أعيش في دار المستر تووين كفرد من اعضاء العائلة ، وكانت زوجته المسز تووين ، سيدة محترمة ذات ثقافة عالية كزوجها ، لا تألو جهدا في توفير كل وسائل الراحة لي . كنا نجلس على مائدة الطعام سوية ، ونسهر في الصالون الانيق ، واذا ذهبا الى السينما اخذاني معهما ، واذا دعيا الى حفلة موسيقية او تمثيلية طلبا بطاقة

(١) تقرر في هذه المخابرات ايضا ان ادفع اربعة جنيهات في الاسبوع الى المستر تووين لقاء سكني وطعامي في داره .

أخرى لي لأرافقهما ... كان المستر توين يطلعني عندما أكون في مكتبه على كل المعاملات الادارية التي تمر به وكان يزودني ببعض تقاريره التفتيشية لأطلع عليها وافيد من تجاربه فيها (١)... وانني لا اعدو الحقيقة اذا قلت ان الاسابيع الثلاثة التي امضيتها في كنف هذه العائلة كانت بمثابة دروس عملية لي ، تفوق من حيث فوائدها كل الدروس النظرية التي تلقيتها في معهد تدريب مدرسي الثانوية في أكسفورد ...

انتهت الاسابيع الثلاثة ، وودعت بحرارة المستر والمسز توين وشكرتهما شكرا صادقا على ما لقيته منهما من الرعاية وكريم العاطفة طيلة مدة مكثي عندهما ، وعدت الى أكسفورد استأنف عملي بارشاد المستر آيسلي من جهة ، وحضور المحاضرات المقررة لي من جهة أخرى ... وقد نظم لي منهج آخر قبيل ختام السنة الدراسية تضمن مرافقتي بعض المفتشين الاختصاصيين اثناء زياراتهم بعض المدارس الثانوية والمهنية والقروية في منطقة اوكسفورد شير .. وفي خلال اسبوعين اثنين زرت ما لا يقل عن خمس عشرة مدرسة مختلفة من طراز المدارس سالفة الذكر . وكنت ادون بعض الملاحظات في دفتري الخاص للافادة منها اثناء عملي في معارف العراق مستقبلا ، وكان منهج هذه الزيارات منظم من قبل المستر ولسن مدير معارف منطقة اوكسفورد شير ، الذي تعرفت به بوساطة الدكتور هندي وكانت مساعداته ثمينة في تسهيل زياراتي تلك المدارس حيث أرفق بي مفتشين من خيرة مفتشي معارف المنطقة هما : المستر سلبي ، مفتش الاعمال اليدوية والميجر هوليدي مفتش الرياضة والالعاب،

---

(١) كان المستر توين يكتب في كل ثلاثة اشهر تقريرا عن معارف منطقته ، ويضيف الى مشاهداته وملاحظاته بعض الاراء العلمية والتربوية ، وكانت جريدة التيمس اللندنية تنشر هذه التقارير في ملحقها عن المعارف لقاء اجر قدره مئة باون عن كل تقرير .

فقاما بالمهمة خير قيام وقدما المعلومات عن حالة المدارس العامة في المنطقة وزوداني بالارشادات المتعلقة بفهم بعض الامور ، فشكرا لهما على ما ابدياه نحوي من الرعاية والاهتمام (١)...

وقد تلقيت قبيل اختتام السنة الدراسية كتابا من الاستاذ الحصري ، يطلب الي فيه ان اعود الى بغداد قبيل ابتداء السنة الدراسية القابلة ١٩٢٧ ــ ١٩٢٨ ويسألني عما اذا كنت افضل ان أكون مديرا للثانوية المركزية ام لدار المعلمين الابتدائية ؟ وكتبت له أنني افضل المدرسة الثانوية المركزية على دار المعلمين ، وبعد قليل صدر امر تعييني مديرا للثانوية المركزية ببغداد ... وقبل ان اغادر لندن في طريق عودتي الى بغداد ، وصلتني رسالة ثانية من الاستاذ الحصري ، يشير فيها علي ان أجعل بلجيكة طريق عودتي وازور في بروكسل احدى مؤسسات التعليم الريفي ، وكذلك مؤسسة تعليم الصبيان المتخلفين . وأرفق بكتابه توصية الى كل من هاتين المؤسستين لتسهيل أمر زيارتي اياهما ، فنزلت عند رغبة الاستاذ وجعلت طريق عودتي بالقطار (لندن ــ بروكسل ــ فينة ــ بودابست ــ بلغراد ــ صوفية ــ استانبول ــ بغداد ...) وفي بروكسل قمت بما يلزم لزيارة المؤسستين التي اشار اليهما وكتبت تقريرا عن كل منهما قدمته الى وزارة المعارف بعد عودتي الى بغداد .

وصلت الى بغداد في حوالي منتصف آب ، وباشرت عملي مديرا للمدرسة الثانوية المركزية ، ابتداء من اول ايلول ١٩٢٧ .

---

(١) كتبت بعد عودتي الى بغداد مقالين : الاول بعنوان « التربية والتعليم في الارياف الانكليزية» وقد نشر في العدد الاول من مجلة التربية والتعليم التي ينشرها الاستاذ ساطع الحصري ، والثاني بعنوان «المدارس الثانوية في انكلترة» ونشر في الجزء السابع من نفس المجلة .

Hamad Khalifa

ملاحظات ومشاهدات في بلاد الانكليز (١)

مكثت في ربوع انكلترة ما يقرب من السنتين ، وقد مرت بـــي حوادث ومناظر تركت أثرا بليغا في نفسي ••• كثيرون منا يعلمون الشيء الوافر عن الانكليز ومتانة اخلاقهم ، وكلنا نسمع على الدوام ما لهــذه الامة من السجايا والخصال التي تتفوق بها على غيرها من الامم الغربية وغير الغربية ، ولكن هيهات ان نحيط احاطة شاملة بكل ما نسمعه عنهم ما لم ندقق احوالهم بانفسنا عن كثب ونشاهد اعمالهم الخارقة بأعيننا ••• أتذكر جيدا يوم وصولي الى مرسيلية في طريقي الى لندن ضجة هائلــة في الميناء ، ركض وصياح ، هرج ومرج ، الحمالون يتدافعون ويتسابقون لنقل امتعة المسافرين ، اضطراب وهيجان بارزان في كل وجه وفي كل مكان بحيث يقف المسافر الغريب مرتبكا امام ما يراه ••• وهكذا كانت الحال تقريبا عند وصولي الى «كاله ي» وقد كنت قلقا جدا مما اصابنــي من هذه الانطباعات السيئة ، ومتخوفا ان ألقى مثلها في الساحل الانكليزي أيضا ••• على أنني وجدت الامور عندما وطأت قدماي الأرض الانكليزية

---

(١) من محاضرة القيتها في قاعة المدرسة الثانوية المركزية بتاريخ ٢ـ٥ـ ١٩٢٧ ونشرت في الكراسة الاولى من محاضرات نــادي المعلمين ، (بغداد ، مطبعة دار السلام ، ١٩٢٩ ص ٢٥)

«دوفر» عكس ما كنت اظن واخشى ... لقيت هنا وجوها غير الوجوه التي رأيتها في مرسيلية وكاله ي ... الهدوء سائد ، الحركة منظمة ، الوقار بارز حتى في محيا الحمالين .. ما هذا الهندام الحسن وما هذه الوجوه المشرقة ؟ ما هذه الملابس المنسقة وما هذا الكلام الرقيق والادب الجم ؟ احمال يتكلم معي حقيقة ؟ ادهشتني هذه السجايا والصفات وقلت في نفسي لأول مرة : «من اراد ان يعرف الفرق بين الامة الانكليزية وغيرها من الأمم ليعبر ولو مرة واحدة من كاله ي الى دوفر» ...

نزلت بعد وصولي بأيام قليلة الى لندن ، في دار واحدة مع الشيخ كاظم الدجيلي ، واستيقظت من النوم ذات صباح على نغمات كمان رقيقة تبعث الشجا بعد الشجا في النفس ، وتهيج كوامن الشعور ، وتهز اوتار القلوب . فقلت للشيخ : ما اسعدك يا صديقي بجارك الموسيقار ؟ ..فأطلق قهقهته المتهدجة المشهورة ، وقال : اي جار تعني ؟.. ثم نهض وفتح النافذة وطلب الي ان اطل منها على الخارج ... فاذا باللاعب على الكمان متسول يطرب المارين بانغامه الساحرة ويستعطفهم ان يمدوا له يد المساعدة ببعض النقود .

ومن المميزات الخاصة التي يتصف بها الانكليز التعاون على انجاز اعمال كبيرة بجماعات كبيرة ، وشخصية الفرد هناك مضمحلة بالمجموع . الفرد وحده لا يستطيع ان يأتي بعمل يذكر ، لكن الجماعات والشركات والمؤسسات هي التي تقوم بعظائم الامور والاعمال .. الثقة متبادلة بين الجميع ، والفرد يركن الى الهيئات المسئولة بقلب ملؤه الايمان بالصدق والاخلاص .

كل عمل صالح شهدته في تلك البلاد ترك في نفسي اثرا بليغا لا تمحوه الاعوام ... كم وقفت على ضفاف التيمس وقت الغروب متأملا

ذاك البهاء وتلك العظمة والألم يحز في قلبي وانا أتذكر دجلة البائسة ، دجلة اليتيمة ، تلك العروس التي لم تعرف قدرها ، تلك الجوهرة الغالية التي دفناها بين الخرائب والمزابل ...

مررت يوما بمستشفى ، بالقرب من حديقة «هايدبارك » الشهيرة ، واذا بمئات البشر قد أصطفوا على قارعة الطريق وشكلوا سلسلة طويلة واحدا خلف الآخر .. لقد لفت نظري منظرها ، وسألت صديقا كان معي سبب هذا التجمع ؟ .. قال لي : اقرأ ما كتب على جدار المستشفى .. رفعت نظري واذا باعلان مكتوب بحروف بارزة على قطعة قماش يقول : « ان هذا المستشفى بحاجة الى مساعدة مالية من اخواننا ابناء الانسانية » وكل فرد في هذا الجمع المحتشد ينتظر دوره ليضع في صندوق المستشفى ما تجود به نفسه ، فلله در هذا الشعور المتضامن وهذه الروح الانسانية العاليـــة ...

ومن الامور التي بها أعجبت في التربية الانكليزية اعتياد الفرد أن ينجز العمل المختص به دون مداخلة في شؤون الآخرين ... أن في لندن عدا الترام الكهربي (١) ومئات الخطوط الحديد .. التـــي تسير تحـــت الأرض ، سيارات كبيرة ذات طابقين (اوتوبيس) لكل منها رقم خاص يدل على المحلات التي تمر بها ، ووقت معين لوصولها الى المواقف المختلفة ... وقد كنت في انتظار احداها يوما مع صديـــق لي هنـــاك ، وتأخر وصول (الباص) بضع دقائق ، ولما أتى وركبنا فيه ، سألنا الجابي سبب تأخـــر

---

(١) لم يبق في الوقت الحاضر في لندن اي خط للترام الكهربي ، اذ رفعت جميعها وحل مكانها عدد وافر من سيارات الاوتوبيس .

الباص فأجابنا بكل هدوء ووقار : « ليس ذلك في عملي يا سيدي »... ولنتأمل هذا الجواب ... رجل يشتغل في السيارة نفسها ويعرف بلا شك سبب تأخرها ، ولكنه لا يريد ان يبحث في عمل ليس من اختصاصه ... أنه لا يستطيع ان يتحدث مع الراكبين في موضوع كهذا ، لأن ذلك من اختصاص مفتش (الباصات) وحده ... والحرية الفكرية ، تلك الامنية التي لا تزال نفتقدها حتى اليوم في بلادنا كانت بارزة بكل مظاهرها في جميع أنحاء البلاد الانكليزية في ذلك التاريخ ، أي قبل اكثر من اربعين عاما .. حقا ان الجزر البريطانية مهبط الحرية الفكرية ، والانكليزي لا يستطيع ان يتصور حياة كريمة بدونها ، ولا يقدر ان يشعر بلذة العيش في حالة فقدانها ... على ان الانكليز لم يحتكروا هذه الحرية لأنفسهم فقط ، بل هي ملك مشاع بين كل قاطني البلاد من أي قوم كانوا ... كنت يوما استمع الى شاب هندي كان يخطب بحماسة شديدة مطالبا بالحرية لبلاده والانعتاق لأمته ... كان يشرح لمستمعيه المظالم التي يقترفها البريطانيون في انحاء الهند والجور الذي يلقاه ابناء جلدته على ايدي الانكليز ، ومن شدة تحمسه وكثرة تهيجه انتزع زر (ياقة) قميصه وطفر نحو الحاضرين ، فضج عدد من الشبان عندئذ بالضحك على منظر الخطيب وأخذوا يستهزؤون بتفاهة قميصه وعدم متانته ... فما كان من الخطيب آنذاك الا ان قابل الضاحكين والمستهزئين بقوله : (لا تضحكوا يا رفاق على قميصي .. حقا انه تافه ، وغير متين الحبك ، لأنه من صنع بريطاني) ...

وفي ذات يوم دعاني معاون مدير المعهد التي كنت أدرس فيه الى الشاي في داره وفي أثناء الحديث سألني عما اذا كنت حقيقة ضد

البريطانيين في العراق (١) ؟ وتحيرت في امري ... فاذا قلت لـه : لا ، كذبت عليه وعلى نفسي ، وان قلت : نعم قد اسيء المجاملة معه وانا في بيته ... فلم أر عندئذ سبيلا للخروج من هذا المأزق الا بمصارحته بالواقع كما هو ... وقلت له : انني يا سيدي ، لم أشعر يوما بنفرة ضد الشعب البريطاني نفسه ، بل نفرتي كانت من اعمال بعض الموظفين فيهـم ، اولئك الذين ساقتهم الاقدار الى العراق وأخذوا يتحكمون في رقـاب الناس بقوانين وانظمة كيفية ما انزل الله بها من سلطان ... واخذت أسرد لـه بعد ذلك قصصا واقعية عن اعمال الحكام السياسيين ، كقصة فقدان قطة عقيلة الحاكم السياسي في بعقوبة ووضع غرامة على الاهلين قدرها ثلاثة آلاف ربية لعدم العثور عليها واجبار الناس على الوقوف في الشوارع لاداء التحية الى الحكام عند مرورهم ، وغيرها من الامور التي يستغرب سماعها الفرد البريطاني العريق الذي يجهل تصرفات البريطانيين فـي مستعمراتهم وفي الدول السيئة الحظ التي اصبحت تحت نفوذهم عـن طريق الانتداب ، او الحماية ، او الوصاية ، او عن طريق المعاهدات غيـر المتكافئة كمعاهدتنا مع الحكومة البريطانية التي كانت تفرض أرادتهـا فرضا على الحكومات العراقية المتعاقبة للتصديق على تلك المعاهدات بطرق وأساليب ملتوية ، لم يتقبلها الشعب العراقي عن طيبة خاطر في يوم من الايام ... كان ينصت مضيفي الى اقوالي هذه بكل جوارحـه والاستغراب ظاهر على تقاطيع وجهه بشكل بارز . وبعد أن انتهيت من سرد القصص أضفت قائلا : من أجل هذا يا سيدي كنت أحارب تصرفات حكامكم في بلادنا ... كانوا يحاولون ربط بلادنا بالهند ليحرمونـا نعمة الاستقلال ، وكانوا يريدون استخدامنا كاسرى أو مستعبدين .

---

(١) يظهر انه كان مطلعا على كتاب المستر سمث ، المرسل الـى المستـر هندي مدير المعهد (كما سبق ذكره في فصل سابق) .

انني لم اكن يوما ضد الشعب البريطاني الذي يعيش في الجزر البريطانية، بل كنت ضد طبقة من رجالكم ارادوا امتهان شرف بلادي ، واذلال قومي ، واغتصاب حرية شعب بأسره .. كنت ضد اولئك الطغاة الذين سفكوا دماء الآلاف من العراقيين والبريطانيين خلال الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ ، وعند ذلك اجابني هذا البريطاني النبيل : والله لو كنت محلك لفعلت أكثر مما فعلت انت ...

وفي هايدبارك ، تلك الحديقة ذائعة الصيت في كل بلاد العالم ، ميدان واسع يؤمه الخطباء من جميع الالوان والاحزاب في ايام الآحاد . فهنا خطيب هندي يتكلم عن تحرير الهند ، وهناك يهودي يبشر بالدين الاسرائيلي ، وهذا كاهن يعظ الناس ويبين معجزات المسيح . وذاك مسلم يدعو الناس الى اعتناق الدين المحمدي ، وهنا خطيب من حزب الاحرار ، وهناك آخر من المحافظين . والناس ملتفون حول كل منهم يسمعونه ، ويناقشونه بأسلوب كله أدب واحترام ..

رأيت يوما خطيبا اشتراكيا يخطب في جمع كبير حاشد ، ويهجم في خطابه هجمات عنيفة على الحكومة والنظام الاجتماعي السائد ، ويصف مضاره ويشرح مفاسده ... والشرطي واقف يستمع ولا يبدي منه أي أثر للاستياء او الغضب ... ولا ازال أتذكر تهكمات هذا الخطيب واستهزاءه حتى بالملك نفسه ... كان يقول : « سادتي ، ان جلالة الملك...) وقد تلفظ كلمة (الجلالة) متنحنحا ايماء بالتهكم « قد افتتح البرلمان اليوم ، وقد رأيتم كيف أتى بعربيته المذهبة التي تجرها ستة جياد ، وشهدتم المراسم التي أجريت له في هذه المناسبة بجميع مهازلها . وسمعتم انه القى خطاب العرش . وأنتم تعلمون بلا شك ، أنه لم يكتب هذا الخطاب ، وانه ليس بمسئول عن أي حرف من محتوياته ... وشخص جلالته !.. غير مسئول أيضا عن أي عمل تقوم به حكومته !.. ومع ذلك

فانه يأخذ عملية القاء الخطاب بنفسه ، ويكلف الامة البريطانية ملايـــين عديدة من الباونات في كل عام ••• فأسألكم يا لله ايها السادة أي فـرق بين هذا الملك ، وبين « الكرامافون» (الحاكي) ؟••» بقيت مندهشا من هذا المنظر الذي يمثل الحرية الفكرية التي يتمتع بها الفرد الانكليـزي !•• خطيب يتهكم بهذه الجرأة والصراحة ، بشخصية ملك البلاد امام هــذا الحشد الهائل من الناس وفيهم المئات التي تحتفظ بقلوبها بولاء صادق نحو البيت المالك ، ومع ذلك لم نر عربدة ، ولم نر هياجا ، او اعتداء على الخطيب • فكلهم يستمع الى هذه التقريعات بصمت وهدوء ، لأنهم كلهم مؤمنون بحرية الفكر وحرية التعبير ••• وفي تلك الاثناء تذكرت كيف ان القوم عندنا صخبوا وزمجروا ، لا بل طلبـوا شنق الرصافـي عندما تلى قصيدته المشهورة في نصرة المرأة قبل بضع سنين وقال بوجـــوب تحريرها واطلاق سراحها من سجنها الحالي •

ومن الخصال السامية التي لاحظتها في الشعب البريطاني حـــب مساعدة الآخرين ، ويندر ان ترى انكليزيا تطلب اليه ان يساعدك علـى عمل ممكن ويتردد في أن يكون طوع اشارتك ••• أتذكر انني سألـت يوما شرطيا مكانا اريد الذهاب اليه ، وأخذ الشرطي يوضح لي الطريق الذي يجب ان اسلكه ، ولكن بلهجة لم أستطع فهمها يومئذ ، واضطررت أن أتظاهر بالفهم ، وقلت له : شكرا ومشيت ••• مشيت في طريقـــي حائرا ، وبعد دقيقتين أو ثلاث دقائق ، واذا بيد تربت على كتفي من خلف واذا الشرطي نفسه يبتسم في وجهي ويقول : « لقد اخطأت الطريق يـا سيدي ،تعال معي من هنا ••• وأرشدني الى الطريق الذي يؤدي الى المحل الذي أقصد •••» •وفي تلك الساعة تذكرت حادثة وقعت لي فـي بغداد تظهر لنا البون الشاسع بين الشعور بالمسئولية التي يحملها الشرطي البريطاني ، وبين ما يحمله زميله العراقي من هذا الشعور ••• جاءني يوما

أحد الاصدقاء وأخبرني بأنه شاهد أحد اخواني يتخاصم مع أحد الاشخاص بالقرب من سينما سنترال وقد وقف بينهما أحد افراد الشرطة ، فاضطربت من سماعي هذا الخبر ، ومضيت الى مركز شرطة السراي على عجل وواجهت مفوضا هناك ذكرت له الخبر الذي سمعته ، ورجوته أن يتفضل ويسأل شرطة (العبخانة) تلفونيا صحة هذا الخبر ... فما كان من المفوض الا أن رفع نظره الي باستخفاف وعدم مبالاة وقال : ان ذاك لا يهمني فهو أمر شخصي وبامكانك أن تذهب الى مركز العبخانة وتستطلع الأمر بنفسك .. واضطررت الى الذهاب مسرعا الى مركز شرطة العبخانة ، وفهمت أن المتخاصم لم يكن أخي الذي كان متفرجا فقط على حادثة نزاع وقعت بالقرب من سينما سنترال .. فالشرطي الانكليزي يعرف أن واجباته لا تقتصر على حفظ الأمن العام وتعقيب المجرمين ، بل عليه ان يساعد كل الناس في كل أمر ممكن . وأن يشيع الاطمئنان في نفوسهم ويزيل القلق من أفكارهم اذا استطاع الى ذلك سبيلا ... اما صاحبنا المفوض الذي مر ذكره ، فكان يجهل كل ذلك ومجردا من أبسط شعور انساني ... وهنا لا بد لي أن اضيف ، ان هذه الروح الطيبة التي شاهدتها في الانكليز لا ينفردون بها وحدهم ، بل ان جميع الأمم الراقية التي مررت ببلادها أثناء تجوالي في انحاء اوروبة تحمل نفس الروح وتتحلى بنفس السجايا والأخلاق الانسانية الكريمة .. وقد يتفوق الانكليز على غيرهم من الامم الغربية ببرودة دمهم فقط .. ولنفكر مليا ، ما الذي جعل كل هذه الأمم الراقية في تلك المنزلة العالية من التقدم الاجتماعي ؟ وما الذي صيرنا في ما نحن عليه من تأخر وانحطاط ؟ هل ورثت تلك الاقوام الراقية سجاياها كلها عن طريق الأرث ، وحرمنا نحن من ذلك ؟.. كلا !...انني لا اوافق غوستاف لوبون في نظريته « أن الشرقي أوطأ خلقة من الغربي» على انني لا أنكر أن هناك سجية أساسية خاصة بكل امة . ولكن هل

هذه السجية عرقية تنتقل بالدم من جيل الى جيل ؟ ... أم تتكون في الامة بالنظر الى التربية المشتركة التي يتربى على مبادئها افراد القوم جميعهم ، تحت شروط اجتماعية متجانسة ؟... يدعي بعض العلماء الاجتماعيين أن السجية القومية تنتقل بالوراثة الى الافراد ويستشهدون على ذلك بالانكليز ، فيقولون أن الانكليز حافظوا على انكليزيتهم اينما ذهبوا وأنى حلوا ... هم انكليز سواء أكانوا في الجزر البريطانية أم في استرالية ، أم في كندة أم في الهند ، وكذلك يقولون عن الاقوام التي تقطن أميركية الشمالية والاقوام التي تقطن أميركة الجنوبية ... فان أجداد الشماليين انكلو سكسون ، والجنوبيين أسبان ، والفرق بين هذه الأقوام حتى يومنا هذا ، كالفرق الذي يتجلى بين الانكلو سكسون والاسبان أنفسهم ... وقد تترآى هذه الأدلة ، للوهلة الاولى حقيقة لا يمكن جرحها ، ولكننا اذا تعمقنا في البحث وتأملنا الأمر من وجوه اخرى تضاءلت قوة تلك البراهين ...

ان الانكليز قد ينزحون عن بلادهم الى استرالية مثلا ، ولكن يجب ان لا ننسى أيضا أنهم يهيئون لهم هناك نفس الوسط الاجتماعي الذي كانوا يعيشون فيه في بلادهم الأصلية تقريبا . انهم يهاجرون الى هناك مستصحبين طرق معيشتهم واصول تربيتهم أيضا ، ويربى ابناؤهم هناك نفس التربية التي ينشأ عليها النسل الانكليزي في الجزر البريطانية ... وكذلك قل عن الاسبان الذين يقطنون أميركة الجنوبية ، فهم ينقلون نفس الشروط الحياتية وعين التربية الاسبانية وكان وسطهم الاجتماعي وتربيتهم القومية تهاجر معهم وتلازمهم أينما حلوا وحيثما وجدوا ... علينا اذن أن لا نحكم حكما مطلقا على ان التربية تنتقل بالأرث جيلا بعد جيل ، فالتاريخ يرينا ان الامة الالمانية لم تكن قبل خمسة او ستة قرون الا امة حربية فتاكة يشتغل افرادها في النهب والقتال الا انها

اصبحت في الوقت الحاضر من أهم الامم المتقدمة في الصناعة والعلوم ••• وهذه الامة اليابانية قد تطورت أمامنا تطورا عظيما في مدة لا تزيـــد على نصف قرن ، فهل منعها الدم الياباني من التسابق في مضمار الحضارة والعمران مع اهم أمم الارض واعظمها قوة ونفوذا ؟ • ان التربية تستطيع في الحقيقة ان تلعب دورا مهما في حياة الامم والاقوام •• تستطيع أن تحدث انقلابا عظيما في اخلاقنا وسجايانا اذا اهتممنا باصلاح حالتنـــا الاجتماعية ، وبنينا مبادئنا التعليمية على اسس تربوية قويمة • يجب ان تكون عقيدتنا راسخة في هذه الحقيقة الناصعة وأن نؤمن بهذه العقيـــدة الراسخة ايمانا قاطعا • يجب ان نحارب بكل قوانا الفكرة القائلة اننــا اناس قليلو الاستعداد للرقي ولا يرجى صلاحنا • يجب أن نزيل كل يأس مستول على قلوب مواطنينا ، ويجب أن لا ننسى ان اليابانيين الذيـــن يزاحمون الامم الاوروبية والاميركية اليوم هم من العرق الاصفر • يجب أن نطمئن أنفسنا الى ان الفساد ليس في دمنا او عرقنا او نسلنا •ان الفساد كل الفساد في محيطنا وعاداتنا وتقاليدنا ، وبالأخير في تربيتنا ، وعلــى المربين والمعلمين أن يثقوا بهذه الحقيقةويقوموا بما يحتمه الواجب عليهم في هذا السبيل • واذا رأينا أن مساعينا لم تكلل بالنجاح المطلوب فلنحمل ذلك على نقص في نظامنا ، وقلة تدبير في أعمالنا ولنضاعف عندئـــذ مجهودنا ، ونستكمل أسباب النجاح ، وايانا ان نتهم ابناءنا بعدم الاستعداد للرقي ••• ولنثق دائما وابدا أن ليس في عرقنا ما يؤخر تقدمنا اذا مــا سلكنا سواء السبيل •••

في المدرسة الثانوية المركزية[1]

تسلمت ادارة المدرسة الثانوية في بغداد صباح يوم اول ايلول ١٩٢٧ . كنت متأكدا من انني سأحب عملي الجديد ، لأنني سأجد أمامي مجالا واسعا للعمل المثمر ... كنت التقي كل يوم ، طول النهار مع سبعمائة وخمسين شابا هم رجال المستقبل ومحط آمال العراق ... ان توعية هؤلاء وتوجيههم توجيها وطنيا سليما من الامور التي تعود على هذا الوطن بأوفر الخيرات وأحسن الثمرات ... ورسمت خطتي على هذا الأساس ، وبدأت اعمل والآمال تدفعني الى الامام ، والاماني تشجعني على المثابرة والاقدام بكل عزم وثبات ...

وبدأت قبل كل شيء بتأسيس قاعة للمحاضرات العامة ، في داخل المدرسة ، تحوي مسرحا جميلا للتمثيل ... وعملت لوحة كبيرة علقتها فوقه وقد كتب عليها : (الوطن قبل كل شيء وفوق كل شيء) وجعلت ذلك شعارا للمدرسة الثانوية المركزية ... وأخذت اشجع الطلاب على

(١) لقد فاتني ان اذكر في حينه ، انني عندما وصلت الى بغداد وجدت ان الحصري قد استقال من منصبه في شهر تموز ١٩٢٧ وحل محله طه الهاشمي مديرا عاما للمعارف .



هاشم جواد وزير الخارجية على عهد عبد الكريم قاسم محمول من قبل زميلين له في المدرسة الثانوية المركزية بعد أن أصيب برضوض في رجله اثناء المباريات في لعبة كرة القدم سنة ١٩٢٧

تأليف فرقة تمثيلية يشارك فيها المدرسون والطلاب ، وقامت هذه الفرقة بتمثيل الروايات بنجاح فائق واتقان تام ...

وكذلك كنت اشجع المدرسين والطلاب على القاء بعض المحاضرات والخطب في مناسبات مختلفة في هذه القاعة بقصد تعويد الطلاب على الخطابة وتدريبهم على ابداء الرأي بحرية وشجاعة ... ومن جهة اخرى لم أهمل الرياضة البدنية أيضا واوليتها شيئا كثيرا من عنايتي وتشجيعي . وتألفت في داخل المدرسة فرق رياضية لكرة القدم وكرة السلة وغيرها ...

كنت أشعر أن الطلاب يهابونني ،ويجتنبون مراجعتي . واذا راجعوني عن أمر يكلمونني بخوف وحذر ، فقررت تغيير هذا الوضع . وأردت ان يعتبرني الطلاب صديقا لهم ومربيا يغار على مصلحتهم ويبذل كل ما في وسعه لمساعدتهم ، وللوصول الى هذا الهدف صرت اختلط بالطلاب اثناء الفرص بين الدروس ، واعاشرهم معاشرة الصديق لصديقه أتكلم معهم عن شتى الامور كلام الند للند ، وأستفسر منهم عما يطلبون ويقترحون لتحسين شؤونهم وتأمين مصالحهم ... وفي أيام قليلة صرت أشعر أن نظرة الطلاب قد تغيرت نحوي تغيرا محسوسا وصاروا لا يهابونني ولكنهم يحترمونني ولا يتجنبون مراجعتي ، بل يقصدونني في كل أمر يهمهم ويكلمونني بحرية وصراحة ... وكنت اقابلهم بصدر رحب واجيب على كل مطلب معقول لهم واشجعهم على كل عمل مفيد نافع ... ولم أكتف بالاختلاط بالطلاب أثناء الفرص ، بل صرت ارافقهم الى المباريات الرياضية أيضا . وكثيرا ما كنت أدعو المتبارين فيهم مع أساتذة الرياضة البدنية بعد انتهاء المباريات الى تناول الشاي والحلوى في داري ..

انني لم أكن أقوم بتدريس أي موضوع في المدرسة ، لأن اعمال

الادارة المتشعبة كانت تشغل كل أوقاتي ... ولكنني كنت أجمع الطلاب والمدرسين في قاعة الخطابة والمحاضرات في صباح كل خميس ، وأشرح لهم ما لاحظته خلال الاسبوع من اغلاط في تصرفاتهم واعمالهم ، وأحاول في هذه المناسبة أن اوجههم توجيها صحيحا واسدي لهم بعض النصائح والارشادات التي تغرس فيهم الروح القومية وحب الفضيلة والاقدام والتضحية عند الحاجة ، وكنت اطلب اليهم في كل مناسبة ، وفي كل فرصة ، أن يضعوا نصب أعينهم دائما وابدا شعار المدرسة : « الوطن فوق كل شيء وقبل كل شيء » ...

لم أكن اريد أن يعتبرني الطلاب مدير مدرسة حسب ، بل كنت ارغب أن ينظر كل واحد فيهم الي نظرة أخ ، وصديق ، وأب ، ومدير ... لقد كنت اؤكد عليهم أثناء التقائي بهم في قاعة المحاضرات والتمثيل في أيام الخميس رغبتي هذه ، وأقول لهم : انني على استعداد للقيام بأية مساعدة يطلبها الي أي طالب في هذه المدرسة ، فمن له مراجعة في احدى دوائر الحكومة ويجد صعوبة او عائقا في انجازها ليراجعني ، ومن عنده مريض ويعجز عن استقدام طبيب ليأت الي ، ومن يصاب بقلق أو أي اضطراب نفسي ليفاتحني ... وستجدونني في كل هذه الحالات صديقا مخلصا ، لا يتوانى عن مد يد المساعدة اليكم وينجدكم بكل ما في حوزته من طاقات وامكانيات ... وبعد ذلك صار عدد من الطلاب يراجعني في بعض القضايا التي لا علاقة لها بواجباتي المدرسية ، وكنت ابذل كل ما في جهدي للاخذ بيدهم في مواجهة الصعوبات التي تجابههم ... وفضلا عن ذلك كله : فقد كنت الحظ ان البعض من الطلاب لا يملك كتبا والبعض منهم يرتدي ملابس رثة . ففكرت في امرهم تفكيرا جديا وتوصلت الى حل حاسم ... لقد كان في المدرسة حانوت يبيع على الطلاب بعض المأكولات والفواكه وحاجات اخرى . كان الحانوتي يدفع الى ادارة

المدرسة مبلغ ستمئة روبية بدل ايجار لهذا الحانوت ، وكانت ادارة المدرسة تقبض هذا المبلغ وتسلمه صندوق وزارة المعارف ... لقد رفضت اتباع هذه الطريقة واتصلت بوزارة المعارف وافهمتها ان حاصلات هذا الحانوت تأتي من طلاب المدرسة ومدرسيها ، لذلك لا حق للحكومة فيها ويجب ان تصرف هذه الحاصلات على المحتاجين من الطلاب . وبعد اخذ ورد ومناقشة وجدال وافقت الوزارة على وجهة نظري . وصرت اتسلم الستمئة روبية واصرفها على تجهيز الفقراء من الطلاب بالكتب المدرسية والقرطاسية وفي بعض الاحيان بالملابس ايضا ...

وفي الحقيقة ان مسئولياتي الادارية لم تكن مقتصرة على ادارة المدرسة الثانوية وحدها ، بل تشمل ادارة المدرسة الثانوية المسائية ودار المعلمين العليا ايضا . وكانت المدرسة الثانوية المسائية تضم عددا كبيرا من الموظفين والطلاب الذين ليس في امكانهم المواظبة نهارا لاشتغالهم مستخدمين في المخازن ، او يتعاطون البيع والشراء في حوانيت ومخازن صغيرة ... وكانت اعمالي في ادارة هذه المدرسة تستهلك جل اوقات استراحتي بعد الظهر ، واضطر الى البقاء على رأس عملي حتى صلاة العشاء في اغلب الاحيان ، ولم تمنحني وزارة المعارف اية مخصصات لهذه الاعمال الاضافية ... اما في دار المعلمين العليا فكنت اتقاضى خمسين روبية فقط لقيامي باعمال ادارتها وكالة وكنت اقوم علاوة على ذلك بتدريس الجغرافية الاقتصادية (ساعتين في الاسبوع) باجرة عشر روبيات عن كل محاضرة ...

ان اهم مشكلة كانت تضايقني وتزعجني في ادارة المدرسة الثانوية هي عدم التجانس بين المدرسين ، فكان فيهم من لا يحمل حتى الشهادة الثانوية ، وكان فيهم عدد ممن درسوا في الجامعة الاميركية وحصلوا على شهادة البكالوريوس منها ... ومن المدرسين من يحمل فكرة اقليمية

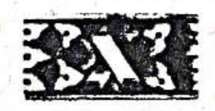
ضيقة ويلقب (مثلا) ساطع الحصري دخيلا ... وفيهم من يعتنق الفكـرة العربية والوحدة الشاملة مذهبا ولا يرضى بسواها بديلا ... وهنـاك قسم ثالث منهم ، لا من اولئك ولا من هؤلاء ... انهم ماديون يركضون وراء الدرهم والدينار ولا يهمهم اي شيء عدا ذلك ...

وكان عدد من المدرسين ، ينقلون كل ما يجري في داخل المدرسة الى المستر سمرفل مفتش المعارف العام يومئذ ، وهذا اكثر ما كان يزعجني ويثيرني ... كنت يوما اتكلم مع تحسين ابراهيم المرحوم مدرس الكيمياء عن بعض امور تتعلق ببعض اعماله وتصرفاته في مختبر الكيمياء ... واذا به يفاجئني بقوله : « انني كلمت المستر سمرفل في هذا الموضوع وقـال لي كذا وكـذا ... وعندئذ طفر الدم الى رأسي وهزتني عصبية مؤلمة ، وصرخت في وجهه : من هو مدير المدرسة ، انا ام المستر سمرفل ؟... ولم اكتف بهذا القدر من التوبيخ ، بل رفعت سماعة التلفون وادرت القرص طالبا المستر سمرفل (١) ... وكان ريض الاخلاق ، دمثا ومؤدبا في كـل تصرفاته ، وان كان يحمل حقدا خفيا على كل من يحمل شعورا وطنيا ولا يوالي الانكليز ، ولا يدين لهم بالطاعة ، او الامتثال لكل اوامرهـم ورغباتهم ... فلما سمعت صوت المستر سمرفل تلفونيا حييته وسألتـه صحته ، فاجابني (كعادته) بلطف وادب شاكرا ومستفسرا عن صحتي .. وبعد ان انتهت المجاملات العادية ، قلت له : يا مستر سمرفل اعذرني اذا وجهت اليك هذا السؤال ؟... هل انا مدير الثانوية المركزية أم انت ؟؟ ... استغرب المستر سمرفل هذا السؤال المفاجيء ، وقال عفوا يا اخـي طالب ، ماذا جرى ؟ ولماذا توجه لي مثل هذا السؤال ؟... اجبته : انني

---

(١) ان المستر سمرفل هذا مولود في لبنان من أب انكليزي وام لبنانية ، ولم يرد البلاد الانكليزية الا في سنة ١٩٢٤ وكان يتقن اللغة العربية اتقانا تاما تكلما وكتابة .

كنت الان اتكلم مع تحسين ابراهيم في بعض امـور تخص مدرستـي مباشرة ، فاجابني بقوله : « انني كلمت المستر سمرفل وقال لي كذا وكذا ... » خذ .. هذا هو تحسين ابراهيم وارجوك ان تفهمه من هو مدير المدرسة وناولت تحسين السماعة وكلم المستر سمرفل ، ولا ادري كيف كان الكلام معه ، ولكنني فهمت من امتعاض وجهه وعصبيته الظاهرة ان المحادثة لم ترق له وترك غرفتي (بعد الانتهاء منها) مسرعا وفي حالـة عصبيـة ...



مظاهرات صاخبة ضد السر الفرد موند

السر الفرد موند انكليزي يهودي صهيوني له نفوذ واسع في انكلترا ، ليس في المجالات المالية حسب ، بل في الميادين السياسية ايضا . وكانت له صلة صداقة بالملك فيصل الاول ايضا ، حتى ان الاخير نزل مكرما في دار السر الفرد موند نفسه في احدى زياراته لندن ... اظهر السر الفرد رغبته في زيارة العراق ، ولم يكن من الملك فيصل الاول الا ان رحب بمقدمه ... قد يكون ترحيب الملك بمقدم هذا الصهيوني عن رغبة حقيقية في نفسه ، وقد يكون بضغط من الانكليز او توسطهم . ومهما كان منشأ هذا الترحيب ، فان لهذه الزيارة اهدافا صهيونية بعيدة المدى ، والزيارة بحد ذاتها تحد للشعور الوطني العام الذي كان يعرف الصهيونية ومراميها وخطرها ، بخلاف ما كان يظنه الانكليز ودوائر الامن العراقية المزيفة التي لم تكن تعمل الا بايحائهم وتوجيهاتهم واوامرهم ... ان هؤلاء جميعهم كانوا يظنون ان العراقيين لا يزالون بعيدين عن معرفة معنى الصهيونية . ويجهلون نواياها وخططها واهدافها ... وعندما اوقف اخي ادهم مشتاق، في اثر المظاهرات التي سابحث عنها في ما يلي ، وجه اليه سؤال اثناء التحقيق : « ما هي الصهيونية ؟ » ... وكان رد اخي على هذا السؤال

فيه الشيء الكثير من السخرية والاستهزاء بغباوة السائل : « الصهيونية نبـات يزرع في اليمـن !!! » •••

كان من المقرر ان يصل السر الفرد موند الـى بغداد يـوم ٢٨ اذار ١٩٢٨ عصرا وذاع هذا الخبر بسرعة البرق بين مختلف الطبقات في بغداد ، وكان اكثر الناس تحمسا واشدهم صخبا طلاب المدارس قاطبة ••• وتقرر القيام بمظاهرة عارمة يشارك فيها الطلاب والاهلون على السواء ••• انني كنت اشجع مثل هذه الروح القومية وهذا الحماس الوطني في كل مناسبة وكنت اوجه طلابي (في مثل هذه الحالات) توجيها مباشرا تارة واخـرى بطريق غير مباشرة •••

ومن الطبيعي ان اكون مشجعا مثل هذه المظاهرات في يوم مجـيء صهيوني آثم كالسر الفرد موند ، ولكنني كنت قد عزمت على مشاركـة طلابي فيها من غير اخلال بالنظام المدرسي •• وما دام السر الفرد سيصل بعد الدوام المدرسي ، اذن ليحافظ الطلاب على النظام المدرسي اثنـاء ساعات العمل ، ولهم ما شاؤا بعد الدوام •••

وفي ساعة مبكرة وقبيل البدء بالدرس الاول من ذلك اليوم ، اتـى عدد وافر من طلاب دار المعلمين الابتدائية بشكل مظاهرة صاخبة •• وقفوا امام الباب الخارجية للمدرسة الثانوية المركزية واخذوا يهتفون ويشجعون الطلاب على مغادرة المدرسة والمشاركة في المظاهرات ويصرخون : « يـا طلاب الثانوية المركزية لا تكونوا مخانيث •• اخرجوا وشاركوا اخوانكم في المظاهرات وقولوا معنا : لتسقط الصهيونية وليسقط السر الفـرد موند » ••• وفي تلك الاثناء رأيت من الحزم ان اتخذ قرارا سريعا يمنع الفوضى في مدرستي ، ويخفف من المسئوليات عن طلابي امام سلطـات الامن التي لم تكن تعرف الرحمة والرأفة في مثـل هـذه المناسبات •••

فامرت فراشي المدرسة ان يغلقوا ابواب المدرسة فورا ويدقوا الجرس وبعد ذلك وقفت في الساحة واعلنت بكل صوتي « ايها الطلاب الى القاعة فورا ...» . وكأنني سحرت الطلاب بندائي هذا وتوجه جميعهم نحـو القاعة التي اكتظت بهم على سعتها ورحبها ... ولما اكتمل الاجتمـاع ، دخلت الى القاعة واعتليت المسرح ووقفت خطيبا بالطلاب ... قلت لهم : هل يوجد واحد بين الحاضرين فيكم من يشك في وطنيتي ؟ . تعالـت الاصوات : ابدا ... واصلت الكلام : انني مغتبط اشد الاغتباط بهـذه الروح الوثابة التي اكاد المسها بين طيات ضلوعكم . وانني لفخور ان اكون مديرا لمدرسة فيها شباب مثلكم .. انكم ضد الصهيونية ، ومرحى لكم على هذا الشعور .. وانني انا الاخر مثلكم ضد الصهيونية ، وقـد حاربتها وسأحاربها ما دام في نفس يخفق وعرق ينبض . من منا لا يحتـج على قدوم مجرم صهيوني كالسر الفرد موند ؟.. تأكدوا أيها الاعزاء انني اشارككم كل عواطفكم وستجدونني دوما معكم في كل ميادين التضحية والجهـاد ... ولكننـي اود ان اصارحكـم بأنتـي ضـد الفوضى دائمـا لانها تضر و لاتنفـع فـي كل الحـالات ... السر الفرد موند سيصل الى بغداد بعد دوام المدرسة بعدة ساعات فلماذا نضرب عن الدوام ونسجل مخالفة قد يستعملها خصومنا ضدنا ؟.. انكـم تستطيعون الان ترك المدرسة والسير في الشوارع متظاهرين ، ولكـن عملكم هذا سوف يضعف حجتي في الدفاع عنكم امام المسؤولين .... انني كأخ يغار على مصلحتكم انصحكم ان تواصلوا دروسكم بشكـل نظامي ، وبعد انتهاء الدوام تكونون احرارا ولكم ان تشاركوا فـي المظاهرات وتنادوا بأعلى صوتكم : لتسقط الصهيونية وليسقط السر الفرد

موند ... وبعد الانتهاء من هذه الكلمة القصيرة خرجت من القاعة ، وطلبت الى الفراش ان يدق الجرس ايذانا ببدء الدرس الاول ... وكم كنت سعيدا عندما رأيت الطلاب يدخلون الى صفوفهم واحدا اثر الآخر ويعقبهم المدرسون وتبدأ التدريسات بشكل رائع من الانتظام ...

وبعد قليل أتى الى المدرسة طه الهاشمي مدير المعارف العام وفي رفقته المستر لاينل سمث مفتش المعارف العام ، وأستقبلتهما في غرفتي . ولما سألاني الوضع ، أخبرتهم بأن كل شيء على ما يرام وان الطلاب قد دخلوا الى الصفوف والمدرسين يقومون بواجباتهم كالمعتاد... ثم رافقتهما في زيارة بعض الصفوف ، فتأكدا من صحة أقوالي وشكراني على حسن ادارتي وتمكني من السيطرة على الطلاب وضبطهم في داخل المدرسة في مثل هذه الظروف المحرجة ... وقبيل مغادرتهما المدرسة قلت لهما : ان النظام سائد في المدرسة كما شاهدتم ، ولكنني لا أستطيع ان أمنع الطلاب من المشاركة في المظاهرات بعد انتهاء الدوام ... أنهم سيشاركون فيها على كل حال اذ ليس في وسعهم أن يشذوا عن الشعور العام ويتحدوا سكان العراق قاطبة في عواطفهم القومية وروحهم الوطنية ...

وبدأت المظاهرات منذ الساعة الرابعة بعد الظهر تسير نحو جانب الكرخ كالسيل الجارف : طلاب المدارس قاطبة وفي مقدمتهم طلاب الثانوية المركزية ، معظم سكان بغداد بما فيهم الشيوخ والصبيان ، السيدات والأوانس ، كان كلهم يهتف بسقوط الفرد موند والويل والثبور للصهيونية المجرمة ...

وفي هذا البحر الهائج ، والجو الثائر ، يتصل بي تلفونياً وزير الداخلية طالبا ان اذهب مسرعا الى الصالحية في جانب الكرخ وأبذل ما في

وسعي لأعادة المتظاهرين الى بيوتهم صيانة لـ من العام ، وحفظا للنظام ، ومنعا للفوضى والصدام ••• قلت له : يا معالي الوزير ، ما هي سلطتـــي على المتظاهرين ؟••• لو كان المتظاهرون طلاب الثانوية وحدهم لكان في تكليفكم شيء من الاصابة ••• اما والمتظاهرون هم الشعب برمته والطلاب من جميع المدارس ، فكيف أستطيع ان اؤثر بكلمات مني في كـــل هذه الكتل البشرية ويعودون الى بيوتهم بطاعة وانقياد ؟•• ان ذلك والله لا يتم الا بسحر ساحر وانني لست من هؤلاء السحرة ••• ويظهر ان الوزير استاء من جوابي هذا ولم يطل الحديث معي ، بل سد التلفون دون ان يجاملني بكلمة توديع كالمعتاد •••

وبعد أن انتهيت من هذا الحديث التلفوني ذهبت مسرعـا الـى الصالحية ولحقت بالمظاهرات بالقرب من محطة السكك الحديد ، وأخذت افتش عن طلاب مدرستي ولما وجدتهم تابعت السير معهم ، ولشدة مـا كانت فرحتهم عظيمة عندما وجدوني أسير جنبا الى جنب معهم ، اهتف كما يهتفون وأفعل ما يفعلون •••

استمرت المظاهرات الى ما بعد غروب الشمس ، وعند ذلك راجت اشاعة فحواها أن الحكومة غيرت طريق السير الفرد موند ، وانه لن يدخل الى بغداد من الطريق العادي بل يسلـك سبيـلا آخـر يمر بعقرقوف والكاظمية ، وقد يكون الآن قد وصل الى مقر اقامته متخفيا متسترا ••• وعند ذلك ، عاد المتظاهرون الى جانب الرصافة ، معلنين سخطهم علـــى قدوم الصهيوني الآثـم محتجين على الحكومـة لسماحها لـه بزيـارة العراق ، وكانت هتافاتهم تشق عنان السماء : لتسقط الصهيونية وليسقط السر الفرد موند !•••

وفي اليوم التالي ألفت وزارة المعارف لجنة تحقيقية لتقديم تقارير عن الطلاب الموقوفين بتهم التظاهر غير المشروع ، وكان في عدادهم أخي ادهم مشتاق . وكان نصيب أدهم من جراء مشاركته في المظاهرة الطرد المؤقت سنة واحدة ... وقد عوقب معه عدد من طلاب الثانوية بعقوبة بالطرد أيضا . ومما هو بالذكر جدير ان وزارة المعارف لم تر لزوما يومذاك ان تشركني في لجنة التحقيق ، بل لم تأخذ رأيي حتى في العقوبات التي فرضتها على طلاب مدرستي ... ولم أستغرب هذا التصرف من وزراء المعارف ، لأن البعض منهم كان يعتقد أن لي ضلعا في كل مظاهرة تقام في بغداد ... وعلى سبيل المثال أذكر الحادثة التالية : كان ذلك في سنة ١٩٣٩ ان لم تخني الذاكرة ، وكنت آنذاك لا ازال مديرا للثانوية المركزية ... وكانت الحكومة قد اعلنت اجراء انتخابات تكميلية لبعض الشواغر في منطقة بغداد الانتخابية لمجلس النواب ... وكان التنافس على المقعد ، او المقاعد الشاغرة شديدا . الحكومة من جهة والانكليز من جهة يرشحون اشخاصا من اذنابهم وتابيعيهم ، الذين يروجون سياستهم الاستعمارية ، ومن المعتادين أن يسيروا في ركابهم في كل زمان ومكان... اما الاحزاب الوطنية والكتل السياسية التي تؤازر الاحزاب الوطنية فكانت ترشح جماعة من الوطنيين ذوي الماضي النظيف والمواقف المشرفة والسمعة الحسنة .. وقد شاع يومئذ أن صداما عنيفا سيكون في يوم الانتخاب ، وان الشعب يستعد للقيام بمظاهرة تأييدا للمرشحين الوطنيين ... وفي ليلة اجراء هذه الانتخابات وردني كتاب مستعجل بتوقيع وزير المعارف نفسه يقول فيه : « اذا جرت مظاهرات في صباح الغد ، فان الوزارة ستعتبرك مسئولا عنها !!!» قرأت هذا الكتاب وأنا مندهش مما جاء فيه . سأكون مسئولا عن المظاهرات ؟... ما هي صفتي ؟

وما هو دوري في توجيه الرأي العام ؟ •• هل كنت ذا كلمة نافذة تؤثر في الرأي ، وأستطيع باشارة واحدة ان أقيم مظاهرة أو أمنع قيامها ؟ ••• سبحان الله ما هذا المنطق السخيف ؟ وما هذه الرعونة الهوجاء !••• انني كنت وطنيا أفعل كل شيء في سبيل مصلحة وطني ، وكنت شابا ثائرا أصرخ في وجه الظالم والطم وجه المسيء ••• ولكنني لم أكن زعيما تنقاد الجماهير الي باشارة من اصبعي او كلمة من فمي ••• انه الارتباك الذي افلج منطق الوزير ، والرعب الذي افقده صوابه ، وكان الله في عون الناس من بطش الطغاة المفسدين ••••

* * *

في سكرتارية وزارة المعارف

بعد أن اصر الاستاذ الحصري على استقالته وانفك عن مديريـــة المعارف العامة ، أصبحت وزارة المعارف كرجل مصاب بشلل نصفي ... الوزير شبه امي ، المدير العام عسكري لا يتقن من فنون المعارف اكثـر مما اتقنه أنا من فنون التعبية وسوق الجيش ، ومدير معارف المنطقة ماهر جدا في هز رأسه تصديقا لما يتفوه به المستر سمث او المستر سمرفـل ، وسكرتير الوزير ذو العمة الخضراء شاب لم تطأ قدماه عتبة دائرة مـــن دوائر الحكومة .. انه تعلم اللغة الانكليزية بتتبعه الشخصي ، ولم يكن خريج أية مدرسة . كانت مهمته تنحصر في القيام بأعمـال الترجمـة بين الوزير والمستر سمث المفتش العام ... والرجل الوحيد الذي كان يتفهم الأمور ، ويحاكم القضايا بمنطق سليم ويعالج شؤون المعارف بعلم واختبار هو المستر سمث نفسه . والربيع لا يكون بزهرة واحدة ، كما يقولون... فما الحل اذن ؟ وكيف العمل ؟.. كان المستر سمث يعتبرني تلميذا مقربا من تلاميذ الاستاذ الحصري ، وهو على علم انني اؤمن بكل آراء الحصري ومبادئه ، وانني أسير في شئون التربية والتعليم على النهج الذي اختطه ، وقد زدت اختبارا في الادارة أثناء اشتغالي رئيسا لديوان الوزارة ،وكنت آنذاك ساعد الاستاذ الحصري الأيمن ... اطبق آراءه الصائبة باتقان ،

وأفيد من توجيهاته وارشاداته ... تتطلب اذا الحاجة تعييني بوظيفة ادارية في مركز الوزارة لسد جزء من النقص الذي تركته استقالة الحصري ... ولا يستبعد ان الانكليز ، ومن ورائهم الحكومة العراقية ، ارادوا اقصائي عن ادارة الثانوية المركزية ، كونهم كانوا غير مرتاحين من وجودي فيها حيث اتصل اتصالا مباشرا بما يقرب من ألف شاب واع ، تشبعت قلوبهم بالوطنية الصادقة وطفحت نفوسهم بالايمان القومي والشعور بحق هذا الشعب في العزة والكرامة والاستقلال ... وعلى أي حال قرر الرجال المسئولون في وزارة المعارف العراقيون فيهم والانكليز ، تعييني سكرتيرالوزارة المعارف وترفيعي درجة واحدة ... وبذلك ضربوا عصفورين بحجر واحد : اقصائي من ادارة الثانوية المركزية ، والافادة من خبرتي تخفيفا للعجز البارز في شئون ادارة وزارة المعارف ...

وهكذا باشرت اعمال وظيفتي الجديدة في صباح أول تشرين الأول ١٩٢٩ . كانت مسئولياتي في هذه الوظيفة متشعبة وذات اهمية قصوى . كنت أعمل بالدرجة الاولى معاونا للمدير العام في جميع اعماله الادارية . وأقوم بوظيفة مستشار وطني للوزير في كل المخابرات التي تحال اليه (سواء ما ورد منها من مجلس الوزراء ، او من سائر الوزارات ، أو ما يرد من تقارير أو اقتراحات من المفتش العام الانكليزي) ، وكنت في الوقت نفسه حلقة اتصال ــ في كثير من الاحوال ــ بين الوزير والمفتش العام ، وبين هذا والمدير العام . وأرى أن أذكر هنا بمزيد التقدير والاعجاب ، أن المستر سمث لم يكن يتقدم بأي اقتراح كان (سواء أكان ذلك الى الوزير أم الى المدير العام) قبل أن يستمزج رأيي في الموضوع ، ويطلع على وجهة نظري في ذلك ...

Hamad Khalifa

توفيرات في ميزانية وزارة المعارف

ذهبت يوما الى وزارة المالية لمقابلة الوزير وكان يومذاك علي جودة الأيوبي ، في قضية لا أتذكرها الآن ، وبعد ان انهيت مقابلتي معه وهممت بالخروج ، استوقفني وقال : كيف العمل مع وزارتكم ؟ .. ان في الميزانية العامة عجزا كبيرا ، ولتلافي هذا العجز قررنا توفير مبلغ معين من كل وزارة من الوزارات ، وعلى هذا الاساس ، ذهبت يوم أمس الى وزارة المعارف وقابلت كلا من الوزير السيد عبد الحسين الجلبي ورشيد الخوجة المدير العام ورجوتهما توفير مبلغ معين (لا أتذكر مقداره في الوقت الحاضر) من ميزانية المعارف لتلافي جزء من العجز في الميزانيه العامة ، ورغم الحاحي واصراري رفضا ذلك وادعيا انه لا يمكن توفير روبية واحدة من الميزانية دون ان يطرأ خلل مباشر في سير الادارة والتعليم ... ابتسمت في وجهه وقلت : أنا مستعد أن اضمن لك توفير المبلغ المطلوب دون ان يطرأ أي خلل في سير الادارة والتعليم .. وقد وقف على قدميه مستغربا وقال : هل أنت جاد في قولك ؟ قلت : نعم واكثر . قال : وكيف ذلك ... قلت : اطلب الى الوزير ان يكلفني اجراء

ذلك وسأفعله بمدة لا تتجاوز الساعتين ... وفي صباح اليوم التالي استدعاني الوزير وكان معه آنذاك علي جودة الايوبي ورشيد الخوجة ... وأذن لي الوزير بالجلوس ، ثم سألني : هل في الامكان حقيقة توفير المبلغ المطلوب من ميزانيتنا ، كما قلت لمعالي وزير المالية ؟ قلت : نعم يا معالي الوزير ، أستطيع ان اؤمن ذلك اذا امرتني ... قال : تفضل ، وافعل ما تراه مناسبا لتوفير المبلغ ، شرط ان لا تلغي وظيفة ولا تفصل احدا من محله . قلت : أمرك يا معالي الوزير ، سأنفذ رغبتكم بكل حرص وانتباه ...

عدت الى مكتبي واتصلت بنعيم مراد محاسب الوزارة تلفونيا ، وقلت له أرجوك ان تتفضل عندي ومعك ميزانيتنا الجديدة ... أتى نعيم ، واجلسته امامي وأخذت اتصفح الميزانية قلما قلما، وقلت له خذ قلما وقرطاسا وأكتب ما امليه عليك :

١ ــ تخفيض بدلات أجارات الدور المستعملة مدارس أو دوائر للمعارف بنسبة ١٠ ٠/٠ ويكتب بذلك الى جميع مديري مناطق المعارف ليخبروا أصحاب الدور بهذا القرار ، ومن لا يقبل التخفيض ينذر باخلاء داره عند انتهاء الاجار . كان عدد الدور المستأجرة في ذلك الوقت وافرا ، ولا تملك وزارة المعارف الا عددا قليلا من أبنية المدارس ... وقد تم هذا الاجراء بنجاح وتبلغ أصحاب الدور بقرار التخفيض ، ولم يعترض عليه احد ابدا ، وبذلك توفر لدينا مبلغ جسيم من المال ...

٢ ــ يلغى من الآن فصاعدا ، توزيع القرطاسية على الطلاب في جميع

الامتحانات الاسبوعية والشهرية والنهائية • ويبلغ الطلاب بلـزوم تأمين القرطاسية التي يحتاجون اليها في مثل هذه الامتحانات بنفقتهم الخاصة • ان أثمان القرطاسية في ذلك الزمن كان رخيصا والطالب لا يشعر بارهاق مطلقا عندما يشتري ما يحتاج اليه منها ••• ولكـن الاسراف كان عظيما جدا عندما كانت وزارة المعارف توزع الدفاتر والاقلام والمحايات على الطلاب ••• واصدرنا بيانا في هذا الموضوع الى جميع المدارس ونفذت محتويات البيان بنجاح تام ••• وبقـي في كيس الدولة مبلغ لا يستهان به من مال •••

٣ ـ كان لدينا عدد من مدرسي المدارس الثانوية ، استقدموا من لبنان وسورية ومصر ، يحملون شهادات عالية ويتقاضون رواتب اكثر من زملائهم العراقيين الذين يحملون نفس تلك الشهادات وذلك باعتبارهم اجانب لا يمكن ان يتركوا بلادهم ويأتوا الى العراق الا برواتـب مغرية ••• ان عددا كبيرا من هؤلاء تجنسوا بعدئـذ بالجنسيـة العراقية ، لكنهم حافظوا على رواتبهم العالية ••• وكنت أسمع بين حين وآخر تذمرا من المدرسين العراقيين الذين يعتبرون انفسهـم مغدورين بالنظر الى زملائهم الذين اكتسبوا الجنسيـة العراقيـة واستمروا على تقاضي نفس الراتب المخصص لهم قبل تجنسهم ••• فأصدرت بيانا الى جميع هؤلاء المدرسين المتجنسين ، بلغتهم فيه أن رواتبهم قد اخفضت الى المستـوى الطبيعي الذي يعـادل رواتـب زملائهم من العراقيين ، مع الأخذ بمدة خدمتهم لغرض الترفيع فـي نظر الاعتبار حسب الانظمة المتبعة أنذاك ، ولم يعترض أي واحد من هؤلاء على هذا ، ولم يستقل أحد منهم ، بل رضخوا للأمر الواقع ،

وبذلك أضفنا مبلغا ثالثا الى التوفيرات التي اجريناها في الميزانية .

٤ ـ وبالاضافة الى ذلك كله أجرينا تخفيضات مختلفة في مواد الماء والكهرباء والبرق والبريد وغيرها ، فتم بذلك توفير المبلغ المطلوب بشكل يضمن سير الادارة والتعليم دون ان يطرأ عليها أي خلل كان .. ونظمنا قائمة بذلك وقعناها المحاسب وأنا وقدمناها الى الوزير وحظيت بموافقته وشكرني وزير المالية بعد ذلك على عملي هذا شكرا جزيلا .

طلب التجنس بالجنسية العراقية

لجلال زريق ودريش المقدادي المرحوم

قدم كل من جلال زريق ودرويش المقدادي المرحوم طلبا بالتجنس بالجنسية العراقية واقترحت قبول طلبهما ، لأنهما من خيرة الاساتذة في دار المعلمين العليا والمدرسة الثانوية المركزية .. انهما عربيان اصيلان ، ونزعتهما القومية لا يتسرب اليها ادنى شك ، وهما شعلة وطنية تشع بين طلابهما وتنير لهم سبيل الحق ، سبيل الحرية والكرامة والمجد ... وامتعض رجال المعارف الانكليز من هذا الطلب واغتاظوا من اقتراحي في تأييده ، وحاولوا أن يقنعوني بوسائل شتى بسحب اقتراحي في تأييد الطلب وكنت ازداد تمسكا برأيي ، وعزما على المضي فيه كلما وجدت الانكليز يحرصون على عدم تلبية الطلب وحرمان هذين الاستاذين الفاضلين من الجنسية العراقية ... كان كل من عبد الحسين الجلبي المرحوم (الوزير) ورشيد الخوجة المرحوم (المدير العام) حائرين مترددين ... انهما يشعران بأن اقتراحي مصيب وان تجنس الاستاذين المذكورين كسب للعراق لا شك فيه ، الا انهما من جهة اخرى يتوجسان خيفة من مخالفة رأي المستر سمث المفتش العام والمستر سمرفل (المفتش) ... وكانا

يلتمساني ان افاوض (المسترين) علنا نجد طريقا وسطا في حـل هـذه المعضلة ••• وعبثا حاولت اقناعهما بالاخذ بـرأيي ، لأن قبـول تجنس الاشخاص حق من حقوق العراق يبت فيه المسؤولون العراقيون وحدهـم ولا علاقة للاستشارة البريطانية فيه بأي شكل كان ••• ولما رأى المفتشان الانكليزيان بأن الوزير والمدير العام مترددان وانني متصلب فـي رأيـي ولا تلين لي قناة في هذا الموضوع ، اوعزا الى كل من وديع عبد الكريم (الاستاذ في دار المعلمين العليا والثانوية المركزيـة) ويوسف ابراهيـم (المدرس في الثانوية المركزية) ان يتقدما هما ايضا بطلـب الجنسيـة العراقية ••• واستمزج رأيي المستر سمث في طلبهما ، وكان رأيي الرفض المطلق بطبيعة الحال ، لأنني كنت أعـرف جيدا أنهمـا لا يحملان فـي نفسيهما أية مشاعر عربية ولا تهمهما مصلحة العراق لا من قريب او مـن بعيد ••• وحاول المستر سمث عبثا أن نقبل تجنسهما وأفهمني بصريـح العبارة أنه اذا رفض تجنس وديع عبد الكريم ويوسف ابراهيم فانـه لا يوافق مطلقا على قبول تجنس درويش المقدادي وجلال زريق ••• وهكذا بقيت الحالة معلقة لم يبت فيها سلبا او ايجابا •••

توزيع المساعدات المالية
على المدارس الاهلية والخصوصية

كانت المساعدات المالية للمدارس الاهلية والخصوصية توزع في كل سنة مالية بقرار من لجنة كنت احد اعضائها ... ولما دققت قائمة التوزيعات للسنة الماضية هالني الأمر اذ وجدت أن الأموال تنفق بسخاء فظيع على مدارس الأليانس والآثوريين ، والأرمن وغيرها من المدارس غير المسلمة ، بينما كانت حصة كل من مدرستي الجعفرية والتفيض ضئيلة ، اذا قارنا عدد الطلاب والمدرسين والصفوف في هاتين المدرستين بغيرهما من المدارس الطائفية غير المسلمة ... واجتمعت بيوسف عز الدين الناصري المرحوم (١) الذي كان هو الآخر عضوا في هذه اللجنة واوضحت له الغبن الذي يلحق المدارس الاهلية المسلمة في التوزيع غير العادل للمساعدات المالية فأيدني تأييدا مطلقا وأكد لي أنه سيكون معي مؤيدا ومتضامنا في أثناء الاجتماع ... ولكن عندما عقدت اللجنة اجتماعها وأبدى المستر سمرفل معارضته لآرائي واقترح عدم تغيير أي شيء في

(١) اظنه كان انذاك مديرا لمعارف منطقة بغداد

قائمة التوزيع ، نسي يوسف عز الدين الناصري الاتفاق الذي جرى بيني وبينه ، وتجاهل الوعد الذي قطعه في مؤازرتي ، واعلن تأييده لاقتراح المستر سمرفل وحبذه ... انني لم أكن أجهل عدم استقرار هذا الرجل في رأي ، وأعرف أشياء كثيرة عن جبنه وانقياده الاعمى لرؤسائه ، لذلك لم يكن موقفه هذا مفاجأة لي ، وابتسمت في وجهه ابتسامة ساخرة . وقلت له : عافاك يا استاذ ما اضعف ذاكرتك ؟ ..

* * *

تعييني مفتشاً لمعارف منطقة البصرة

اصبح الانكليز في مركز الوزارة لا يطيقــون بقائي سكرتيــرا . وسمعت من اناس كثيرين أن المستر سمرفل صار ينعتني بدكتاتور المعارف ويبحث في عنادي وتهوري ومعاكسة كل رأي يبديه الانكليز في الوزارة، ورفض كل اقتراح يتقدم به هؤلاء الامر الذي يعتبر تحديا واستفزازا غير قابلين للاحتمال ... ويظهر أنه بعد اجتماع عقده اقطاب الوزارة (الوزير، والمدير العام ، والمستر لاينل سمث مفتش المعارف العام ، والمستر سمرفل المفتش) تقرر اقصائي عن سكرتارية المعــارف وتعييني مفتشا لمعــارف منطقة البصرة ...

ولما تبلغت بالأمر أفهمت كلا من الوزير والمدير العام ، أنه يستحيل علي أن أقبل هذه الوظيفة ، وسأقدم استقالتي من وظيفتي الحالية فورا ، اذ كيف يجوز تعييني مفتشا في منطقة كنت أنا مديرها قبل سبع سنين ؟.. ولكن الوزير والمدير العام اصرا علي بأن لا أقدم على الاستقالة ، وطلبــا الي أن لا اسافر الى البصرة بل أذهب مؤقتا الى الناصرية وأقوم بتفتيش المدارس فيها ، وانهما سيتخذان التدابير المقتضية لعودتي الى بغداد خلال

مدة اقصاها خمسة عشر يوما ... وبناء على هذا الوعد أذعنت للأمر الواقع وسافرت الى الناصرية وباشرت عملي الجديد بتاريخ ١ـ٤ـ١٩٣١، وبقيت في الناصرية أكثر من شهر واحد منتظرا عودتي الى بغداد . ورغم كل الاتصالات التلفونية بيني والوزير وبيني والمدير العام لم احظ بقرار نهائي منهما ، وعزمت على العودة الى بغداد وتقديم استقالتي فور وصولي اليها ، وهكذا كان ...

قدمت استقالتي بخمس صحائف «فولسكوب» وكانت تحوي شرحا مفصلا لسوء الادارة في داخل الوزارة ، ذاكرا فيها بعض الاعمال الكيفية التي لا تستند الى نظام او قانون ، وفي جملة ما ذكرت من أسباب استقالتي المناورات التي لعبت دورها في قضايا تجنس درويش المقدادي وجلال زريق من جانب ووديع عبد الكريم ويوسف ابو ابراهيم من جانب ثان . وفقدان عنصر العدل في توزيع المساعدات المالية على المدارس الأهلية والخصوصية وغيرها (١) وقد اعتبر الوزير ما جاء بكتاب استقالتي ماسا بكرامته ، ومع ذلك رجاني أن أتريث في الأمر ولا أصر على قبولها ؛ الا انني افهمته بصريح العبارة انني عازم على ترك العمل في هذه الوزارة مهما كلفني الأمر ، وهكذا صدر أمر وزاري بقبول استقالتي اعتبارا من ٥ـ٥ـ١٩٣١ .

وقبيل صدور أمر استقالتي ، تقرر انفكاك المستر سمث من عمله مفتشا عاما ، ونظمت له ادارة دار المعلمين الابتدائية حفلة توديع في

---

(١) كنت احتفظ بنص هذه الاستقالة ، ولكنه فقد مع الأسف هذا النص أثناء تعرض داري الى تفتيش رجال الأمن مرات عديدة . . .

بنايتها في جانب الكرخ ، وكنت أحد المدعوين الى هذه الحفلة •• وفي أثناء الاحتفال ، أتى المستر سمث وجلس معي على مائدة واحدة ، وصرنا نتكلم في الشئون المختلفة ••• وفي الحقيقة انني مع اختلافي في الرأي مع المستر سمث في كثير من الامور التي مرت بوزارة المعارف ، كنت أحترمه ، واقدر فضله ، وأثمن كفاءته ومقدرته ••• أما اختلافنا في الرأي ، فأعتبر ذلك شيئا طبيعيا ، لأنه ينظر الى الامور بعين المصلحة البريطانية ، أما أنا فأنظر اليها بعين المصلحة العراقية ، ولم تتفق كلتا المصلحتين في يوم من الايام ، ولن تتفقا ••• أثنى المستر سمث على كثير مما اتصف به ، وذكر ايمانه بنشاطي وذكائي ومقدرتي ••• وقال : انك تكون أليق مدير عام للمعارف ، لو تركت المغالاة في بعض افكارك ، وتجنبت العناد في بعض تصرفاتك ، ولزمت حدود الاعتدال في أعمالك ••• ثم اردف قائلا : ومع ذلك ، انني اتوسم فيك خيرا ، وأتمنى ان اراك يوما تصبح فيه رجلا من رجال هذا البلد وتؤدي واجباتك بحزم وعزم وامانة واخلاص •••

Hamad Khalifa

في سكرتارية المفوضية العراقية في أنقرة

عندما استقلت من وزارة المعارف ، كنت في اسوأ حالة من الوجهة المالية ، فداري الصغيرة التي بنيتها في الاعظمية كانت مرهونة عند مصطفى عاصم المحامي (بستة الاف روبية) ولم تكن في حوزتي الا بضع عشرات من الروبيات قد لا تتجاوز المئة روبية ، وزوجتي حامل .. وقد ولدت ولدي حازما بتاريخ ١٠ ايلول ١٩٣١ ، وتكبدنا من جراء ذلك نفقات ارهقت كاهلنا أيضا ، ولولا مساعدات والدي وأخي ادهم لأصبحنا في ضيق شديد حقا .. كان والدي متقاعدا يتقاضى حوالي خمسة عشر دينار شهريا ، وكان أخي أدهم موظفا صغيراً في متصرفية بغداد ، وكان والدي يسلمني كل راتبه التقاعدي ، ويدفع أخي أدهم لي مئة روبية من راتبه ، وقد التزمنا سياسة التقشف في حياتنا المعاشية ، وسرنا فيها راضين مقتنعين بفضل الله وكرمه ، ولم نمد يدنا الى أحد او نشكو حالتنا لأحد . والحمد لله على ذلك ...

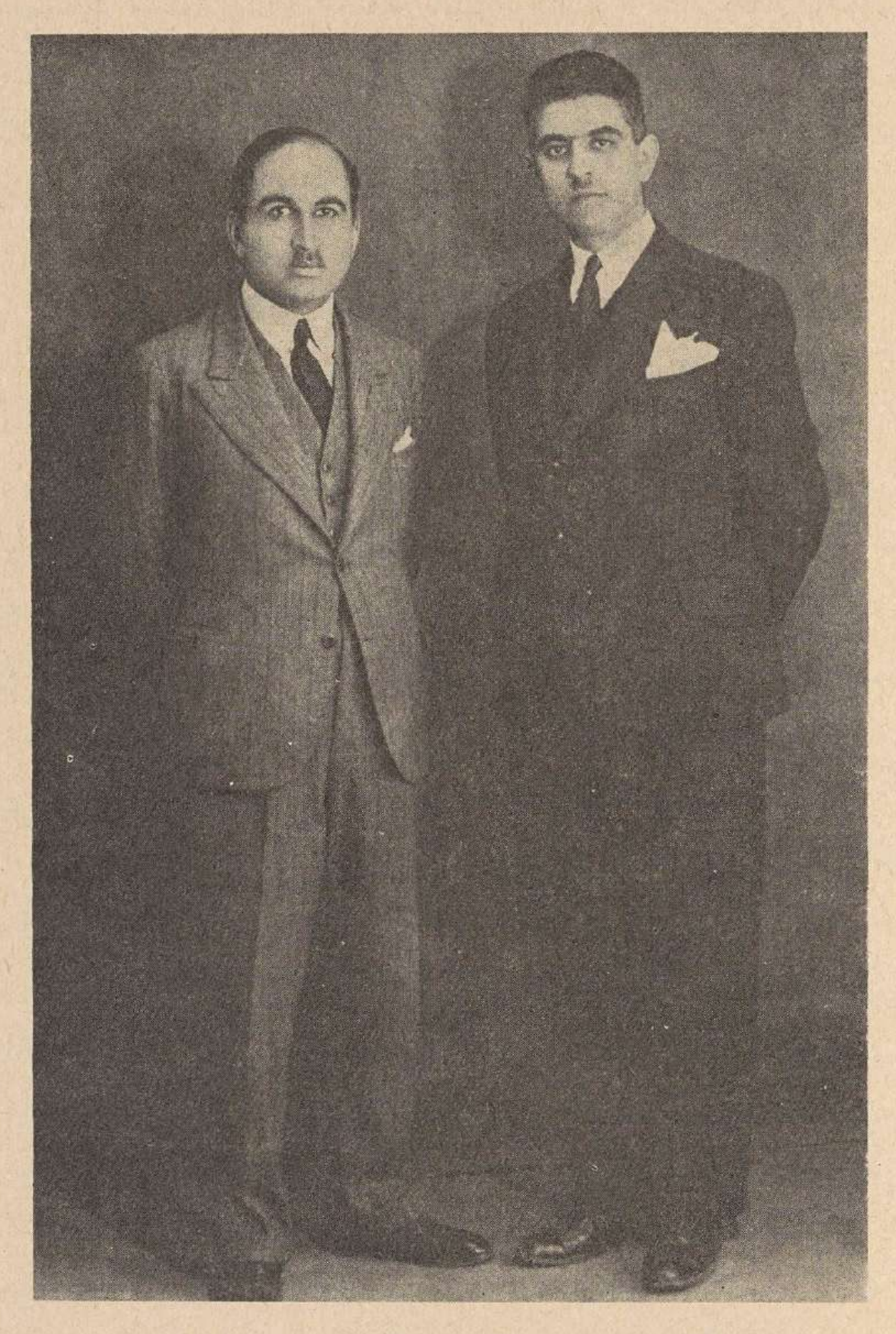
صحيح أنني أخذت اجازة المحاماة بعد استقالتي ، ولكنني كنت محاميا مستجدا لا يعرفني أحد ، فاحتفظت بالاجازة كمهنة ادبية ، ولم يراجعني أحد ، ولم أترافع في أية دعوى خلال سبعة اشهر قضيتها عاطلا ...

وصدفت في تلك الأثناء ، عودة جعفر العسكري المرحوم من لندن الى بغداد ، كان قد شارك في الوزارة التي يرأسها نوري السعيد المرحوم فذهبت للسلام عليه وتهنئته ، واستقبلني استقبالا يشف عن عاطفة كريمة ونبل عظيم .. ولما نهضت مستأذنا بالخروج وقف ومسكني من يدي وقال : ما سبب هذه الضجة التي احدثتها باستقالتك من المعارف (١) ؟ قلت : اختلاف وجهات النظر بيني وبين الانكليز من رجال المعارف أولا ، وضعف الادارة العامة وعجزها وترددها في كل الامور ثانيا ، وعدم التجانس بين المسئولين في الإدارة العامة ثالثا . قال : ولماذا لا تشتغل في وزارة الخارجية ؟.. قلت : لأن نوري السعيد اتفق مع الشيطان على محاربتي ... وبعد لحظات من التأمل ، سألني : هل تريد ان تذهب الى أنقرة سكرتيرا لمفوضيتنا ؟.. قلت : لا مانع لدي ، ولكن هل يوافق نوري السعيد على ذلك ؟قال : رغم انفه ، وهل يجد خيرا منك سكرتيرا لانقرة؟.. وبعد يومين اثنين من هذه المقابلة ، استدعاني جعفر باشا وطلب الي أن أذهب لمقابلة نوري السعيد . ذهبت وأنا غير مطمئن من هذه المقابلة ، وأشك في موافقته على تعييني ... ولما دخلت عليه في مكتبه برئاسة الوزارة ، استقبلني استقبالا حسنا بثغر باسم وقال : هل كان هناك سبب جدي لتهورك وعنادك وثورتك ؟ أراك اندفعت بسائق العاطفة دون أن تحكم العقل في تصرفاتك ... قلت : مهما كان الأمر ان القضية انتهت ولست

---

(١) سهيت ان اذكر قبلا ان استقالتي سببت ضجة في جميع اوساط المعارف ونظم عدد كبير من مدرسي المدارس الثانوية والابتدائية المضابط الى وزارة المعارف طالبين عدم قبول استقالتي وهددوا بالاضراب عن العمل ، وفعلا كانوا مصممين على الاضراب لولا تدخلي واصراري على الاستقالة .

نادما على تصرفاتي حتى اذا كانت بسائق العاطفة كما تفضلت ••• قال : ان جعفر طلب الي تعيينك سكرتيرا ثانيا في أنقرة ، ولا أستطيع ان أرد لجعفر طلبا كهذا •• وعليه سأعينكَ ولكن بشرط واحد : ان عبد الحسين الجلبي غاضب عليك ، لأنه يعتبر ما جاء في استقالتك اهانة اليه ، وعليك أن تسترضي الوزير اولا وتعلن انك لا تقصد بالاستقالة ان تمس كرامة الوزير بأي شكل كان وانك تجله وتحترمه•••قلت : ان هذا الأمر غريب يا باشا فليستبين الوزير وبيني أيةخصومة شخصية••انه صديق قديم لوالدي وأنا لا أنظر اليه الا نظرتي الى عمي أو أبي • وفعلا انني أحترمه ، ولم افكر ان أهينه أو أمس كرامته في يوم من الايام ••• وما دام يفكر في انني حاولت اهانته في نص الاستقالة ، فأنا مستعد أن اعلن توضيحا في الجرائد اؤكد فيه أنني لم اقصد اهانته في استقالتي مطلقا • وقد نشرت في الجرائد فعلا هذا التوضيح ••• وبعد ذلك بأيام علمت من وزارة الخارجية أن قضية تعييني تمت وان الارادة الملكية أرسلت الى البلاط لتوقيع جلالة الملك عليها ••• ومرت الأيام ، وتلتها الأسابيع ، ولا أثر للارادة الملكية •• وكلما سألت قيل لي : انها لا تزال على مكتب جلالة الملك ، فشعرت أن هناك عقبة أو هناك من أوغر صدر الملك بوشايات ضدي ••• وأسرعت الى محمود صبحي الدفتري استاذي وصديقي وعرضت عليه أمري وطلبت اليه مساعدتي ، وكنت أعرف ان للدفتري دالة على الملك ، وانه في الوقت نفسه صديق حميم لرستم حيدر المرحوم رئيس الديوان الملكي آنذاك ••• واهتم الدفتري بالأمر ووعدني انه سيلاحق قضيتي بنفسه ••• وبعد أيام ، استدعاني •• واذ أتيت لمواجهته اخبرني أن الأمر عسير والتهمة الموجهة ضدي خطيرة جدا في نظر الملك ، فجلالته



مع سمو الامير زيد في السفارة العراقية بانقرة سنة ١٩٣٢

علم بأنك جمهوري ومن جماعة ياسين الهاشمي الذي تحوم الشبهات ضده بأنه جمهوري أيضا ••• وأضاف : ومع ذلك ، ليس في العجلة فائدة وقد تكون فيها الندامة • أترك الأمر لي وساعيد الكرة في ظرف ملائم ، علني اصيب نجاحا في الجولة الثانية •••

ويظهر أن التوفيق حالف الدفتري في جولته الثانية ، وصدرت الادارة الملكية والأمر الوزاري بتعييني سكرتيرا ثانيا في المفوضية العراقية في أنقرة اعتبارا من صباح ١٢ كانون أول ١٩٣١ • وبينما كنت استعد للسفر وتسلم وظيفتي الجديدة وقع والدي مريضا بذات الرئة ونقلناه الى المستشفى على اسوأ حال من الاعياء ••• راجعت عند ذلك جعفر العسكري ورجوته ان يسمح لي بتأجيل سفري حتى شفاء والدي وخروجه من المستشفى ، الا أنه أبى واصر على ضرورة سفري بأسرع وقت ممكن وقال : لقد تقرر تعيين سمو الامير زيد وزيرا مفوضا في أنقره وانني أرغب في أن تكون هناك قبل وصول سموه الى تركية • اما قضية الاعتناء بوالدك المريض ، فاتركها لي لأنني سأقوم مقامك في كل ما يقتضي له من رعاية وعناية ، وسيصل اليك خبر شفائه انشاء الله وانت في أنقره ••• والحقيقة أن العسكري المرحوم صار يزور والدي في المستشفى في كل يوم بعد سفري ويوصي الأطباء ضرورة العناية به ، وقد كتب الله الشفاء لوالدي وخرج من المستشفى على أحسن حال من الصحة والعافية ، ولم يكتف جعفر باشا بزياراته والدي وتوصيته الاطباء ، بل توسط لدى الدوائر المختصة فأجرت له تخفيضات لحد النصف في اجور المستشفى •••

كان السيد عطا امين سكرتيرا اول في مفوضيتنا عندما وصلت الى

أنقرة • وبعد مدة قليلة نقل الى مثل وظيفته في لندن ، وعين حسين افنان المرحوم بدلا منه ، ولكنه لم يبق مدة طويلة في أنقرة ، ويظهر ان الأوساط الوطنية في بغداد لم تكن مرتاحة من بقائه في خدمة الحكومة العراقية ، كونها تعتبره انكليزي النزعة ••• أتى مع الحملة الانكليزية الى العراق ، واستخدمته في أثناء الاحتلال ، ثم توسطت بتعيينه سكرتيرا لمجلس الوزراء في اثناء تأليف السيد عبد الرحمن النقيب وزارته المؤقتة وبقي في وظيفته هذه حتى نقله الى أنقره وفصله عن الخدمة • وقد صدر الامر الوزاري بتعييني سكرتيرا أول خلفا له وبقيت في هذه الوظيفة حتى ١١ تشرين ثان ١٩٣٥ •

* * *

على هامش الاحداث في انقرة

١ زواج الامير زيد :

تعرف سمو الأمير زيد بسيدة تركية كانت مضرب الأمثال في الاناقة والجمال في جميع المحافل التركية والاجنبية • وكانت هذه السيدة فنانة مـــن الطـراز الأول ، لها لوحات عالميـة فـــي الرسم الزيتـــي ، ومعـــارضهـــا ذات شهـرة واسعـــة فـي الأوسـاط الفنيـة فـي لنـدن وباريس وفينة وغيرهـا مـن العواصم الأوروبيـة • اسمهـا فخر النساء ، ووالدها شاكر باشا كان سفيرا لتركية في اليونان سابقـــا وعندما تعرفت بالأمير زيد كانت متزوجة من عزت مليـح الكاتب التركي وكان الخلاف مشتدا بين الزوجين حتى وصل الامر بطلب الطلاق الـى المحكمة ••• وتم زواج الامير منها بعد صدور حكم الطـلاق مـــن المحكمة •• كان الأمر بحد ذاته بسيطا وطبيعيا ، الا أن بعض المشاغبين في بغداد أخذوا يكيلون التهم ضد الامير وينشرون شائـعات لا أصل لها من الصحة ولا أساس ، منها : ان الحكومة التركية اعتبرت أمر الزواج غير لائق وانها طلبت الى الحكومة العراقية سحب الامير زيـــد ، وان الاوساط التركية استاءت من تصرف الامير ، الى غير ذلك من التقولات

التي لا تخرج عن حدود الشغب والضوضاء ... ويشهد الله أن كل ما قيل في هذا الشأن كذب وافتراء ، فلا الاوساط التركية كانت غاضبة ولا المحافل الاجنبية كانت مستاءة أو ناقمة ، وانما كان الأمر طبيعيا ليس فيه ما يستوجب اللوم أو الانتقاد ، غير أن الامير بعد أن اطلع على ما اشيع عنه من تقولات في بغداد غادر أنقرة باجازة ولم يعد الى عمله ثانية بعد انتهائها ... وتأييدا لما ذكرته في أعلاه ، قابلني يوما عصمت أين اونو ، رئيس الوزراء وقال : اريد ان تخبر حكومتك بأننا لسنا مستائين من الامير زيد لزواجه من السيدة فخر النساء ، لأننا لم نر في هذا الزواج أي أمر غير عادي . واننا نحب الامير زيد ونحترمه .. وقد أبرقت بيانات أين اونو فورا الى وزارة الخارجية في بغداد (١) ببرقية رمزية ...

٢ – اول لقاء لي مع الملك فيصل الاول :

عندما سافرت الى أنقرة أول مرة ، لم أستصحب معي زوجتي وحازما (وليدي الوحيد الذي لم يكمل عند ذاك الشهر الثالث من عمره) لذا حصلت على اجازة اعتيادية وعدت الى بغداد في شهر نيسان ١٩٣٢ بقصد مرافقة عائلتي في سفرها الى أنقرة . وقد أرسل سمو الأمير زيد بيدي كتابا خاصا الى جلالة الملك فيصل الأول وطلب الي تسليمه يدا بيد ... واتباعا للبروتوكول طلبت موعدا لمقابلة الملك وتسليم كتاب أخيه اليه ، وحدد الموعد لي ... ولما حضرت الى القصر الملكي في الموعد المضروب ،

---

(١) كنت قائما باعمال مفوضيتنا في أنقرة يومئذ .

استقبلني المرحوم السيد باقر سركشك التشريفاتي في البلاط وأخذ يلقي علي بعض تعليماته :

أ • ان جلالة الملك يستقبل الشباب من أمثالي وهم واقفين على رجليهم (أي أنه كان يحذرني من الجلوس في الحضرة الملكية •)

ب • يجب أن لا تدوم المقابلة أكثر من خمس دقائق •

ج • علي أن الثم يد جلالة الملك عند السلام عليه •

وبعد ان انتهى من هذه التعليمات ، قال : تفضل •• وسار أمامي وسرت خلفه ، وبعد أن ادخلني الى قاعة الاستقبال ، رجع على عقبيه •• حييت الملك باحناء رأسي ، ومد يده فصافحته بكل أدب واحترام (وهذه أول مخالفة لتعليمات سركشك اذ لم اقبل يد جلالة الملك) ثم قدمت اليه كتاب الامير ، ولما تسلمه جلس على جانب من أريكة موضوعة في الصالون وأشار علي أن اجلس في الجانب الآخر منها (وهذه المخالفة الثانية للتعليمات) وبعد ذلك سألني عن صحة الامير زيد ، فقلت : انه في خير وعلى أحسن ما يكون من الصحة والعافية • ثم أخذ يمطرني بوابل من الاسئلة عن كل ما يتعلق بتركية : نهضتها الاجتماعية ، تقدمها في ميادين العمران اصلاحات المعارف فيها ، حالتها السياسية ، تنظيماتها العسكرية ، وغير ذلك من امور اخرى • ولقد كان امتحانا شاقا جدا ، وكنت اجيبه على اسئلته كتلميذ استعد للامتحان أياما طويلة حتى اتقن كل ما جاء في الكتب التي بين يديه ••• كنت أشعر ان الملك ارتاح من أجوبتي اذ توغل في الحديث بحيث لم يترك شاردة ولا واردة الا وسألني عنها ، وكان يعلن اعجابه بهز رأسه بين آونة واخرى • وقد استمر هذا الاستجواب حوالي ٤٥ دقيقة (وهذه هي المخالفة الثالثة لتعليمات

التشريفاتي) • وقف بعدها جلالة الملك مشيرا الى انتهاء المقابلة ، وقفت بدوري وصافحته بانحناء رأسي وهممت بالخروج • وعند ذاك ، قال لي جلالته ، متى ستعود الى أنقرة ؟ قلت : في خلال عشرة أيام على الاكثر • قال : مر بي اذن في اليوم الفلاني لأسلمك جواب كتاب سيدي زيد (١)••• وفي الموعد الذي عينه الملك ، ذهبت الى البلاط ، وحظيت بالمثول بين يديه ثانية • الا أن هذه المقابلة لم تدم أكثر من خمس دقائق تسلمت فيها من يد جلالته الكتاب وعلبة كبيرة تحتوي على وسام الرافدين من الدرجة الاولى لسمو الامير زيد •••

عدت الى أنقرة ، وسلمت الوسام والكتاب الى الامير زيد • وبعد خمس دقائق أتى الامير مسرعا الى غرفتي ، وقال : ويحك يا طالب ، ماذا عملت للملك فيصل أنه بك معجب كثيرا ، خذ وأقرأ ••• وناولني الكتاب وقرأته ••• كان يمدحني فيه بأسطر عديدة ، ويثني على سعة معلوماتي وذكائي ، ويهنىء الامير زيد بي سكرتيرا ••• قلت للأمير : هذا التفات وتقدير أكثر مما استحقه ، وانني بتقدير جلالته اياي لفخور أطال الله في عمره ملكا حكيما وزعيما رشيدا ••

٣ نوري السعيد يقول : انه ارسلني الى انقرة لاتعلم الضبط (ديسيبلين)

أقبل على أنقرة ، بعد مباشرتي عملي في مفوضيتنا بمدة وجيزة ، وفد عراقي برئاسة نوري السعيد المرحوم ووزير الخارجية وعضوية كل من ابراهيم كمال المدير العام للمالية ، وجورج جرجي من وزارة العدل ،

---

(١) جرت عادة العائلة الهاشمية على ان يخاطب كبيرهم صغيرهم بكلمة «سيدي» كما يخاطب الصغير فيهم الكبير بالكلمة نفسها .

وعبدالله بكر مدير المكتب الخاص بوزير الخارجية . وحضر الاجتماعات (التي عقدت في وزارة الخارجية التركية بين الوفدين العراقي والتركي) عطا أمين بصفته قائما بأعمال المفوضية ، وأنا بصفتي سكرتيرا للوفد العراقي ، وانيط بي ضبط المحاضر وتنظيمها وطبعها على الآلة الكاتبة ، وتوزيعها على اعضاء الوفد ، واظنني قمت بمهمتي هذه على أحسن وجه .

وفي احدى الحفلات التكريمية التي نظمت للوفد العراقي ، قدمني نوري باشا الى شكري قايا المرحوم وزير الداخلية في أنقرة بالوصف التالي : انه مشاغب ، متمرد ، كثير الحركة ، لا يرضخ لأمر الواقع بسهولة ، ثائر ، عنود متطرف في وطنيته .. وقد أرسلناه الى أنقرة املا منا في أن يتعلم الضبط !... ونظر شكري قايا الى وجهي مبتسما وصافحني ، ثم التفت الى نوري باشا وقال له : ان الصفات التي ذكرتها في طالب مشتاق يا باشا هي كل ما يحتاج اليه الشباب في هذا العصر ، وهي موجبة للعناية والتشجيع ، وعليكم أن تأخذوا بيد مثل هذه الطبقة من الشباب وتدفعوها الى الامام لتنطلق نحو الاهداف المثلى التي تعزز الروح الوطنية وتدعم كيان الاستقلال ...

٤ — قبلتان على خديّ من اتاتورك

يحتفل الاتراك بعيد الجمهورية في ٢٩ تشرين أول احتفالا عاما ومهيبا .. وفي ساعة مبكرة من الصباح ، يذهب رئيس الجمهورية الى المجلس الوطني الكبير ويتقبل التهاني من أعضاء المجلس ، وبعد ذلك يقف في قاعة الاستقبال في المجلس وعن يمينه رئيس المجلس ، وعن شماله كل من رئيس الوزراء ووزير الخارجية .. فيتقدم اولا عميد السلك الدبلوماسي ومن خلفه أركان سفارته ، ثم السفراء الآخرون وفي

معية كل منهم أركان سفارته (١) ، كل حسب قدمه ويصافحون رئيس الجمهورية والحاضرين معه ويقدمون تهانيهم بهذا العيد الوطني ،ويعودون من حيث أتوا . ان اللباس في هذه المراسم هو (الفراك) أو البزة الرسمية (يونيفورم) اذا وجدت .

وتبدأ المرحلة الثانية من الاحتفالات في الساعة الثانية بعد الظهر باستعراض تشترك فيه قطعات الجيش بانواعها المختلفة : المشاة الخيالة ، المدفعية ، القوة الجوية ، الهلال الاحمر ، النقليات الآلية ، الدبابات ، السيارات المسلحة ، طلاب المدارس العسكرية ، والملكية ، المحاربون القدامى بملابسهم العسكرية القديمة ، الكشافة وغيرها من المنظمات الشعبية ... والخلاصة أن الشعب التركي بجميع مؤسساته يشارك في هذا الاحتفال . يدوم الاحتفال أكثر من ساعتين تنظم بعده حفلة (كوكتيل) في صالونات معدة لذلك في الملعب الكبير الذي يجري فيه الاستعراض . كان الغازي مصطفى كمال يجلس في مقصورته الخاصة وعن يمينه رئيس المجلس ، وعن شماله رئيس الوزراء ورئيس اركان الجيش ، ومن خلفهم الوزراء والقواد العسكريون ، وعن يمين مقصورة رئيس الجمهورية مدرج خاص برؤساء البعثات السياسية وعن شمالها مدرج لأعضاء المجلس الوطني الكبير يشاركهم فيه الموظفون المدنيون ذوو المناصب العالية مع عدد من الضباط العسكريين ذوي الرتب العالية ايضا ، وفي انتهاء حفلة (الكوكتيل) التي تنظم عادة بعدانتهاء الاستعراض، تكون المرحلة الثانية من الاحتفالات قد انتهت . ان أعظم احتفال بعيد الجمهورية التركية جرى في ذكرى السنة العاشرة لهذا العيد ، وقد خطب

---

(١) ان اركان السفارات الاجنبية لا يشاركون في هذه المراسم في الوقت الحاضر ، بل يذهب رؤساء البعثات السياسية وحدهم الى المجلس الوطني لتقديم التهاني بهذا العيد الى رئيس الجمهورية .

فيه الغازي مصطفى كمال خطابا قيما أشاد فيه بالانجازات التي تمت ، وطلب الى الشباب ان يسيروا قدما الى الامام ، ويصونوا النظام الجمهوري الذي يضعه امانة في عهدتهم ...

ومن حسن حظي أنني شاركت في هذا العيد العاشرة للجمهورية بصفتي قائما بأعمال المفوضية العراقية ، واستمعت الى خطاب أتاتورك بكل مشاعري وجوارحي ...

وتبدأ المرحلة الثالثة بمأدبة عشاء انيقة ينظمها رئيس الجمهورية ويحضرها رؤساء البعثات السياسية فقط من السفارات الاجنبية (١)... وفي احدى هذه المآدب وأظنها كانت في سنة ١٩٣٢ ، كان سفير مصر السيد عبد الملك حمزة حاضرا وهو يرتدي (بدلة) مزركشة ويحمل سيفا مذهبا ، وعلى رأسه طربوش احمر طويل ، ويزين صدره عدد من الاوسمة، واذ انتهى العشاء ، وقدمت فناجين القهوة للضيوف ، التفت الغازي مصطفى كمال الى عبد الملك حمزة وخاطبه قائلا : ها اننا انتهينا من الرسميات بانتهاء العشاء ، فارفع طربوشك وارح نفسك قليلا ... ابتسم السفير ، واعتبر هذا التكليف من رئيس الجمهورية التفافا وتوددا ... وعندئذ أشار الغازي الى مرافقه أن يرفع الطربوش ، وهرع هذا وأحضر صينية من الذهب الخالص (من مخلفات مائدة الطعام الخاصة بالسلطان عبد الحميد) وأخذ الطربوش من رأس السفير ووضعه في هذه الصينية وابتعد ... كان يومذاك السيد توحيد السلحدار سكرتيرا في المفوضية المصرية وهولايكن الود لعبد الملك حمزة،بل يمقته وينفر منه ويتحين الفرص للايقاع به ... وها هي الفرصة قد أتت ، أفلا يجب انتهازها ? ... ذهب مسرعا الى مخابر رويتر ، ونقل له ما جرى باعتباره اهانة للسفير واهانة

---

(١) ابطلت هذه العادة ايضا في الايام الاخيرة .

لملك مصر والحكومة المصرية والشعب المصري قاطبة • وطير المخابر برقية الى لندن ، وطير السلحدار برقية اخرى الى الحكومة المصرية •وفي صباح اليوم التالي كانت أخبار « حادثة الطربوش» على صفحات الجرائد في لندن وفي مصر وفي كل العالم ••• مصطفى كمال اهان مصر برفع الطربوش عن رأس السفير ••• انه استخفاف بتقاليد الشعب المصري ، وامتهان لكرامته ، وخروج على اللياقة الدبلوماسية ••• وهكذا ، بينما كان تصرف أتاتورك بحسن نية خالصة ، وبدافع الشعور الصميمي والصداقة المتقابلة بين الرئيس والسفير ، اذا بالمراسل البريطاني ينقله خبرا لحمته الدس وسداه الكذب والافتراء ، مستهدفا الوقيعة بين البلدين المسلمين الصديقين ، واكتسب الحادث خطورة أدت الى توتر العلاقات بين تركية ومصر ••• ومضت أيام على هذا الحادث ، وكنا في دار المفوضية المصرية نحتفل بعيد جلوس ملك مصر أو بعيد ميلاده ،وكانت المفوضية المصرية قد اعدت حفلة استقبال باهرة ، شارك فيها مئات الشخصيات التركية والاجنبية البارزة ••• وكان يخيم على الحفلة جو من المرح والسرور منقطع النظير ، وعندما قاربت الساعة منتصف الليل ، وكان كثير من المدعوين قد غادروا دار المفوضية ، لم يبق فيها الا قليل من المقربين الى القائم بالاعمال ، احمد رمزي بك ، وبينما كان الضيوف لاهين باحاديثهم سرت موجة غير عادية في بهو المفوضية الكبير ، ولفت أنظارنا اهتمام موظفي المفوضية وحركتهم السريعة من جهة الى اخرى ••• واذا بأتاتورك رحمه الله منتصب أمامنا بقامته المهيبة ووجهه الوقور •• لقد كان حضوره مفاجأة غير منتظرة حقا ، وشحذت ذهني لاعرف السبب الذي دعاه للحضور ، وفطنت اليه بعد قليل من التفكير ••• انه أراد أن يلقم الصحف الاجنبية ، وخاصة الانكليزية منها حجرا ، ويصلح ما

Hamad Khalifa

تردى من الوضع بين الحكومتين الصديقتين ، فقام بهذه المفاجأة الفريدة التي ازالت الفتور ، وأعادت الامور الى مجاريها الطبيعية ، وكان موفقا في ذلك التوفيق كله ...

جلسنا مع أتاتورك في غرفة صغيرة ، وكانت في وسط الغرفة أريكة كبيرة وعلى جانبيها كرسيان كل منهما ذو مسندين ... جلس أتاتورك في جانب من الاريكة ، ودعا الامير زيدا للجلوس الى جانبه ... كما جلس المسيو تاهي سفير المجر على احد الكرسيين عن يمين اتاتورك ، وعلى الاخر ناجي باشا المرحوم أحد اعضاء المجلس الوطني الكبير (ومدير الكلية العسكرية السابق لما كان مصطفى كمال طالبا فيها) بينما وقفت امام أتاتورك وجها لوجه وكان قد أحاط بي مرافقو أتاتورك وبعض النواب من رجال ذلك العهد . كنت أمعن النظر في أتاتورك بوافر التقدير والاعجاب ، فقد كان يبعث في الحاضرين قوة حيوية ونشوة وأملا بحاجبيه الكثين ، وهيبة ملامحه ، ونظراته الحادة التي تشع نورا وذكاء . لم يكن أتاتورك زعيما لتركية حسب ، بل كان نبراسا يهتدي به الشرق كله ، والعالم الاسلامي بأجمعه ، وجميع الأمم التي كانت تئن تحت وطأة قيود الاسر ومظالم المستعمرين ... انه كان نورا يضيء الطريق ، ودليلا يهدي الى سواء السبيل ...

كان أتاتورك يتكلم مع المسيو تاهي سفير المجر ومع الامير زيد سفير العراق في كثير من القضايا السياسية والتاريخية والعسكرية والاجتماعية وانتقل البحث الى العلاقات بين سورية والعراق .. كان المغفور له الملك فيصل الأول ملك العراق في ذلك الحين ، يتطلع الى سورية ويسعى الى ضمها الى العرش العراقي ، فقال أتاتورك للأمير زيد بصراحته المعهودة : « أن مثل هذا الاتحاد ، في الظروف والاحوال القائمة في الوقت الحاضر ، لا يجدي سورية ولا العراق نفعا ... رشح نفسك

أنت ، لعرش سورية ، ونحن نعاضدك ، بكل رغبة ورضاء نفس ...»

وعند ذاك انتبه أتاتورك المرحوم الي ووجه نظره نحوي وقال :

« من انـــت ؟ ..» ... أجبته على الفور : « انـــا طالـب مشتاق ، السكرتير الأول في المفوضية العراقية يا سيدي .» ... ولمعت عينـــاه في أثر ذلك وقال : « اسمع يا سيد مشتاق ان ما قلته الآن سيبقى مطمورا في داخل هذه الغرفة ، ولن يتسرب الى خارجها » ... أجبته : « كن واثقا يا سيدي الباشا أن ما تفضلت به الآن سوف لا أنقله حتى لـ مير زيـــد نفسه ...» أبدى أتاتورك بهذا الجواب اعجابه وقال : أحسنت تعــــال لأقبلك . واقتربت منه وقبلني في خدي ... وتناولت يدوري يــــده اليمنى وقبلتها قبلة حب واعجاب وتقدير ، وعدت الى مكاني ... ورغم مرور هذه المدة الطويلة لا ازال أعيش في ذكريات تلــك الليلة وأشعــر ببهجتها . وفي الحقيقة انني أعتبر قبلتي أتاتورك أغلى هدية اقتنيتها . وكان ذلك الالتفات أثمن تقدير نلته طيلة حياتي ... فقد كنت اعــرف أتاتورك حق المعرفة وأنا طالب في اعدادية « ايزميت» ... كنت اعرفــه بطل «أنا قارطه لر »وقائد قوات الصاعقة ، ورئيس مؤتمـر «سيواس» الوطني ، وفضلا عن كل ذلك كنت أعرفه ثائرا وطنيا وزعيما لا يضاهيه زعيم ، ولهذا كنت احتفظ له في اعماق قلبي حبا ليس فوقه حب ... وأنا عندما استعيد ذكراه الطيبة بهذه الاسطر القليلة الآن أحني رأسي امـــام روحه الطاهرة محييا وسائلا المولى ان يتغمده بواسع رحمته ...(١)

---

(١) طلبت جريدة الجمهورية التركية ان اكتب لها بمناسبة مرور ٢٥ عاما على وفاته بعض ذكرياتي مع أتاتورك . وقد كتبت لها مقالا بعنـوان « احمل على خدي قبلتين لاتاتورك» نشرته بعددها ١٤١٠٨ الصادر في ١١ تشرين ثان ١٩٦٣ وقد كان له صدى استحسان عام في جميع الاوساط التركية . ان المقال المذكور ترجم الى اللغة الانكليزية ونشرته «مجلة ذي ويك» الصادرة في أنقرة .

٥ – ناجي شوكة بعد الامير زيد

بقيت مدة طويلة قائما بالاعمال بعد انفصال الامير زيد عن مفوضية أنقره ثم عين ناجي شوكة وزيرا مفوضا ومندوبا فوق العادة للحكومة العراقية خلفا للامير زيد • وقد توطدت العلاقات بينه وبيني بعد مدة وجيزة من وصوله الى أنقرة وتسلمه العمل في المفوضية ، وصار يعتمد علي اعتمادا كليا ويرعاني كأخ له صغير • وكنت بدوري أحبه وأحترمه وأبذل كل جهد ممكن للقيام بواجباتي على اكمل وجه ممكن ••• وشاع في بغداد بعد وصوله بمدة وجيزة احتمال نقلي قائما باعمال مفوضيتنا في طهران ، ولما سمع ناجي شوكة الخبر اغتاظ وغضب ، وطلب الي ان أرفض الذهاب الى طهران ••• قلت : ان رفضي لطلب مثل هذا يضرني ماليا ، لأن راتبي هناك سيتضاعف بما اتقاضاه من مخصصات الوزير المفوض بالوكالة ••• قال : انني سوف لا اوافق على هذا النقل مهما كان الأمر • كيف تريدني يا طالب ان أستغني عنك ، وأنا اذا قلت لك : « لب !••» تقول فورا : «لبلبي» •• وضحكنا لهذه النكتة اللطيفة ، وصممت على البقاء في أنقرة مع هذا الرجل الطيب القلب مضحيا بمنافعي المادية ••• على أن الرجل ، بعد أن تأكد من اخلاصي ومحبتي له ، أخلى لي شقة في داخل السفارة اقطن فيها مع زوجتي وطفلي حازم وطفلتي حزيمة وبذلك وفر لنا اجار الدار التي تكلفنا مبلغا ليس بالقليل في ذلك الزمن •

٦ – وزير خارجية تركية يشرب نخبي

نظم الدكتور توفيق رشدي آراس حفلة عشاء لنوري باشا السعيد

بمناسبة زيارته أنقرة .. وقبل ان ينتهي العشاء قام الدكتور توفيق رشدي آراس وزير الخارجية وشرب نخب نوري السعيد وبعد ذلك نهض نوري السعيد وشرب نخب الدكتور رشدي آراس وتمنى الرفاهية والسعادة للشعب التركي الشقيق .. وقبل أن ينهض الجميع ليغادروا قاعة الطعام ، وقف الدكتور توفيق رشدي آراس وخاطب نوري السعيد قائلا : يا معالي الباشا ، لو كان العرف الدبلوماسي يسمح لوزير خارجية دولة ان يشرب نخب سكرتير مفوضية في مثل هذه الحفلة الرسمية تأكد انني كنت اشرب نخب سكرتير مفوضيتكم قبل كل أحد (١).. فرفع الجميع اقداحهم في أثر ذلك واحتسوا ما تبقى فيها من الشامبانيا ... وفي تلك الأثناء ، كان جالسا عن يميني المرحوم جواد أوستون سفير تركية الاسبق في بغداد ، وكان يومئذ مديرا عاما للدائرة الثانية في وزارة الخارجية التركية ، فالتفت الي وهمس في اذني : اذا كانت لدى نوري السعيد لباقة سياسية فسوف لا ينقلك من أنقرة بعد هذا التقدير ... وفعلا ان نقلي تأخر سنة واحدة ، بعدما شاع بأنني سأنقل الى بغداد في خلال أيام قليلة ...

Hamad Khalifa

(١) كان السيد جميل السلام مدير الدائرة الشرقية ، والسيد عبدالله بكر ، مدير المكتب الخاص بوزارة الخارجية من جملة حاضري هذه الحفلة ...

في ديوان وزارة الخارجية في بغداد

واخيرا صدر الأمر الوزاري بتعييني مديرا للدائرة القنصلية وعدت الى بغداد وباشرت وظيفتي الجديدةاعتبارا من صباح ١١ــ١١ــ١٩٣٥... كان رئيس الوزراء آنذاك المغفور له ياسين الهاشمي وكان نوري السعيد وزيرا للخارجية والسيد نصرة الفارسي مديرا عاما لوزارة الخارجيـــة ، وكنت عندئذ أعلى موظف بعد المدير العام في الوزارة . وبعد أشهرقليلة من تسلمي العمل أصدر المدير العام أمرا باعتباري مساعده ، وطلب الى جميع مديري الشعب في الوزارة أن تقدم ما لديهـــا مـــن مخـــابرات أو اقتراحات بوساطتي . وأنا بدوري اعرضها مع ما اراه مـــن ايضاحـــات وملاحظات على المدير العام . كانت العناصر التي تتألف منها اركـــان الوزارة ، من المع الشباب نشاطا وأكثرهم ثقافة ، واغزرهم علما ، وأتقنهم عملا ... فمدير الشعبة الغربية كان السيد يوسف الكيلاني ، ومديـــر الشعبة الشرقية السيد جميل السلام ، والمشاور الحقوقي السيد عبدالرزاق الشيخلي ، وكان الملاحظون والكتبة في مستوى جيد من الخبرة ... واذا ما قارناهم بزملائهم في الوقت الحاضر رجحت كفتهم على كفة زملائهـــم الى حد بعيد ...

وفي خلال هذه الفترة ، اقترح الاستاذ ساطع الحصري (١) تعييني مديرا عاما للمعارف ، وحظي الاقتراح بتأييد وتشجيع رئيس الوزراء ، ووافق عليه وزير المعارف المرحوم صادق البصام ، واستدعاني الهاشمي وأخبرني بالاقتراح وطلب الي مواجهة وزير المعارف في الموضوع ••• ذهبت الى صادق البصام ، فاستقبلني بقهقهة من قهقهاته المشهورة ، وقال : اهلا بالزميل الصديق •• سنعمل سوية اذن يدا بيد في ادارة شئون هذه الوزارة ، أنا وزير وانت مدير عام ••• قلت : هذا من حسن حظي ، وانا مغتبط وسعيد بذلك ••• وبعد ذلك اخذنا نتكلم في شتى الامور التي تخص وزارة المعارف وتباحثنا حتى في ميزانيتها ••• وتم الاتفاق بينه وبيني على ان يتقدم باقتراح الى مجلس الوزراء ليتخذ قرارا بتعييني مديرا عاما للمعارف واستصدار الارادة الملكية بهذا التعيين ••• وبعد أيام قليلة من هذا الاتفاق حصل خلاف بين صادق البصام والاستاذ الحصري ، وانقلبت الامور رأسا على عقب ، وتأجل اقتراح تعييني الى اجل غير مسمى •••

(١) كان الاستاذ الحصري وقتئذ مديرا عاما للاثار القديمة ، ومديرا عاما للتدريسات في وزارة المعارف .

انقلاب بكر صدقي

كان ذلك في صباح ٢٩ تشرين أول ١٩٣٦ وكنت في مكتبي في وزارة الخارجية ، وكانت الساعة حوالي ١١ــ١١،٣٠ ق٠ظ فاذا بصوت يدوي كصوت قنبلة او مدفع ... لم اعره أي التفاتة كانت في بداية الأمر ، واذا بنفس الصوت يتكرر مدويا في الفضاء بعد برهة وجيزة جدا ... وفي تلك اللحظة دخل علي عبد الرزاق الشيخلي زميلي وصديقي وقال : ماذا جرى ؟ وما سبب هذه الاخبار التي نسمعها ؟ .. قلت : اية اخبار تعني ؟.. أجاب : كيف لا تدري والقيامة قائمة والدنيا هائجة في بغداد ؟.. ثم قطع كلامه وخرج من غرفتي قلقا مضطربا ... والحقيقة انني كنت اجهل كل شيء حتى تلك الساعة ، ولم أكن اعرف ما يجري في خارج الدائرة في تلك الساعة الرهيبة من تاريخ العراق الحديث ، ولم أطلع على المناشير التي رمتها الطائرات العراقية ، ولم يخبرني احد بالقنابل التي القيت على دواوين الحكومة ... واخيرا دخل علي احد الموظفين وناولني المنشور الذي القته الطائرات على بغداد وهو يحمل توقيع الفريق بكر صدقي قائد القوات الوطنية الاصلاحية ... وفي المنشور ثلاثة مطاليب :

١ ــ الطلب الى جلالة الملك اقالة الوزارة القائمة وتأليف وزارة برئاسة حكمة سليمان .

٢ ــ الطلب الى الموظفين مقاطعة الحكومة « الجائرة » حتى تتألف الحكومة التي سيفتخرون بخدمتها .

٣ ــ التهديد باتخاذ تدابير فعالة ، لا يمكن في خلالها اجتناب الاضرار ، ضد من لا يلبي هذه الدعوة .

وبعد ساعات قليلة سمعنا أن الهاشمي قدم استقالته تجنبا لسفك الدماء وهذا نصها :

بغداد في ٢٩ تشرين أول ١٩٣٦

الى صاحب الجلالة الملك

مولاي المعظم ،

تعلمون جلالتكم بأن الوزارة الحاضرة سعت بكل قواها لتأمين النظام في البلاد والاخذ بجميع وسائل التقدم لايصال المملكة الى المستوى الذي يساعدها على القيام بالاعباء المنتظرة بالنسبة للظروف العالمية . الا انه ظهر أن قلة التجربة وبعض الاطماع قد طوحت بالمسئولين عن الدفاع عن هذه البلاد أن يقدموا على حركة اعتقد انها تؤدي الى نتائج غير محمودة . وبعد أن بحثت مع زملائي الموقف وان تراءى لي ان الرغبة متجهة نحو اجتناب تعرض البلاد الى خطر القلاقل الداخلية ، سارعت بالتقدم الى جلالتكم بقبول استقالتي من اعباء الوزارة سائلا المولى أن يأخذ بيد جلالتكم لتجنب الاخطار وأن يرشدكم الى ما فيه خير البلاد .

العبد المطيع : ياسين الهاشمي

وفي أثر قبول استقالة الهاشمي ألف حكمة سليمان وزارته على الوجه التالي :

جعفر ابو التمن للمالية　　　　ناجي الاصيل للخارجية

الفريق عبد اللطيف نوري للدفاع　　كامل الجادرجي للاقتصاد والمواصلات

صالح جبر للعدليــة　　　　يوسف ابراهيم للمعارف

اما وزارة الداخلية فاستبقاها حكمة سليمان في عهدته علاوة على رئاسة الوزارة ...

***

Hamad Khalifa

مصرع المغفور له جعفر العسكري

هنا يرتجف قلمي ، هنا تهيج عاطفتي ، هنا تشمئز نفسي من المخازي البشرية ، واكره نفسي لأنني أنتمي الى زمرة حيوانية ، فتاكة خائنة ، تدعى البشر ••• رجل لا يعرف الحقد الى قلبه سبيلا ، رجل لا يضمر لاصدقائه ورفاقه غير الود والاخلاص ، رجل لا يحمل للانسانية غير الحنو والوفاء ، رجل اذا رأى فقيرا عابرا رأف بحاله ومد له يده ، رجل اذا سمع بكاء طفل شفق عليه ، واغرورقت عيناه بدموع الرأفة والحنان ••• هو رجل الانسانية الفذ ، هو مثال الوفاء والاخلاص ، هو رمز المحبة والسلام ، هو انسان قبل كل شيء ، عاش للانسانية ومات في سبيل الانسانية ••• هذا هو جعفر العسكري الصديق الوفي ، ابو الجيش العراقي ورائده •••

كيف وقعت الجريمة

في مساء يوم الانقلاب المشئوم ، كنت استقبل ضيوفا في داري ، الى حفلة عشاء نظمتها تكريما لعمر نظمي ، متصرف الموصل انذاك . وكان في جملة المدعوين المغفور له جعفر العسكري ، خابرني قبل يوم قائلا : انني سوف لا اتمكن مع الأسف من الحضور الى العشاء ، لأنني مضطر الى حضور العشاء الذي سينظمه غدا وزير الخارجية تكريما لوزير الدفاع الافغاني ، ولكنني سآتي اليكم فور الانتهاء من عشاء وزير الخارجية لأقضي السهرة معكم ... حضر عدد من الاصدقاء في ذلك المساء الى داري ، واعتذر محمد زكي المحامي المرحوم وفخر الدين جميل بسبب الانقلاب . وقبل ان نبدأ العشاء دق جرس التلفون ، وتناولت السماعة وكان مخاطبي فخري الجميل يكلمني باللغة التركية ، وبصوت مرتجف مضطرب ، وقال لي : قتلوا جعفرا ... رموه بالرصاص !... انني عاجز وأيم الحق عن تصوير ما اصابني من الأسى والحزن في تلك الساعة المشئومة . لقد وقع الخبر علي كالصاعقة ، وارتبكت من هول الفاجعة ، صرت أضرب اخماسا باسداس ... كيف يكون ذلك ؟ .. هذا شيء يكاد العقل ان لا يصدقه ؟.. ومن يجرأ على قتل جعفر العسكري ،

تلك الشخصية المحبوبة لدى جميع اركان الجيش ، ليس قادته وضباطه حسب ، بل لدى افراده أيضا ؟.. ولماذا يقتل جعفر ؟.. وعلى م هذا الفتك بالرجال ؟... وفي أثر ذلك عدت الى الرفاق الى صالون الاستقبال صامتا مذهولا واخبرتهم والدموع تجري من عيني ، نبأ الفاجعة ... وعم الحزن وساد سكون رهيب على الحاضرين ...وبعد لحظات صرنا نحاول استقصاء الخبر اليقين من جميع اصدقاء جعفر واقاربه . حاولنا الاتصال بتحسين العسكري شقيق جعفر ولم نتمكن ، وكان تلفونه مشغولا طول الوقت . وسعينا الى محادثة نوري السعيد في داره ولم نفلح .. وأخيرا ، وبعد جهد جهيد ، تمكنا من مكالمة محمد زكي رئيس مجلس النواب تلفونيا ، وفهمنا منه ضمنا أن الخبر صحيح مع الاسف الشديد ...

والحقيقة انني شعرت في تلك اللحظات أن فرائصي ترتعد غيظا وحنقا مما اصابني من هول الفاجعة ، وساورني قلق شديد على حياة الهاشمي وبقية زملائه ... فاذا كان لا بد من القتل ، فاعتقد ان جعفر العسكري كان يجب ان يكون في آخر القائمة وليس في اولها . وما دام جعفر قد قتل فهناك اذن مؤامرة واسعة النطاق لاغتيال الآخرين ...

Hamad Khalifa

آلو آلو ياسين يتكلم

وتحت تأثير ما ساورني من القلق رأيت من الضروري ان ألفت انظار الهاشمي الى الحادث والى ما يمكن ان يكون ... واخذت سماعة التلفون بيدي وطلبت مركز بغداد (١) : (آلو ، بغداد ٥٢٩) ورد علي الموظف : بيت الهاشمي ؟ قلت : نعم حالا ارجوك ... وسمعت سماعة تلفون مخاطبي قد رفعت وصوت الهاشمي في اذني ..آلو ، آلو ، ياسين يتكلم ...

أنا ــ عفوا يا باشا أخشى انني قد صدعتك .. انا طالب مشتاق ..

الهاشمي ــ استغفر الله تفضل ...

أنا ــ تعلمون أن جعفر باشا قد ذهب الى معسكر الجيش اليوم بعد الظهر ولم يرجع لحد الآن ..

---

(١) لم يكن للتلفون الاوتوماتيكي وجود في بغداد حتى ذلك الحين وكان التكلم يتم عن طريق البدالة .

الهاشمي ـ نعم ، نعم أعرف ذلك ...

أنا ـ احببت أن الفت نظركم ...

الهاشمي ـ من اين تتكلم ؟...

أنا ـ من البيت ...

الهاشمي ـ أشكرك ... مع السلامة

أنا ـ مع السلامة يا باشا ... كانت هذه اخرة محادثة لي مـــع الهاشمي ، ولم اره بعد ذلك أو اسمع صوته ...

★ ★ ★

نعي الهاشمي

ذهبت بعد ظهر يوم الخميس ٢١ كانون ثان ١٩٣٧ الى زيارة صديق لي في احدى الدوائر الرسمية ، وما أن دخلت غرفته حتى صار ينظر الي بشيء من القلق ،وقال : اما سمعت ؟ قلت : ماذا ؟ قال : «لقد مات الهاشمي » ! وقفت جامدا في مكاني وكأن تيارا كهربائيا أصاب بدني ، وصرت أشعر أن رجلي ترتجفان وقواي تنهار شيئا فشيئا .. لقد اظلمت الدنيا في عيني وجمد دمي في عروقي ... كيف يموت الهاشمي ؟ كيف تنهار هذه الدعامة العراقية الكبرى ؟ كيف ينهد ركن الوطنية الحصين؟.. رباه .. اترتضي لهذه الامة كل هذه الرزايا ؟ أترضى لهذا الشعب مثل هذا الخسران الاليم ؟.. لقد مات الهاشمي فيا ارض العراق اندبي حظك .. ويا رجال العراق ابكوا ذخركم المفقود ، ويا ايتها الامة العربية اذكري تلك البطولة الخالدة في تاريخ نضالك الشريف ...

سمعت قبل بضعة اسابيع اخبار مختلفة عن مرض الهاشمي واجتيازه نوبات قلبية عنيفة ، وكنت في قلق على حياته . ولكن لم أظن أن هذا المرض سيقضي بهذه السرعة ، على حياة حافلة بجلائل الآثار

وخوارق الأعمال ... واسمعنا الراديو الفلسطيني في مساء ذلك اليوم تأبينا حزينا فهمنا منه ان الوفاة كانت في الساعة التاسعة صباحا في أثر نوبة قلبية شديدة الوطأة قاسى الفقيد منها أشد الآلام .. ولم ينس الناعي أن يذيع ان الفقيد لم يكن زعيما عراقيا حسب ، بل كان من ابطال الامة العربية الذين سجلوا في تاريخ النهضة الاستقلالية اعمالا مقرونة بالعظمة والمجد ...

كان المغفور له من أشد الناس تقديرا لي ، وكان يرعاني ويسدي الي كأب رؤوف وأخ شفيق وصديق مرشد ، نصائحه الثمينة بين حين وآخر ، زرته في مكتبه قبل الانقلاب باسبوع واحد ، وقدمت له بعض الاوراق الرسمية التي كلفني ان أنظر فيها وانجزها ولما مددت له يدي اصافحه مستأذنا الخروج قال : انتظر ، ومد يده الى احد ادراج مكتبه واخرج نسخة من صورته وسألني : ماذا تريد أن أكتب عليها ؟ أكتب الى ولدي ، أم الى اخي طالب مشتاق ؟ .. اجبته أنت ابي واخي يا باشا ، اكتب عليها : الى طالب مشتاق وكفى !.. كتب هذه العبارة عندئذ في أسفل صورته ووقع عليها وقدمها لي .. وشكرته على هذه الالتفاتة الكريمة منه وعدت الى عملي في وزارة الخارجية . انني لا ازال احتفظ بهذه الصورة ، وهي تزين احد اركان غرفة الاستقبال في دارنا كأثمن تذكار من الهاشمي الي !...

الحكومة لا تعارض

في نقل الجثمان الى بغداد ، ولكن ؟

استفسر العميد طه الهاشمي ، شقيق المغفور له ، عما اذا كانت الحكومة العراقية لا ترى بأسا في نقل الجثمان الى بغداد ، وكان الجواب: الموافقة على نقله بشرط أن لا يرافقه العميد طه الهاشمي ... ثم اتصل بالحكومة أن وفدا مؤلفا من رجال سورية العظام فيهم كل من السيد فائز الخوري ، وعادل العظمة ، وفخري البارودي ، وبعض الشباب من ذوي القمصان الحديد سيرافق الجثمان الى بغداد ، فجفلت وامتعضت من هذا النبأ ، وقررت ان تحول دون مجيء الوفد مهما كلف الامر ... وكيف يروق لها ان يكون مثل هذا الاهتمام ومثل هذا الاحتفال بجثمان ذلك الخصم العنيد ، وهي لا تريد ان تدفنه الا كما يدفن الغرباء والفقراء في تربة الاعداء ؟... كيف يجوز اذن قبول هذا الوفد المقبل من بلد مؤمن بعبقرية الهاشمي واخلاصه ووفاء الهاشمي وعظيم اعماله ؟.. اجتمع مجلس الوزراء على عجل وقرر منع دخول هذا الوفد الى ارض العراق بأية طريقة كانت وبأي شكل كان ... وفي أثر ذلك ابرقت وزارة الخارجية

الى قنصليتنا في بيروت معتذرة عن امكان قبول الوفد في الظروف الراهنة ، وطلبت الى القنصلية ان تبلغ اعضاء الوفد ان لا يتجشموا مشقة السفر ... الله ، الله ، متى كان فائز الخوري وعادل العظمة وفخري البارودي من الشخصيات غير المرغوب فيها في ارض العروبة وفي هذا الجزء من الوطن العربي العام ؟.. وبأي وجه يقف قنصلنا في بيروت ويقول لهذه النخبة الصالحة من ابناء عاصمة الامويين : « عفوا ايها السادة لا يسعني أن امنحكم السمات لدخول ارض العراق ، واذا تصديتم لاجتياز الحدود دون تأشيرة سيقف رجال الشرطة العراقية في وجوهكم ويعيدونكم الى حيث كنتم ... » .

ان الحكومة السورية بعد أن رأت هذه الخصومة السافلة التي لم يترفع عنها رجال الحكم في العراق ، أبت أن تترك جثمان الرجل الكبير بين ايدي خصوم ضعيفي النفوس والاخلاق ، جبناء يخشون حتى نعوش الموتى واشباح الشهداء ، وقررت أن يدفن الهاشمي في دمشق ، المدينة التي أحبت ياسين واستقبلته هاشة باشة في حياته ، ثم استقبلته كئيبة ، حزينة بعدما اصبح جثة هامدة في صندوق ضيق من الخشب ... ونادى رئيس وزراء سورية : « ايها العالم العربي لا تحزن ، لقد اعددنا للهاشمي قبرا بجوار قبر صلاح الدين تكريما لبطولته وتخليدا لرجولته !... »

مات محمد زكي أيضاً (١)

ان قلبي لا يزال يرتجف ، ودموع عيني لم تجف من هول الفاجعة التي مني بها العراق بموت الهاشمي . وقد كنت أجد بعض السلوى والعزاء بجانب محمد زكي الصديق العزيز ، أبثه آلامي وافرغ له ما في قلبي من هموم وحسرات على ذلك الضياع الفادح الذي لا يمكن تعويضه بشيء ... فما بال الزمان الغدار يأبى الا ان ينزل النكبة فوق النكبة ، والخسارة تلو الخسارة بهذه البلاد ؟... ماذا عملنا يا رب ، حتى أنزلت غضبك علينا ، هذا الغضب الجبار ؟ ... اندفن زكي المحامي ، بعد ان نواري التراب على جثمان الهاشمي ؟... انبكي زكيا ولا تزال اعيننا دامعة على مصرع جعفر العسكري وموت ياسين الهاشمي ؟... سرت وراء نعش الصديق العزيز ، وادوارزكي وحياته تمرامام عيني كما تمر الصورعلى الشاشة البيضاء ... زكي الذي عرفته طالبا في كلية الحقوق قبيل الحرب العظمى ، وزكي ضابط الاحتياط الذي التقيت به في الاستانة في اواخر ايام الحرب ، وزكي المحامي في البصرة سنة ١٩٢٤ ، وفي الاخير .. زكي نائب البصرة ، فوزير العدلية ، فرئيس المجلس النيابي ، في وزارتي

(١) شيع جثمان المرحوم في يوم ٢٦ كانون ثان ١٩٣٧ .

الكيلاني والهاشمي ، فزكي المحامي الأبي والوفي لصديقه وزميله الهاشمي بعد مؤامرة ٢٩ تشرين اول ••• لقد عرفت زكيا في جميع هذه الادوار صديقا وفيا مخلصا ، يذود عن الحق ويصرخ في وجه الظالم ، ويكافح في سبيل المصلحة العامة ، من غير ان تأخذه في الحق لومة لائم ••• نفسا كبيرة أبية ذات ميزات سامية ، وسجية فريدة نادرة •• روحا خفيفة تسيل رقة وعطفا •• اخلاقا متينة لا تؤثر فيها عاديات الدهر الخؤون ، علما غزيرا تعززه تجربة قيمة ••• هذا هو زكي الذي ودعته الجماهير الغفيرة بقلوب دامية بالأسى ، وعيون دامعة بالحزن والألم ••• زرته في يوم الجمعة (الموافق ٢٢ كانون ثان ١٩٣٧) وكان طريح الفراش يشكو الما في كبده ، فاستقبلني بثغر باسم فاتر ، ينم عما في قلبه من ألم وجزع • ولم أكد اجلس على كرسي بجانبه حتى نظر الي نظرة حزينة ، وقال : « خسارتنا كبيرة بموت الهاشمي ••• هذه خسارة لا تعوض ••• لقد صدمتني هذه الفاجعة ••• » ثم سكت••وأطرقت رأسي من شدة المي ولم اجبه بشيء••• ولم يكن يخطر ببالي ان لقائي مع هذا الصديق هو اللقاء الأخير •• ألا رحمة الله على روحك الطاهرة يا خير الاصدقاء •••

فصل الختام

سفر الفريق ، اغتيال بكر صدقي والمقدم الطيار محمد علي جواد

اكتظت محطة باب المعظم مساء الثلاثاء الموافق ١٠ آب ١٩٣٧ بجمهور كبير من المودعين : رئيس الوزراء ، الوزراء ، كبار الموظفين من العسكريين والمدنيين ، بعض رجال السلك الدبلوماسي ، وعدد كبير من النواب والاعيان ، فيهم المتبصبص المداهن ، والمخلص الصادق ، والمتمني سفرا دون اياب ، او ايابا متوجا باكاليل الفوز والنجاح .. والفريق يبش لهذا ويهش لذاك ، ويحادث هذا ، ويلاطف ذاك ، حتى دق الجرس وسافر القطار ، وانفرط عقد المودعين .. وساد سكون الليل ، وخيم الظلام ، وازدادت سرعة القطار ، واخذ يطوي الارض طيا حاملا القائد الذي كانت المنون في انتظاره في مطار الحدباء ... كانت نيته ان يتغيب عن العراق شهرين ، واتخذ كل ما يلزم من الحيطة والاستعداد كي لا يقع في اثناء غيابه ما يكهرب الجو ويكدر الصفاء في جو بغداد .. كان مرتابا من وجود المقدم اكرم مشتاق آمر معسكر القوة الجوية في بغداد فاختلق له عملا يبعده عن العراق ، وصدرت الاوامر بسفره الى روما في مهمة

تخص الطيران • •وكان لا يأمن جانب اللواء حسين فوزي ويرى خطـرا جسيما في بقائه في بغداد ، فتدارك الأمر واتخذ ما يلزم لاجتناب شره ••• وهل من مراقبة اكمل من استصحابه في ركابه وأخذه في معيته . •• اما في سائر دواوين وزارة الدفاع ، فقد اجريت الترتيبات الكاملة استمرارا لسير العمل وفق ما يتطلبه ويتوخاه •••

كان الفريق بكر صدقي يتخيل بلا شك ما سيلقاه من احتفاء واهتمام في أثناء حضوره المناورات العسكرية التي ستجري في تركية ، وكـان يشعر بشيء من الغرور عندما يتخيل استقبال أتاتورك اياه واحتشاد القواد الأتراك ورجالهم واحتفاءهم به ••• ها أن همساتهم تصل الى اذنيه وهو في حافلة القطار ••• « هذا هو الذي اسقط وزارة الهاشمي بين عشية وضحاها •• هذا هو الذي شرد رجال العـراق من العـراق فـي بضع ساعات •• هذا هو الذي أجلس حكمة سليمان وزملاء حكمة على كراسي الحكم بأمر سريع قاطع لا يقبل أي تردد كان ••» ثم يفكر في زيارتـه المقبلة الى المانية واجتماعه بالهر هتلر ، وما سيراه من انظمة النـازي وتعاليمهم ، وما سيقتبسه من هذه الانظمة والتعاليم ، وما سيطبقه منها في العراق • •ويلمع بريق عينيه ، وتنبسط اسارير وجهه من شدة الفرح ونشوة الظفر •••

وبينما كان القطار يطوي الاميال ويقرب المسافات كانت حركة غير عادية تدب بين الضباط ورجال الجيش في الموصل ••• وكانت محادثات وكانت اجتماعات ، وهمسات في الآذان : « سيقتل الفريق بكر صدقي حتما •• رتبت الخطط ، ونظمت المناهج ، وسيتم كل شيء في ثلاث دقائق ان شاء الله » •••

وفي صباح ١٢ آب ١٩٣٧ كنت مارا بشارع الامام الاعظم . ولما وصلت الى قرب بناية وزارة الخارجية ، رأيت حركة غير عادية هناك .. لقد رش الشارع ، ولاحظت أن الرش انتهى في مقبرة باب المعظم ، وشاهدت جنودا اصطفوا على جانبي الطريق ، وفرسانا من الشرطة على طول الخط ، فلفت نظري هذا المنظر وصرت افكر بما عسى أن يكون سبب هذه المراسم ؟.. وبينما كنت غارقا في التفكير واذا بشرطي وزارة الخارجية يتقدم نحوي ويقول : أما سمعت يا سيدي قلت : ماذا ؟..قال : قتلوا بكر صدقي ومحمد علي جواد في الموصل ... بهت لهذا الخبر غير المنتظر ، وأسرعت الى احد الاصدقاء فورا وفهمت كل شيء منه كما وقع ... وفي تلك الاثناء سلمني صديق آخر ورقة مطبوعة ، كانت البيان الذي نشرته الحكومة في نعي الضحيتين الاخيرتين من ضحايا حركة ٢٩ تشرين أول ١٩٣٦ وهذا نصه :

* * *

بيـــان رسمي

تنعى الحكومة العراقية بمزيد الأسف ، كلا من المرحومين الفريـــق السيد بكر صدقي رئيس اركان الجيش ، والمقدم محمد علي جواد آمر القوة الجوية في حادث وقع لهما خلاصته : أنه بينما كانا جالسين قبيل غروب امس في ميدان الطيران بالموصل اذ هجم احد الجنود على الفريق السيد بكر صدقي واطلق عليه بضع رصاصات اردته قتيلا •• ولما حاول السيد محمد علي جواد ان يحول بينهما اطلـــق علـــيه الجندي الرصاص أيضا فخر صريعا • وقد قبض على الجندي القاتل في الحال والتحقيقات جارية لمعرفة الاسباب •

التوقيع مدير الدعاية والنشر

على هامش الأحداث في وزارة الخارجية

قبيل مقتل بكر صدقي بشهر واحد او أكثر لا أتذكر ، وصل الى بغداد وفد تركي برئاسة الدكتور توفيق رشدي آراس وزير الخارجية التركية وعضوية السيد جلال بايار وزير الاقتصاد يومئذ (١) ، ومدير بنك سومر ، والسيد رفيق عامر مدير المكتب الخاص بوزير الخارجية التركية . وقد طلب الي السيد حكمة سليمان أن اسافر الى كركوك لاستقبال هذا الوفد والترحيب بمقدمه نيابة عنه ، وسافرنا المرحوم طاهر لطفي الوزير المفوض التركي ، وأنا في قطار خاص الى كركوك حيث كان الوفد مقبلا عليها من الموصل بالسيارات ، وذهبنا ومعنا السيد حسام الدين جمعة (٢) الى مكان يبعد بضع كيلو مترات عن كركوك ... ولما وصل الوفد ، تقدمت اليه ورحبت به باسم رئيس الوزراء وتمنيت له طيب الاقامة في العراق ، البلد الجار الصديق لتركية ... عانقني الدكتور توفيق رشدي آراس رئيس الوفد عناقا اخويا نظرا الى سبق معرفتي به في أنقرة والى ما بيننا من روابط المحبة والصداقة ، ثم صافحت

---

(١) رئيس الجمهورية التركية الاسبق

(٢) متصرف كركوك يومئذ ووزير الداخلية بعد ذلك

بقية اعضاء الوفد ، وتم التعارف بين المستقبلين والزائرين ،واخيرا عدنا الى دار الاستراحة الخاصة بالسكك الحديد ، وفي المساء تحركنا الى بغداد في القطار الخاص نفسه فوصلنا اليها في صباح اليوم التالي ... وقد كلفني رئيس الوزراء أن ابقى في معية الوفد طوال مكثه في بغداد . وأرافقه في اثناء تجواله كـ «مضيف» نظرا لمعرفتي السابقة باعضائه واتقاني اللغة التركية اتقانا تاما .

كان الوفد المذكور قد أتى الى العراق لاجراء مفاوضات تتعلق بعقد ميثاق سعد آباد ، ونجحت مفاوضاته مع الحكومة العراقية ، وغادر بغداد متوجها الى طهران . وبعد ذلك بأيام سافر وزير خارجيتنا الى طهران ، ووقع على الميثاق باسم الحكومة العراقية . وهكذا ظهر للوجود ميثاق سعد آباد الذي تم الاتفاق عليه من قبل حكومات تركية ، العراق ، ايران ، افغانستان ...(١)

٢) اجتماع بكر صدقي : الدكتور توفيق رشدي آراس

كان الخلاف يزداد يوما بعد يوم بين رئيس الوزراء ورئيس اركان الجيش ، ولكن كلا منهما يتجنب الصدام بالآخر ويبذل في هذا السبيل جهودا مضنية . ان رئيس اركان الجيش يريد ان يكون الكل في الكل في ادارة الدولة ، أليس هو الذي دبر خطة الانقلاب ونفذها ؟.. أليس هو الذي طلب الى الملك ان يكلف حكمة سليمان بتأليف الوزارة ؟.. لماذا لا يصدع اذن رئيس الوزراء بأوامره او ينقاد الى مشيئته ورغباته ؟

(١) قدم لي الدكتور توفيق رشدي آراس رئيس الوفد قبيل مغادرته بغداد ساعة جيب ذهبية ثمينة مطعمة بالميناء ، ولا ازال احتفظ بها كأعز الهدايا ومن اثمن الذكريات ...

... اما حكمة سليمان فقد عانى كثيرا من طغيان بكر صدقي وجبروته ، وكان يكظم غيظه من سوء سلوكه ونزواته . كان يرى ان الجيش انجز مهمته ، وعليه ان يعود بعد الآن الى معسكراته وثكناته لا سيما ورئيس اركان الجيش يتحمل مسؤوليات جسيمة في الادارة ، والتعبئة العامة . وسوق الجيش ، وتسليحه ، وغيرها من الامور التي لا تترك له مجالا للتدخل في السياسة التي هي من اختصاص رجال الحكم المدنيين وحدهم ... ويظهر لي أنه شكا للدكتور توفيق رشدي آراس هذا الوضع ورجاه ان ينصح بكر صدقي كي يبتعد عن المداخلات السياسية ويكرس وقته وجهده في انجاح مهمته وواجباته العسكرية وكفى !.. وعلى هذا الاساس تمت المقابلة بين وزير الخارجية التركي ورئيس اركان الجيش العراقي ...

ولقد رافقت الدكتور توفيق رشدي آراس الى بيت بكر صدقي الواقع على طريق معسكر الرشيد (١) . وكان بكر صدقي قد استقبل الوزير التركي من الباب الداخلية المطلة على بهو الدار (الهول) وسارا سوية الى غرفة الاستقبال . اما أنا فقد رأيت من اللياقة ان اتأخر عنهما لاترك لهما مجال الحديث بحرية وصراحة ، ولما رأى الدكتور آراس تخلفي استدعاني وطلب الي أن أكون معهما .

جرى الحديث بينهما في باديء الامر في حدود المجاملات العادية : من ترحيب ، وحسن تمنيات ، وعلاقات الجوار والصداقة القديمة بين الاتراك والعراقيين ، والمناسبات التاريخية والدينية التي تربط البلدين بأوثق الروابط وامتنها ، وغير ذلك من الكلام الذي يجري في مثل هذه الظروف والاحوال ... الا أن الدكتور توفيق رشدي آراس ، بعد

(١) دار مزاحم الباجه‌جي .

مناورات لبقة ومداورات حاذقة انتقل الى الحديث عن السياسة والجيش ، وأخذ يقص عليه بعض الوقائع التي جرت في تركيا بعد انقلاب ١٩٠٨ ، وكيف أن الاحوال اخذت تسوء في البلاد من جراء مداخلة الجيش في امور الدولة ، واخذ التذمر يعم بين الناس ، والاختلاف يشتد بين المدنيين والعسكريين وما نتج عن ذلك من هزائم شنيعة في حروب البلقان وطرابلس الغرب ، الى غير ذلك من عواقب وخيمة أدت في الختام الى انقراض الدولة العثمانية بعد الحرب العظمى الاولى وقيام الجمهورية التركية الفتية على يد بطلها أتاتورك ... وواصل كلامه أن جمهوريتنا قامت على اكتاف رجال الجيش التركي ، بعد تضحيات كبيرة لا تعد ولا تحصى ... ولكن بعد استقرار الوضع ، عاد الجيش الى ثكناته وتألفت في البلاد حكومة المجلس الوطني الكبير التي أخذت على عاتقها ادارة دفة البلاد بكامل مسئولياتها ... والمشير فوزي جاقماق ، رئيس اركان الجيش التركي يعد قائدا مثاليا في التجنب عن المشاركة في السياسة ، وفي الابتعاد عن أية مداخلة في شئون الدولة ، مما لا تمت بصلة الى امور الجيش ... كان الوزير التركي يتكلم والقائد العراقي ينصت اليه بكل مشاعره ، ومع ذلك لم يجبه بكلمة واحدة .. كان جالسا امام الوزير كأبي الهول صموتا وصمودا ... انتهت الزيارة وخرجنا من الدار ، وخرج بكر صدقي معنا حتى حديقة الدار الأمامية ، وفي أثناء الطريق التفت الي الدكتور آراس وقال : انه عسكري صلب وقائد لا يلين ... أرجوك ان تنقل كل ما جرى بيني وبينه من حديث الى رئيس الوزراء ...

٣) العراق في حفلة تتويج ملك الانكليز

مهزلة هي تلك القصة التي نسميها بتمثيل العراق في حفلة تتويج ملك الانكليز ... مهزلة لكنها من المهازل التي تبكي ولا تضحك ،وتحزن

ولا تبهج • دور تمثيلي أشبه بالكوميدية منه الى الدراما ، لا بل أقرب الى الدراما منه الى الكوميدية • دور تمثيلي لا تقوم به احدى الفرق على مسارح الاوبرا او دور التمثيل ، وانما يمثل على مسرح وزارة الخارجية في ايام النكبة ••• ويقوم بالدور الرئيسي في هذه التمثيلية الدكتور ناجي الاصيل وزير خارجية الانقلاب المشئوم •• ولو قرأ هذا الفصل شخص يعيش في خارج العراق لاتهمني بالكذب الشنيع ، واذا اراد ان يجامل يصفني بمبالغ خبيث • اما قرائي من العراقيين ، فلا أدري اذا كانوا سيصدقونني في كل ما سأرويه ، أو يعتبرونني أمزج الحقيقة بشيء من الخيال وأخرج لهم نوعا من الحديث هو بين الكذب واليقين ؟• وعلى كل احمد الله على ان قصتي واقعية تشهد بصحتها سجلات وزارة الخارجية واضبارات السفارة البريطانية في بغداد وملفات السفارة العراقية في لندن ، ومن وجد فيما أرويه كلمة محرفة او زائفة له مني ما يطلبه وما يريد •••

كان المقرر أن تجري مراسم تتويج جلالة ملك الانكليز في احتفال عظيم يشارك فيه (كما هو المعتاد) ممثلو الملوك ورؤساء الجمهوريات والحكومات في يوم ١٢ مايس ١٩٣٧ • وكان طبيعيا ان يكون للعراق نصيب في هذا التمثيل نظرا الى روابط الصداقة والتحالف بين العراق وبريطانية ، وبعد التأمل في الاشخاص الذين سيتألف منهم الوفد العراقي في ذلك الاحتفال الباهر تقرر في عهد وزارة المغفور له ياسين الهاشمي :

أ ــ ان يتألف الوفد من الامير زيد وزير العراق المفوض في برلين ممثلا لجلالة ملك العراق ، والسيد علي جودة الايوبي وزير العراق المفوض في لندن ممثلا للحكومة العراقية ، واحيطت السفارة البريطانية في بغداد علما بأسماء اعضاء الوفد العراقي والسفارة بدورها بلا شك بلغت المراجع المختصة في عاصمة الانكليز ذلك ••• ولكن بعد ان

حلت نكبة ٢٩ تشرين اول في العراق ، وتألفت الوزارة السليمانية ، وتسلم الدكتور ناجي الاصيل وزارة الخارجية رأى أنه لا بد من اجراء تغيير في الوفد المقرر ، اذ كيف يجوز ان يحرم وزير الخارجية من شرف التمثيل في هذا الوفد ؟.. ثم ان علي جودة الأيوبي وزير العراق المفوض كان قد نقل الى مثل وظيفته في باريس وعين بدلا عنه السيد رؤوف الجادرجي . واذا كانت هناك ضرورة للتغير في اعضاء الوفد . وما دام التغيير ضروريا ليكن اساسيا . ان الدكتور الأصيل لا يرتاح بطبيعته الى الامير زيد ، ولا بد ابدا من ترتيب يكفل وجود الأصيل في الوفد ، ويبعد الامير زيد منه ... وجرت مـداولات ، وحدثت مناقشات وتقرر في الاخير ان يتألف الوفد من :

ب ـ سمو الأمير عبدالاله ،وزير الخارجية الدكتور ناجي الأصيـل ، ووزير العراق المفوض في لندن السيد رؤوف الجادرجي ... وبعدما تقرر تأليف الوفد بهذا الشكل اقترح أن يضاف اليه السيد توفيـق السعدون مدير تشريفات وزارة الخارجية آنذاك ... وطيرت برقية الى المفوضية العراقية في لندن منبئة اياها هذه الاضافة بقصد اعداد مكان لاقامته في دار المفوضية العراقية في لندن .. وورد جـواب المفوضية بأنها مستعدة الى اعداد مكان لمبيته بالقـرب مـن دار المفوضية ، والمغزى الذي تحمله هذه البرقية مفهوم طبعا .. وكـان الشكل الثالث للوفد هو :

جـ ـ سمو الأمير عبدالاله ، الدكتـور ناجي الأصيل ، السيـد رؤوف الجادرجي ، السيد توفيق السعدون ... وبعد فترة قصيرة من هذا القرار فكر الدكتور مليا في الموضوع ، ثم تخيل (بكنغهام بالاس) في لندن والعظمة المتجلية في سلالمه والابهة البارزة في ردهاته وقاعاته ، فأنتقض حنقا وغيظا وصاح : لماذا لا أحمل عنوان الرئاسة في هـذا

الوفد ؟••• ولكن عاد الى نفسه بعدئذ وفكر بسمو الامير عبدالاله•••
واقنع نفسه أنه ليس في الامكان أن يتقدم على سموه ، وسموه ابن عم الملك ، وابن جلالة المغفور له الملك علي ، وحفيد الحسين ، وابن بنت رسول الله (ص)•• اذن ما العمل ؟ من يدري •• ربما التجأ بعد ذلك الى استشارة هذا ، واخذ رأي ذاك من بعض مستشاريه ومعتمديه ••• وأخيرا صاح ، كما صاح ارخميدس عندما اكتشف قانون الأجسام الغاطسة : وجدتها••• وجدتها ••• (ليكن سمو الامير عبد الاله ممثلا لجلالة الملك وكفى ••• ولأكن أنا رئيس الوفد الذي يمثل حكومة العراق !!•) وفتح باب المخابرة من جديد ، وكانت محادثات ، وكانت مفاوضات ••• وانتهى الأمر بتطمين رغبات الدكتور الوزير وتألف الوفد للمرة الرابعة هكذا :

د ـ سمو الامير عبدالاله ممثلا جلالة الملك ، الدكتور ناجي الأصيل رئيسا لوفد الحكومة ، السيد رؤوف الجادرجي عضوا في الوفد ، السيد يوسف الكيلاني سكرتيرا••• وبعد أن تم القرار على هذا برزت للميدان فكرة جديدة •• لم التفريق بين ممثل جلالة الملك وممثلي الحكومة ؟ ان الوفد يجب ان يكون وحدة لا تتجزأ •• وهنا انتصب الدكتور الأصيل وقال : « حسن ، حسن ، جدا حسن •• هذا هو الحق بعينه •• الوفد واحد •• الوفد لا يتجزأ » ••• وسكت لحظة ، ثم انبرى الى الكلام وقال : « اليس من الممكن رفع هذا الحمل الثقيل عن عاتق سمو الأمير عبد الاله وتخليصه من عناء السفر ؟••» ورد هو بنفسه على نفسه : «نعم ، نعم يجب ان لا فكلف الامير يمثل هذه المشاق ؟••» وعجل بالذهاب الى مقابلة رئيس الوزراء، وجرى حديث وجرى نقاش ، وعاد الأصيل الى الوزارة وثبت اعضاء الوفد على الورق للمرة الخامسة هكذا :

هـ ـ الرئيس : الدكتور ناجي الأصيل ، العضو : السيد رؤوف

الجادرجي ، العضو : السيد يوسف الكيلاني ... وقيل أن هذا الترتيب نهائي لا يقبل أي تغيير أو تحوير ... وعلى ذلك أقره مجلس الوزراء وابلغت السفارة البريطانية في بغداد أيضا هذا القرار ...

ولكن آه من رؤوف الجادرجي لا أدري لماذا يحاول احباط كل مشروع يقوم به الدكتور الأصيل ؟.. انه لم يطلع على الترتيب الاخير للوفد العراقي حتى ثار ثائره وغلى دمه في رأسه ... « هذا لا يجوز هذا لا يمكن ابدا ، لا أحتمل ازدراء الناس بنا الى هذا الحد .. أيرسلون عضوا في الوفد بدرجة سكرتير ثالث ، ودول العالم كلها تنتدب الامراء واعاظم الرجال من ملكيين وعسكريين ؟ لا أشارك أبدا في وفد لا يكون اعضاؤه في درجة الوزراء ...» وعندما اطلع الدكتور ناجي الأصيل على رأي رؤوف الجادرجي هز رأسه وصك اسنانه ، وقال : « حسن ، حسن ، جدا حسن ...» وركض الى رئيس الوزراء ينبؤه الحدث الجديد ، ولما عاد الى مكتبه كانت بيده قائمة جديدة هي السادسة من نوعها باعضاء الوفد الجديد ، وتتألف من : الرئيس : الدكتور ناجي الأصيل ، والعضوان هما : السيد رؤوف الجادرجي والسيد علي جودة الايوبي ، والسكرتير يوسف الكيلاني ...

ولم تمض على هذا الترتيب الا بضعة أيام ،حتى أجرى تغييرا آخر فيه ، حيث استبدل الأيوبي بالسيد ناجي شوكة وزير العراق المفوض في أنقرة ، واصبح الوفد في شكله السابع كما يلي :

ز ــ الرئيس : الدكتور ناجي الأصيل ، العضوان : السيد ناجي شوكة والسيد رؤوف الجادرجي والسكرتير السيد يوسف الكيلاني .

وبينما يتهيأ الدكتور لاستكمال اسباب السفر ، واذا ببرقية ترد من رؤوف الجادرجي يعتذر فيها عن المشاركة في وفد التتويج لاسباب صحية !!.. وفي برقية اخرى يحذر الموما اليه وزير خارجيته من المجيء الى لندن برئاسة الوفد العراقي ، ويقول بصراحة مكشوفة: انه يتوقع ان تثير الصحف الانكليزية بعض قضايا تخص الدكتور ناجي الأصيل نفسه ، وعلاقته ببعض الحوادث عندما كان مقيما في لندن ، وكيفية خروجه منها (١)... وهنا تسكب العبرات ، ها أن عيني ناجي الأصيل تحمران وتكادان تخرجان من محجريهما ، وأوداجه تنتفخ غيظا وحنقا ، وها ان شفتيه تزرقان وترتجفان من شدة الصدمة ،وأصبح وجهه اشحب لا دم فيه . ومن ينظر الى وجه الأصيل في تلك اللحظة ، يزعم انه امام قديد جامد لا أثر فيه للحياة . ولما وصلت الانباء الجديدة الى مسامع رئيس الوزراء حكمة سليمان، ضرب يده على مكتبه بشدة وعنف وصاح بملء صوته :« كفى هذه المهازل ، كفى هذه الالاعيب ... لا وفد ولا بطيخ ... »» وبعد ذلك اعطى القرار الاخير وهو الثامن من نوعه :

ح ـ السيد رؤوف الجادرجي وحده يمثل العراق في حفلات التتويج...

وكان الدكتور الأصيل قد كتب الى لندن كي يوفدوا اليه وهو في باريس أشهر خياط على أن يكون هناك في يوم ٤ ايار ١٩٣٧

---

(١) كان الدكتور ناجي الأصيل ممثلا للحكومة الحجازية في لندن ، وفي أثر الحوادث التي جرت بين الملك حسين والملك عبد العزيز بن السعود ، وانتهاء الحوادث باستيلاء ابن السعود على الحجاز اصبح الدكتور الأصيل دون عمل في لندن . وبدأت تظهر عليه اطوار غريبة وتصدر عنه تصرفات شاذة اضطرت الحكومة البريطانية الى اخراجه من البلاد قسرا ...

ليخيط له ما يحتاج اليه من ملابس رسمية للحفلات . ولكن شاء القدر أن تخيب الأماني وتضيع الآمال .. ولا يسعني هنا وقبل ان اختتم هذا البحث الا ان اشير الى قضية (البنطلون) الذي أوصى السيد يوسف الكيلاني بخياطته في بغداد ، فهي والحق آخر فصل في هذه الكوميدية ... فقد أوصى يوسف بصنع (بنطلون) بديع يلبسه في احتفالات التتويج ، وعندما كمل (البنطلون) كان كل شيء قد انتهى ، وكان الوفد العراقي قد دخل في خبر كان ... وغضب يوسف على هذه النتيجة وأبى أن يدفع ثمن (البنطلون) ورأى أن الواجب يقضي على وزيره أن يدفع الثمن ... وصارت قائمة الحساب ترد الى يوسف فيرسلها الى الوزير ، والوزير بدوره يعيدها الى السيد يوسف مدعياً انه غير مكلف بدفع الثمن .. وبقيت الحال على هذه الصورة اياما عديدة لست ادري بعدها ، حتى يومنا هذا ، كيف انتهت المشكلة وماذا حل بالبنطلون (طايح الحظ) !!!.

٤) **كدت أقع في المصيدة مرتين !**

تشاءمت منذ الساعة الاولى من انقلاب بكر صدقي من عواقبه واصبحت من مخالفيه المتمردين عليه ، الناقمين على القائمين به ... وأخذت أتعقب خطوات الوزراء والنواب والصحفيين ومؤازريه في كل يوم ، لا بل في كل ساعة . وعزمت على تدوين مذكرات بكل ما أرى وأسمع واقرأ مما له علاقة بالانقلاب ورجاله .. وهكذا استحضرت دفترا ضخما لهذه الغاية دون فيه كل يوم ما لدي من معلومات في هذا الموضوع ... وفي أحد الايام ، بينما كنت منهمكا في تدوين بعض الملاحظات في هذا الدفتر واذا بالفريق بكر صدقي يفتح باب غرفتي في وزارة الخارجية ويدخل علي ... اسرعت في غلق الدفتر ، وقد اصابني

شيء من الارتباك ، ووقفت مرحبا بمقدم دكتاتور زمانه ••• ويظهر أنه لاحظ حركتي السريعة في طي الدفتر والارتباك الذي ظهر علي ،فسألني : « انك مشغول في الكتابة ؟•» قلت: أي والله ، ان كتابي (المعلومات المدنية والاخلاقية) قد نفذت نسخه وطلبت الي وزارة المعارف اعادة طبعه، وأنا منشغل في بعض تعديلاته ، واضافات عليه ••• ولله الحمد أنه اكتفى بهذا القدر من الايضاح ، وانتقل الى الموضوع الذي جاء من اجله ••• انه كان شديد الاهتمام بسفره الى تركية فأخبرني موعده ، وسألني الاجراءات التي تمت في هذا الامر ، وطلب الي الاسراع في الحصول على السمات المطلوبة لجواز سفره •• أخبرته ان كل شيء يجري في مجراه الطبيعي ، وان معاملة الجوازات ستنتهي غدا على كل حال ••• نهض بعد ذلك وودعني شاكرا وغادر مكتبي ، فأعاد الى نفسي الاطمئنان بعد الاضطراب ، والى قلبي الهدوء بعد القلق والارتياب ••• وهكذا أفلت من المصيدة ، وأنقذني الله من شر مستطير •••

لقد كنت أخشى أن احتفظ بمذكراتي (١) في بيتي تجنبا للمحاذير العديدة ••• قد تسرق ، وقد تضيع ، وقد تكبس داري في أثر اخبار من حاقد لئيم ••• لذا كنت احفظها في داخل الوزارة ، في الصندوق الحديد الذي كان في حوزة عبدالله بكر الصديق الكريم مدير المكتب الخاص بوزير الخارجية يومئذ ••• وفي ذات يوم دخلت الى غرفة عبدالله بكر وبيدي دفتر المذكرات ، وكنت أتيت به لأحفظه في الصندوق

(١) طبعت هذه المذكرات في عهد وزارة المدفعي التي اخلفت وزارة السيد حكمة سليمان بعنوان «ايام النكبة» دون ان أضع اسمي عليها . وقد قلت انها من مذكرات دونها قراقي في بغداد اثناء قيام حكومة حكمة سليمان فيها . ومن الغريب ان وزارة المدفعي منعت مذكراتي هذه ولم تدخل الى العراق منها الا نسخ معدودات عن طريق التهريب .

الحديد ، فجوبهت ببعض الضباط الذين هم من جماعة بكر صدقي فيهم الرئيس غالب عريان والرئيس اسماعيل عباوي (١) وكان يجلس بينهما السيد حكمة الجيبه‌جي ملاحظ وزارة الخارجية في ذلك الحين ... ان حكمة الجيبه‌جي كان من أحب الاصدقاء وأقربهم الي . وكنت ائتمنه في جميع اسراري واطلعه على كل اعمالي وتصرفاتي ... وكان بطبيعة الحال على علم تام بما أكتب من مذكرات ، فهو يقرأها يوما فيوما ، ويعرف الدفتر الذي ادون فيه تلك المذكرات ... ولكنني عندما فوجئت بهؤلاء الضباط الذين لم أكن أتوقع وجودهم في مكتب البكر ، حافظت على رباطة جأشي وسلمت عليهم اولا ، ثم توجهت الى عبدالله بكر وسلمته الدفتر ، وقلت له : شكرا ، لم تبق لي حاجة به ... عندئذ ، وعلى سبيل المزح ، سألني حكمة الجيبه‌جي : استاذ ، ما هذا الدفتر ؟ نظرت اليه نظرة شزراء ، واجبته : ولم تسأل ؟ انه سجل الجفرة .. راجعت بعض البرقيات فيه وأعدته الى مكانه ... لقد شعر بحراجة الموقف ولم يحاول تطويل الحديث ، فجلست مع الجالسين وصرنا نتكلم في امور كثيرة كلها (هوائيات ...) وهكذا فلت من المصيدة للمرة الثانية ووقانا الله شر الطغاة المفسدين ...

٥) اقتراح تعييني مديراً للدعاية :

زارني يوما في وزارة الخارجية المقدم محمد علي جواد آمر القوة الجوية العراقية ، وكان معه الاخ مصطفى علي (٢) اذا لم تخني الذاكرة . وبعد الحديث من هنا وهناك ، قال لي المقدم جواد : ان الحكومة تريد

---

(١) يسميه بعض الناس اسماعيل توحلة خطأ .

(٢) وزير العدلية الأسبق

ان تنظيم دعايتها وتنسق اجهزة هذه الدعاية بما يكفل لها النجاح ، وقد فكرنا كثيرا في الشخص اللائق لاشغال مديرية الدعاية ولم نعثر على رجل احسن منك ، فهل تقبل هذه الوظيفة اذا كلفت بها ؟.. انني لم اتردد لحظة في الاجابة ، وقلت فورا : انني لا أجد في نفسي مع الأسف استعدادا لقبول مسئولية كهذه في الظرف الحاضر . وعبثا حاول اقناعي ، وعبثا حاول معرفة الاسباب التي تدعوني الى الرفض ...

كيف استطيع أن أقوم بالدعاية لحكومة لا اؤمن بمشروعية وجودها؟ كيف استطيع أن اوجه الرأي العام لمؤازرة وزارة اطاحت بوزارة ياسين الهاشمي ، خير وزارة شهدها العراق منذ تأسيسه حتى يومنا هذا ؟... كيف استطيع أن ادعو الناس الى معاضدة حكومة شردت خيرة رجال العراق ، ونفتهم الى خارج العراق استهتارا بالدستور وانتهاكا لحرمته ؟ كيف أستطيع أن اجاهر بتحبيذ تصرفات رجال او استحسن اعمالهم ، وهم في نظري عصاة متمردون ، وقتلة سفاكون تلوثت أيديهم بدماء جعفر العسكري تلك الدماء الطاهرة الزكية ... كلا !... لم يكن ذلك في امكاني ، وعلى هذا الاساس رفضت الطلب ، وعلى هذا الاساس اصررت على الرفض بكل عزم وقوة ...

٦ – ترفيع وسامي ، وجعل تلفون داري على حساب الحكومة :

كانت جميع المخابرات والاوراق التي تقدم الى الوزير ، أو الى المدير العام تمر بي اولا ، فأبدي عليها بعض الملاحظات اذا اقتضى الامر ، واتقدم ببعض الاقتراحات عليها عند الحاجة أو أجري تصحيحا فيها اذا لزم الامر ، ثم اقدمها الى الوزير او المدير العام ... وفي ذات يوم لفت نظري كتاب الى مجلس الوزراء يقترح فيه الوزير ترفيع أوسمة الرافدين

من الدرجة الخامسة الى الدرجة الرابعة لكل من : توفيق السعدون مدير تشريفات الوزارة ويوسف الكيلاني مدير الدائرة الغربية وجميل السلام مدير الدائرة الشرقية . ولم يكن اسمي بين هؤلاء ... ما سبب ذلك يا ترى ؟... انني أقدم من هؤلاء درجة ، ولست أقل منهم كفاءة ونشاطا ، فما سبب اهمالي ؟.. فكرت وفكرت .. وضربت اخماسا باسداس لاجد سببا معقولا لذلك ، وبعد تفكير طويل عثرت على السبب وهو : انني عندما انتقلت من مديرية الثانوية المركزية الى سكرتيرية وزارة المعارف في سنة ١٩٢٩ تركت ، في طبيعة الحال وكالة مديرية دار المعلمين العليا ايضا ... وكان العميد طه الهاشمي المرحوم مديرا عاما للمعارف في ذلك الحين واقترح تعيين الدكتور ناجي الأصيل مديرا اصيلا لتلك الدار ... وجرت مذاكرات بين الوزير والمدير العام المستر لاينل سمث المفتش العام حول راتب المدير ... كان الهاشمي يريد ان يجعله ثمانمائة روبية شهريا . والمفتش يستكثر ذلك ويقول : ان طالب مشتاق كان يدير مديرية دار المعلمين العليا بالوكالة بمخصصات لا تتجاوز خمسين روبية شهريا ، وكان ناجحا في ادارته الى اقصى حد ، فلا أرى من الانصاف ان يكون راتب المدير الجديد ثمانمائة روبية ... وكان يصر على ان لا يتجاوز هذا الراتب الخمسمائة روبية او الستمائة روبية ... وكان الوزير حائرا بين الطرفين : ينظر الى هذا تارة والى الاخر تارة ، ويتمسك بالقول المأثور : « اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ».. وأخيرا تم الاتفاق على ان يكون الراتب ستمائة روبية شهريا ... ويشهد الله لم يكن لي رأي في الموضوع اذ لم احضر الاجتماعات التي عقدت بين الوزير والمدير العام والمفتش العام ولم يسألني واحد منهم رأيي ، ولم اتدخل في الأمر كونه خارج نطاق عملي ... ومع ذلك صرت اسمع في ذلك الحين : ان

الدكتور ناجي الأصيل أخذ يتكلم متذمرا من قلة الراتب ، ويتهمني بأنني كنت من أشد المعارضين في جعله ثمانمائة روبية ... وفعلا اخذت الحظ فتورا في علاقته بي ، وابتعادا عن مخالطتي ، وبرودة في صداقته اياي رغم تأسيسها قبل ذلك بسنين ... لقد عادت اذن الى ذهن الدكتور ذكرياته السابقة واوحت اليه الانتقام مني ، بحرماني من ترفيع وسامي اسوة بزملائي ؟... وفي هذا الوقت قررت احراج الوزير ، فاستدعيت حكمة الجيبهجي وكان الموظف المسؤول عن تنظيم الاوراق وتقديمها الى الوزير ، وطلبت اليه أن يضع اسمي قبل كل الاسماء المذكورة في كتاب ترفيع الاوسمة ، ويعيد طبع الكتاب ويقدمه الى الوزير .. وقام حكمة بما طلبته اليه ، وقدم الكتاب الى الوزير ، وكانت مفاجأة غير منتظرة ... قال لي حكمة بعدئذ : ان الوزير قرأ الكتاب مرة ، ثم اعاد قراءته ثانية وثالثة ، واخيرا رفع رأسه الي وسألني : « لم يكن اسم طالب مشتاق موضوعا في الأصل ؟».. أجبته : انه نفسه أمر بوضع اسمه وعملنا بطلبه باعتباره معاون المدير العام ... وبعد هذه المحاورة القصيرة تناول الدكتور الأصيل القلم بيده ووقع على الكتاب على مضض ...

وبعد أيام من هذه الحادثة ، وجدت على مكتبي كتابا معنونا الى المديرية العامة للبرق والبريد والتلفونات تطلب فيه وزارة الخارجية اعتبار تلفون السيد جميل السلام على نفقة وزارة الخارجية .. ولو كان جميل السلام مدير المكتب الخاص ، او مدير دائرة الجفرة ، أو مدير التشريفات لكان الامر طبيعيا ومنطقيا ، اما وان جميل السلام مدير الشعبة الشرقية ، ولا يحتاج الى استعمال التلفون (بعد اوقات الدوام) في أي عمل رسمي يخص شعبته ، لماذا يكون تلفونه على نفقة الوزارة ، ويكون تلفون داري

على حسابي الخاص ، مع انني مساعد المدير العام وتحصل لي اتصالات رسمية بالتلفون (بعد اوقات الدوام) بمختلف السفارات أو الجهات الحكومية ؟.. ناديت حكمة الجيبهجي وطلبت اليه أن يضع العبارة التالية في آخر الكتاب المعنون الى المديرية العامة للبرق والبريد والتلفونات : « وكذلك نرجو اعتبار التلفون رقم ... العائد الى طالب مشتاق على حساب هذه الوزارة ...» ... وفي هذه المرة ايضا احرجت موقف الوزير اذ قرأ الكتاب (والعهدة على حكمة الجيبهجي) وقال : « حسن ، حسن ، جدا حسن» (١) ثم تناول القلم ووضع توقيعه عليه ، وهو في حالة نفسية مضطربة ...

---

(١) هذه عبارة مأثورة للدكتور ناجي الأصيل المرحوم ، كان يكررها كلما صادف موقفا حرجا أو اصابه اضطراب نفسي ..

التغيير الوزاري في الوزارة السليمانية

أخذ اتصال القوميين بالفريق بكر صدقي يزداد يوما بعد يـوم ، وبنسبة ازدياد هذا الاتصال كانت فجوة الخلاف بين العناصر اليساريـة في الوزارة وبين الدكتاتور العسكري ، ولما وجدت هذه العناصر نفسها في وضع حرج بالنسبة لضغط رئيس اركان الجيش الذي كان يتعمـد احراجها بقصد تنحيتها ، قررت الاستقالة وقدمتها بتاريخ ١٩ حزيـران ١٩٣٧ وقبلت فورا • اما الوزراء المستقيلون فهم : جعفر ابو التمن وزير المالية ، وصالح جبر وزير العدلية ، ويوسف عز الدين ابراهيم باشا وزير المعارف ، وكامل الجادرجي وزير الاقتصاد والمواصلات •••

ومما اوجب الاستغراب أن يكون المرحوم السيد صالح جبر في جملة الوزراء المستقيلين مع انه لم يكن يساريا يوما ، بل كان من العناصر القومية دائما • وقد قيل أنه شارك في الاستقالـة ليشجـع الآخريـن ويحرضهم على الاصرار على رأيهم في الاستقالة ، والله أعلم •••

وبعد مفاوضات مع القوميين دامت يومين كاملين ، تقرر أن يدخل الوزارة خمسة وزراء جدد : علي محمود الشيخ علي وزيرا للعدلية ، ومصطفى العمري وزيرا للداخلية ، ومحمد علي محمود وزيرا للمالية ،

وعباس مهدي وزيرا للاقتصاد والمواصلات ، وجعفر حمندي وزيرا للمعارف ...

وقد جرى الاتفاق بين حكمة سليمان رئيس الوزراء وبعض من الرجال القوميين على ان تسير الوزارة بعد الآن على الخطة التالية : (١) ان تكون سياسة الوزارة عربية (٢) ان يحل المجلس النيابي الذي ضم بعض العناصر اليسارية (٣) أن تحترم القوانين والاحكام الدستورية بصورة تزيل القلق وعدم الاطمئنان المستحوذين على الرأي العام (٤) أن تحارب الشيوعية وتعطل جمعية الاصلاح الشعبي وجريدتها «الاهالي» (٥) ان تعاد الحرية الى جريدتي الاستقلال والعراق المعطلتين ، والى كل جريدة تحمل مبدأ قوميا . (٦) ان يعاد الشيوخ المبعدون الذين سبقت لهم الخدمة في حقل الوطنية العراقية ...

هذا ولم تعش طويلا وزارة حكمة سليمان حتى بعد هذا التبدل الوزاري ، واضطر الى تقديم استقالة وزارته ، بعد مقتل الفريق بكر صدقي بايام قليلة ، وألف جميل المدفعي الوزارة الجديدة على الشكل التالي :

جميل المدفعي رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، جلال بابان وزير الاقتصاد والمواصلات ، مصطفى العمري وزير الداخلية ، توفيق السويدي وزير الخارجية ، عباس مهدي وزير العدلية ، الشيخ محمد رضا الشبيبي وزير المعارف ، ابراهيم كمال وزير المالية .

وبتأليف الوزارة الجديدة انتهى فصل الختام من مهزلة الانقلاب العسكري ، وانقذ الله العراق من تلك النكبة التي كادت تهدد كيانه وتضيع آماله وتخيب امانيه . انها فترة قتلت الحرية فيها باسم الحرية ،

وسلب الامن باسم اعادة الامن ، وهتكت الاعراض باسم الشرف ،وبددت الاموال باسم الحرص على الاموال ، ونضبت خزينة الدولة بالتباكي على المصلحة العامة...فترة اضعنا فيها خيرة رجالنا ، فكانوا ضحايا حركة اثيمة ومجازفة طائشة .. فترة اسدل فيها الستار على الكفاءة والمقدرة والاخلاص ، وساد فيها الجهل عاريا .. فترة تشرد فيها اخلص رجال العراق ممن هم بالحكم جديرون والبقهم سياسة واقدرهم على العمل ، وحل مكانهم جهل قاتم ، وطموح اعمى ، ورروعونة هوجاء ... ففي بدء تلك الفترة القاسية قتل العسكري غدرا ومات الهاشمي كمدا وأغتيل ضياء يونس (١) ظلما ومات الزكي (٢) مهموما كئيبا .

لقد كان الحر في ذلك الدور الجائر مضطربا ، مبهوتا لا يعرف كيف يسير والى اين المصير .. واصبحت سفينة الدولة تسير بين الامواج المتلاطمة لا تجد فيها ربانا مسئولا ، وانما هناك ربانون عديدون كلهم ذاهلون ، لاهون بأمور تقلق اصحاب الضمائر الحية ، وتزعج ابناء البلاد وتهدد مستقبلهم وكل ما فيه من آمال لذيذة وأمان سامية . على ان الايام اثبتت بحق ان جولة الباطل ساعة وصولة الحق الى قيام الساعة ، وان ابناء العراق أيدوا ولا فخر قول الهاشمي ، الزعيم الخالد يوم قال : « لا خوف على العراق »(٣) ...

كيف عينت قنصلا اول في لبنان وسورية :

بعد أن أنفك الاستاذ نصرة الفارسي عن المديرية العامة للخارجية ،

---

(١) سكرتير مجلس الوزراء في وزارة الهاشمي .

(٢) محمد زكي المحامي رئيس مجلس النواب .

٣ ان معظم ما جاء في هذا الفصل مقتبس من كتابي (ايام النكبة) ومن اراد المزيد من انقلاب ٢٩ تشرين اول ليراجع ذلك الكتاب .

بقيت مدة اشغل هذه الوظيفة وكالة . وفي اوائل آب او قبل ذلك بقليل راجت شائعة فحواها ان السيد خليل اسماعيل سيعين مديرا عاما للخارجية . انني في الحقيقة تضايقت من هذا الخبر ، لانني كنت آمل تعيني في هذه المديرية أصالة نظرا لخبرتي سنين عديدة في السلك الخارجي ، لا سيما قيامي بالمديرية العامة للخارجية وكالة مدة طويلة وفي فترات متعددة ... وقد أقسمت أن لا اشتغل في المركز اذا تم هذا التعيين . وفعلا تركت عملي وخرجت من الوزارة في اللحظة التي دخل اليها خليل اسماعيل . وقد استحصلت آنئذ تقريرا طبيا وحصلت على اجازة مرضية لمدة عشرة ايام ... سمع حكمة سليمان رئيس الوزراء نبأ انزعاجي من تعيين خليل اسماعيل وحصولي على اجازة مرضية بسبب ذلك ، فاستدعاني يوما الى مقابلته في مكتب عباس مهدي المرحوم وزير الاقتصاد والمواصلات ، وذهبت اليه واستقبلني استقبالا حسنا يدل على تقدير واهتمام ... سألني عن سبب حصولي على اجازة مرضية وانقطاعي عن العمل في وزارة الخارجية ؟... وشرحت له وضعي بصراحة تامة ، وقلت له : انني احق من أي شخص آخر باشغال مديرية الخارجية العامة والشخص الذي أتيتم به (رغم احترامي اياه) لا يتقن حرفا واحدا من ابجدية السلك الخارجي ، بينما أعرف هذه الابجدية من اولها الى أخرها ... ثم اني كنت مرشحا للمديرية العامة للمعارف في الوزارة السابقة وتأخر تعييني بسبب خلاف نشب بين السيد صادق البصام وزير المعارف والاستاذ ساطع الحصري المدير العام للتدريسات ، وان شروط الترفيع متوفرة في ، ولذلك فلا أرى أي سبب مقبول في عدم اسناد هذه الوظيفة الي ... أخذ رئيس الوزراء يعتذر ويبدي بعض اسباب وهمية لهذا التعيين ، ويؤكد على حسن تقديره اياي واعجابه بي ، ويقطع لي

الوعود بأنه مستعد الآن لتعييني في أي وظيفة اخرى شاغرة تروق لي ...
وفي اثناء الحديث ، عرض علي المرحوم عباس مهدي المديرية العامة للاقتصاد والمواصلات وقال ، انه سيكون من دواعي فخره واعتزازه اذا قبلت هذه الوظيفة ... اعتذرت له شاكرا ثقته الغالية وحسن ظنه بي ... ثم التفت الى رئيس الوزراء وقلت : ان السيد ابراهيم الخضيري نقل من بيروت الى برلين وسيسافر الى مقر عمله الجديد قريبا وبذلك تكون قنصلية بيروت شاغرة ، وأنا أرغب في هذه القنصلية ... فقال : « على رأسي وعيني .. انك خير من يشغل هذا المقام ، وسأواجه وزير الخارجية ، ويتم ما تريده في خلال ايام قليلة ».. شكرته بعد ذلك وخرجت ... وبعد أيام قليلة من هذا اللقاء ، صدرت الارادة الملكية بتعييني قنصلا اول في لبنان وسورية وصدر الامر الوزاري بتعييني هذا على ان يكون مقر عملي في بيروت ...

باشرت عملي في بيروت صباح يوم ١٤ آب ١٩٣٧ ، وأمضيت الايام الثلاثة الاولى من عملي في قبول التهاني من الاوساط العربية والاسلامية المختلفة ، بعد ذلك واجهت اميل اده المرحوم رئيس الجمهورية . كانت دائرة رئيس الجمهورية في سراي الحكومة في البرج . وهي عبارة عن حجرات قليلة يشغلها بعض موظفي الرئاسة والمرافق وعدد من الحرس . استقبلني الرئيس اده مرحبا باللغة الفرنسية ، ورددت عليه التحية مع الشكر باللغة العربية ... كان غريبا أن يخاطب رئيس جمهورية بلد عربي قنصل دولة عربية بلغة فرنسية ... انني فكرت في بادىء الامر ان الرئيس اده لا يحسن العربية ، ولكنني استبعدت ذلك في الوقت نفسه .. وهل يمكن أن يكون المرء لبنانيا سدى ولحمة ، ولد في لبنان وعاش في ربوعه العمر كله ، ثم لا يحسن التكلم بلغة بلده وابناء قومه ؟...

كان في امكاني ، رغم معرفتي قليلا من اللغة الفرنسية ان اجيبه بالفرنسية، واستمر بالحديث معه بالفرنسية ، ولكنني تقصدت احراجه لاضطره الى التكلم بالعربية . واستمر هو يتكلم بالفرنسية وأنا اجيبه بالعربية ...لقد فهم اجاباتي جيدا فهو يتقن اذن العربية ولكنه لا يحب التكلم بها ... واستمر الحديث على هذا المنوال دقائق عديدة ، واخيرا لم ير بدا من التكلم بالعربية ... واذا هو يتكلم العربية بلهجة لبنانية اصيلة خالية من اية لكنة او رطانة ... قلت في نفسي : الحمد لله ، لقد اتبع الهدى وعاد الى الصواب ... كان رئيس الجمهورية لا بل رجال الحكومة اللبنانية كلها ، لا يتعدون حدود القاب المفخفخة في غير موضعها مع انهم لا حل بأيديهم او ربط ، والحاكم الحقيقي هو الكونت دومارتل المندوب السامي ... فهو الآمر الناهي ، واذا أمر لا مرد لاوامره ، واذا نهى فالناس كلهم أطوع اليه من البنان .. واذا استثنينا الطائفة الاسلامية وبعض المثقفين الواعين من الطائفة المسيحية ، فأن معظم مسيحي لبنان كانوا يعتبرون فرنسة الأم الحنون التي تشفق عليهم وتحميهم من عاديات الدهر ونوائبه ...

واجهت المندوب السامي بعد مواجهتي لرئيس الجمهورية ، وقدمت اليه كتاب اعتمادي .. فاستقبلني استقبالا فاترا مع قليل من المجاملات الشكلية الخالية من اي اثر من آثار الود والصدق .. وبعد مدة قليلة ، ووردتني براءة الاعتراف قنصلا أول في سورية ولبنان ، موقع عليها من قبل رئيس جمهورية فرنسا !...

ان عملي في بيروت ، لم يدم اكثر من سبعة اشهر ، وقد فوجئت بنقلي الى وظيفة سكرتير اول في مفوضيتنا بانقرة اعتبارا من ١٢ اذار

١٩٣٨ . كانت هذه المفاجأة أشد ضربة علي ، ذلك اني كنت سكرتيرا أول في انقره قبل سنوات عديدة ، فكيف ارجع اليها الآن بعين درجتي ؟... طلبت وزارة الخارجية تلفونيا وتكلمت مع صبيح نجيب المرحوم وكان آنذاك مديرا عاما للخارجية وقلت له : ان امر نقلي الى انقرة غريب في بابه ... انني كنت قبل سنوات سكرتيرا أول في انقرة فهل يجوز ان اعود اليها بنفس الدرجة ؟.. انني مستحق الترفيع منذ عدة اشهر ، فلماذا لا ترفعوني الى درجة مشاور وتنقلوني الى انقرة ؟.. انني لن اذهب الى انقرة قبل صدور امر ترفيعي ... ثم انني كنت في بغداد في اجازة قبل اسبوع واحد ، ولماذا لم تخبروني بعزمكم على نقلي لاتفاهم معكم واشرح لكم صعوبة قبولي هذا النقل ؟.. كان صبيح نجيب من العسكريين المتعجرفين ومعجبا بنفسه الى حد بعيد .. وكان مغرورا ، عنيدا ، بعيدا عن المنطق ، لا يقبل جدلا مهما كان منطقيا ومعقولا ... اعتبر مخابرتي اياه بهذا الموضوع واصراري على عدم الانصياع الى الامر الوزاري بنقلي تحديا اياه وتطاولا عليه ، وصار يكلمني بلهجة جافة خشنة ، وصرت اقابله بلهجة صارمة أكثر خشونة من لهجته ، فلم يحتمل هذا الموقف تجاهه مني ، وقال : اسمع صوتك يا طالب ، انك تكلمني بأسلوب غريب ... قلت له : انني اسمع صوتي جيدا واعرف مع من اتكلم ولم أر اية غرابة في اسلوب كلامي ، واغلقت التلفون في وجهه ...

Hamad Khalifa

فصلي من الخدمة برقياً

وبعد مرور ايام قليلة على مكالمتي التلفونية مع صبيح نجيب تسلمت برقية بفصلي من الخدمة بموجب قرار مجلس الوزراء في ٢٩ اذار ١٩٣٨ . انني لم أكن استبعد مثل الاجراء لأنني كنت اعلم ان جو وزارة الخارجية كان مشحونا بالحقد والنقمة علي لأسباب وتوهمات سأشرحها فيما بعد ، ولكن الصعوبة كانت في وضعي المالي والشخصي ... فاذا عدت الى بغداد سأعرض نفسي الى التوقيف او النفي . واذا أنا بقيت في لبنان ، كيف اعيش ولم اكن املك آنذاك اكثر من ثمانية دنانير في جيبي ؟... فكرت في طريقة تكفل لي البقاء بضعة اشهر في لبنان ... حفظت برقية الفصل في جيبي . ولم اسجلها في سجل الواردة ، ولم أمكن ايا من موظفي القنصلية من الاطلاع عليها .. واسرعت الى الدكتور يوسف روضة وانبأته الأمر وشرحت له الوضع ، ورجوته ان يزودني بتقرير طبي يمنحني فيه اجازة مرضية مدة ثلاثة اشهر ... اخذت منه التقرير وعدت الى القنصلية واصدرت امرا بمنحي الاجازة المقررة بالتقرير الطبي،وتسلمت

رواتبي لثلاثة اشهر ووضعتها في جيبي (١) شعرت عندئذ ببعض الراحة والاطمئنان . وفي صباح اليوم التالي اخرجت البرقية وارسلتها الى نائب القنصل للتسجيل ، وسلمته القنصلية وودعت الموظفين والمستخدمين وغادرت الدار وأنا غير آسف على شيء ... وكان ذلك في اول يوم من نيسان ١٩٣٨ ...

عندما اطلع الدكتور يوسف روضة صديقي الوفي على هذا الاجراء الظالم معي تألم كثيرا ، واذ علم عزمي على البقاء في بيروت مدة مؤقتة ، عرض علي الاقامة في قصره الواقع في مدخل عاليه من جهة بيروت ،وعندما رأى ترددي في قبول هذا العرض اصر اصرارا شديدا على ذلك بحيث لم اقو على رفض عرضه الكريم .. وهكذا انتقلت مع افراد عائلتي من دار القنصلية في بيروت الى قصر الدكتور روضه في عاليه ...

ومن الطريف أن أذكر في هذه المناسبة ، انني سافرت الى بغداد مع وفد صحفي لبناني قبل اتخاذ مجلس الوزراء قرار فصلي بحوالي عشرة ايام أو اسبوعين اثنين على الاكثر ، وصدف أن اجتمع هذا الوفد بالسيد جميل المدفعي رئيس الوزراء في دار المرحوم جمال بابان في حفلة غداء نظمت تكريما للوفد الصحفي اللبناني ... وفي اثناء الحديث ، خاطب

---

(١) ان عملي هذا لا شك يعتبر غير جائز بالنظر الى الانظمة والقوانين المرعية ، ولكنني كنت مضطرا الى ارتكاب مثل هذه المخالفة والا كنت اعرض نفسي وافراد عائلتي الى الهلاك جوعا .. ومع ذلك فالمبلغ الذي تسلمته كان مضمونا بالنظر الى حق الخزينة فيه لانني استحق اكرامية عن مدة خدمتي الدولة ، والمبلغ المسحوب سيقطع حتما من هذه الاكرامية عند انتهاء معاملتها الروتينية ، وقد استقطع المبلغ المسحوب فعلا باقساط شهرية من راتبي عندما أعدت الى الخدمة في سنة ١٩٣٩ ...

المرحوم الاستاذ جبران تويني (١) جميل المدفعي وقال : يا سيادة الرئيس ، قد يكون من غير اللائق ان يمدح شخص شخصا اخر في حضوره ... ولكنني لا أرى بأسا في هذا الظرف أن أخرج على هذا العرف وأقول : ان هذا الشاب الذي ارسلتموه لنا قنصلا في لبنان ، من خيرة ما رأينا من شباب العرب ، ولقد احسنتم صنعا في ندبه لتمثيل العراق ، البلد العربي الحبيب ... انه بيض وجوهكم ووجوهنا بحسن تصرفاته وجميل خلقه.. فأجابه المرحوم المدفعي : أتعلمني بطالب مشتاق ؟ انني اعرفه جيدا . انه من شبابنا اللامع الذين سعوا وضحوا في بناء كيان العراق !... وبعد هذا ، أليس من الغريب جدا ان يوقع جميل المدفعي نفسه على قرار فصلي ، لاسباب تافهة ، قبل ان تمر عشرة ايام على تصريحه ذاك !!...

(١) احد وزراء المعارف في لبنان ومؤسس جرية النهار البيروتية .

على هامش الأحداث في قنصلية بيروت

الشهيد عبد القادر الحسيني [1]

كنت آمل ان القاه تحت اقواس النصر ورايات الظفر ، وكنت أود ان اعانقه والعين تدمع من فرط السرور .. كنت أود ان اقف خطيبا بين جموع العرب أتوج هامته بأكليل بطولته وآيات رجولته ... ولكن لم يشأ القدر وآسفاه ، الا ان يجعلني مؤبنا صديقا عزيزا ، عز نعيه وشق علي فقده...

لم يكن ابو موسى ، وايم الحق ، شابا كسائر الشباب ولا رجلا كسائر الرجال ، وانما كان مجموعة من المثل العليا انصهرت في بوتقة نفسية فذة وخرجت للناس في شخصيته مثلا اعلى لكل المثل العليا ، ونموذجا حيا فريدا لجميع صفات الرجولة والنبوغ ...

لقد كان رحمه الله مثلا اعلى لانكار الذات وحب التضحية ، ومثلا

---

(١) من كلمة رثاء أحضرتها لتتلى في حفلة تأبين عبد القادر الحسيني البطل الشهيد في معركة القسطل في خلال حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ .

اعلى للشجاعة والاقدام ، ومثلا اعلى للشهامة والوفاء ، ومثلا اعلى للصبر والايمان ...

لم اكن اعرفه شخصيا حتى سنة ١٩٣٨ ، وانما سمعت بمناقبه خلال ثورة فلسطين الدموية سنة ١٩٣٦ . ولم يكن يعرفني شخصيا ، وانما سمع اهتمامي بالقضية الفلسطينية ، وجهودي في سبيلها في ظروفها وتطوراتها المختلفة ... وعليه لم يكن احدنا يجهل الاخر ، وان كانت اعيننا لم تتقابل بعد ... كانت فلسطين حلقة الوصل بين شخصينا ،وكانت محنة فلسطين سبب اللوعة في قلبينا ...

دخل مكتبي في يوم من ايام سنة ١٩٣٨ الصديق ابو المهدي اليافي المحامي من الشام ، وكنت آنذاك قنصلا للعراق في بيروت ، وكان في رفقته شاب قصير القامة ، وسيم الطلعة ، ذو نظرات نفاذة ، تنم عن ذكاء حاد ورجولة كامنة ، وقدمه اليافي الي وقال : الا تعرفه ؟.. قلت مع الأسف ... قال : هذا عبد القادر الحسيني نجل المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني .. قلت : اهلا وسهلا ومرحبا .. هذا الشبل من ذاك الاسد ... واستطرد اليافي في كلامه : جئناك اليوم في أمر مهم طالبين اليك النجدة ... قلت : كل شيء يهون في سبيل نصرتكم ان شاء الله ... قال : إنك تعلم ان الانكليز قد حكموا على عبد القادر بالاعدام ، وهم الان يستطلعون اخباره ويتعقبون خطواته . كما ان الفرنسيين يحاولون ايضا القاء القبض عليه وتسليمه الى اعدائه ...

لم يكن في امكاني أن أتردد برهة واحدة ... كان واجبي في تلك اللحظة أن أنقذ حياة عبد القادر ، هذا الجندي العربي المقدام ، بأي ثمن ... لقد صممت ، وكان تصميمي جديا وقاطعا ، وكان علي ان اخرج عن حدود صلاحيتي واتحدى الانظمة والقوانين العراقية ، واخالف

تعليمات حكومتي ••• ومتى كانت الوظيفة بالنسبة لي طاعة عمياء لاوامر الحكومة دون قيد او شرط ••• ومتى كانت الصلاحية تعيقني عن اداء واجب وطني ؟ ••• أليس مغزى الوظيفة بالنسبة لي هو الخدمة العامة ؟ وأية خدمة عامة اعظم من الضرب على يد الجلاد ومنعه من اراقة دم زكي طاهر كدم هذا الشجاع المتطوع لخدمة الامة العربية ، المدافع عن حقها المغتصب ، الذائد عن بيضة الوطن الجريح ؟•• تعالى يا ولد !•• اتتني بجواز سفر عراقي غير مستعمل من نائب القنصل ••• واتى الحاجب بالجواز،واخذت القلم بيدي وصرت املؤها ، اسمك : محمد عبد اللطيف•• افهمت يا استاذ عبد القادر ؟•• محمد عبد اللطيف ••• عمرك ٣٥ عاما •• محل ولادتك : الاعظمية ••• وهكذا اصبح عبد القادر الحسيني عراقيا بالولادة في مدة لا تتجاوز ربع الساعة •• وناولته جواز سفره ، بعدما ختمته بختم القنصلية ووقعت عليه •• ثم اتصلت ببعض شركات النقل في دمشق لتسهيل سفره • وبعد يومين اثنين كان عبد القادر الحسيني او (محمد عبد اللطيف) يطوف شوارع بغداد هازئا بالانكليز ، ساخرا من الفرنسيين •

ومضت الايام وتتابعت السنون ، واذا بمعتقل العمارة يجمعني بالصديق عبد القادر الحسيني •••

ناضل المرحوم اثناء اصطدام الجيش العراقي والبريطاني في سنة ١٩٤١ نضال الابطال وعارك الانكليز عراك المستميت في سبيل نصرة الحق على الباطل ، ودعم الضعيف الأبي ضد القوي الغاشم •• وبعد انتهاء المعركة ، وانتصار قوى الغدر والاستعمار ، أصبح مصير هذا العربي الكريم كمصير زملائه من الاحرار •• اعني النفي والتشريد في اقصى شمال العراق •• وحدث اغتيال فخري النشاشيبي في بغداد ، واتهم

عبد القادر بتدبير هذا الاغتيال وتنفيذه ، والقي القبض عليه ، وزج رهن التوقيف ، وكان الوعد وكان الوعيد، وكانت الطرق والوسائل المختلفة للتنكيل والتعذيب •• وعفى الله اولئك المواطنين الجبناء الذين كانوا اداة لأجنبي الظالم ينكلون بابناء جلدتهم من القوميين ، ويشيعون الوعيد والارهاب بين الناس ويسومون الابرياء الوانا مفزعة من العذاب ••• وهكذا كان المرحوم في عداد ضحايا ذلك العهد الجائر ، الا انه صمد لشتى انواع التعذيب ، وهزأ بمختلف الارزاء ، ولم يقابل الجور الا بالصبر والاحتمال ، ولم يرد على عادية الغدر والافتراء الا بابتسامات السخرية والازدراء ••

واخيرا ••• ساقته الاقدار الى معتقل العمارة ، وفي معتقل العمارة كان المرحوم مثلا رائعا للقومي الصابر ، المؤمن بعدالة قضيته ، الشاعر بضرورة تضحيته ••• لم أره يتأفف ولم اشهده يتذمر كانت غرفته في داخل المعتقل تضم مكتبة قيمة ، فيها انواع مختلفة من الكتب واصبحت والحالة هذه مجمعا للشباب المثقف من المعتقلين يسمرون فيها ويتباحثون ، وعبد القادر يوضح لهم ما اشكل من الابحاث ، ويفسر لهم ما صعب فهمه من الالغاز علمية كانت هذه أم ادبية ، سياسية كانت أم اقتصادية •• ولم يكتف المرحوم وهو رابض كالاسد وراء اربعة صفوف من الاسلاك الشائكة بهذا القدر من الخدمة ، بل خصص القسم الاعظم من وقته لتدريس بعض الشباب المتعطش الى العلم ، وكان يدرس هذا الطبيعيات ، ويدرس ذاك الرياضيات • وهكذا كان المرحوم استاذ المعتقل ، يتدفق منه العلم ، ويشع منه الاخلاص ، وتنبثق منه الجرأة والرجولة والاقدام•••

وبقدر ما كان عبد القادر حريصا على خدمة الناس ، متفانيا في سبيل بني

قومه ، كان برا بزوجه وأطفاله ، يحنو عليهم ولا ينقطع عن تشجيعهـــم ومؤآساتهم في زمن كان هو احوج فيه الى التشجيــع والمواساة ... وكانت هيفاء ، وكان موسى وفيصل وغازي (١) مبعث سروره وينبــوع ابتهاجه في داخل المعتقل ، وكان ينسى هموم الدنيا بأجمعها عندما كـــان يأنس بملاطفتهم ومداعبتهم . وفي الوقت نفسه كان لا يدع فرصة تمــر الا ويستغلها في سبيل تربيتهم وتنشئتهم على مكارم الاخلاق ، وغــرس المبادىء الوطنية الحقة في نفوسهم . جعلهم الله خير سلف ، لذلك الوالد المشفق ، العف ، الكريم ، ورحم الله عبد القادر ، جماع الفضائل .. وعزاء لأمة العربية التي انجبته ، وان كان العزاء ، لا يرد عزيزا ، ولا يعيد فقيدا . وفي ذمة الله وحفظه جسد طاهر توسد الصخرة المشرفة واحتضنه المسجد الاقصى المبارك ، وانا لله وانا اليه راجعون ...

---

(١) سجن الصهاينة في نيسان ١٩٦٨ فيصلا وغازيا ولدي عبــد القــادر الحسيني الشهيد المرحوم بسبب حركة المقاومة الطلابية في الضفــة الغربية من الاردن ضد الاحتلال الاسرائيلي .

الأسباب الخفية لفصلي من قنصلية بيروت

كانت محادثتي التلفونية مع صبيح نجيب مدير الخارجية العام وعدم امتثالي اوامر الوزارة بالسفر الى الوظيفة التي نقلت اليها في أنقرة ، حججا وهمية تذرعت بها الوزارة تبريرا لفصلي ، ترى متى كان التكلم بخشونة مع رئيس الدائرة عملا يستوجب الفصل ؟ . ان هناك الانذار ، والتوبيخ ، والاحالة الى لجنة الانضباط وغيرها من العقوبات الادارية تأتي على كل حال قبل اتخاذ قرار خطير كالفصل في مثل هذه الحالات ... اما الاسباب الحقيقية الخفية لفصلي فهي :

١ — استقبالي لنوري السعيد عند اقباله الى بيروت في طريق عودته الى بغداد (١) :

كان جميل المدفعي بالذات ، وبعض اعضاء وزارته يرتعدون فزعا من نوري السعيد ، انهم يكرهونه ، ويحذرونه ، ويخافون مناوراته ومداوراته

---

(١) كان ذلك في أثناء عودته من القاهرة التي اقام فيها بعد انقلاب بكر صدقي .

السياسية ، لذلك لم يكونوا يرغبون في عودته الى بغداد ويفضلون بقاءه في القاهرة او في بيروت لعلمهم بمدى نفوذه المزدوج لدى البلاط ولـدى الانكليز على حد سواء .. اننا لما عرفنا موعد وصوله الى بيروت ، اتفقت والاخ موسى محمود الشابندر ، باعتباره شخصية عراقية سياسيـة شردت ونكبت بقتل جعفر العسكري الصديق المغفور له والصهر الغالي ، والصديق الحميم عمره كله ... ويظهر ان بعض زملاء المدفعي تمتم فـي اذنه بعض كلمات جعلته يعد استقبالي هذا تحديا للحكومة القائمة وتأييدا لنوري السعيد في مساعيه التي تستهدف العودة الى الحكم ؟ هذا هو السبب الاول في فصلي ..

٢ – خطابي في حفلة تأبين الهاشمي :

ان جميل المدفعي المرحوم نفسه كان ناقما على الهاشمي ، في حياته ، وهو وان لم يؤازر انقلاب بكر صدقي مؤازرة علنية الا انه كان مرتاحا من نتيجة هذا الانقلاب الذي، ابعد ياسين الهاشمي عن الحكـم الـى الابد ... والدليل على ذلك انه اعتبر الانقلاب مشروعا عند مجيئه الى الحكم بعد سقوط وزارة حكمة سليمان وانتهج سياسة « اسدال الستار على الماضي » كما هو معلوم لد ىجميع الساسة في العراق...وفي الذكرى الاولى لوفاة الهاشمي قررت بعض المنظمات الوطنية في دمشق ، بتشجيع من الحكومة السورية نفسها ، تنظيم احتفال كبير في مدرج الجامعـة السورية في تلك المناسبة .. وقد تسلمت آنذاك رسالة من دمشق تدعوني بصفتي قنصل العراق في سورية ولبنان لحضور ذلك الاحتفال ، وتطلـب الي القاء كلمة عن الهاشمي المرحوم ... وطبيعي انني لبيت الدعوة بكـل

رغبة وترحاب .. ولا ازال اذكر يوما في اوج الشتاء كان فيه البرد قارصا والرياح شديدة ، والثلج يتساقط من السماء كالعهن المنفوش ، والجبال مرتدية حلة بيضاء كعروس في يوم الزفاف ...

وبالاضافة الى ذلك كله ، كنت مصابا بانفلونزة شديدة الوطأة ،وكانت درجة حرارتي حوالي الاربعين ... وقد نصحني طبيبي ، وأصر علي بعض الاصدقاء ، ان لا اذهب الى دمشق وانا في مثل هذه الحالة ... فلم اعط اذنا صاغية لكل ذلك وصممت على السفر مهما كانت العواقب ... وسافرنا حسب الاتفاق الذي جرى بيني وبين الصديق الكريم موسى الشابندر الى دمشق بسيارة واحدة في صباح يوم ٢٠ كانون ثان ١٩٣٨ ، ولدى الوصول اليها ، ذهبنا رأسا الى مرقد صلاح الدين الايوبي ووضعنا اكليلا على قبر الهاشمي وقرأنا الفاتحة عليه ثم زرنا بعد ذلك مرقد صلاح الدين وعدنا الى فندق « اوريان بالاس» وانا على اسوأ حال من وطأة المرض والاعياء ... وفي اليوم التالي حضرنا الاحتفال والقيت خطابا عن الهاشمي ومبادىء الهاشمي في الوحدة العربية ، وناديت بشعار (من المحيط الى الخليج) في ذلك التاريخ (١)... وبعد الانتهاء من خطابي تقدم الي المغفور له الاستاذ فارس الخوري وقبلني وهنأني وقال : « خطابك كان الخطاب الوحيد الذي ابكاني ، فبارك الله فيك» ، وهذا هو السبب الثاني في فصلي .

٣ — مواجهتي الكونت دومارتل عند وصول المفتي الى بيروت ومنحي المفتي سمة الدخول الى العراق باسم مستعار :

كل الوزارات التي تألفت في بغداد (باستثناء وزارة ياسين الهاشمي)

(١) لقد فقد خطابي هذا مع كثير غيره من الوثائق والمستندات مع الاسف الشديد ...

لم تكن ترتاح من مجيء سماحة المفتي الحاج امين الحسيني الى بغداد ، لانها تعلم ان الانكليز لا يرتاحون من وجوده ويتخوفون من نشاطــــه وتصرفاته ، بالاضافة الى أنهم يعرفون جيدا كم هو دقيق في ملاحظاته حذر في تدابيره ، يعد لكل أمر عدته ويضربهم ضربات قاسية عندما تساعــد الظروف وتتهيأ الفرص • واذا كانت بعض الوزارات قد سمحت له في بعض الاحيان بالمجيء الى بغداد فانما عملت ذلك بناء على ضغط الرأي العـام وتجنبا لنقمته •

زارني يوما أحد الاصدقاء البيروتيين واخبرني أن المفتي وصل الى بيروت هاربا من فلسطين ، فطلبت حالا موعدا لمقابلة الكونت دومارتل المندوب السامي الفرنسي ، وتمت المقابلة في صباح اليوم التالي ••• قلت للمندوب السامي : بلغني ان مفتي فلسطين قد وصل الى بيروت ، وانتـم تعلمون أن المفتي لا يتمتع بنفوذ سياسي حسب ، بل بنفوذ ديني أيضا •• ولا يقتصر نفوذه السياسي على فلسطين وحدها ، بل يشمل البلاد العربية من اقصاها الى اقصاها ••• ان حكومتي ووراءها الشعب العراقي بأسره يهتم طبعاً بمصير هذا الرجل ، وهما يأملان ان حكومة الانتداب في لبنان ستقوم بكل ما تقتضيه القوانين الدولية لحماية هذا الضيف ورعايته بشكل يتناسب ومنزلته ورفيع مقامه ••• اجابني المندوب السامي مطمئنا : ان الحكومة سترعاه وتحميه من اي سوء ما دام موجودا في لبنان ، وانــــه سيلقى حتما من كل رجال الحكومة أي عون يحتاج اليه ، وسيعيش بيــن ظهرانينا ضيفا محترما ومكرما ••• شكرته على تصريحاته هذه وودعتــه وخرجت متوجها الى الدار التي كان يقيم فيها المفتي ••• لم أكن اعرف الرجل قبل ذلك الا باسمه واعماله ••• ومع ذلك كان لقاؤنا كلقــاء الاصدقاء المتحابين ••• تعانقنا عناقا اخويا ، وهنأته بسلامة الوصول وتمنيت له طيب الاقامة ، وقلت له : انني أضع نفسي هنا وكل امكانياتــي

تحت تصرفك ... وارجوك ان تثق بي وتعتمد علي في كل ما يهمك من الامور .. شكرني على ذلك ، وقال : هذا ما كنت انتظره منك وآمله فيك. انني سأكون على اتصال معك ما دمت في هذه البلاد ...» (١)

انتقل سماحة المفتي بعد ذلك الى جونيه (٢) وأقام في دار كبيرة استأجرها هناك ، وفي أحد الايام زارني في دار القنصلية وطلب ان يكلمني على انفراد ، وقال لي : « انني غير امين من الفرنسيين ، فهم يراقبونني مراقبة دقيقة وأخشى أن يقيدوا حريتي وقد يمنعونني من مغادرة هذه البلاد . لذلك فانني اتهيأ للهروب الى بغداد ، واريدك أن تمنحني سمة باسم مستعار لأني لا اود أن يسجل اسمي الصريح في سجل السمات ويطلع عليه الموظف المختص اذ في ذلك من المحاذير ما ليس في الحسبان... منحته السمة كما اراد ، وسجلت اسمه المستعار في السجل بنفسي ، وختمت جواز سفره بيدي ووقعت عليه وسلمته اياه ... وبعد أيام اذيع نبأ وصول المفتي الى بغداد وكان له دوي كبير في المحافل السياسية ... ان حكومة المدفعي او بالاحرى وزير خارجيته ، اعتبر منحي السمة لشخصية كشخصية المفتي دون استمزاج رأي الوزارة او على الاقل اخبارها ، عملا غير مرضي ... فهمت ذلك بعدئذ من حديث جرى بين وزير الخارجية وبيني في هذا الموضوع ، وهذا هو السبب الثالث في فصلي !..

٤ – بطاقات كاريكاتور : الطبل الجهيل ، واللص الاحمر :

عندما رأت الاوساط السياسية ، ومعها بعض القادة العسكريين ، مهادنة الوزارة المدفعية لحكمة سليمان ومن كان معه من القائمين بانقلاب

---

(١) نقلت الى سماحته طبعا زيارتي الكونت دومارتل وكل ما دار بيننا من حديث في موضوع اقامته في لبنان .

(٢) بلدة صغيرة على ساحل البحر في شمال بيروت .

٢٩ تشرين أول ١٩٣٦ واتباعها سياسة اسدال الستار ، صاروا يعقدون الاجتماعات ويتداولون فيما بينهم في اسقاط الوزارة وتأليف وزارة جديدة : برئاسة نوري السعيد او رئاسة رشيد عالي الكيلاني ،وقد اخذت الدعايات ضد الوزارة المدفعية تتوسع في داخل العراق وخارجه ، وكان موفق الآلوسي ، تساعده السيدة معزز برتو (زوجة الدكتور يوسف روضة) عنصرين قويين في بث الدعاية ضد وزارة المدفعي في بيروت ... وكان عدد من الجرائد اللبنانية ينشر المقالات تلو المقالات عن سوء تصرفات الوزراء ، وتهاونهم في انزال العقوبات بالقائمين بالحركة الطائشة التي يسمونها انقلاب بكر صدقي ، ويلومون المسئولين العراقيين على تركهم القتلة والسفاكين يسرحون ويمرحون في طول البلاد وعرضها غير آبهين ولا وجلين ... وقد تسلمت عن طريق البريد في أحد الايام مغلفا يحوي عددا من البطاقات الكاريكاتورية وكانت هذه البطاقات على نوعين : احدهما كاريكاتور يمثل طبلا كبيرا في موضع البطن والصورة لجميل المدفعي وكتب تحتها « الطبل الجميل !» ، والثانية كاريكاتور توفيق السويدي وزير الخارجية يكثر فيه احمرار الوجه.وكتب تحتها : « اللص الاحمر» !.. هذا وان كثيرا من هذه البطاقات ارسلت الى بغداد ، على غير طريق البريد ، ووزعت على عدد غير قليل من رجال السياسة في بغداد .. ان بعض الوزراء ، وفي مقدمتهم توفيق السويدي ، اتهمني شخصيا بتوزيع هذه البطاقات واعتبرني المسئول الاول عنها ، أو على الاقل شريكا للفاعلين الاصليين ويشهد الله أنني كنت بريئا من هذه التهمة . .صحيح انني كنت صديقا للاستاذ موفق الآلوسي والسيدة معزز برتو ، ولكنني لم اشاركهما في أية دعاية ضد وزارة المدفعي ولم اطلع على أي عمل يقومان به قبل وقوعه ... والبطاقات موضوعة البحث

وصلت الي كما وصلت الى الاشخاص الآخرين ، ولا علم لي بها مطلقا قبل نشرها ... على ان المدفعي والسويدي اصرا على اتهامي بها وعبثا حاولت اقناعهما ببراءتي ، وهذا هو السبب الرابع في فصلي ...

٥ – عدم قبول التهاني بالعيد بسبب نكبة فلسطين :

حل احد الاعياد وأنا في بيروت ولا ادري ايهما كان : اهو عيد الفطر أم العيد الاضحى .. وكان الوضع في فلسطين يدمي القلوب ويفتت الاكباد : الانكليز يدمرون القرى على رؤوس سكانها العرب ، والسجون تعج بالمعتقلين ، والمشانق تنصب هنا وهناك ليعلق على اعوادها شباب العرب الثائرين ... ولم اجد تجاه هذا الوضع الا ان اعلن في الصحف اعتذاري عن قبول التهاني في العيد بسبب سوء الاحوال في فلسطين ... قامت القيامة وفار التنور .. كيف يعلن قنصل العراق في بيروت مثل هذا الاعلان في الوقت الذي تجري فيه مراسم العيد من قبل الحكومة في بغداد ؟... انها وقاحة وسوء تصرف من القنصل .. أنه تحد علني للوزارة القائمة ... انه احراج لموقف الحكومة تجاه الحكومة البريطانية ، وهذا هو السبب الخامس في فصلي !.. وأخيرا كانت محادثتي تلفونيا مع صبيح نجيب المرحوم واتخذت ذريعة للتنكيل بي واقصائي عن الخدمة ، واتخذ مجلس الوزراء قراره بفصلي بناء على اقتراح قدمه وزير الخارجية الاستاذ توفيق السويدي ...

العودة الى بغداد

لم يكن في الامكان أن اطيل اقامتي في بيروت لأن الرواتب الثلاثة التي تسلمتها من صندوق القنصلية اوشكت على النفاذ ، وليس لـي فـي بغدادمن يستطيع أن يمدني بالمال ولو بقـدر ما يكفـي لسد الرمـق ، ويستحيل أن اجد عملا في ربوع لبنان يكفل لي ولافراد عائلتي لقمـة العيش ••• اذن ليس من سبيل لي الا العودة الى بغداد ••• عدت الـى بغداد بعدما امضيت حوالي الشهرين في قصر الدكتور روضة في عاليه ، عدت وأنا حائر في أمري ••• هل اشتغل في المحاماة ؟••• انها مهنـة كاسدة بالنظر الى من في وضعي ، واصحاب المصالح لا يراجعون الا من كانت لهم حظوة في دوائر الدولة ، ولكوني معارضا فان التردد في السلام يشمل حتى بعض اصدقائي ••• أأشتغل محررا في احدى الصحف ؟ هذا من رابع المستحيلات أيضا ، فالصحف كلها تطبل وتزمر للحكومة ، ايـا كانت تلك الحكومة • وفي أي زمن كان ، ومعظم ارباب الصحف ، وان لم نقل كلهم كانوا ممن يحرقون البخور امـام المسؤولين مـن رجـال الدولة ••• ورغم كل ذلك ، جددت اجازتي في المحاماة ، وحاولـت الاشتغال فيها ••• كان والدي كالمعتاد ، يسلمني راتبه التقاعدي في رأس كل شهر ، ثم بعت سيارتي الخاصة التي أتيت بها من بيروت الى احـد

موظفي السفارة السعودية بمبلغ مئة وخمسين دينارا ،دون ان ادفع الرسم الكمركي عنها •• وحدث أن كلفني في ذلك الحين المرحوم جمال بابان ان اشتغل معه في مكتبه واساعده في بعض اعماله لقاء راتب شهري زهيد ، وقبلت العرض راضيا مرضيا واصبحت عندئذ في وضع استطيع فيه أن أدبر معيشتي بضعة اشهر على الاقل •••

كانت بغداد تعج بنشاط سياسي محموم ••• كان قواد الجيش الذين ناوؤا انقلاب بكر صدقي ناقمين على المدفعي وعلى وزارته لانه لم ينظف الجيش من بقايا ادران ذلك الانقلاب المشئوم ، وان اعوان بكر صدقي لا يزالون يشغلون بعض المراكز الحساسة في الجيش ••• والانكى من ذلك ، أن جميل المدفعي أخذ يقرب حكمة سليمان اليه ويجتمع به من حين الى حين ويعمل كل ما في امكانه لتطمين رغباته وكسب رضاه ••• ومن جهة ثانية ، كان عدد كبير من الشباب المثقف الواعي قد وقف صفا واحدا ضد الوزارة يحاول محاولات مستميتة اسقاطها ••• كانت هذه الكتلة من الشباب متفقة كل الاتفاق على وجوب ازاحة وزارة المدفعي ، الا ان ثمة اختلافا بينها في من يجب أن يخلف المدفعي بالرئاسة •• يرى قسم فيهم أن يكون نوري السعيد الرئيس المقبل للوزارة الجديدة ، ويفضل القسم الاخر أن تسند الرئاسة المقبلة الى الاستاذ رشيد عالي الكيلاني •• اما القواد فكانوا مترددين فيمن يختارون ••• انهم يريدون ابعاد المدفعي عن الحكم ولا يبالون بمن يؤلف الوزارة بعد ذلك ، ويتساوى في نظرهم في هذا المجال كل من رشيد عالي الكيلاني ونوري السعيد ، ومهما كان الأمر ، فان الوزارة المقبلة يجب ان يؤلفها واحد من هذين المرشحين ولا ثالث لهما ••• وهكذا أخذ ضغط المعارضة يشتد ضد الوزارة والنشاط

يزداد بين القواد للقيام بعمل ما ... واصبح موقف الوزارة حرجا : كانت تشعر بأنها تعالج سكرات الموت ، ولكنها كانت حريصة على الكرسي ولا تريد ان تستسلم لارادة خصومها بسهولة ... لذلك عزمت على أن تستعمل أخر تدبير في جعبتها ، وهو نفي عدد من المعارضين الى جهات العراق المختلفة ... وبقدر ما تستوعبه ذاكرتي ادون ادناه اسماء المنفيين والجهات التي تقرر نفيهم اليها ومعذرة للذين لم اذكر اسماءهم بسبب النسيان :

١ ــ رشيد عالي الكيلاني : عنه ٢ــ علي محمود الشيخ علي : بدرة
٣ ــ فائق السامرائي : الشمال ٤ ــ صديق شنشل : الشمال
٥ ــ جميل عبد الوهاب : علي الغربي ٥ داود السعدي : الشمال
٧ ــ شاكر الوادي : سوق الشيوخ ٨ ــ اسماعيل حقي الاغا : الفاو (١)
٩ ــ طالب مشتاق : قلعة صالح ...

ومنذ مساء يوم ١٣ كانون أول ١٩٣٨ بدأت توقيفات هؤلاء المنفيين . كنت في تلك الامسية في دار فخري الجميل المرحوم عندما دخل علينا جلال بابان واخبرنا ان الشرطة القت القبض على الاستاذ رشيد عالي الكيلاني ... وعند سماعي هذا الخبر ، قلت للحاضرين : انهم يفتشون عني ايضا ويحتمل أن تكون الشرطة في داري الآن ... ولم تمض اكثر من خمس دقائق على هذا الحديث ، حتى رن جرس التلفون وأتى الخادم يخبرني أن زوجتي تريد مكالمتي تلفونيا ، ولما كلمتها أخبرتني بان رجال

---

(١) انني لم افهم حتى هذه الساعة سبب نفي شاكر الوادي واسماعيل حقي الاغا ، لأن أي واحد فيهما لم يشتغل في ذلك الوقت مع اية كتلة من المعارضين .

الشرطة داهموا الدار وانهم يسألون عني ... قلت لها : لا تجزعي ان الأمر بسيط ، وانني مقبل على الدار حالا .. وودعت الاصدقاء في أثر ذلك وعدت الى بيتي في الاعظمية ... كان عدد من افراد الشرطة والمفوضين يقفون في كلا الجانبين من طريقنا الضيق ، واستوقف سيارتي المفوض محي الدين عبد الرحمن (من مرتبات شرطة الاعظمية) وقال : جئنا لنصحبك معنا الى مركز شرطة الكرخ .. ثم همس في اذني : « ان الأمر بسيط ، والحكومة قررت نفي عدد من معارضيها .. وستكون قلعة صالح مكان نفيك .. ان قلعة صالح قصبة جميلة ذات مناظر خلابة ، وتقع بين العمارة والقورنة ... « قلت : حسنا .. تفضل معي الى البيت لاتزود بما احتاج اليه من متاع السفر وعندئذ أكون مستعدا لمرافقتك الى اي مكان تبغيه ... دخلت الى البيت وطلبت الى زوجتي ان تستعجل في احضار ما أحتاج اليه من فراش ولباس وغير ذلك ، وكان كل شيء جاهزا بعد نصف ساعة . ودعت زوجتي ثم أبي وامي وقبلت اطفالي ، وغادرت الدار في صحبة المفوض وشرطيين للحراسة اوصلوني الى مركز شرطة الكرخ وسلموني الى المفوض الخفر هناك ... (١) وفي مركز شرطة الكرخ فهمت أن الاستاذ رشيد عالي موقوف في حجرة اخرى في نفس المركز . وقد طلبت الاتصال به ورفض الطلب ... وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي تسلمني مفوض شاب قد نسيت اسمه مع الاسف فأركبني عربة وجلس الى يساري ... وفي الطريق بين مركز الشرطة ومحطة جنوبي

---

(١) قالت لي امي تشجعني عندما قبلت يدها مودعا : لا بأس عليك يا ولدي ... الحمدلله الذي جعل لنا رجلا بين الرجال ، وفي اثناء ذلك كانت دموعها تجري على خديها والعبرات تكاد تخنقها .

بغداد ، قال لي : « انني اعرفك يا استاذ جيدا ، واقدر فضلك وخالص وطنيتك .. وقد كنت اود أن اتعرف بك في وضع آخر غير هذا ، ولكن شاءت الظروف لسوء حظي أن يكون تلاقينا في مثل هذه المناسبة السيئة . لا تيأس يا استاذ ، فهذه اوضاع وقتية شاذة لا بد من نهاية لها .. وأتمنى أن اراك يوما تعود الى بغداد ويرافقك التوفيق ويصحبك الحظ السعيد . ان هذا التقدير وهذا الشعور الوطني الفياض الصادران عن فم مفوض الشرطة كان من الامور غير المتعارفة في ذلك الزمن ، لأن الشرطة كانت تعتبر في ذلك العهود كل معارض للحكومة عدوا لها ، وكان الوطنيون الاحرار ينظرون الى الشرطة نظرات مريبة معتبرينهم زبانية جهنم ، أو اشد هولا من الزبانية ...

قفزنا الى عربة القطار واستقررنا في عربة من الدرجة الثانية ، وكان هذا المفوض النبيل يواسيني ويلاطفني ويهون علي الأمر في طول الطريق ويقوم بخدمتي بمنتهى اللطف وكرم الاخلاق .. كان يهيء لي الطعام : يقشر البيض ، ويقشر البرتقال ويصفه على الطاولة الصغيرة ، ولا يترك لي أي مجال لمشاركته في هذا العمل ... ثم نبدأ نأكل سوية ونحن نلهو باحاديث طلية عن الماضي والحاضر والمستقبل وكأننا صديقان حميمان منذ زمن طويل ...

وصلنا الى البصرة في صباح اليوم التالي ١٤ كانون أول ١٩٣٨ وذهبنا توا الى مركز شرطة العشار وسلمني صديقي الجديد الى المفوض الخفر هناك ، وودعني وذهب ليعود الى بغداد في قطار المساء ...

كان السيد عبد الرزاق « كوسه» .. متصرفا في البصرة آنذاك ، وكانت لي به معرفة سابقة قد تصل الى درجة الصداقة . وقد تأسست هذه الصداقة وهذه المعرفة عندما اقبل على استانبول مستشفيا ، وكنت آنذاك

سكرتيرا أول في مفوضيتنا في أنقرة وأقضي موسم الصيف في استانبول ••• لازمت هذا الرجل ملازمة تامة واصطحبته الى أحسن الاطباء الاختصاصيين وذهبت معه الى المستشفى الذي عولج فيه ، وكنت ازوره في صباح كل يوم وفي بعض الأيام كنت اكرر زيارتي بعد الظهر ايضا ، وبذلت كل ما في وسعي لخدمته حتى خرج من المستشفى وعاد الى العراق••• ومما لا شك فيه أنه كان يعلم بمحنتي ووصولي الى البصرة••• وكنت آمل ان يزورني في مركز شرطة العشار ، أو يكلمني مواسيا على الاقل ، او يوصي بي خيرا ••• ولكن لم يحصل أي شيء من ذلك مع الأسف ، ووضعت في حجرة مظلمة رطبة من مركز الشرطة ••• طلبت شايا فلم يقدم لي ، رجوت أن يرافقني شرطي لأشتري من السوق فرشة اسنان وكولينوس فرفض طلبي ••• وبعد بضع ساعات اركبت سيارة بالية (ترتقي الى عهد سيدنا نوح) وصعد الى جانبي مفوض ، وركب شرطي مسلح الى جانب السائق وتحركت بنا السيارة في اتجاه قلعة صالح ، محل منفاي •••

وفي مساء ذلك اليوم وصلنا قلعة صالح وجرى تسليمي الى مركز الشرطة هناك ••• سألت القائمقام ؟ قيل لي أنه رشيد الصوفي ، وقد فرحت بذلك فرحا عظيما (لانه كان صديقي الحميم) واستبشرت بوجوده قائمقام هناك ••• اتصلت به تلفونيا فرحب بي وطلب الى مركز الشرطة ان يوصلوني الى بيته ••• وعندما دخلت عليه استقبلني استقبالا اخويا وصاح وهو يقهقه : «جلبو العاصي مكتفا» (١) قلت له : دع الآن عنك فارغ الكلام ، وهيء لي بيتا مناسبا اقيم فيه ••• قال : كل شيء جاهز ، لقد استحضرنا لك دارا جميلة على نهر دجلة في احسن مكان من

(١) انه تلفظ هذه العبارة ، باللهجة البغدادية المتعارقة :«جابوا العاصي أمجتف » .

قلعة صالح ... بقيت في دار القائمقام وتناولت طعام العشاء معه وسهرت هناك حتى ساعة متأخرة من الليل ... وفي اثناء السهرة رن جرس التلفون وتناول رشيد الصوفي السماعة وكان المتكلم السيد ماجد مصطفى متصرف العمارة آنذاك ... واذ علم وجودي هناك طلب مكالمتي ورحب بي اجمل ترحيب ، وطمأنني انني سأكون موضع عنايته ورعايته طيلة مدة بقائي في قلعة صالح ، وأكد لي أنني سأكون حرا طليقا من كل قيد ، واردف قائلا : سأكون في قلعة صالح غدا قبيل الظهر ، فهل تحتاج الى شيء من هنا ؟ قلت : بلى والله ، انني بحاجة شديدة الى فرشة اسنان بروفيلا كيتك وانبوب من الكولينوس .. قال : غال وطلب رخيصا ... وصل ماجد مصطفى في اليوم التالي ، ومعه فرشتان بروفيلا كيتك وثلاثة انابيب من معجون الكولينوس وقدمه الي واعتبرتها أثمن هدية كوني فيأشد الحاجة اليها ..

سهرت تلك الليلة أيضا في دار القائمقام مع المتصرف ، قد اوصى المتصرف القائمقام بي خيرا وطلب اليه أن لا يتردد في تقديم أية مساعدة اطلبها ... وأضاف الى ذلك : ولا تتقيد يا رشيد بما يردك من تعليمات واطلق لطالب مشتاق الحرية أن يتجول كيفما يشاء ، واجعله يرافقك في بعض جولاتك التفتيشية ترفيها للنفس وتمضية للوقت ، وعامله كصديق عزيز علينا جميعا (١) فأنني ان اذكر هذا اللطف الاخوي من ماجد مصطفى أرى من واجبي أن اكرر شكري له في « اوراق ايامي » بتحية صادقة مشفوعة بالاعجاب والتقدير ...

---

(١) كانت التعليمات تقضي ان اكون حرا في داخل حدود بلدية قصبة قلعة صالح . وان لا يسمح لي بتجاوز تلك الحدود .

سقوط الوزارة وعودتي إلى بغداد

لم تطل اقامتي في قلعة صالح أكثر من أيام معدودات كنت أقضي اكثر اوقاتي فيها مع القائمقام أو في نادي الموظفين • وكان البيت الذي اقيم فيه بيتا جميلا يطل مباشرة على نهر دجلة ، وكان الجانب الأخر من النهر عبارة عن غابة من النخيل ذات منظر طبيعي رائع وجمال فتان •• وفي عصر يوم لا اضبط تاريخه ، وردتني برقية من أخي ادهم ، وقال لي الموزع قبل أن افتحها : انها تحمل لك بشرى يا سيدي •• كانت البرقية تحمل كلمتين قبل التوقيع : « سقطت الوزارة •••» وهل من بشرى أعظم من ذلك في تلك المحنة ؟••• أخرجت مبلغا من النقود من جيبي وسلمته الموزع ، ثم توضيت وصليت ركعتين حمدا لله ••• وبعد ذلك ذهبت الى دار القائمقام استقصي مزيدا من الاخبار ••• أكد لي القائمقام سقوط الوزارة ، ولكنه لم يكن يعلم من ألفها او سيؤلفها ••• وفي تلك الساعة كان موزعو البريد وبعض افراد الشرطة يطرقون بابا بعد باب تفتيشا عني ••• ذهبوا الى بيتي ولم يجدوني ••• وبحثوا عني في النادي فلم يروني ، وجالوا في الاسواق ولم يعثروا علي ••• وكل منهم يستوقف هذا وذاك في الطريق مستفسرا متسائلا : هل شاهدتم طالب مشتاق ؟•• ان رئيس الوزراء نوري

السعيد يطلبه تلفونيا عاجلا ••• وفي الاخير علموا انني في بيت القائمقام •• واوصلوا الخط حالا ببغداد وقالوا تفضل تكلـم مع فخامـة رئيس الوزراء ••• لا يزال صوت نور السعيد يرن في اذني ••• كيف حالك ؟•• أجبته : على احسن حال يا باشا ، شكرا ، تبريكاتي مع اطيب تمنياتـي بالنجاح والتوفيق ••• وبعد هذه المحاورة القصيرة قال : هيا ، تحـرك الى بغداد حالا ••• قلت : كيف أتحرك يا باشا ؟ ان قرار النفي صادر عن مجلس الوزراء والعودة يجب أن تكون ايضا بقرار من المجلس ، فهل اتخذتم مثل هذا القرار ؟ قال : هذا أمر بسيط سننجزه بدقائق قليلة ••• قلت : ان الاوفق اذن أن تكلم متصرف اللوا ليتخذ ما يلزم لتسفيري ••• قال : سأكلمه حالا ، ونحن في انتظارك هنا •• مع السلامة ••• وبعد عشر دقائق سمعنا رنين التلفون ••• المتصرف يكلم القائمقام •• والقائمقام يشير علي أن اتقدم لمكالمة المتصرف ••• بادرنـي المتصرف اولا بالتهنئـة واردف قائلا : والآن اننا تحت امرك ، متى تريد ان تسافر الى بغداد ؟•• اجبته انني اود ان اعود بالقطار كما أتيت ، واذا امرت فانني مفضل السفر غدا صباحا الى البصرة لالحق بقطار المساء ؟••• قال : أرجوك ان تسافر بالسيارة الى بغداد على طريق العمارة ويسرني ان اراك مرة اخرى قبـل السفر ••• وبناء على اصرار المتصرف ونزولا عند رغبته ، وافقت علـى اقتراحه ، وغادرت قلعة صالح متوجها الى العمارة فـي صبـاح اليـوم التالي ••• وفي العمارة نزلت ضيفا على دار المتصرف ، وفي يوم وصولي بالذات وصل اليها ايضا جميل عبد الوهاب من منفاه في علي الغربي ••• وفي صباح اليوم التالي ودعنا المتصرف الصديق الكريم ماجد مصطفـى واتجهنا نحو الكوت بسيارة واحدة (جميل عبد الوهاب وأنا) تحرسنا سيارة مسلحة من مرتبات شرطة العمارة وبتنا ليلتنافـي الكوت حيـث التحق بنا الاخ علي محمود الشيخ علي ، وتم سفرنا نحن المنفيين الثلاثـة الى بغداد بسيارة واحدة •

تعييني مديراً عاماً للحسابات

ثم نقلي إلى المديرية العامة للدعاية

بعد وصولنا الى بغداد بأيام قليلة سافر نوري السعيد الى لندن وأشغل ناجي شوكة رئاسة الوزارة وكالة ... وفي أثناء قيامه بوكالة رئاسة الوزارة ، استدعاني يوما الى مكتبه في وزارة الداخلية وواجهته فيها ... استقبلني والابتسامة تعلو وجهه ، ثم هنأني بسلامة العودة ، واخيرا قال لي : انني اعرفك يا طالب حق المعرفة ، اعرفك شابا غيورا ، مخلصا في عملك ، حرا في آرائك وافكارك ، هذا فضلا عن مقدرتك وكفاءتك ... واعرف ايضا انك قاسيت كثيرا واصابك اذى كثير .. والآن يجب ان تنال حقك في هذه الدولة ... انني اعرض عليك وظيفتين اثنتين : متصرفية البصرة أو المديرية العامة للمحاسبات فايهما تختار ؟... سررت بالحقيقة بهذا العرض ، واكبرت في ناجي شوكة روحه العالية ووفاءه الجم وشكرته على ما أبداه نحوي من رعاية ولطف وتقدير ... واخترت المديرية العامة للمحاسبات دون تردد ، لانني كنت أفضل ان أكون قريبا من زملائي في بغداد واعيش في وسط الاحداث التي كانت تجري في مثل تلك الظروف

الشاذة والتي لم يكن يعلم الا الله بماستؤول اليه الحال في مستقبل الأيام ...

اشتغلت في المديرية العامة للمحاسبات بكل جد منذ اول يوم مباشرتي عملي فيها وكان ذلك في ٢٩ كانون ثان ١٩٣٩ ، وبذلت كل جهد ممكن لأكون مديرا ناجحا في عملي الا أن عملي في هذه الوظيفة لم يدم اكثر من اربعة اشهر ..

زارني يوما في مكتبي استاذي العزيز محمود صبحي الدفتري وبعد سلام وكلام قال : انني اريد أن اقترح نقلك الى مديرية الدعاية العامة فهل لديك مانع من ذلك ؟.. قلت : هل أفهم من ذلك ان السيد رستم حيدر وزير المالية غير مرتاح من بقائي في رأس هذه المديرية ؟ قال : أبدا ... وبالعكس ، فرستم حيدر ممنون منك جدا ... وقد صرح في مجلس الوزراء ، قبل ايام قليلة اثناء حديث جرى في تشكيلات وزارة المالية ومديرياتها العامة قائلا : « انني كنت مترددا في الموافقة على تعيين طالب مشتاق في اثناء المذاكرة التي جرت في تعيينه في هذا المجلس ، ولكنني اليوم أرى من واجبي أن اقول : انني فخور بهذا التعيين »... فهل تريد شهادة اكثر من ذلك على حسن ظن وزيرك بك ، وتقديره اياك ؟.. قلت : اذا كان الامر كذلك فانني مفضل البقاء في وظيفتي الحالية ولا ارغب النقل الى سواها ... وعبثا حاول اقناعي في قبول العرض الجديد لأنني كنت أعلم سلفا الصعوبات التي ستجابهني والمشاكل التي ستحدث لي في تلك الوظيفة لا سيما والحرب العالمية الثانية على وشك أن تلهب الارض بنيرانها، وتدك المعاقل بمدافعها الثقيلة ، وتبيد الاحياء من الناس وكأنها تبيد الحشرات والذباب للتخلص من شرها ... تركني محمود صبحي الدفتري

وزير العدلية يومئذ ، وهو غير مرتاح من رفضي عرضه ••• وبعد يومين جاءني العميد طه الهاشمي وعاتبني على عدم تنفيذ رغبة الدفتري ، واعاد علي الكرة بقبول الوظيفة الجديدة التي عرضت علي ••• شرحت له المحاذير التي افكر فيها وقلت له بصريح العبارة : ان الدعاية في وضعها الحالي ، والحرب تقترب يوما بعد يوم ، ستقلب حتما الى جهاز يزمر للانكليز ويطبل بالدعاية لهم لست مستعدا ابدا أن اصبح آلة مسخرة تدير جهازا يطبل للانكليز ويزمر لهم ••• قال الهاشمي : هذا وهم منك لا وجود له في عالم الحقائق ••• ولماذا تفكر بأن اجهزة الدعاية ستكون في امرة الانكليز يستعملونها لمصلحتهم كيفمايشاؤون وعندما يريدون؟••• قلت : هذا ما اظنه واتخوف منه ••• ورغم الحاح الهاشمي واصراره بقيت متمسكا برأيي ورفضت العروض رفضا باتا ••• وخرج من غرفتي كزميله وصديقه صبحي الدفتري ، غير راض من اصراري على الرفض •••

وبعد هاتين المقابلتين ، رأيت من المناسب أن اواجه وزيري المغفور له السيد رستم حيدر فذهبت اليه واوضحت له ما جرى بين كل من الدفتري وبيني وبين الهاشمي وبيني وقلت له : انني أود أن ابقى في وظيفتي الحالية الا اذا كان معاليك راغب في اقصائي عنها ••• قال : لا والله ، انني لا ارغب في ابعادك عن المديريةالعامة للمحاسبات ولكن الاخوان يرون أنك انسب شخص لاشغال المديرية العامة للدعاية في الوقت الحاضر ••• ولما استفهمت منه الاسباب الداعية الى تنحية فائق السامرائي عن مديرية الدعاية التي يشغلها ••• افاد أن ثمة اختلافا حصل بينه وبين محمود صبحي الدفتري ، وان الاخير مصر على اجراء هذا التبديل في المديرية العامة للدعاية ••• وفي أثناء حديثي مع رستم حيدر قال لي : طيب اذا كنت لا ترغب في النقل الى مديرية الدعاية العامة أليس في امكانك أن تفتش عن شخص آخر لائق بهذا الوظيفة ترشحه لنا ؟••• أجبته :

سأعمل في هذا السبيل ، وسآتيك بما يجد في خلال يومين ... وعدت الى مكتبي وأنا افكر في الشخص اللائق بهذه الوظيفة ... واخيرا استقر رأيي على المرحوم الشهيد يونس السبعاوي ، وواجهته وعرضت عليه مديرية الدعاية العامة فقبلها مبدئيا ولكنه اشترط ان لا يكون راتبه اقل من ستين دينارا شهريا ... عدت الى رستم حيدر وقدمت له اسم يونس السبعاوي مرشحا للمديرية العامة للدعاية واخبرته الراتب الذي يطلبه لتولي هذه الوظيفة ... نظر الي طويلا وسألني : كم سنة خدمت الدولة؟.. قلت : عشرون سنة ،.. وكم هو راتبك الآن ؟.. قلت ، ستين دينارا ... ابتسم وقال : ايجوز ان امنح يونس السبعاوي ستين دينارا شهريا اول راتب له في اول وظيفة يشغلها ، وأنت لم تنل هذا الراتب الا بعد جهود بذلتها وخبرة اكتسبتها في خلال عشرين عاما ؟...لا ...ان هذا غير ممكن ولا أستطيع منحه أكثر من خمسين دينارا ، وأصر يونس في النتيجة على الستين دينارا ، وأصر رستم حيدر على الخمسين دينارا ، وعادت المشكلة الى سابق عهدها ... وبعد هذه المداولات والاتصالات ، كلمني يوما نوري باشا السعيد تلفونيا وطلب حضوري فورا الى مجلس الوزراء لمقابلته ... ذهبت اليه على عجل ، واذ دخلت الى مكتبه بادرني بقوله : انظر يا طالب أنا لا أريد نقاشا او كلاما ... هذا نظام مديرية الدعاية دققه حالا وأعمل فيه التعديلات المطلوبة لجعل هذه المديرية مديرية عامة ، ومجلس الوزراء في حالة اجتماع الآن وسيقرر التعديل فورا كما سيقرر تعيينك مديرا عاما للدعاية ... أصبحت عندئذ تجاه امر واقع ، لا استطيع ان اتخلص منه ولا مفر لي من قبوله ... وهكذا تسلمت وظيفتي الجديدة المديرية العامة للدعاية في يوم ٣٠ مايس ١٩٣٩ .

في ركاب الامير عبد الاله.

في اثناء جولته في المناطق الشمالية

رن جرس التلفون في مكتبي الرسمي ، قبل ظهر يوم ٣ آب ١٩٣٩ ، وتناولت السماعة وقلت : الو •• أجابني مخاطبي : الو •• طالب ••• ولم يكن الصوت غريبا عن اذني وعرفته من اول لحظة واجبت تفضل يـا استاذ ، صباح الخير •• رشيد عالي بك يتكلم ، اليس كذلك ؟ قال : نعم ، صباح الخير •• استعد للسفر في الطيارة في الساعة السادسة من صباح الثلاثاء من المطار المدني •• وجهتنا الموصل •• الامتعة ترسل غـــدا في السيارة •• امرك يا استاذ ، حاضر •••

وهكذا أخذت الاهبة لتنفيذ هذه الاوامر القطعية الشبيهة بالاوامر العسكرية ••• وفي الحقيقة انني لم اكن أجهل امر هذه السفرة ، فقـد اخبرني نور السعيد رئيس الوزراء من قبل انني سارافق الموكب الاميري في رحلته الى الانحاء الشمالية ، غير انني لم افكر قط ان الرحلة ستبـدأ بالطائرة التي لم يسبق لي أن جربت ركوبها ، ولماحاول ركوبها رغم ان لي اخوين طيارين قد يكونان من امهر الطيارين العسكريين في العراق ورغم انهما كثيرا ما اصرا علي بركوب الطيارة ولو مرة واحدة مع احدهما بقصد التجربة على الاقل ••• اما في هذه المرة فلم يكن لي مناص مـن الصدوع

بالامر ، فقد كتب علي ان اركب الطائرة رضيت ام ابيت (واللي انكتب على الجبين ، لازم تشوف العين ...) ...

وجاء يوم الثلاثاء ١٥ آب ١٩٣٩ وامتطيت سيارتي التي راحت تنهب الارض نهبا في طريقها الى المطار المدني ، وكان في المطار عدد من المودعين يتقدمهم الامير زيد ورئيس الوزراء واللواء امين العمري وأمين العاصمة وعدد من رجال البلاط والموظفين ذوي المناصب العالية .

وكانت طائرتان جاهزتان لركوبنا .. الطائرة الاولى « النسر الذهبي» كانت طائرة الامير الخاصة استقلها الامير وفي معيته رشيد عالي الكيلاني رئيس الديوان الملكي ، اما الطائرة الثانية فكان ركابها المرحوم مولود مخلص وانا والرئيس عبيد المضايفي والملازم الاول جياد الطائي . ولا أرى حاجة لكتمان اضطرابي عندما تسلقت سلالم الطائرة درجة بعد درجة ، فكان قلبي يختلج في صدري من شدة الاضطراب ، وكنت اسمع دقاته والعرق يتصبب من جبيني بصورة غير عادية ... وأظن أن الشعور بالخوف والاضطراب لا بد منه في مثل هذه الحالات ، فالمرء يجفل دائما من كل حدث جديد او تجربة مجهولة العواقب . ومع ذلك لم يكن خوفي آنئذ أشد منه عندما ركبت سيارة الباص أول مرة في حياتي من بعقوبة الى بغداد في سنة ١٩١٥ ... اخترنا مواقعنا في الطائرة ، ودارت المحركات واشتد ازيزها ، وصدرت عنها قعقعة هائلة تصم الاذان ، وكان مثلها كالبحر الهائج اذ يرعد ويزبد ، وكالعواصف اذ تقصف وترعد...وتحركت الطائرة بسرعة هائلة لاعهد لي بها من قبل ، لا في القطارات او في السيارات . وأخذت تعلو رويدا رويدا حتى صارت مدينة بغداد بكاملها تحتنا ...



الامير عبد الإله وحاشيته بعد جولة من السولاف الى سرعمادية على ظهور البغال

كان المرحوم مولود مخلص في الكرسي الامامي ، وكنت جالسا في الكرسي الذي يليه ، وعن يميني المرافق الرئيس عبيد المضايفي ، ثم المرافق الملازم الاول جياد الطائي وقد جلس في الكرسي الخلفي الجندي المساعد . وبعد ما سرنا نحو عشر دقائق اخذنا تتجاذب اطراف الحديث ، وصار القلق الذي ساورني قبلا يزول شيئا فشيئا . وكانت طائرتنا تطير بهدوء واستقرار لا نجد لها نظيرا حتى في افخم السيارات التي تسير على احسن الطرق تعبيدا ... وكان يخيل لي احيانا ان الطائرة واقفة في الجو لا تبرح مكانها ، ولم أكن أشعر بمسيرها الا عندما كنت أنظر الى سطح الارض وأرى ظلها يتسابق والريح بسرعة مدهشة ... وهكذا اجتزنا جبال حمرين فالزابين . وبعد مرور ساعتين من الزمن وجدنا انفسنا فوق مدينة الحدباء ، ولم تمر اكثر من لحظات معدودات حتى أخذت الطائرة تهبط بنا على ارض الحدباء بسلام ... (١)

كان مطار الموصل مكتظا بجمع غفير من المستقبلين يتقدمهم السيد عمر نظمي وزير الداخلية يومئذ ، وكان قد سبق الموكب للاشراف على استكمال الوسائل اللازمة لراحة الامير ، وتنظيم منهج جولاته ، وكان في طليعة المستقبلين تحسين علي متصرف اللواء ، ثم قائد المنطقة ، والدكتور فائق شاكر رئيس صحة اللواء ، وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين فقناصل الدول الاجنبية والاعيان والنواب والرؤساء الروحانيون والاشراف ... وبعد أن مضى على وصولنا ربع ساعة ظهرت في الجو

---

(١) كان الملازم الاول حلمي عبد الوهاب هو الطيار الذي قاد طائرتنا بكل مهارة واتقان .



الامير عبد الاله وبعض أركان موكبه : اثناء رحلته الى المنطقة الشمالية . على نهر « سرجنار » في السليمانية من الشمال الى اليمين : الأمير عبد الاله ، رشيد عالي الكيلاني رئيس الديوان الملكي ، عمر نظمي وزير الداخلية ، طالب مشتاق المدير العام للدعاية والنشر ، المرافق عبيد المضايفي ، الحاج رمضان متصرف لواء السليمانية ، والكلمتان « ليست للنشر » بخط الامير عبد الاله نفسه ...

طائرة الامير ، ثم هبطت وخرج منها الامير والاستاذ رشيد عالي الكيلاني وصافحا المستقبلين فردا فردا ، وبعد الانتهاء من المراسيم المعتادة ، سار الموكب حتى دار الضيافة الذي يطل على نهر دجلة والذي اتخذ مقرا للضيوف جميعهم •••

انتهى الجزء الاول من هذه الجولة ، بعدما شملت لوائي الموصل واربيل فقط • وكان المقرر أن تتم زيارة كركوك والسليمانية أيضا ، الا أن مرضا مفاجئا انتاب الامير عبدالاله ونحن في اربيل أدى الى اتخاذ قرار بعودته الى بغداد ، واستقدمت لهذا الغرض طائرة «النسر الذهبي» من بغداد فحملت الأمير وفي رفقته رشيد عالي الكيلاني ونقلتهما الى بغداد في صباح يوم ٢٦ آب ١٩٣٩ •

اما نحن الذين بقينا في اربيل من رجال الموكب الاميري ، (السيد مولود مخلص ، عمر نظمي وأنا) ومعنا يونس السبعاوي فقررنا العودة الى بغداد في السيارات على طريق كركوك ، غادرنا اربيل بعد ثلاثة ارباع الساعة من سفر الأمير ••• وقد أصر الكثيرون من الرؤساء والوجهاء والموظفين على توديعنا حتى ناحية التون كوبري ، ولم يفد اصرار الباشا ولا رجاء وزير الداخلية بالاكتفاء بمراسم التوديع في مركز اربيل ، اذ ابى القوم الا أن يرافقونا الى التون كوبري • وفي التون كوبري كان في انتظارنا جميع رؤساء الدوائر في كركوك وعدد من اشراف البلد ووجوهه ، فنزلنا من سياراتنا وصافحناهم شاكرين ، وودعنا مودعينا من اربيل وعدنا الى سياراتنا التي تحركت بنا في اتجاه كركوك حيث وصلناها في حوالي الساعة العاشرة صباحا •

تناولنا طعام الغداء في كركوك على مائدة رسمية دعي اليها أكثر من خمسين شخصا من موظفي اللواء واعيانه واشرافه . وبعدما استرحنا مدة القيلولة تحركنا مع جماعة كبيرة من المودعين الى مركز ناحية طوز خرماتو وبتنا ليلتنا هناك في دار السيد علي ... صديق عمر نظمي وزير الداخلية وقد رحب مضيفنا بنا واكرم وفادتنا عنده على الرحب والسعة ، وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي تحركنا ووصلنا الى بغداد في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وبذلك انتهت سفرة من اجمل السفرات التي صدفتها في حياتي ...

الجزء الثاني من الرحلة

إلى كركوك في أول ١٩٣٩

في صباح ٤ تشرين أول ١٩٣٩ تلقيت امرا بمرافقة موكب الامير الوصي في سفرته الى لوائي كركوك والسليمانية ، واسرعت في اكمال معدات السفر وحزمها وارسالها لتنقل بالقطار مع الاحمال الاخرى في مساء اليوم نفسه ... وفي صباح اليوم التالي ، والساعة السادسة والنصف بالضبط ، كنا في المطار المدني المكتظ بالمودعين : نوري السعيد رئيس الوزراء والوزراء وموظفي البلاط الملكي ومدير الشرطة العام وغيرهم ... كان من المقرر أن نسافر في طائرتين اثنتين ، يسافر الامير وفي رفقته رشيد عالي الكيلاني في طائرة الامير الخاصة ونسافر نحن : (وزير الداخلية وأنا والمرافقون) في احدى طائرات جمعية الطيران العراقية . ولكن الأمير اظهر في اللحظة الاخيرة رغبته في أن نطير كلنا في طائرة واحدة ، وهكذا كان ... وما كادت الساعة تشير الى السابعة حتى كانت طائرتنا تدوي في الفضاء فوق بغداد ... استعرضنا للمرة الثانية من الجو

تلك المناظر الخلابة : مناظر دجلة وتعرجاتها ، وغابات النخيل وحلو احتشامها ، ومنائر الكاظمين الذهبية ووقار انتصابها ... لله ما احلاك يا بغداد ، يا بلدي الحبيب ، يا مثوى المجد والفخار ، والجمال ، والبهاء والعظمة والجلال ...

كان الجو هادئا ، وكانت طائرتنا تطير في هدوء تام واتزان يكاد ينسينا بأننا نطير في طبقات الهواء ... وكانت طائرة الامير الخاصة « النسر الذهبي» خالية الا من قائدها والمرافق الرئيس عبيد المضايفي ، تقترب منا تارة وتبتعد اخرى حتى غابت عن اعيننا وراحت تسابق الريح في سرعتها ... وقد وصلت الى كركوك قبلنا بما يقرب من العشرين دقيقة : اما منظرها في الجو من الجو فكان على جانب من الروعة والجمال أجد نفسي عاجزا عن وصفه ...

وصلنا الى كركوك في الساعة الثامنة والدقيقة العاشرة صباحا ، وكان المطار مكتظا بالمستقبلين من مختلف الطبقات كالمعتاد ... بتنا ليلة واحدة في كركوك بعدما حضرنا ولائم الغداء والشاي والعشاء ...

وفي صباح اليوم التالي الموافق ٦ تشرين أول ١٩٣٩ غادر الموكب مدينة كركوك متجها نحو السليمانية ، وفي حدود قضاء جمجمال استقبله القائمقام ورؤساء العشائر وموظفو القضاء وحشد كبير من الاهلين وافراد العشائر والقرى المجاورة . كان الطريق من مركز قضاء جمجمال الى السليمانية غاصا بالآلاف من سكان القرى والدساكر وافراد العشائر ... وفي مخفر يدعى «اربند» في حدود اللواء شاهدنا رتلا طويلا من السيارات كانت تقل الحاج رمضان علي متصرف لواء السليمانية

وكبار رجال الجيش وموظفي اللواء وعددا ليس بقليل من رؤساء العشائر ••• وبعد الانتهاء من مراسم الاستقبال والترحيب تابع الموكب سفره حتى بلغ السليمانية ••• (١)

وفي صباح يوم السبت الموافق ٧ تشرين أول ١٩٣٩ سافر الموكب وفقا للمنهج المقرر الى حلبجة ، وبعد الانتهاء من زيارته بعض المؤسسات الحكومية ذهب الجميع الى نادي الموظفين ، وكان مجهزا بكل ما يكفل الراحة للضيوف المقبلين الى حلبجة ، حيث نظمت فيه حفلة غداء حضرها عدد من زعماء القضاء واشرافه •••

* * *

(١) لم اتطرق الى الحفلات والولائم في خلال هذه الجولات لانها تكاد تكون معلومة لدى الجميع ، وذكرها باسهاب يسبب ضجرا مملا ...

في دار حسن فهمي بك جاف

وجهت دعوة خاصة الى كل من الاستاذ رشيد عالي الكيلاني والى السيد عمر نظمي والي ، لشرب الشاي في دار الوجيه حسن فهمي بك جاف في حلبجة ، وتقبلناها بسرور وذهبنا الى الدار المذكورة في حوالي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر ، ووجدناها دارا جميلة مبنية على طراز عصري في وسط حديقة فسيحة غناء مزدانة بصفوف الازهار والاشجار ... وقد كان صاحب الدعوة لطيفا في استقباله سخيا في كرمه ، انيسا في مجلسه . وبعد ان تناولنا الشاي على مقصف بديع صفت عليه صحون الفواكه والحلوى ، عدنا الى المقر الاميري وتحركنا في معية الموكب في الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر بتوديع رائع في حلبجة وعلى طول الطريق . ووصلنا الى السليمانية حوالي الساعة السابعة والنصف بعد الغروب .

العودة إلى كركوك في ٨ تشرين أول ١٩٣٩

وفي صباح يوم الاحد الموافق ٨ تشرين اول ١٩٣٩ ، ذهبنا في مسيرة الى مكان يدعى «سرجنار» وكان هذا الموقع ذا جمال ساحر تزينه اشجار باسقة ، واعشاب زاهية خضراء سندسية يجري في وسطها جدول صغير يكسب هذا المنتزه سحرا وبهاء على بهاء ... ويعتبر « سرجنار» هذا اجمل منتزه في اللواء يقصده اهالي السليمانية في ايام العطل والاعياد لا سيما في موسم الربيع ، ويقضون فيه ساعات لهو ومرح ... وقد أعد مكان جميل على حافة الجدول الدقيق لاستراحة الامير ورجال حاشيته ، ولما حل موعد الغداء صفت المناضد ونضدت عليها صحون كبيرة احتوت على انفس المأكولات المحلية التي اشتهرت السليمانية بها ، وبعد الانتهاء من الغداء والاستراحة المعتادة سرنا متوجهين الى كركوك وفقا للمنهج المقرر . وقد ودع زعماء اللواء ورؤساؤه وموظفوه وعلى رأسهم المرحوم الحاج رمضان متصرف اللواء الموكب حتى اخر نقطة من الحدود : «دربند»

وفي دربند ، كان في الاستقبال الدكتور فائق شاكر متصرف لواء

كركوك الجديد (١) ، وفي معيته اعيان كركوك ونوابها وكبار موظفيها العسكريين والمدنيين والرؤساء والاشراف ، وقد بتنا ليلتنا في كركوك التي لبست حلة قشيبة من المصابيح الكهربائية الملونة والاعلام العراقية ، وكانت اقواس النصر بالوف المصابيح الكهربائية تشع نورا وترفرف عليها الرايات ، كما ان بعض الاهلين زين واجهات بيوته بالسجاد الفاخر والقماش الثمين ..

وفي صباح يوم الاثنين الموافق ٩ تشرين أول كنا نسير بين موجات عظيمة من الاهالي وطلاب المدارس في طريقنا الى المطار . وبعد اجراء مراسم التوديع امتطى الامير عبدالاله الطائرة «الزوراء» وتبعته الحاشية ولم تمر بضع دقائق الا وكنا نشق طبقات الهواء فوق كركوك ـ طوز خرماتو ... وهذه هي المرة الثالثة التي اطير فيها في الفضاء ... جلس الامير على المقعد الاول ، وجلس رشيد عالي الى يساره ، واخذ عمر نظمي مقعده في الصف الثاني ، وجلست أنا على كرسي بجانبه واحتل الكرسي الخلفي الأخير المرافق الرئيس عبيد المضايفي ... كان الرئيس مجد الدين النقيب نسرنا الماهر منكبا على ادارة آلات الطائرة بثقة واطمئنان تامين ... جو بديع ، هدوء تام لا تعكر الجيوب الهوائية صفاءه ، وفي هذه المرة كنت اهدأ بالا واكثر اطمئنانا من المرتين : الاولى والثانية لركوبي الطائرة ... لقد كان الرئيس مجد الدين يطمئن ان لا خطر مطلقا من ركوب الطائرة ، باستثناء العوارض المفاجئة التي قد لا يمكن التخلص منها حتى في السيارة..ان لدينا ماكنتين اثنتين ، فاذا أصاب احداهما عطل تمكنا من استعمال الثانية وحدها للاستمرار في السير . وعلى فرض ان الاثنتين توقفتا عن العمل فبامكاني الاستمرار على الطيران كيلو مترات عديدة ثم الهبوط في ارض صالحة ... والحقيقة ان هذه الايضاحات كانت تشجعني

---

(١) عين الدكتور فائق شاكر متصرفا للواء كركوك بعد انتهاء زيارة الامير الوصي للواء الموصل واربيل وكان قبلا رئيس صحة لواء الموصل ...

وتريح بالي وتبعدني كثيرا من الوساوس والاوهام التي كانت تستولي على افكاري • وبينما نحن في هذا الحديث ننظر تارة الى الاسفل وما يترآى لنا من صخور جبلية ، وطرق وعرة ، وهضاب قليلة الارتفاع . واخرى الى الامام ، واذا بغابات كثيفة من النخيل تظهر تحتنا ونهرين طويلين كثيري الالتواء ، احدهما من الشرق والآخر من الغرب ، يظهر ان امامنا •• هذه مناظر ديالى ، وهذه دجلة من الغرب ، وديالى من الشرق ، وهذا نخيل بعقوبة والهويدر يترآى لنا عن بعد ، وها اننا نطير فوق دلتاوة والسندية ••• وبعد دقائق معدودة برزت امامنا مآذن الكاظمين الوهاجة بالذهب الخالص ، ثم مئذنة الامام الاعظم ، واخيرا اصبحت قصبة الاعظمية ومدينة بغداد ،بكل معالمها تحت طائرتنا •••

وقبيل الوصول الى الاعظمية تناول الأمير ماكنته الفوطوغرافية واخبر الطيار رغبته في التقاط صورة من الجو لقبة المقبرة الملكية الشاهقة الخضراء ، ولم اكن افكر في ذلك ضررا ولم يكن يخطر ببالي ان هذه العملية ستخرج حليب امي من أنفي ••• ها اننا اصبحنا قريبين من القبة واخذت الطائرة ترتفع تارة وتنخفض اخرى ، وتميد مرة الى اليمين واخرى الى الشمال •• ماذا جرى ؟ ويلاه ••• ما هذه المناظر المخيفة ؟ ••• لقد اصبح نهر دجلة ذا مناظر عجيبة وغريبة ••• اراه مرة فوق الابنية . وطورا تحتها ••• وتارة يصبح منحدرا من فوق الى تحت ، ثم أراه بعد لحظة يغير الاتجاه ويصبح انحداره منعكسا من تحت الى فوق ••• ثم ماذا جرى بهذه البساتين والحدائق ؟••• لقد صارت تتحرك وتتراقص ، ثم تقفز من مكان الى آخر بأوضاع وحركات لو ترآءت في المنام لاقوى الرجال أعصابا لما تركته يغمض جفنيه في راحة واطمئنان ••• فالله انها

الطامة الكبرى لقد بدأ الدوار يفعل مفعوله في رأسي ومعدتي وفي كل جزء من اجزاء بدني .. كدت اصرخ ولكنـــي خجلت ، وكدت انتهر الطيـــار واصرخ في وجهه ولكني تأدبت ... وقد أخذ العرق يتصبب من جسدي وكأنه جدول يسيل من اعلى رأسي الى اخمص قدمي ... الحمد للـــه لقد انتهى التصوير وعادت الدنيا الى اصلها وعاد الكون الى مجراه الطبيعي، وعدت أنا الى نفسي وصرت أمسح وجهي ورقبتي بمنديل لو عصرته فـــي تلك اللحظة لسال منه العرق سيلا ... وعندئذ التفت الي رشيد عالـــي الكيلاني وصار يضحك من حالتي واستطرد قائلا : انظر سيدي صاحـــب السمو ... كيف يجري العرق من جبين طالب! .. لله ما اخوفك يا طالب! .. ولكن عندما كان المرحوم يضحك ويلفت انظار الامير ومن في الطائرة الى وضعي ، كان هو نفسه يمسك منديلا حريريا ابيض ناصع اللون يمسح به رقبته من العرق المدرار، اما المنديل فقد اكتسب لونا أسمر بسبب ابتلاله بكمية من العرق لم تكن أقل مما ابتل به منديلي ! .. وأخيرا هبطت الطائرة على مدرج المطار المدني وخرجنا منها ووطأت قدماي أرض المطار وهي لا تزال ترتجف مما أصابني من تأثير الدوار ...

كلمة أخيرة

ها قد أكملنا تجوالنا في اربعة الوية من اهم الوية العراق ،ورأينا حيثما حللنا شعبا يخلص لوطنه وقد استقبلنا هذا الشعب بحماسة ما فوقها حماسة ، واظهر من ضروب الود والولاء للحكومة ، والتعلق بالوحدة العراقية ما يعجز عن وصفه ابدع الوصاف ... وافراد هذا الشعب الذين لمسنا فيهم هذه الروح الاصيلة ، وهذه العواطف المباركة نحو الدين والوطن ، ذو عقول مدركة ، وذكاء فطري حاد ، فضلا عن كونهم ذوي استعداد تام لتقبل جميع التطورات العصرية من علمية وثقافية واجتماعية وادبية . وهذا الشعب يعيش على تربة فياضة بالعناصر التي يتطلبها الرقي والعمران ... فماذا عملنا حتى الآن لانتشاله من حالة الفقر المدقع واوضاع التأخر والانحطاط ؟ . ان الامراض تفتك في جموعه لنقص المؤسسات الصحية ، والجهل يغرس مخالبه في العقول والنفوس لقلة دور الثقافة والتهذيب ، وسوء الادارة ينمي فيه أشر بذور التفرقة والفساد ... رأينا مراكز أقضية كبيرة ، فضلا عن القرى والدساكر ، محرومة من النور الكهربي ، لا بل من مؤسسة تسقي الناس الماء القراح ... رأينا في بعض الانحاء فواكه لذيذة ، شهية ، زكية تعطى طعاما للماشية والحيوانات بسبب فقدان الطرق والمواصلات التي تسهل نقل مثل هذه الخيرات الى

الاسواق ••• رأينا بساتين عامرة ، تجري المياه فيها ، وهي كالجنات ذات اشجار واثمار ، ولكن ثمراتها كانت عرضة للتلف والفساد بسبب تسلط الآفات والحشرات ••• رأينا جبالا شاهقة ووديانا عميقة ، لا بل مدناً عظيمة ، يابسة قاحلة ، لا اخضرار فيها ولا أشجار ••• رأينا كنوزا لم تستثمر ، وثروة طائلة تبهر الابصار ولكنها تركت في زوايا النسيان ••• والان وقد لمس رجالنا بأيديهم حاجات البلاد ، وألموا عن كثب بما يتطلبه الشعب للنهوض من الرقدة والانتباه من الغفلة ليس لي الا ان استحثهم الى العمل المجدي بعزم اكيد واخلاص شديد ••• ان على رجالنا اليوم تقع تبعات المستقبل ، وخير لكم يا رجالنا ان تشمروا عن السواعد وتنزلوا الى الميدان وتخوضوا المعركة غير آبهين ولا وجلين ••• (١)

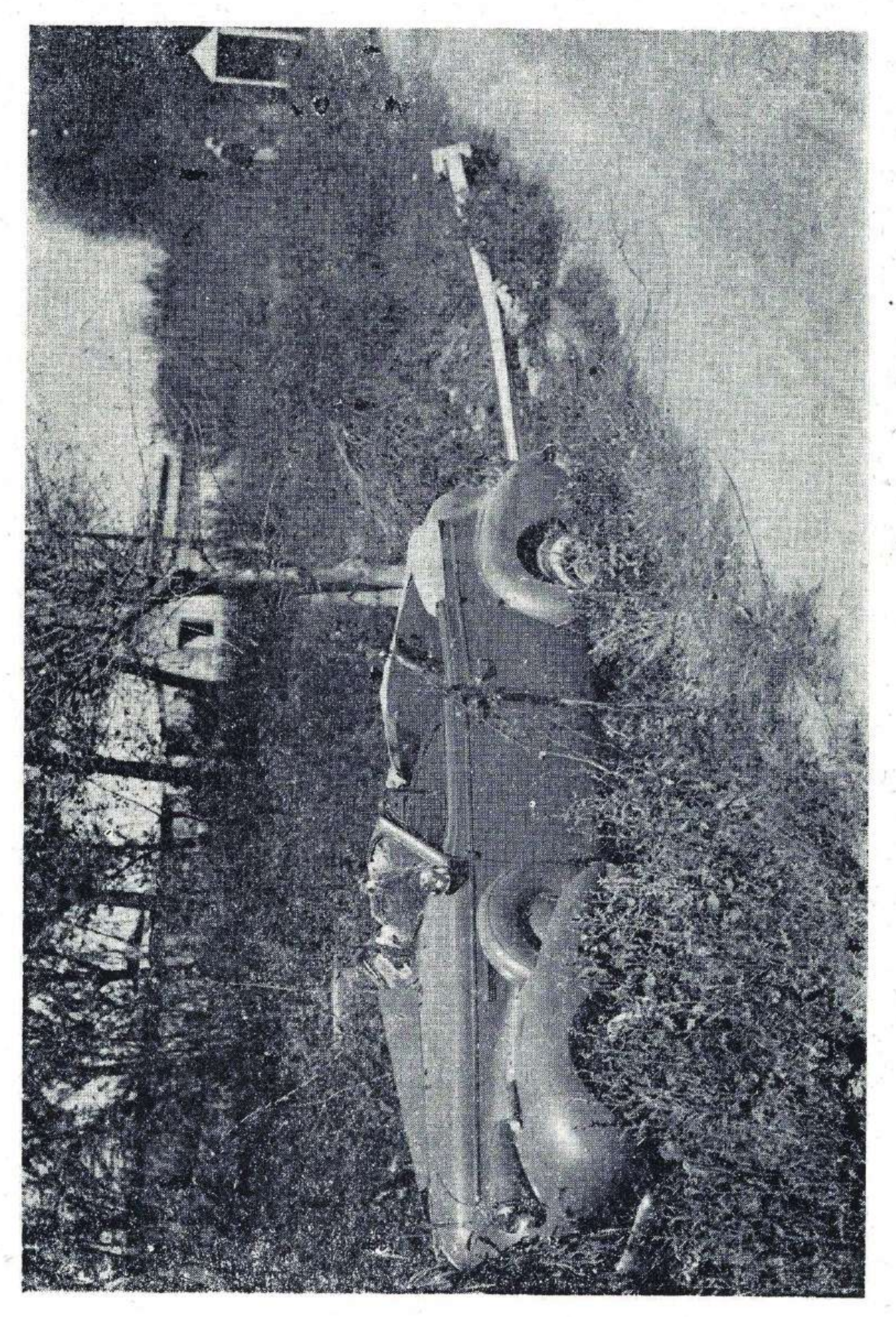
ان وظيفتي في المديرية العامة للدعاية قد انتهت في يوم ١٩ــ٣ــ١٩٤٠ بناء على اختلاف وقع بيني وبين المرحوم نوري السعيد كما سأشرح ذلك في فصل لاحق •••

---

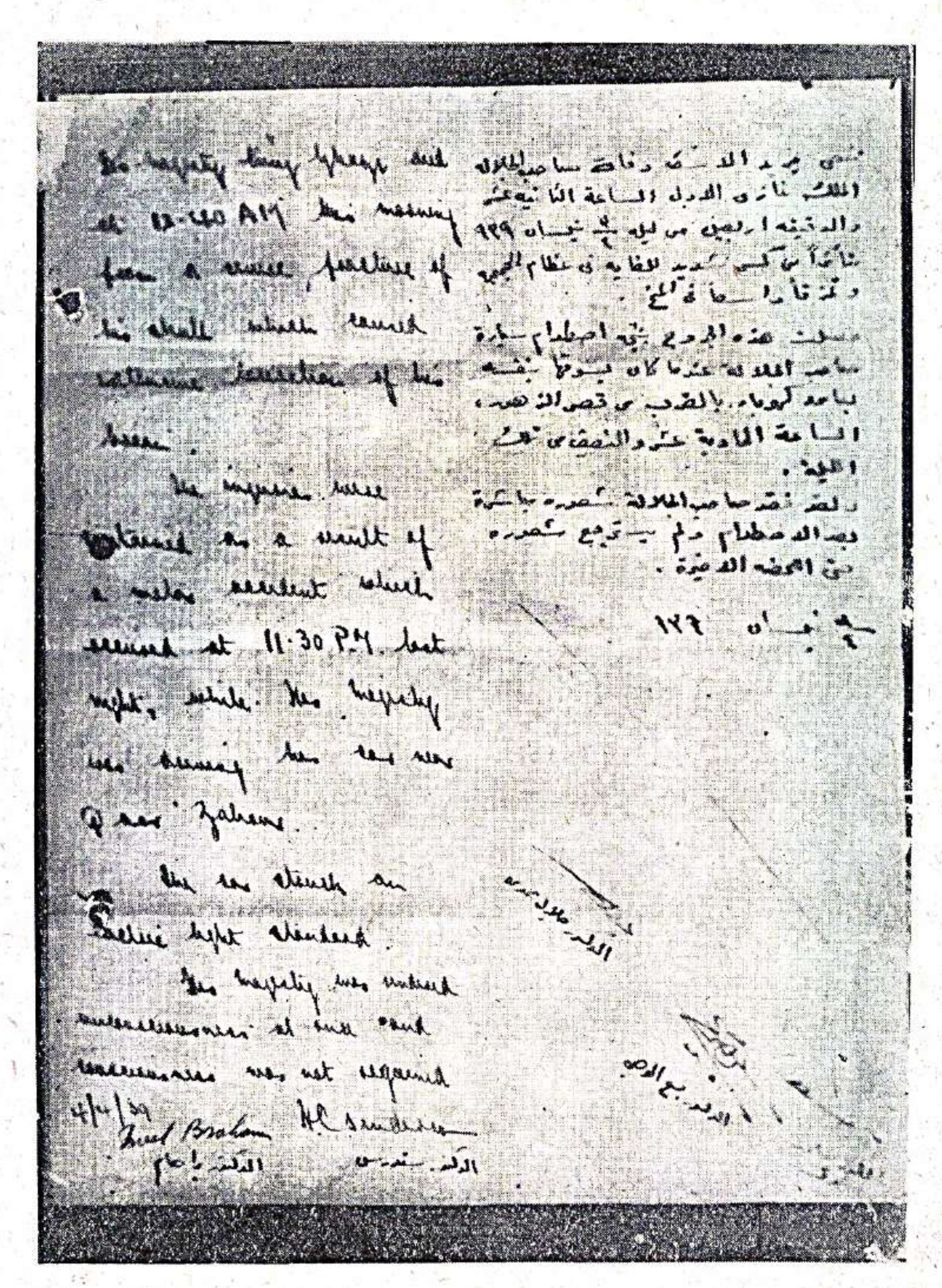
(١) ان هذه الكلمة ومعظم الابحاث التي مرت بهذه المرحلة مقتبسة من كتابي رحلة الامير : الجزء الاول . ولقد قمت بتدوين الكتاب المذكور في حينه ، بناء على طلب رشيد عالي الكيلاني والحاحه ، اذ كان يعتقد ان مثل هذه المؤلفات تشجع الامير على انتهاج سياسة وطنية وتغرس في نفسه حب الوطن والفضيلة ... ولقد احجمت عن طبع الجزء الثاني من الكتاب المذكور وهو يحتوي على رحلة الامير في الوية الحلة وكربلاء والديوانية والمنتفق والبصرة والعمارة بعدما رأيت طيش الامير وانحرافه قبيل ثورة ٢ مايس الوطنية وبعدها حتى يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ...

وفاة الملك غازي

بينما كنت مارا بساحة السراي بين بنايتي وزارةالمعارف ومجلس الوزراء في صباح يوم ٣ نيسان ١٩٣٩ وأنا في طريقي الى مديرية المحاسبات العامة سمعت ضجة كبيرة تأتي من جانب الكـرخ ، يخالطـها صيـاح وعويل ••• وشاهدت جماعة كبيرة من الناس تزدحم امام مبنى دار المعلمين الواقعة على ساحل النهر في الجانب الثاني ••• انها كانت مظاهرة بـلا شك ••• ولكن ما الداعي لها ؟ وما غايتها ؟ لا أدري ، ولما سألت بعض افراد الشرطة من حراس مجلس الوزراء اطلعت على الحقيقة المفزعة ••• ان الملك غازي قد توفي الى رحمة الله في أثر صدام سيارته وهو خارج من قصر الزهور بعمود كهربائي بينما كان يقودها في طريقه الـى قصر الحارثية ، ومهما جاء في التقرير الطبي الذي وقع عليه اطباء انكلـيز وعراقيون ، فان الرأي العام العراقي لم يصدق ما جاء في هذا التقرير • وحصلت لديه قناعة بأن هناك مؤامرة انكليزية ، او انكليزية ــ عراقيـة على الارجح ، دبرت مقتل الملك الشاب الذي حبب نفسه الى الشعب في ايامه الأخيرة بمواقفه الوطنية وشجاعته واقدامه ، ومعاكسته الانكليز في بعض الشئون التي تخص مصالحهم ••• لم يكن الملك غازي ملكا حكيما



السيارة المشؤومة التي كان يقودها الملك غازي



His Majesty King Ghazi died at 12.40 A.M. this morning from a severe fracture of his skull which caused extensive laceration of his brain.

The injuries were sustained as a result of a motor accident which occurred at 11.30 P.M. last night, while His Majesty was driving his car near Qasr' Zahur.

He was struck on

His Majesty was unconscious at the end

4/4/39

H.C. Sinderson

الدكتور سندرسن   الدكتور ابراهام

نأسف لاعلان وفاة صاحب الجلالة
الملك غازي الاول الساعة الثانية عشر
والدقيقة اربعين من ليلة ٣/٤ نيسان ٩٣٩
ناشئاً من كسر شديد للغاية في عظام الجمجمة
وتمزق انسجة المخ .
حدثت هذه الجروح نتيجة اصطدام سيارة
صاحب الجلالة عندما كان يسوقها بنفسه
باعمدة كهرباء بالقرب من قصر الزهور
الساعة الحادية عشر والنصف من مساء
الليلة .
ولقد فقد صاحب الجلالة شعوره مباشرة
بعد الاصطدام ولم يسترجع شعوره
من اللحظة الاخيرة .

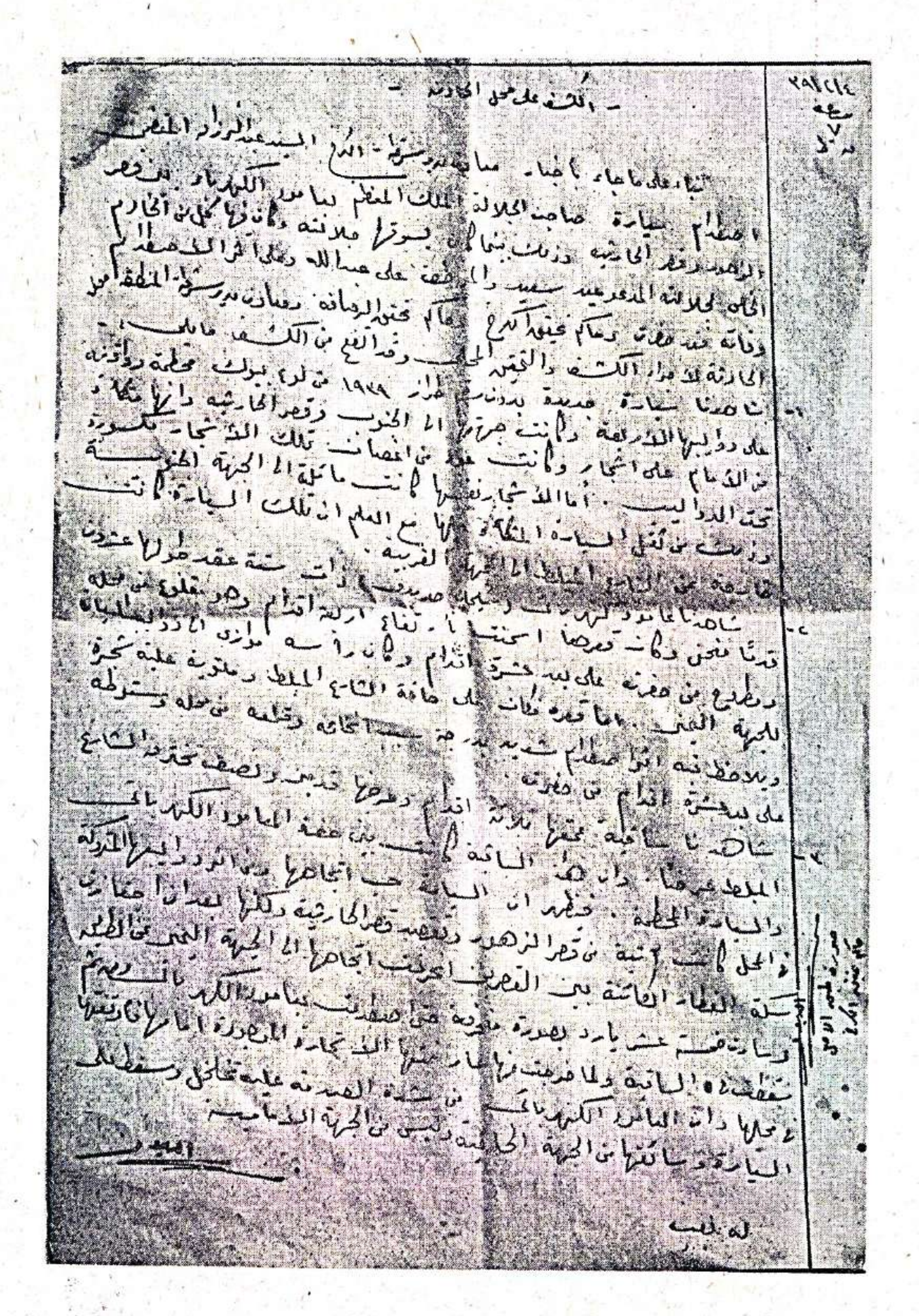
٤/٤ نيسان ١٢٦

الدكتور جلال حمدي

الدكتور صبيح الوهبي

الدكتور صائب شوكة

التقرير الطبي بوفاة الملك غازي . وقد وقع عليه من الاطبــاء الانكليز الدكتور ابراهام والدكتور سندرسن . ومن الاطباء العراقيين كل من الدكاترة : صائب شوكة ، صبيح الوهبي ، وجلال حمدي



- الكشف على محل الحادثة -

بناء على ما جاء بإخبار [illegible] مدير شرطة [illegible] السيد عبد الرزاق [illegible] بأن وقع اصطدام سيارة صاحب الجلالة الملك المعظم بناموس الكهرباء في قصر الزهور وقصر الحارثية وذلك بينما كان يسوقها جلالته وكان في داخلها كل من الخادم الخاص لجلالته المدعو عبيد سعيد والموظف علي عبدالله وعلى أثر الصدمة [illegible] ووفاته [illegible] وحاكم تحقيق الكرخ وحاكم تحقيق الرصافة ومعاون مدير شرطة [illegible] الحادثة لإجراء الكشف والتحقيق [illegible] وقد اتضح من الكشف ما يلي:

شاهدنا سيارة جديدة بدون [illegible] ١٩٣٩ من طراز بيوك محطمة [illegible] على [illegible] وكانت [illegible] الخرب [illegible] وقصر الحارثية [illegible] الأمام على الأشجار وكانت [illegible] من أغصان تلك الأشجار مكسورة تحت الدواليب. أما الأشجار نفسها فكانت مائلة إلى الجهة [illegible] وكانت من ثقل السيارة [illegible] مع العلم أن تلك السيارة كانت [illegible] الغربية [illegible] ذات ستة عقد طولها عشرون [illegible]

شاهدنا ناموس الكهرباء [illegible] ارتفاع أربعة أقدام [illegible] قدما [illegible] وعرضها [illegible] موازي الأرض [illegible] على بعد خمسة أقدام [illegible] متوية عليه [illegible] للجهة [illegible] أما [illegible] على حافة [illegible] مقطوعة [illegible] ويلاحظ أنه [illegible] شديد [illegible] على [illegible] أقدام من [illegible] وعرضها [illegible] ونصف [illegible]

شاهدنا [illegible] ثلاثة أقدام [illegible] ناموس الكهرباء [illegible] [illegible] السيارة [illegible] [illegible] والسيارة المحطمة [illegible] أن السيارة [illegible] في قصر الزهور [illegible] قصر الحارثية [illegible] إلى الجهة [illegible] [illegible] القصرين [illegible] ناموس الكهرباء [illegible] وسارت [illegible] بصورة [illegible] بناموس الكهرباء [illegible] السيارة [illegible] السائق [illegible] ذات الناموس الكهربائي [illegible] من الجهة الأمامية [illegible] السيارة [illegible] من الجهة [illegible]

[illegible]

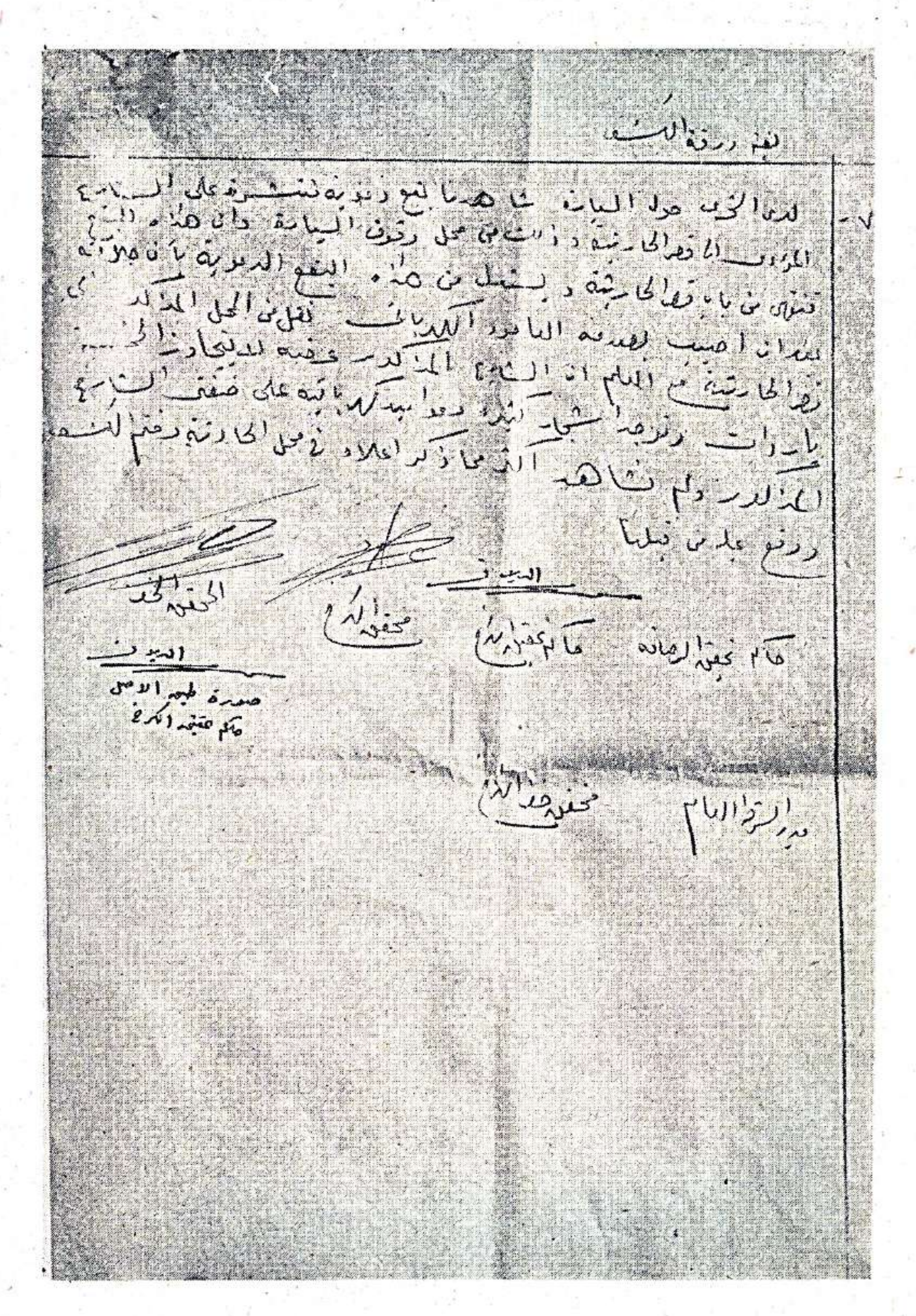
الكشف على محل الحادث وقد وقّع عليه المحققون وحكام التحقيق

تابع ورقة الكشف

٤- لدى ذهاب السائق الكائنة بمحلة القطار والمأمور الكهربائي [illegible]
ظهر لنا انه من خبر بارد ومن المأمور الكهربائي من السائقة بارد [illegible]
السيارة التي حضر بارد في هذه الحالات القليلة ووجود شقف بشيء [illegible]
من شارع قصر الزهور المؤدي الى سكة القطار [illegible] شارع [illegible]
ان السيارة كانت آتية بسرعة فائقة وبدرجة تقدر على سائقها [illegible]
سيرها والحافظة على توازنها [illegible] بالأخرى بحيث [illegible]
[illegible] اصطدمت بمأمور الكهرباء [illegible] وقذفت في الساحة وراءها الأمتار
الكشف التي عاينتها [illegible] العوارض كلها تدل على ان السيارة [illegible]
[illegible] بسرعة [illegible] من الارض حيث ان الاصطدام بمأمور الكهرباء [illegible]
لايقاف سرعة السيارة في محلها [illegible]
الدشي والكشف [illegible]

٥- لدى الكشف على السيارة شاهدنا الزجاج الأمامي [illegible] للسيارة محطمة
[illegible] كمية من الزجاج المذكور في الحوض الأمامي وعلى الجانب [illegible]
[illegible] على الزجاج وفي الحوض الأمامي [illegible]
السيارة [illegible] بقع دموية [illegible] الخلفية من محل جلوس السائق [illegible]
وفي الجهة اليمنى واليسرى [illegible]
[illegible] الحوض الخلفي وعلى [illegible]
شاهدنا بقع دموية في الحوض الخلفي [illegible] وقليلا من المخ . شاهدنا قطعة من
من شعر الرأس ملوثة بالدم في الحوض الأمامي في الجهة اليمنى من محل جلوس السائق
عظم الجمجمة ملوثة بالدم [illegible] البابة للجهة اليسرى كان [illegible]
ويلاحظ ان [illegible] الجانبي [illegible] شاهدنا الخارج محطم [illegible]
[illegible] السيارة [illegible]
[illegible] في الجهة اليمنى [illegible] بأنه [illegible]
[illegible] الناحية التي [illegible] السيارة
[illegible] الحوض الأمامي تحت [illegible]
على بعض [illegible] الحوض الخلفي وقد شاهدنا [illegible]
[illegible] كانت منتشرة في الحوض [illegible] الزجاجة ملتفة على [illegible]
[illegible] التي تكون عادة امام السائق [illegible] السيارة [illegible]
المأمور الكهربائي وقد عثرنا [illegible]
[illegible] في [illegible] وصنوعة [illegible] الحمدي [illegible]
[illegible] ٢٧ [illegible]
[illegible] في محله
[illegible]

تابع الكشف على الحادث



تابع ورقة الكشف

٧ - لدى الكشف حول البناية شاهدنا بقع دموية منتشرة على السلالم المؤدية الى قصر الحارثية وذلك في محل وقوف السيارة وان هذه البقع [illegible] من باب قصر الحارثية ويستدل من هذه البقع الدموية بأن جلالته بعد ان اصيب [illegible] نقل من المحل المذكور الى قصر الحارثية مع العلم ان السلالم المذكورة [illegible] وتوجد اشجار [illegible] ثابتة على صفحة السلالم [illegible] في محل الحادثة [illegible] المذكور ولم نشاهد [illegible]

ووقع عليه من قبلنا

الحاكم [illegible]

محقق [illegible]

السيد [illegible]

حاكم تحقيق الرصافة

حاكم تحقيق [illegible]

السيد [illegible]

صورة طبق الاصل

حاكم تحقيق الكرخ

محقق [illegible]

مدير الشرطة العام

تابع الكشف على الحادث

" التقرير النهائي "

٩٢٩/٥/٤

[illegible]

التقرير النهائي عن الحادث

ان جلالة الملك غازي سبق له ان ذكر امامنا

مناسبات عديده بانه اذا طرأ على حياته حادث

فان الامير عبد الآله يكون وصياً على نجله ..

الساعة الثانية من صباح الثلاثاء المصادف

٤ نيسان ١٩٣٩

عالية

صحيح

ان الشهادة المدونة اعلاه المعطاة من قبل صاحبة الجلالة الملكة والاميرة راجحة

وصاحبة السمو الملكي شقيقة جلالة الملك الراحل

قد اديت بحضورنا ٤/٤

رئيس مجلس الوزراء

وزير الداخلية

وزير المالية

وزير العدلية

وزير الدفاع

وزير الاقتصاد والمواصلات

وزير المعارف

رئيس الديوان الملكي

رئيس مجلس الأعيان

نص الشهادة التي أدلت بها كل من الملكة عالية والأميرة راجحة

يدير شؤون بلاده بعقل راجح وفكر نير ، بل كان سكيرا ، نزقا ، منغمسا في ملذاته ، طائشا ... وبالاضافة الى ذلك كان قليل الثقافة بل عديمها ... وكانت معلوماته من الضآلة بحيث لا تصل حتى الى تحصيل ابتدائـــي كامل ... كانت عيناه منتفختين دائما ويداه ترتجفان ، ووجهه محتقن من الادمان على السكر .. ومع ذلك ، كان يشعر حتى في هذه الحالة بـأن الانكليز قوم مستعمرون لا ينظرون الا الى مصالحهم ويضحون بكـــل شيء في سبيل منفعتهم ... انه لم ينس طول حياته نكث عهودهم لجده الحسين بن علي المرحوم وما فعلوا به في خلال حربه مع الملك عبد العزيز بن سعود المرحوم وكيف أنهم اذاقوه من الذل افظعه ، ومن الغدر اشنعه واقساه في أثناء اقامته منفيا مشردا في جزيرة قبرص ... فهـو يكـره الانكليز ويمقتهم مقتا شديدا بتأثير هذه العواطف وبدافع من هذه المشاعر . أسس محطة اذاعة خاصة بقصر الزهور في الحارثية كان يذيع منها بنفسه احيانا ، دون ذكر اسمه امورا كانت تقض مضاجع الحكومة البريطانيـة في لندن ، وتقلق السفارة البريطانية في بغداد قلقا مستديما ... ان اهـم قضية كانت ترتعد فرائص الانكليز منها رعبا هي قضية عائدية الكويـت التي اصبحت موضوعا يوميا في اذاعة الملك السرية .. « الكويـت بلـد عراقي ، كان قضاء مرتبطا بمتصرفية البصرة في العهـد العثمانـي ... والحكومة العراقية باعتبارها وارثة للحكومة العثمانية في العراق ، تكون صاحبة الحق في امتلاك الكويت .. ان الانكليز اغتصبوا هذا الحـــق بالقوة ، وجعلوا من الكويت مشيخة تحت حمايتهم ... وعليهم أن يعيدوا هذا الجزء من بلادنا الى الوطن الام ... » وعبثا حاول الانكليـز اقناع الملك بترك هذه القضية ، وعبثا حاول بعض رجال السياسة من العراقيين أن يقنعوا الملك بالعدول عن هذه التحرشات بالانكليز وبأهم وتر حساس

يمس مصالحهم البترولية ... ومما لا شك فيه ان الانكليز كانوا قد يئسوا من اصلاح الملك ونفضوا ايديهم وقرروا التخلص منه بأي شكل كان ... ولا ندري بعد ذلك هل أنهم دبروا حقا مؤامرة لاغتياله ، كما يعتقد الرأي العام العراقي ام أن الله استجاب دعاءهم وأنقذهم منه بحادث الصدام الفجيع ؟ (١)... وهكذا أصبح مقتل الملك غازي لغزا من الالغاز ، وسرا من الاسرار لا يعرف كنهه الا الله ...

واذا حاكمنا القضية بميزان العقل ، وحللنا الامور بمقياس المنطق ، نجد بعض الشكوك تحوم حول هذا الحادث ، وتجعلنا نميل الى امكان وجود مؤامرة مدبرة لاغتيال الملك للاسباب التالية :

اولا ـ كان الصدام كما يقال بعمود كهربي ضخم ، والمعروف ان السيارة عندما تصدم عمودا كهذا ، اما تزحف الى اليمين او الى الشمال أو ترجع من شدة الصدمة الى الخلف بعض الاحيان ... الا انني شاهدت السيارة بنفسي في يوم وقوع الحادث ، وكانت متجهة بحذاء العمود نفسه بخط مستقيم . والعمود كان مضطجعا خلف السيارة ، وقد اختفى جزء منه تحتها ، انني عندما رأيت هذه الوضعية ، قلت في نفسي : سبحان الله ، كأن العمود قد اقتلع من موقعه اقتلاعا ووضع في حالته تلك قصدا وعمدا للتضليل والتمويه ...

---

(١) عندما اذيع نبأ موت الملك بحادث السيارة ، لم يقتنع الرأي العام العراقي ، بما جاء في بيان الحكومة ، بل أعتبر الحادث قد وقع نتيجة مؤامرة انكليزية ... وقامت في أثر ذلك مظاهرات صاخبة في بغداد والموصل . وقد اطلق شاب متحمس في الموصل العيارات النارية على القنصل البريطاني هناك فارداه قتيلا ...

ثانيا ـ اذيع في حينه أن احد عبيد القصر واسمه عبد سعيد وعلي بن عبدالله ملاحظ اللاسلكي كانا يجلسان في المقعد الخلفي للسيارة • وان عبد سعيد المذكور اصيب برضوض اوكسور نقل في أثرها الى المستشفى • ولكن لم يسمع أحد بعد ذلك ، ماذا جرى لهذا العبد ؟••• انه غاب من بغداد ولم يعثر احد على أثر له ••• هل مات ؟•• هل هرب؟•• ام ماذا ؟•• وكذلك الامر فيما يخص الشخص الثاني ، علي بن عبدالله ، ملاحظ اللاسلكي •

ثالثا ــ تلك الشهادة المصطنعة التي أدلت بها الملكة عالية شقيقة الامير عبدالاله وزوجة الملك الراحل ، والاميرة راجحة شقيقته ، وقالتا فيها امام مجلس الوزراء : « ان جلالة الملك غازي سبق ان ذكر امامنا بمناسبات عديدة بانه اذا طرأ على حياته حادث ، فان الامير عبد الاله يكون وصيا على نجله ••• انها وايم الحق شهادة ملفقة ، لحمتها الكذب وسداها التزوير والافتراء للاسباب التالية :

أ ــ ان الملك غازي لو اراد ان يوصي وصية كهذه لما نطق بها شفهيا امام زوجته واخته ، بل كان يخطها على ورق ويحفظها اما في صندوق في القصر او في مجلس الوزراء •••

ب ــ كان الشائع بين الناس جميعهم ، ان الملك ليس على وئام مع ابن عمه الاميرعبد الاله وكان يكرهه كراهة شديدة ولا يشركه حتى في مآدبه ومجالس انسه ••• وكان يقتر عليه ، ولا يدفع له الا راتبا شهريا ضئيلا بالكاد يسد ما يحتاج اليه من الضروريات •

فليس من المعقول والحالة هذه أن يوصي له بالوصاية على ولي العهد بعد وفاته ...

جـ ـ كان الملك على خلاف مستمر مع زوجته الملكة ، وكان هذا الخلاف معروفا لدى كثير من الناس . ولا يعقل ان يدلي لها بوصية خطيرة كهذه ، ويكتمها عن الناس جميعا ...

ان هذه الامور كلها تجعلنا نشك في ان مقتل الملك غازي كان بسبب صدام سيارته بعمود كهربي ، وان مقتله كان قضاء وقدرا ... ومهما كان الأمر ، فالملك غازي قد مات ، وارتاح الانكليز منه . وان الامير عبدالاله قد تولى الوصاية واصبح الحاكم بأمره ...

كيف عينت قنصلاً عاماً في فلسطين ١٩٤٠ ــ ١٩٤١

كان ذلك في اوائل سنة ١٩٤٠ ، وكنت آنذاك مديرا عاما للدعايــة ، والحرب العامة الثانية تشتعل بضراوة والجيوش الالمانية تسيطر علــى جبهات الحرب المختلفة وجيوش الحلفاء تتلقــى ضربــات قاسية وتصاب بهزيمة بعد هزيمة ••• رن جرس التلفون في مكتبي ، وكان المتكلم عمر نظمي وزير الداخلية ، قلت : نعم ، قال نوري باشا في مكتبي ويريد مقابلتك الآن • قلت : أنا قادم في الحال ، وذهبت الى غرفة الوزير ، وكانت قريبة جدا من غرفتي ، فاستقبلني نوري باشا المرحوم بفتور ومد يده الي بجريدة (لا اتذكر اسمها الآن) وقد اشيرالى بعض سطورها بالاحمر ، وقال : هل قرأت هذا الخبر ؟•• قلت : نعم يا باشا قرأته ••• كان الخبر يتضمن هزيمة منكرة للانكليز في احدى الجبهات الغربية وتكبدهم عددا وافــرا مــــن القتلى ••• قال : هذا خبر مدسوس ولا بد من اصابع نازية تلعب في دار الاذاعة بعلم منك او بغير علم ••• قلت : مهلا يا باشا لا تسترسل باتهاماتك من غير تمحيص وتدقيق •• ليس في دار الاذاعة اصبع او اصابع نازية ، والخبر الذي ازعجك منقول من برقيات رويتر ،وبرقيات رويتر لا ترد الى الاذاعة او الى المديرية العامة للدعاية مباشرة ، وانما ترد الى المديرية العامة للبرق والبريد وهناك تترجم على يد موظف مسئول اسمه عبدالله جدوع

وفي وسعنا الآن ان نطلب اليه أن يأتينا ببرقيات رويتر المتضمنة هـــذا الخبر وعندئذ تتجلى لك الحقيقة ناصعة ••• قال : لا يمكن ان يكون هذا الخبر ضمن برقيات رويتر ، هيا اطلب عبدالله جدوع وليأت الينا بالبرقيات المزعومة ••• تناولت التلفون وطلبت احمد زكي الخياط المدير العام للبرق والبريد يومئذ ورجوته أن يرسل عبدالله جدوع مع برقيات رويتر لليوم السابق الى مكتب وزير الداخلية ••• وبعد دقائق قليلة أتى عبدالله جدوع وبيده البرقيات المطلوبة •• بادرته بعرض الخبر المؤشر عليه بالقلم الاحمر وسألته : هل قرأت هذا الخبر ؟•• قال : نعم • قلت : وهل هو ضمـــن برقيات رويتر الواردة يوم امس ؟•• قال : نعم • قلت : وهل ترجمتها أنت بنفسك ؟•• قال : نعم • قلت : أين النص الانكليزي للخبر ؟•• قال : ها هو ذا واخرجه من الملف الذي يحوي برقيات رويتر •قلت : تفضل يا باشا واقرأه بنفسك ••• قرأه نوري باشا المرحوم واعاد قراءته ثانية وثالثة وقداصفر وجهه واخذت شفتاه ترتجفان من شدة الغضب ، وقال بعصبية ظاهرة : كان عليك مهما كان الامر ان لا تسمح بنشر الخبر لانه يقلق الرأي العـــام ويحدث بلبلة في الافكار • قلت : هذا ليس من واجبي ، وانا لست أشد انكليزية من الانكليز انفسهم ••• ودعنا بعد ذلك وذهب ، وبعد خروجه ودعت وزير الداخلية وقلت له : انني لن ابقى بعد اليوم مديرا عاما للدعاية وسأطلب اما نقلي او استقالتي ••• حاول الوزير تهدئتي وتطميني ، ولكنني كنت عازما على تنفيذ قراري هذا مهما كلفني الامر •••

خرجت من مكتب وزير الداخلية وركبت في سيارتي وسرت فورا الى البلاط الملكي وقابلت هناك رشيد عالي الكيلاني المرحوم ، وكان آنذاك رئيسا للديوان الملكي ونقلت اليه ما جرى بين نوري باشا المرحوم وبيني

فابتسم واخذ يلاطفني ويحاول تهدئتي ... قلت له : انني عـازم علـى الاستقالة فورا اذا لم احول الى وظيفة اخرى ... قال : تمهل ولك مـا تريد ، وسأبذل كل جهدي لتطمين رغبتك ، وهل لك هدف معين ؟.. وهل هناك وظيفة شاغرة تناسبك ؟.. قلت هدفي أن اعـود الى وزارة الخارجية ووظيفة القنصل العام في القدس شاغرة ...

وبعد ايام قلائل صدرت الارادة الملكية بتعييني قنصلا عاما فـي فلسطين على ان تشمل منطقة عملي شرقي الاردن ايضا ...



رجالات فلسطين في دار القنصلية

وصلت القدس في مساء أول يوم من نيسان ١٩٤٠ وفي اليوم التالي كانت ابواب القنصلية العراقية العامة مفتوحة تستقبل المهنئين من الاوساط العربية المختلفة بسلامة الوصول ، وقد كان اعضاء المجلس الاسلامي الاعلى واركان غرفة التجارة العربية ورئيسها والاعضاء العرب في المجلس البلدي ورئيس بلدية القدس في مقدمة الزائرين ... وقد استمرت الزيارات ثلاثة ايام .. وكان الزائرون ، وهم يؤلفون النخبة الممتازة من الموظفين العرب والاشراف والعلماء والمحامين والادباء والصحفيين العرب والمدير العام للبنك العربي ، يظهرون اخلص العواطف للعراق ويعلقون الآمال الجسام على رجال العراق القوميين للوصول الى الاهداف المحققة للاماني القومية. ولقد رأيت بمزيد الغبطة والابتهاج ان البعض من هؤلاء كان يتهيج ويندفع الى حد ينسى فيه كل اعتبار . وقد قال لي اسعاف النشاشيبي المرحوم ، الشاعر الكبير والرجل الصريح الشجاع : « اننا لانريد ان نرحب بك قنصلاً لبلادك وانما نريد أن نحتفل بك واليا اوفد الينا من عاصمة البلاد العربية» . ولقد قابلت هذه العواطف الفياضة بأحسن منها وشكرت الوافدين على حسن ظنهم بالعراق . ثم بدأت اعادة الزيارة الى الكثيرين منهم بالحضور الى منازلهم شخصيا او بوضع بطاقتي لهم .

راغب وفخري النشاشيبي

على أن الامر الذي لفت نظري ، هو تأخر راغب وفخري النشاشيبي المرحومين في الحضور الى دار القنصلية مع هذه الجماعات • ان فخري النشاشيبي (١) لم يزرني الا بعد اسبوع من وصولي الى القدس • اما راغب النشاشيبي فلم يزرني مطلقا • وقد فهمت من بعض الرفاق انه كان يرغب في ان ابدأ زيارته ويعيد الي الزيارة في دار القنصلية العامة ، وأبيت •••وبعد ايام دعاني جلال قرهصيان (٢) قنصل تركية العام يومئذ الى السينما وفي مدخلها صرنا وجها لوجه مع راغب النشاشيبي ، وهنا تم التعارف بيننا بوساطة قنصل تركية العام • وفي ٢ مايس ١٩٤٠ (عيد ميلاد الملك فيصل الثاني) دعوته الى حفلة اقيمت في دار القنصلية ، ولبى الدعوة ••• ولقد ظهر لي من بعض محادثاتي مع هذين الشخصين ، المعروفين في الاوساط العربية الفلسطينية بموالاتهما للانكليز وقلة

(١) اغتيل في بغداد سنة ١٩٤١ على يد شاب فلسطيني وكان المتهم بقتله معتقلا معنا في العمارة بعد ثورة ١٩٤١ .

(٢) سفير تركية في سورية وليبية ورومانية واخيراً وزير الانباء والارشاد في انقرة وبعد ذلك عضو مجلس الشيوخ في انقرة وهو الان يصدر مجلة في انقرة اسمها « الشرق الاوسط » .

اهتمامهما بالقضايا العربية ، انهما على جانب من الثقافة والذكاء وحدة الذهن .

وآسف على استعمالهما هذه المزايا في مطامع شخصية ضد مصلحة بلادهما ويكونان بالنسبة لابناء بلدهما من المنفورين ، لا يثق احد باخلاصهما ولا يرتاح مواطنوهما الى صلاتهما بالسلطات البريطانية في البلاد ... كما انه ظهر لي ان فخري النشاشيبي اكثر تطرفا بعدائه للحزب العربي الذي يتباهى بزعامة سماحة المفتي الحاج امين الحسيني وأشدضررا بالقضية التي يناضل من اجلها هذا الحزب . ولقد قال لي الكثيرون في اثناء احاديثهم معي في قضية فلسطين والاضطرابات الدامية : « اترى هذا الرجل ، فخري النشاشيبي ؟ انه كان يسير امام الجنود البريطانيين باحثا عن رجال الثورة والفدائيين ليقودهم الى اعواد المشانق ! » بينما كانوا لا يسندون مثل هذه التهم الشنيعة الى راغب النشاشيبي الذي يقول البعض عنه انه حاول في كثير من الاحيان ان يقترب من الوطنيين ، حتى انه سعى كثيرا في توحيد الصفوف بين رجال حزب الدفاع وبين حزب المفتي بغية ايصال القضية الفلسطينية الى نتائج مرضية تؤدي الى ما تصبو اليه البلاد من أمان وطنية وآمال قومية ، الا انه لقي في حينه معارضة شديدة من جانب فخري النشاشيبي الامر الذي فرق بينهما وجعل كلا منهما يبتعد عن الآخر في اعماله السياسية ، وكنتيجة لذلك اضاع كل منهما الاتباع ،وبقيا في عزلة عن الاوساط السياسية العربية وزال نفوذهما حتى لدى السلطات البريطانية ...

ولقد شاهدت بأم عيني في اثناء مكثي في فلسطين ان البلاد برمتها

تؤيد بكل قواها سماحة المفتي وتسير وفق مبادئه وتعليماته ولا تـرضى عنه بديلا ، ولكم كانت دهشتي عظيمة عندما زرت المسجد الاقصى والحرم الشريف ورأيت بعض الناس يقتربون مني ويسألونني صحة المفتي كأنهم يسألون عن عزيز لديهم ، ويرجونني ان اطمنهم على صحته وعافيته ... ولقد دنا مني رجل مسن في المسجد واخذ يهمس في اذني : «المفتي وديعتنا لديكم ولا نشك قط في انكم تحسنون حمايتها ونحن على يقين أنه هنـاك في بلده بين اهله وعشيرته »...

* * *

زياراتي الرؤساء البريطانيين

جرت العادة في حكومة فلسطين يومذاك أن يزور القناصل الجـدد رؤساء الدوائر البريطانيين وهكذا بدأت اولا بزيارة السكرتير العام الذي هو بمثابة رئيس الوزراء وزرت نائبه ومساعده الاول ، وبعدئذ قمت بزيارةالمدعي العام الذي يعتبر كوزير العدل ، وناظر الخزينة الذي يقوم مقام وزير المالية واخيرا زرت حاكم لواء القدس ومعاونه ومدير المهاجرة ومفتش الشرطة العام ومدير التحقيقات الجنائية ووضعت بطاقات لكل من القائد العام للقوات البريطانية وقاضي القضاة ووقعت في السجل الخاص الموضوع في محليهما لهذه الغاية ...

العراقيون غاضبون علينا :

قابلني السكرتير العام كسائر زملائه مقابلـة وديـة للغاية واظهـر استعداده لمؤازرتي ومساعدتي بكلما تقتضيه اعمال وظيفتي في فلسطين ، وفي اثناء الحديث قال مبتسما : « انني اعلم ان العراقيين غاضبون علينا من جراء تنفيذ حكم الاعدام ببعض الاشخاص هنا ... »فأجبته : « وهل تريدون أن لا يغضب المرء عندما يسمع او يرى اخوانه يساقون الى المشانق

لاسباب قد لا تكون كافية »؟•• قال : « اؤكد لك ان الذين اعدموا ليسوا ممن اتهموا بقتل بريطانيين او يهود وانما لثبوت ارتكابهم جرائم قتل ابناء جلدتهم من العرب !»•• انني لم اصدق ذلك في طبيعة الحال ولكن نظرا الى ان المقابلة كانت لأول مرة وبقصد التعارف فقط ، لم اشأ اطالة الحديث وتركت قوله هذا دون جواب !

المندوب السامي :

كان المندوب السامي يمثل دور ملك بكل ما في الكلمة من معنى ، ولقد قيل لي في اثناء زيارتي السكرتير العام ان البروتوكول المتبع في الحكومة الفلسطينية يقضي علي أن اذهب اولا الى دار المندوب السامي واوقع في دفتر التشريفات ، ثم اطلب تلفونيا تعيين موعد لمقابلته ، وهكذا فعلت •• ولقد تمت مقابلتي اياه في صباح ٨ نيسان ١٩٤٠ واستقبلني وودعني بكل حفاوة واحترام • وفي نفس اليوم تلقيت بطاقة من المندوب السامي والليدي ماك مايكل قرينته يدعوانني فيها الى تناول العشاء في مساء ١١ نيسان ، ولقد كنت في هذه الدعوة ضيف الشرف وكان مكاني في المائدة الى يمين الليدي ماك مايكل •

زيارتي الامير عبدالله (الملك بعد ذلك)

ان منطقة عملي كانت تشمل فلسطين وشرق الاردن • وكان لزاما علي أن اقوم بواجب الزيارة لأمير البلاد (اي شرق الاردن) وأتعرف برجالها المسئولين ، وبناء على ذلك كتبت الى رئيس الوزراء ، وكان يومئذ توفيق ابو الهدى المرحوم طالبا تعيين موعد لمقابلة الامير •• وفي أثر ذلك كلمني تلفونيا مستفسرا عما اذا كنت أتمكن من الحضور في صباح ١٦ نيسان ١٩٤٠ ، فاخبرته أن لا مانع لدي ، وهكذا سافرت في صباح اليوم المحدد للمقابلة ووصلت الى عمان حوالي الساعة العاشرة صباحا وتوجهت فورا الى دار الحكومة وقابلت رئيس الوزراء الذي رحب بمقدمي ترحيبا حارا ، ولم يمض على وصولي أكثر من بضع دقائق حتى سمعت جرس التلفون يرن وتناول ابو الهدى المرحوم السماعة وأخذ يتكلم باللغة التركية وسمعته يقول ما ترجمته : «نعم سيدي وصل قبل بضع دقائق ، امركم سيدي » ثم اعاد السماعة الى موضعها والتفت الي قائلا : « سمو الامير يستفسر عن تشريفكم ويدعوكم لتناول الغداء على مائدته اليوم» • شكرته على ذلك واستأذنت بالانصراف بعدما مكثت لديه زهاء نصف ساعة من الوقت ، وقد ودعني سيادته حتى سلم دار الرئاسة • وفي الساعة الحادية عشرة والربع اعاد لي الزيارة في فندق فيلادليفية ، واستصحبني

من هناك الى قصر رغدان حيث المقر الرسمي للامير • ولقد رحب بي الامير ترحيبا صميميا وضمني الى صدره وقبلني في جبيني ، واظهر لي من العطف والود ما كان له تأثير عميق في نفسي • وبعد ذلك أمر بالقهوة واخذ يسألني احوال العراق والتبدل الوزاري ورجال العراق من مؤيدين ومعارضين ، وكنت اجيبه بما يناسب المقام • وفي الساعة الثانية عشرة ظهرا دخلنا قاعة الطعام بعدما وصل الامير طلال الى قاعة الاستقبال وتم التعارف بينه وبيني بوساطة والده الامير عبدالله نفسه • وكانت المائدة معدة على الطريقة الغربية ، وقد حضرها كل من الامير طلال ورئيس الوزراء المرحوم والشيخ فؤاد الخطيب المرحوم رئيس الديوان الاميري ، وطبيب الامير الخاص ، ومرافقه ، ورئيس الحرس الاميري ، وعبد المنعم الرفاعي السكرتير الخاص بالأمير (١) ••• وكان الامير يبالغ في اكرامي والالتفات الي حتى انه قال لي في اثناء الحديث : « انني اعتبرك في الوقت الحاضر قنصلا عاما لشرق الاردن في فلسطين » ثم وجه الكلام الى نجله الامير طلال وقال : « اصبحت لنا قنصلية بعد الآن في فلسطين •• صحيح اننا نعتبر قناصل العراق مواطنين ولكن ثقتنا بطالب مشتاق وسابق معرفتنا به تجعلني انظر اليه غير نظرتي الى زملائه الاخرين »••• وكنت اقابل هذا اللطف والتكريم بالشكر والامتنان •••

(١) وزير الخارجية في المملكة الاردنية الهاشمية .

نظرة الى الوضع العام في فلسطين

يترآى لمن ينظر نظرة سطحية لاول وهلة الى مجرى الامور في هذه الديار أن البلاد تتمتع بهدوء وسكينة وان الناس يعيشون في جو مشبع بالطمأنينة والاستقرار . على ان من يمعن النظر ويتحرى الحقيقة ، بعد سبرغور القلوب ، ويبحث في الفقر المدقع في القرى العربية والارياف لا يعتبر هذا الهدوء المخيم في ذلك الوقت الا اثر نار اندثر لهيبها تحت الرماد من غير ان تنطفىء وهي ستندلع يوما لا محالة اذا ما لعبت بها الاصابع وغذتها بشيء قليل من الوقود ... كيف لا والمعتقلات لا تزال تضم بين جدرانها الألوف من ابناء العرب ، والمحاكم العسكرية تزهق ارواح المواطنين العرب كما يشتهي الصهيونيون الذين ترى آثار اصابعهم القذرة في كل جريمة ترتكب في هذه الارض المقدسة من الوطن العربي ...

الدولة اليهودية في دور التكوين

كانت دولة اليهود قد تأسست في فلسطين منذ أول يوم اعلن فيه قيام الوكالة اليهودية في القدس ، وكانت هذه الوكالة دولة في داخل دولة ، فيها كل ما في الدولة من مؤسسات : وزارات ، مديريات ، دوائر خاصة تعج بالخبراء والاختصاصيين في الشؤون الاقتصادية والصحية والاجتماعية وحتى الادبية ، وفيها دوائر للدعايات المختلفة لتهيئة الرأي العام اليهودي والعالمي لقبول فكرة انشاء الدولة اليهودية ، ولا اقول الوطن القومي لليهود ، وكانت تبذل كل ما لديها من نشاط وطاقات لتدريب الشباب اليهودي من الجنسين على استعمال الاسلحة الحربية بما فيها الطيران .. وفي الحقيقة كان اليهود والانكليز ينسجون معا كيان الدولةاليهودية خيطا بعد خيط فمثلا :

١ ـ كان الانكليز يشجعون اليهود على التسلح بينما كانوا يمنعون ذلك عن العرب وينزلون بمن يجدون في حيازته خرطوشة واحدة عقوبات قاسية لا نظير لها في أي بلد من العالم ، وقد حكم بالسجن لمدة تتراوح بين سنة واحدة وخمس عشرة سنة على كل من : مصطفى عبدالله الفرج ، وابراهيم عبدالله ، حسن محمد قطاوي من دير الغصون ، محمد احمد

ساره ، كامل احمد مصلح ، واسماعيل العبد ، وقد حكم على هذا الاخير بـ ١٨ جلدة علاوة على حبسه سبع سنين ، وذلك لحيازتهم اسلحة ،بينما كان الانكليز انفسهم يهربون السلاح لليهود ، او يغضون الطرف عن تهريبهم اياه ... وحكم على شخص يدعى يوسف احمد عودة من كوزة في قضاء نابلس باربع سنين لاتهامه باستضافة جماعة من المسلحين في بيته ... اما جرائم الاعدام التي كانت تنفذها السلطات البريطانية بايعاز او تشجيع من الوكالة اليهودية فحدث عنها ولا حرج ، وقد اخذت السلطات البريطانية في الايام الاخيرة تتكتم في نشر اخبار الاعدام خوفا من الانعكاسات السيئة التي يرن صداها في الاقطار العربية من جهة ، ومن الدعاية التي تبثها اذاعة برلين عن فظائع الانكليز في فلسطين والتشنيع بجورهم للعرب من جهة اخرى .

٢ ـ كانت قوانين الهجرة تحدد نظريا العدد المسموح بدخوله الى فلسطين في كل عام الا أن مواد هذا القانون بقيت دائما حبرا على ورق .. وقد سمحت السلطات البريطانية بالهجرة غير المشروعة او اغمضت عينها تجاه هذه الهجرة وتجاهلها ودخل الى البلاد مئات الالوف من المهاجرين غير الشرعيين استعدادا لتكوين اكثرية يهودية في البلاد خلال سنين معدودة ... وكان هؤلاء المهاجرون يشمرون عن ساعد الجد منذ اول يوم وصولهم ويوزعون على اماكن مختلفة ويبدأون انشاء المستعمرات الصهيونية بشكل عجيب. .. وهكذا تمكنت حركة الاستعمار اليهودي في فلسطين من انشاء (٢٥٦) مستعمرة خلال (٨٥) عاما اي منذ سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩٤٠ . ولقد كان عدد مستعمراتهم في العام ١٨٨٢ م ستا فقط فأصبح لهم في العام ١٩٠٠ (٢٢) مستعمرة وفي العام ١٩١٤ (٤٤) مستعمرة وفي ١٩٢٧ (١١٠) وفي العام ١٩٣٦ (٢٠٣) وفي العام ١٩٤٠ (٢٥٦) مستعمرة ...

٣ ـ شراء الارض العربية بطرق ملتوية : رغم صدور قانون الاراضي الذي يحدد بيع الاراضي العربية لليهود بقى هذا القانون نظريا بحتا ، فالحكومة الفلسطينية لم تكن جادة في تطبيق هذا القانون بحسن نية وبقي رمزا للدعاية البريطانية بكونها تعمل في صالح المصالحة العربية والابقاء على الارض العربية بيد العرب . ولو طبق هذا القانون نصا وروحا لكان ضربة ساحقة لآمال الصهيونيين كلها ، لانه يمنع توسع الاستعمار الصهيوني ويمنع الهجرة ويمنع بالنتيجة مساعدة يهود العالم للمشروع الصهيوني ، اذ لم يعد في وسع صناديق المال الصهيونية أن تشتري ارضا عربية .. ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، وكانت تتم صفقات بيع وشراء الاراضي العربية بأثمان مغرية بوساطة الصهيونيين مباشرة ، او بوساطة عملائهم من العرب . وهكذا اصبح الصهيونيين يمتلكون في شهر اذار من العام ١٩٤٠ نصف مليون دونم وكانت مساحة الاراضي التي يمتلكونها في العام ١٩٢٠ (٢٢) الف دونم وفي العام ١٩٣٠ (٢٦٥) الف دونم وفي العام ١٩٣٥ (٣٤٥) الف دونم ...

٤ ـ كم افواه العرب وافساح المجال لليهود في ميادين الدعاية : كان العرب لا يستطيعون ان ينبسوا ببنت شفة .. العيون والعملاء يقفون لهم بالمرصاد في كل مكان ، وصحفهم تحت مراقبة شديدة ، والاذاعة العربية مكتفية في زخرف الكلام ومن يفتح فما مصيره السجن او الموت الزوأم ... وعلى عكس ذلك كان اليهود : صحفهم تزخر بالدعايات ، والانتقادات ، والتوجيهات ، والتشجيعات لبناء الكيان ... واذا تحداهم احد من رجال السلطة البريطانية انزلوا فيه عقابا فوريا ، وكم من الرجال البريطانيين وجدت جثتهم معلقة في اغصان الاشجار ، وكم منهم اختطفوا في النهار على مرأى من كل الناس ولم يطلق سراحهم الا بعد ان يذوقوا من العذاب الوانا ، حتى ان احد القضاة البريطانيين اخذ يوما من فوق

منصة المحكمة وذهبوا به الى مكان مجهول ثم منحوه الحرية بعدما جلدوه انتقاما وتأديبا ... وبينما كان العرب يسجنون ويجلدون ويشنقون بالعشرات من غير ان ينطق احد بكلمة رثاء او احتجاج كانت تقوم الاوساط اليهودية وتقعد ليس في فلسطين حسب ، بل في اقطار العالم المختلفة عندما تقع حادثة بسيطة ليهودي مهما كان مركزه وكانت صفته . وكمثال على ذلك اورد الحدث التالي : سأل النائب توم ويليمس ، وزير المستعمرات في مجلس العموم البريطاني ، عما اذا كان يعلم انه في يوم ٢ اذار ١٩٤٠ عندما اعلن منع التجول في تل ابيب اعتقل الصبي مرزاحي بتهمة منع التجول وغرم مبلغ مئة مل ؟ وهل يعلم ان هذا الغلام اعتقل ثانية بتهمة المشاركة في مظاهرة وحمل لوحة وانه حكم عليه بالجلد ١٢ جلدة وان الجلد نفذ فيه في اليوم نفسه رغم ان الدفاع طلب الاذن باستئناف الحكم ؟ ورغم البيانات التي ادلى بها الوزير بمشروعية هذا الحكم زمجر النائب وارغى وازبد وصرح قائلا : ان بيانات الوزير هذه لا تكفي لقناعته في عدل الحكومة الفلسطينية ! ... فاذا كانت قضية جلد صبي تنعكس في البرلمان البريطاني بهذا الشكل ماذا نقول نحن عن الوف العرب الذين ازهقت ارواحهم بافظع الطرق واشنع التعذيب ، بما فيهم الشيوخ والنساء والاطفال ؟ ... وكيف يجب ان نصور حالة القرى التعيسة التي احرقت بأيدي الجنود البريطانيين والبيوت التي هدمت بالمعاول والديناميت ؟ ... وماذا يجب ان نعمل للاستفسار عن مصير بضعة الوف من المعتقلين العرب الذين طمروا في معتقلات يصعب حتى على الحيوانات ان تعيش فيها ؟..

هذا ومما ساعد على تشييد الكيان الاسرائيلي بهذا العمل المتواصل من جانب الصهيونيين والانكليز معا غفلة رجال العرب والمسئولين في جميع الاقطار العربية ، ومواقفهم المائعة تجاه القضية الفلسطينية ،وسكوتهم

المطبق على كل ما يجري امام اعينهم في ذلك الجزء من الوطن العربي ، لا بل ومسايرتهم الانكليز في كل اجراءاتهم مسايرة عمياء والانقياد اليهم انقيادا مخزيا . وقد كنت أرى الخطر الجاثم وقلبي يتمزق أسى ولوعة واشعر المصير الاليم بحزن يفتت الكبد .. وكنت الفت نظر وزارة خارجيتنا الى كل ما يجري في هذه الديار بتقارير مفصلة لا أترك فيها شاردة او واردة . وقلت في احد تقاريري : « والحقيقة التي يجب ان نصرح بها هي ، اننا كعراقيين وكعرب مخلصين للقضايا العربية ، علينا ان نبذل اقصى الجهود لمحاربة الصهيونية بجميع الوسائل الفعالة المثمرة ، وان نكاشف حلفاءنا بالحقيقة عارية كما هي ، وان نفهمهم بوضوح لا يقبل الشك والتأويل اننا ووراءنا الامة العربية باجمعها ، نعتبر ان خطر الصهيونية ليس مقتصرا على فلسطين وانما على البلاد العربية عامة ... فاذا كانت المانية على ما عليه من رقي وتقدم في فروع الحياة الصناعية والعلمية والفنية المختلفة لا تستطيع التخلص من سيطرة اليهود في بلادها الا بطردهم ، فحري بنا أن نحسب حسابا دقيقا لهذه الفئة التي لا تتردد في عمل كل شيء لتحقيق الوصول الى الهدف المقصود ... علينا ان نعمل اذا قبل حلول الساعة التي لا ينفع فيها الندم » . وانني مع الاسف الشديد، لم ار يوما أي تجاوب من وزارة خارجيتنا وكنت على يقين ان احدا لم يكلف نفسه عناء قراءة التقارير العديدة التي كنت اقدمها حول هذا الموضوع الحيوي الخطير ، وقد وقعت الكارثة فعلا وحلت الساعة التي لا ينفع فيها الندم ...

٥ – الثقافة لليهود والجهل للعرب :

كانت الوكالة اليهودية والانكليز معا يعنون عناية خاصة بالمدارس اليهودية ومناهج التدريس ونشر اللغة العبرية في كل انحاء فلسطين ،

وتجهيز هذه المدارس بالمختبرات ووسائل التدريس المختلفة ، بينما اهملت المدارس العربية اهمالا تاما وهي على ضآلتها مهملة من جميع الوجوه : عدد المعلمين قليل جدا بالنسبة الى عدد الصفوف والطلاب ،ابنية المدارس حقيرة ومحرومة من جميع الشروط الصحية ، المناهج تافهة لا تزود الطلاب الا بمعلومات سطحية ، والمئات من الصبيان والشباب العربي يتسكع في الطرق والمقاهي لعدم وجود مدارس كافية تستوعبهم ...

ويظهر ان البعض من رجال الانكليز اخذ يفكر في التقريب بين الثقافتين العربية واليهودية او بالاحرى في ترويض العرب على قبول التعايش السلمي مع اليهود ويدلنا على ذلك الاقتراح الذي ادلى به المستر هانا في مجلس النواب البريطاني حول اعداد كتاب مدرسي خاص بمدارس فلسطين يضم بين صفحاته تاريخ ثقافة القرون الوسطى التي نتجت عن التعاون الوثيق بين المسلمين واليهود في العصر العباسي في بغداد وبعده في الاندلس، وغرضه تحسين العلاقات بين العرب واليهود في فلسطين ! كما يدعي صاحب الاقتراح !

وتدعيما لهذه السياسة الجديدة في حركة التعليم وجه المدير العام للمعارف في فلسطين رسالة الى المجلس الملي اليهودي عبر فيها عن وجهة نظر الحكومة في وجوب تغيير النظم والقوانين التي لا تسير عليها المعارف اليهودية ، وتوحيد نظام التعليم في فلسطين . وكان لنشر هذه الرسالة صدى بعيد الاثر في الاوساط اليهودية ، لأنه يحدث انقلابا اساسيا في نظام التعليم اليهودي وشروط عمل المعلمين اليهود . وقد عقد معلمو تل ابيب في اثر نشر هذه الرسالة اجتماعا تقرر فيه رفض ادخال اي تعديل في نظم المعارف اليهودية . وفي نفس الوقت عقدت ادارة المجلس الملي اليهودي في القدس اجتماعا حضره ممثلون عن الوكالة اليهودية ومديرو اقسام المعارف اليهودية ، وبحث المجتمعون الاقتراحات المرفوعة من المدير

العام للمعارف وفي نتيجة البحث تقرر درس هذا الموضوع درسا جديا والتريث في قبوله في الوقت الحاضر .

ومن جهة اخرى اتخذ المجلس الاعلى للتعليم اليهودي القرارات التالية :

اولا ــ ان المجلس الاعلى للتعليم يستنكر محاولة تدخل الحكومة في شؤون التعليم اليهودي في فلسطين الذي قام على جهود صهيونية خلال عشرات السنين ...

ثانيا ــ ان تدخل الحكومة هذا ليس سوى خطوة في العدوان على حقوق الشعب اليهودي في بناء وطنه ، ولذلك يهيب المجلس بالمجلس الملي وجمعية المعلمين والبلديات اليهودية ومجالس المستعمرات المحلية ولجان الطوائف في انحاء فلسطين الى توحيد الجهود ضد هذه الخطوة الجديدة من الحكومة والوقوف في وجهها حتى النهاية .

ثالثا ــ ان المجلس المجتمع يطلب الى جمهور العمال اليقظة التامة والوقوف للدفاع عن المعارف العبرية في فلسطين ...

انا وشركة البحر الميت

تعتبر شركة البحر الميت في ذلك العهد من اهم الشركات اليهودية في فلسطين ، وتتجلى اهمية هذه الشركة ليس بوفرة البوتاس الذي تجهز الاسواق العالمية به حسب ، بل بما يحويه هذا البحر من كنوز غنية اخرى كمادة الـ (فوروم) التي تستعمل في صنع المواد المخدرة ومادة الـ (اتيل) التي تستعمل لتنقية البنزين الخاص بوقود الطائرات . ويقال ان البحر الميت هو المكان الوحيد لاستخراج الـ (فوروم) في الامبراطورية البريطانية . وقد ازدادت صادرات البحر الميت من البوتاس الى الاسواق الخارجية بالنظر الى ظروف الحرب العالمية الثانية ولأن المانية والولايات المتحدة منعتا تصديره من بلادهما ولم تعد تهتم اسبانية باستخراجه بعد الحرب الاهلية التي اندلع لهيبها في البلاد ، فاصبحت الاسواق العالمية والحالة هذه تسد حاجتها من البوتاس من فلسطين وفرنسة فقط... ونظرا الى ان مناجم البوتاس في فرنسة واقعة على بعد مسافة قليلة من خط ماجينو انحصر تصديره بفلسطين وحدها ، وقد ظهر من البيان التمهيدي الذي اصدرته الشركة ان ارباحها الصافية لسنة ١٩٣٩ بلغت (١٨٢٣٦٤) جنيها فلسطينيا .

وبالنظر الى ظروف الحرب السائدة في ذلك الحين كان ميناء البصرة أقرب وأسهل وآمن مكان للتصدير . ان منتوجات البحر الميت كانت تنقل في طبيعة الحال بواسطة سيارات النقل عبر الاردن الى العراق ، ولكن الشركة كانت تلقى بعض الصعوبات في داخل العراق من جراء بعض الاجراءات الجمركية وكانت هذه الاجراءات تعيق سير قوافلها عدة ايام ، وفكرت الشركة في ان تزيل هذه العقبات بطريقة يهودية معتادة ! وتوصلت بعد درس طويل وتفكير عميق على ما يظهر ، ان اكون انا الوساطة لدى السلطات العراقية المختصة لتبسيط الاجراءات الجمركية في حدود العراق والسماح لسياراتها للنقل أن تمر بالحدود العراقية ، بقيادة سواقها الصهيونيين حتى تصل الى ميناء البصرة وتعود على نفس الطريق الى فلسطين ... وقد اوفدت لي شابا ، هو احد موظفيها من بيت (...) لا اتذكر اسمه الآن ، وكانت مهمة هذا الشاب ان يجس نبضي ويكلفني (بهدية بسيطة (؟) قدرها الفا دينار فقط) اذا انا توسطت في تنفيذ رغبتهم لدى المدير العام للجمارك والمكوس ، وكان آنذاك علي محمود الشيخ علي الصديق الكريم .. انني عندما بوغت بهذه المفاجأة لم اتمالك ضبط اعصابي وصرت ارتجف من قمة رأسي الى اخمص قدمي ، وهجمت على مخاطبي وضغطت على تلابيبه ودفعته الى خارج الغرفة وعدت الى مكتبي وانا متوتر الاعصاب اهتز ألماوتأثرا .. وبعد ان هدأت واسترحت قليلا كتبت رسالة الى الاخ علي محمود الشيخ علي المرحوم اوضحت فيها الحادثة المذكورة ورجوته بالحاح ان يشدد في الاجراءات ضد سيارات هذه الشركة ويعرقل سيرها في الحدود العراقية بكل وسيلة ممكنة ، وقد كنت أود ان انشر تلك الرسالة ضمن مذكراتي هذه الا انها فقدت من بين اوراق وملفاتي الكثيرة التي استولى عليها رجال الامن الذين تحروا داري مرات

عديدة في العهد الملكي ، والحكم البعثي بعد ثورة ١٤ رمضان ... ويظهر ان شركة البوتاس هذه قد تقدمت بشكوى ضدي ، اما الى السلطات الفلسطينية ووصلت بالوساطة الى نوري السعيد المرحوم او الى وزارة الخارجية مباشرة بدليل انني عندما قدمت الى بغداد بعد هذا الحادث بأسابيع قليلة وقابلت نوري السعيد في مكتبه ، ابتدرني سائلا وهو يبتسم : ماذا جرى بينك وبين شركة البوتاس يا طالب ؟.. اجبته وانا ابتسم ايضا : اليسوا هم اعداء لنا ماكرين ؟ دعني وشأني معهم اذن يا باشا ...

* * *

رئيس يهودي لبلدية حيفا وسكرتير يهودي لبلدية القدس

كان المفروض او لنقل ان من الواجب القومي ان تكون الظروف القاسية التي تحيط بعرب فلسطين حافزا قويا لتوحيد الصفوف واتفاق الكلمة ليتمكن العرب من مواجهة الطغيان الصهيوني الجارف ، الذي يستهدف في جميع مخططاته ومشاريعه تشييد الكيان الصهيوني على جماجم العرب اصحاب البلاد الاصليين ، ولكن يظهر ان كل ما مثل من ادوار محزنة على مسرح البلاد حتى الآن ، لم يكن كافيا لاستفزاز روح الانتباه واليقظة في نفوس المواطنين العرب ، لا بل ان الكارثة التي كانت تتجلى امام كل عين تبصر لم تدفعهم الى نبذ الاختلافات الحزبية والضغائن والاحقاد الشخصية من النفوس . لقد كانت في البلاد يقظة ، اعقبتها انتفاضة قومية ، وثورة مسلحة ظهرت في ادوارها الاولى شريفة في غاياتها ، نبيلة في مراميها ومقاصدها ، الا انه سرعان ما تلوثت اهدافها الاصيلة ببعض الاغراض الشخصية حتى آل امرها الى اقتتال العرب بعضهم مع بعض ، واضطراب الامن في القرى العربية ودمرت البيوت وخربت المزارع العربية تارة على ايدي الجنود البريطانيين القساة وأخرى على ايد عربية محضة ، بتحريض وتشجيع خبيثين من البريطانيين والصهيونيين على حد سواء ... وخسر العرب قوة لا يستهان بها ، ووهنت عزائمهم وتفككت

عرى تضامنهم وتمزقت صفوفهم واصبحوا صفرا الى اليسار لا يحسب له اي حساب ••• واليهود الذين يتربصون الفرص ويصطادونها صاروا يتطلعون الى هنا وهناك ولا يتركون فراغا الا اشغلوه ولا يدعون عملا الا اغتصبوه ••• ولقد كانت السيطرة على البلديات من اهم ما وضعوه نصب اعينهم ولما شغرت وظيفة سكرتير بلدية القدس نصبوا لها الشراك • وفي الجلسة التي احتوى منهجها على تعيين هذا السكرتير غاب عضو عربي مسيحي من الجلسة ، قيل لمرض الم به ؟؟• ولما كان عدد الاعضاء العرب متساويا مع عدد الاعضاء اليهود في المجلس البلدي اصبح اليهود في تلك الجلسة اكثرية بالنسبة الى زملائهم العرب ، وهكذا فاز اليهود وخسر العرب •• ولأول مرة في تاريخ بلدية القدس يعين يهودي سكرتير المجلس البلدي ! وبعد هذه الحادثة المؤلمة اجتمعت بمصطفى الخالدي المرحوم رئيس بلدية القدس ، واظهرت له استغرابي من هذا التهاون الذي بدأ من قبل الاعضاء العرب في المجلس البلدي ، فقال : « الحق معك ، ولكن ماذا كنت استطيع ان افعله بعدما غاب عضو مسيحي عربي عن الجلسة واصبح اليهود اكثرية بالنسبة لنا ؟••»

والحالة الثانية المؤسفة جرت بتعيين رئيس لبلدية حيفا من اليهود ايضا لاول مرة في التاريخ •• لقد كان الرئيس السابق عربيا اسمه حسن شكري ، توفي الى رحمة الله بعد مرض طويل ، فافادت السلطات البريطانية من ضعف العرب ووهنهم في حيفا واصدرت امرا بتعيين الادون شابا تاي ليفي رئيسا للمجلس البلدي في حيفا !•••

العراقيون يميلون الى النازية (حديث مع المستر كركبرايد)

ترآى لي في حالات عديدة ان البريطانيين يعتقدون ان العراقيين يميلون الى النازية ولهذا فانهم يكرهون البريطانيين، وصدف أن فاتحني المستر كركبرايد المعاون السياسي للسكرتير العام في هذا الموضوع بصراحة في عصر ٣١ ايار ١٩٤٠ في دار السيد روحي عبد الهادي المعاون العربي للسكرتير العام عندما كنا في دعوة للشاي هناك . ان المستر كركبرايد رجل دمث الاخلاق ، رزين ، لين العريكة ، هادىء الطبع ، محبوب في الاوساط العربية ، ويتكلم اللغة العربية بحذاقة وطلاقة ، يعمل في الحكومة الفلسطينية منذ عشرين عاما .. وقد انتهزت هذه الفرصة وافضت معه في حديث طويل عن علاقات العرب بالدولة البريطانية ، ويتلخص حديثي بما يلي :

ان الامة العربية ، عندما نهضت وآزرت الحلفاء في أشد ايام محنتهم خلال الحرب العالمية الاولى ، كانت تنشد حريتها وتأسس كيان مستقل بها يساعدها على التقدم واستعادة مجدها المندثر... ولقد نالوا من الحلفاء وعودا معسولة ، ولكنها كانت وعودا لم تتحقق وعهودا لم تنجز ،

بل حاولوا تكبيل الامة العربية واستنزاف ثروتها في كل قطر عربي ...
بقيت سورية ، بما فيها لبنان تئن تحت نير الاستعباد الفرنسي ، واصبحت فلسطين او تكاد تكون طعمة لليهود . وكنا نأمل ان تتغير سياسة الحلفاء بعد نشوب الحرب العالمية الحاضرة ولكن شيئا من ذلك لم يحصل ، بل ازداد جور الفرنسيين في الشام ورفضت المعاهدة السورية ـ الفرنسية رغم ما فيها من اجحاف بحقوق السوريين . وتبدل بعدئذ شكل الحكم في سورية وزج زعماؤها وخيرة شبابها الاحرار في السجون . كما انه لم يطرأ على السياسة البريطانية في فلسطين أي تحوير يبشر العرب بمستقبل مزدهر ويعيد الثقة والطمأنينة الى نفوسهم . ولا تزال المعتقلات في فلسطين غاصة بجماعات كبيرة من العرب واحكام الاعدام تصدر وتنفذ في عدد كبير من هؤلاء ... ان كل هذه الامور تجرح شعور العرب في اقطارهم المختلفة وتجعلهم ينظرون الى البريطانيين والفرنسيين نظرة شك وحذر ، وان نظرة الشك والحذر هذه تبعد العرب عن الحلفاء وتملأ نفوسهم بالشكوك في حسن نواياهم .. وانني لشديد الاعتقاد في أن السياسة التي يتبعها الحلفاء في سورية وفلسطين لو كانت أكثر اعتدالا واقرب الى الحق الصريح لوجدنا الامة العربية برمتها تتفانى في سبيل نصرة الحلفاء . اما النازية في العراق فلا أثر لها مطلقا ، وليس من الصواب أن تفسر الاعتراضات التي توجه الى تصرفات الحلفاء في سياستهم الخاطئة في البلاد العربية بالنازية ... ان العرب يطالبون بحقوق صريحة عادلة ، ولا يقصرون قط في الوفاء لحلفائهم عندما يلمسون فيهم وفاء يسنده حسن النية ... وفي الاخير اختتمت حديثي معه بقولي : «غيروا سياستكم في فلسطين وفي غيرها من الاقطار العربية تروا كيف ان العرب يسيرون

معكم جنبا الى جنب كاصدقاء مخلصين وحلفاء اوفياء••• انكم بمساندتكم القضايا الصهيونية قد تربحون قوما مبعثرا منفورا دفنته العصور الماضية في اجواف التاريخ ، اما اذا ساندتم العرب وأوفيتم بوعودكم اليهم فانكم تكسبون امة عظيمة برمتها » ••• وقد اتفق معي المستر كركبرايد خطل سياسة الحلفاء وقال : « ان الحكومة البريطانية اجرت تعديلات مهمة في سياستها في فلسطين ، فهذا الكتاب الابيض وهذا قانون بيع الاراضي الجديد ، ألا يدلان على تغيير الاتجاه ؟ • اما المعتقلون واحكام الاعدام فأعتقد انهم سينالون ايضا اهتمام الحكومة الفلسطينية قريبا »•

* * *

الروح القومية في المدارس العربية الاهلية

تتجلى الروح القومية العربية في فلسطين بشكل باهر جدا في المدارس العربية الاهلية ، فالاساتذة والطلاب في هذه المدارس يحملون في قلوبهم عواطف الود والاخلاص للعراقيين ، ويعتزون باسم العراق ، ويرفعون العلم العراقي عاليافي احتفالاتهم المدرسية على مرآى من السلطات البريطانية العسكرية منها والمدنية • ولقد دعتني مدرسة بير زيت الثانوية لاكون ضيف الشرف في حفلتها الرياضية في اليوم الاول حزيران ١٩٤٠ وقبلت الدعوة شاكرا عاطفتهم نحو بلدي العزيز ••• وعند وصولي الى ساحة الالعاب في الوقت المعين كان في استقبالي مدير المدرسة والاساتذة في مدخل الساحة المزين بقوس من غصون الاشجار ، وكانت جماعة كبيرة من الاهلين واقفة هناك حيتني تحية حارة بوجوه تشرق بهجة وسرورا •• ولما اقتربت من الخيمة التي خصصت للمدعوين استقبلني طلاب المدرسة بعاصفة شديدة من التصفيق • وبعد انتهاء المسابقات قدمت الجوائز للفائزين بيدي ، ثم تجمهر الطلاب امام الخيمة واخذوا يهتفون بحياة العراق والامة العربية ••• واخيرا دعي الضيوف الى بناية المدرسة لتناول الشاي وكانت ادارة المدرسة قد اعدت مقصفا دسما لهذا الغرض ، وعند انتهاء الاحتفال اخترقت صفوف المتجمهرين بسيارتي فكانت جموع الاهالي

العرب من مسلمين ومسيحيين تحي العلم العراقي وكانت تظاهرة قومية حقة توحي الى النفس بأن قرية بير زيت تحيا يوما قوميا من ايام العروبة ؛ كان العلم العراقي وحده يرفرف في ساحة الالعاب مرفوعا على سارية عالية والناس تنظر اليه باعجاب وبقلوب ملؤها الفخر والعزة القومية . اما العلم البريطاني فاستعمل فقط غطاء للمنضدة التي وضعت عليها الجوائز ...

ولقد تلقيت دعوة ثانية بعد ذلك لاحتفال مماثل في كلية النهضة العربية في القدس ، وقمت بتوزيع الجوائز على الطلاب الفائزين . اما من حيث الشعور والمظهر فكانا مماثلين لما شاهدته في مدرسة بير زيت .

ان ما لفت نظري في احتفالات هذه المدارس هو انها رغم كل هذه المشاعر النبيلة ، والعواطف القومية الصادقة ، لا تزال تستعمل اللغة الانكليزية في ايعازاتها الرياضية . وقد فكرت انه من المفيد جدا ان تقوم بخدمة لهذه المدارس بحثها على استعمال الايعازات العربية المستعملة في مدارس العراق ، وعلى هذا الاساس طلبت الى وزارة المعارف العراقية ان تقوم بطبع كراس يحوي جميع الايعازات والمصطلحات المستعملة في الرياضة البدنية والكشافة والفتوة في مدارس العراق وان يرسلوا الينا كمية منها لنقوم بتوزيعها على المدارس العربية المختلفة هنا ...

حفلة برعاية قرينة قنصل العراق العام

كانت جميع المؤسسات اليهودية ، من مدارس ونواد وجمعيات وغيرها ، تقيم حفلاتها برعاية المندوب السامي او قرينته . اما المؤسسات العربية فكانت تقيم مثل هذه الحفلات برعاية قنصل العراق العام او قرينته كعمل مضاد للعمل اليهودي . وفي الحقيقة ان حركة عظيمة دبت في المجتمع النسوي في القدس في الايام الاخيرة ، فالجمعيات النسائية العربية اخذت تشتغل بجد وحرص عظيمين في مساعدة ايتام شهداء الثورة من جهة ومساعدة المعتقلين وعائلاتهم من جهة اخرى ، من ذلك أن لجنة الاسعاف النسوية التابعة لجمعية الاتحاد النسوي العربي التي تضم فضليات السيدات من العائلات العربية العريقة قامت بحفلة كبرى — لاول مرة في القدس — لمنفعة الايتام والمحتاجين من ابناء العرب في مساء ٢٥ تموز ١٩٤٠ وجعلتها برعاية قرينة قنصل العراق العام . وقد مثلت «رواية العلم» المملوءة بالشعور القومي الفياض والعاطفة القومية الصادقة ، وكانت الاعلام التي استعملت في الرواية هي الاعلام العراقية نفسها . ثم مثلت الفتيات رواية قصيرة عنوانها « تمثال الحرية» التفت حوله الفتيات بملابس عربية كتبت عليها اسماء البلاد العربية واخذت فتاة تنشد شعرا وطنيا حماسيا يبعث الروعة في النفوس ، وكانت الحفلة حديث الناس لعدة ايام في جميع الاوساط العربية ...

شائعات عن اتفاقية سرية بين بريطانية واليهود

اذاعت محطة برلين العربية خبرا فحواه ان الحكومة البريطانية عقدت اتفاقية سرية مع اليهود توعدهم فيها بتأسيس دولة يهودية في فلسطين تضم اليها سورية ولبنان وتنصب عليها ملكا يهوديا ... لقد اقلقت هذه الاخبار الرأي العام العربي وصار الكثيرون يسألونني ما اذا كان لها نصيب من الصحة . واجيبهم أن ليست لدي معلومات في هذا الموضوع ... وفي صباح ١١ تموز ١٩٤٠ نشرت احدى الصحف المحلية تكذيبا بالشكل التالي : « كانت محطة الاذاعة العربية في برلين قد اذاعت ان الحكومة البريطانية عقدت معاهدة مع اليهود تتعلق بمستقبل فلسطين واقامة دولة يهودية فيها ، ولما كان هذا الزعم محض اختلاق فان محطة الاذاعة الفلسطينية تكذبه تكذيبا قاطعا »...

على ان هذا التكذيب بشكله المنشور جعل الرأي العام العربي هنا يميل الى الاعتقاد بصحة ما اذاعته محطة برلين العربية وصار الناس يتساءلون : هل يجوز صدور تكذيب عن امر مهم كهذا عن محطة الاذاعة؟. وما قيمة هذا التكذيب وما هي صبغته الرسمية ؟.. وبالنظر الى اهمية

الموضوع رأيت من الضروري ان ازور السكرتارية العامة واطلع على رأيها في هذا الموضوع ، وهناك استقبلني المستر كركبرايد ، السكرتير السياسي ، استقبالا حارا ورحب بي اجمل ترحيب وفق الطريقة الانكليزية. وبعد تبادل المجاملات المعتادة قلت له : « ان الاخبار التي نشرتها محطة اذاعة برلين عن الاتفاقية المزعومة بين الحكومة البريطانية وبين اليهود أقلقت العرب في مختلف بلدانهم ، ولاحظت بنفسي القلق في سورية ولبنان خلال زيارتي الاخيرة لهما ولمسته في القدس وفي كل انحاء فلسطين ، على انني لا اعتقد قط ان الحكومة البريطانية تقدم على قطع مثل هذا الوعد لليهود في وقت يهب فيه العرب في كل مكان لنصرة الحلفاء . اما التكذيب الذي نشر في الصحف الفلسطينية بشكله الحالي فلا يخفف من وطأة الفزع اذا لم يزدها ... اذ ليس في التكذيب اية صبغة رسمية يمكن الوثوق بها ... واعتقد ان من مصلحة الحكومة البريطانية تكذيب هذه الشائعة بصورة رسمية وصريحة لا تدع أي مجال للشك والتأويل ... وفي اثر ذلك طلب المستر كركبرايد النص الذي نشر لهذا التكذيب وبعدما تأمله بامعان قال : « الحق معك ... انه لا يفيد الغرض ، وانني اشكرك على ملاحظتك وسأتصل بالمراجع المختصة لاعادة النظر في الموضوع واتخاذ ما يلزم لتطمين وجهة نظركم » ..

وبعد عودتي الى دار القنصلية ، تلفن لي المستر كركبرايد قائلا : انه اتصل بالجهات المختصة وبعد ان شرح لها الوضع في ضوء ما تحدثنا به ، وافقت على نشر بيان رسمي يذاع اليوم من محطة القدس . وفعلا نشر البيان المذكور وفيه تأكيد بان الحكومة البريطانية كذبت هذا النبأ رسميا في لندن .

مناشير وطنية ضد الانكليز ، ودعايات حكومية ضد الطليان

لوحظ خلال شهر آب ١٩٤٠ ان مناشير كثيرة الصقت على الجدران في قضاء رام الله والقدس ومدن اخرى تحرض الناس على القيام ضد الحكم البريطاني في فلسطين • وقد طار صواب رجال السلطات الحكومية التي امرت بانتزاعها من الجدران ، والقي القبض على بعض المشتبه بهم ولكن التحقيق عجز عن اظهار الاشخاص القائمين بالعمل •••

وبعد مضي بضعة ايام على هذه الحوادث شاع ان بعض رجال الثورة السابقة عادوا من العراق الى قرية بيتونة الواقعة بالقرب من قضاء رام الله وانطلقت سرايا الجيش في تعقيب أثر هؤلاء وحاصرت القرية المذكورة اياما وليالي شددت فيها الخناق على بعض السكان واذاقتهم الأمرين من الجور والجفاء ••• وقد أثرت هذه الاعمال التنكيلية في العرب اسوأ تأثير وذكرتهم بالمظالم التي ارتكبت ضدهم خلال الثورة الماضية ، وصاروا يجهرون بتذمرهم واشمئزازهم مما يذوقه العرب الابرياء من عسف وجور على ايدي الجنود البريطانيين • وقيل ان الحصار لم يرفع عن هذه القرية المنكودة الحظ الا بعد ان دفع سكانها

مبالغ كبيرة بعضها كغرامة ، وبعضها تسديدا للضرائب التي ادعت السلطة بانها متراكمة عليهم منذ بضع سنين !..

ومن الغريب انه بينما تجري كل هذه الاعمال الوحشية من الجانب البريطاني ويتألم العرب مما يقاسونه من جور وعذاب ، تحاول السلطات البريطانية في مثل تلك الظروف بالذات القيام بسلسلة من الدعايات واسعة النطاق ضد دولتي المحور .. على ان الناس هنا ، حتى العوام فيهم ، منتبهون الى اغراض الدعاية البريطانية ، متفهمون اساليبها السخيفة .. وقد قال لي احدهم يوما ، بعدما استمع الى ما قيل في الراديو عن مظالم الطليان في طرابلس الغرب وقصة قتلهم عمر المختار المرحوم : « هل يظن الانكليز اننا نسينا مظالمهم الدامية في فلسطين ؟ ان القرى لا تزال منتصبة بخرائبها ، والارامل لم ينزعن بعد لباس حدادهن ، وها هي الشوارع والازقة تعج بمئات الايتام .. واذا كان الطليان قد قتلوا عمر المختار فمن هم الذين قتلوا فرحان السعدي يا ترى ؟...» .

« والشيخ فرحان السعدي المرحوم هذا من قرية مزار وهو من اخوان الشيخ عز الدين القسام ، والشيخ فرحان اول من اطلق رصاصته معلنا الثورة المسلحة ضد الانكليز واليهود وكان ذلك يوم ١٥ نيسان — ١٩٣٦ . كانت العملية الاولى هجوما مسلحا على طريق نابلس وطولكرم ، قتل فيها ثلاثة من الانكليز وجرح آخرون ، ثم اختفى بعد ذلك في الجبال ليعيد الكرة من جديد على مستعمرات زمارين وبن يامين والخضرة وكان ذلك ايذانا ببدء المعركة . وفي ٢٥ نيسان ١٩٣٦ عقد اجتماع لرجال الاحزاب في القدس تقرر فيه تأليف الهيئة العربية العليا من رجال الاحزاب شارك فيها سماحة الحسيني وراغب النشاشيبي والدكتور حسين الخالدي وعبد اللطيف صلاح وجمال الحسيني ويعقوب الغصين والفرد روك عوني عبد الهادي واحمد حلمي عبد الباقي ويعقوب فراج . وهكذا كانت

الهيئة العربية العليا وليدة الثورة ، ثورة الشعب التي اعلنها اخوان عز الدين القسام واستجاب لها الشعب بتأليف لجان قومية عديدة في مختلف البلاد . وفي ٢٦ نيسان ١٩٣٦ اصدرت الهيئة العربية العليا اول بيان لها تدعو فيه الشعب الى مواصلة الاضراب ، حتى تستجيب حكومة الانتداب للمطالب القومية ، وتتلخص في :

١ ـ انشاء حكومة وطنية مسئولة امام المجلس النيابي .

٢ ـ منع الهجرة اليهودية الى فلسطين ومنع انتقال الاراضي الزراعية الى اليهود . وفي ٨ ايار ١٩٣٦ اعلن العصيان المدني العام وامتنع الشعب العربي في فلسطين بسائر فئاته من دفع اي نوع من انواع الضرائب الى حكومة الانكليز . وفي ١٦ ايار ١٩٣٦ اتخذت الثورة شكلا جديدا وظهرت العصابات العربية المسلحة علنا في القرى والجبال وعلى الطرقات العامة ، وابتدأ قطع الاسلاك التلفونية ، ونسف الجسور وتخريب الطرقات ونسف انابيب بترول حيفا . وكان البطل الشيخ فرحان السعدي المرحوم يقود المعارك ببطولة وجرأة نادرتين .. وسجلت معركة اليامون الكبيرة بطولات خارقة اضطرت حكومة الانتداب الى فرض احكام عسكرية تجيز للمحاكم العسكرية اعدام من يحمل طلقة رصاص واحدة . واخيرا في ليلة من ليالي رمضان الموافقة ٢٢ـ١١ـ١٩٣٦ دهمت قوات بريطانية كبيرة قرية المزار في قضاء جنين وطوقتها باحكام حتى تمكنت من اعتقال خليفة الشهيد القسام ، اول من اطلق رصاصة ضد المستعمرين المجاهد الصادق الشيخ فرحان السعدي ، ومعه ثلاثة من اخوانه الابرار وصودرت من كل منهم بندقية حربية ، وجاء هذا الاعتقال نتيجة لوشاية احد رجال البوليس ، الذي قتل في ما بعد على يد فدائي ، وسيق الشيخ الجليل الى اول محكمة عسكرية . وبعد محاكمة صورية ، حكم عليه بالاعدام شنقا وعمره آنذاك ثمانون سنة ... وما ان انتشر الخبر حتى

عمت الاضرابات جميع المدن والقرى احتجاجا على الحكم الجائر في حق هذا البطل العربي وعدم السماح له بالدفاع عن نفسه • ولكن الحكومة الغاشمة لم تعر تلك الاحتجاجات اية التفاتة ومضت في طغيانها ونفذت حكم الاعدام شنقا بالبطل الشيخ يوم ٢١-١١-١٩٣٧ واعلن الشعب العربي في فلسطين الحداد على الشهيد وكان ذلك في يوم عيد الفطر المبارك • اما اخوانه المجاهدون البررة فان المصاب لم يزدهم الا قوة وبأسا وهاجموا الثكنات والدوريات العسكرية والمستعمرات اليهودية ، وقتلوا المئات من جنود الاعداء انتقاما لشهيدهم الكبير» ••(١)

وفي الواقع ان الاساليب التي كان يتخذها رجال السلطة البريطانية لبث الدعاية لهم كانت سخيفة للغاية ، وبدلا من ان يرفهوا عن العرب ويأتوا بأعمال تدل على حسن نواياهم ينكلون دون رحمة وشفقة بكل فرد عربي لاسباب تافهة ، وبدلا من ان يقدموا للشعب من كانوا موضع ثقتهم يأتون باناس يمقتهم المجتمع العربي ويطلبون الى هؤلاء ان يوجهوا الرأي العام العربي توجيها يتفق ومصلحة بريطانية !!!

من ذلك مثلا : أتوا في أحد ايام شهر اب ١٩٤٠ برجل يدعى المطران حجار وطلبوا اليه ان يذيع حديثا من دار الاذاعة عن نبل الانكليز ووفاء العرب ••• وبدأ هذا الرجل الذي لا قيمة له في الاوساط العربية حديثه في «الوطن والوطنية» وبينما كان يخاطب سامعيه على قلتهم قائلا : « ان المرء كبير بامته عظيم بامجادها » واذا بهيقول بعد قليل ،« نحن في هذه البلاد آمنون ، مطمئنون بفضل العلم البريطاني والدولة المنتدبة التي تحرص علينا كل الحرص ، فلا جوع عندنا ولا حاجة • فهذه الدولة تسخو على

---

(١) من كتاب (الثورة العربية الكبرى) تأليف صبحي ياسين .

فقرائها بالاعانات ، وتشعر نحو شعبنا شعورا مليئا بالاخلاص والحب والعمل . ان الامة البريطانية تساعدنا على كل شيء ، وواجبنا الالتفاف حولها واخلاص النية لها » .

وفي حديث اخر اذاعه الشيخ مصطفى الخيري ، رئيس بلدية الرملة خلال هذا الشهر ايضا يقول : « فهل سمعنا ان بريطانية اغتصبت ارضا وانشأت مستعمرة فيها ، او سلبت عقارا او مالا او استولت على رقعة من الارض دون اجارة او تأجير وتعويض ، أو منحت هذه الارض الى دولة اخرى ؟.. واني استحلفكم بالله ان تجيبوني بما تعلمون وأنا واثق ان جوابكم سيكون (كلا) » .

وها هي ايطالية في طرابلس سلبت اراضيها دون ثمن او تعويض وحولت القطر الطرابلسي الى قطعة من ايطالية .. والخ من سخافة الرأي وتفاهة الكلام ...

والحقيقة التي لا غبار عليها ان هذا النوع من الدعاية التي تحاول السلطات البريطانية بثها بين العرب هنا لا يقرب العرب منها بل يبعدهم عنها ، ولا يكثر من حبهم اياها بل يزيد في بغضهم اياها .. وكنت اصرح برأيي هذا الى كل من اعرفه من رجال الحكومة الفلسطينية واقول لهم : « اذا اردتم صداقة العرب واخلاصهم لكم ، افتحوا ابواب المعتقلات ، واغلقوا ابواب الهجرة في وجه اليهود ـ الهجرة غير المشروعة على الاقل ـ واشركوا ابناء البلد المخلصين في حكم البلاد ، واعيدوا النازحين فيهم الى وطنهم ، تحصلوا عندئذ على ما تريدون وتنالوا ما تبغون من صدق ووفاء ومساعدة واخلاص ليس من عرب فلسطين حسب ، بل من كل العرب في كل الاقطار »...

يريد الشيخ مصطفى الخيري جوابا على اسئلته المتعلقة ببريطانية

واعمالها ، واذا استثنينا من كان على شاكلته (وهم نفر قليل من الانانيين وعباد المنفعة الشخصية) فان البلاد برمتها ــ عدا اليهود طبعا ــ تصرخ في وجهه قائلة : « ان بريطانية لم تغتصب ارضا وانما اغتصبت اقطـــارا برمتها ، ولم تنشىء مستعمرة ولكنها استقدمت من جميع زوايا المعمورة من الخلائق الوانا واشكالا وشجعتهم على انشاء المستعمرات في ارض لا يملكون حق التصرف بشبر منها ، وانها لم تسلب عقارا من ذويه ولكنها نسفت مئات من بيوت الفقراء والمساكين ، واقتلعت اشجارا يانعة نظرة من عشرات البساتين العامرة ، ولم تغتصب مالا بمعنى الاغتصاب المعلوم عند العوام وانما جمعت عشرات الالوف من الجنيهات باسم غـرامـات تأديبية من افقر القرويين ، والخ ...

قلاع محصنة في جميع أنحاء فلسطين

كان الانكليز واليهود متفاهمين كل التفاهم على الاستعداد لليوم الموعود لاعلان الدولة اليهودية وكانوا يعملون يدا بيد للتعجيل في اعلان نبأ ذلك اليوم الذي هو هدف الطرفين الصهيوني والبريطاني •• ومن مخططاتهم تلك الحركة النشيطة التي ظهرت في انشاء قلعة محصنة في كل مركز مهم من انحاء فلسطين ••• ان بعض هذه القلاع كبير بحيث يستوعب (٣٠٠) شرطي او جندي ، وبعضها صغير لا يستوعب اكثر من خمسين مسلحا • وكل قلعة من هذه القلاع خططت بشكل يكفل تجهيزها بكل ما يلزم لتأمين راحة الجنود ومعاشهم مدة ثلاثة اشهر كاملة • ففي القلعة مثلا بئر للماء ، ومحرك للكهرباء ، ومخزن للعتاد ، وآخر لانواع الطعام تحيط بها ابراج محصنة للدفاع والاستكشاف • انني شاهدت بنفسي انشاءات هذه القلاع في اماكن عديدة في اثناء تجولي في بعض الانحاء منها مثلا : (اريحا ، حيفا ، جنين ، نابلس ، الناصرة ، وصفد) ، وبوشر في بناء هذه القلاع مرة واحدة ، وخصص لهذا الغرض اكثر من ثلاثة ملايين جنيه فلسطيني ••• وقد وضعت تصاميم القلاع المذكورة بخبرة اختصاصي بريطاني استقدمته الحكومة الفلسطينية من

الهند لهذه الغاية (اسمه المستر تيغارت) وهذا المستر نفسه هو الذي وضع تصميم الحاجز العظيم من الاسلاك الشائكة على طول حدود سورية ـ فلسطين وقد سمي «خط تيغارت» تخليدا لاسمه ...

وكان عرب فلسطين قاطبة متشائمين من الهدف المقصود من بناء هذا القلاع ويتساءلون : ما سبب بنائها ؟ وضد من تبنى ؟ وكانوا يدركون ان الغاية التي دفعت السلطات البريطانية الى انشاء هذه القلاع ليست في صالح العرب على كل حال ،ويجزمون بشكل جاسم ان هناك خطة مدبرة (في صالح اليهود) ستعلنها الحكومة البريطانية عند احرازها النصر النهائي في هذه الحرب ، وسيضطر العرب آنذاك الى اعلان الثورة مرة اخرى في وجه الانكليز واليهود معا ، وعند ذلك تلعب هذه القلاع دورها في قمع مثل هذه الاضطرابات . ويتساءل الناس في الوقت نفسه : هل كانت لهذه القلاع علاقة بما أذاعته محطة برلين عن الاتفاق السري المعقود بين الحكومة البريطانية واليهود عن تأسيس دولة يهودية في فلسطين العربية في حالة خروج الانكليز ظافرين من الحرب القائمة ؟[1] .

المكتبة الإلكترونية العراقية

---

(١) تحققت مع الاسف الشديد صحة تلك الشائعات يوم اعلن الانكليز تنصلهم عن الانتداب على فلسطين وقيام دولة اسرائيل في يوم ١٦ ايار ١٩٤٨ .

وعد جديد لليهود

ان وعد بلفور في سنة ١٩١٧ وضع دون ريب جرحا بليغا في قلب كل عربي ، وان مرارة هذا الوعد لا تزال عالقة في اذهاننا وقلوبنا وجميع مشاعرنا .. وكأن هذا لا يكفي ، فاراد الانكليز ان يدموا قلوبنا ويتحدوا وجودنا ويحطموا آمالنا من جديد ليفتحوا امام اليهود آفاقا جديدة من الأمن تدعيما لنشاطهم وتشجيعا لعملهم في الاستمرار على تشييد كيان دولتهم المنتظرة ، فبرز للميدان المستر غرينوود وزير الدولة البريطاني برسالة ارسلها الى يهود امريكة أكد فيها حسن نوايا بريطانية نحو القضية اليهودية بعد الحرب ، وانه متى تم النصر لها ستبذل الجهود لتأسيس نظام جديد في العالم يقوم على مثل عليا من العدالة والسلام (!!) يكون من شأنه اصلاح الاخطاء وازالة المظالم التي اصابت الشعب اليهودي في بلدان كثيرة ... وعلقت الصحف اليهودية على هذه الرسالة وافاضت باحاديث وكتابات عن الوطن القومي لليهود والآمال المنعقدة عليه في فلسطين .. وقد احدثت هذه الرسالة والتعليقات اليهودية عليها صخبا صامتا في المحافل العربية وصار الناس يتهامسون في مدى علاقتها بقضية فلسطين

وتأثيرها في وضعها بعد الحرب . وقد اعتبرت كل المحافل العربية الرسالة آنفة الذكر بمثابة وعد جديد لليهود قل ما نالوا نظيره في الماضي ... ومما يلاحظ ان الصحف العربية لم تنشر هذه الرسالة ولم تشر اليها اي اشارة خاطفة وتجاهلتها تجاهلا تاما ، بينما نشرت في الصحف اليهودية مع كثير من التعليقات والتهويشات على الطريقة اليهودية ... ولا شك في ان الرقابة التي تخضع لها الصحف العربية هنا حالت دون ذلك ...

وبينما المحافل العربية تندب حظها وتفكر في مصيرها وتكظم غيظها من مضمون رسالة المستر غرينوود واذا بها تفاجأ بسؤال وجهه النائب المستر جفري ماندر ، المعروف بنزعته اليهودية في مجلس العموم البريطاني ، الى وزير الخارجية البريطانية يستفسر فيه : « هل اعطت الحكومة البريطانية وعدا ، للدول التي يهمها الامر ، يتعلق بانشاء اتحاد عربي حر بعد الحرب ؟...» فكان جواب المستر بطلر وكيل وزارة الخارجية على هذا السؤال : « ليست هناك وعود » . ثم تقدم النائب بسؤال آخر فحواه : « هل تنظر الحكومة البريطانية بعين العطف على اقتراح من هذا القبيل ؟» فاجاب وكيل الوزير : « انه لاقتراح مهم حري بلفت الانتباه »... وهكذا فان الحكومة البريطانية بينما تبذل الجهود بشتى الدعايات لاستمالة العرب ، تقوم في نفس الوقت بهدم ما تبنيه وتوسع شقة الخلاف بينها وبين العرب ليستمعوا الى الدعايات الالمانية والايطالية بقلوب واعية وآذان صاغية ...

اضطراب الأمن ، فخري النشاشيبي يجرح ، والعقاد والمازني يهربان

ان رسالة غرينوود وسؤال المستر جفري ماندر اثارا الرأي العام العربي واصبح الامن العام في كل انحاء فلسطين مضطربا وبركان الثورة على وشك الانفجار . وقد وقعت خلال شهر تشرين اول ١٩٤٠ حوادث قتل وجرح واختطاف وحرائق وتهديد ، ونشر مناشير عديدة في الجهات المختلفة ، فقد قتل شرطي بريطاني بالقرب من بيت جبرين في منطقة الخليل ، واختطف احد مديري شل بالقرب من بيت لحم ولم يطلق سراحه الا بعد أن دفعت عنه فدية محترمة ... وقتل بعض الاشخاص المتهمون بتجسسهم للسلطات البريطانية في اللد وفي قرية طللوزة (من توابع نابلس) وفي قرية الطيرة ، والقي القبض على شخصين وحكم على احدهما بالحبس سنة واحدة بتهمة حيازة مناشير ، وشبت في تل ابيب اربع حرائق في يوم واحد يستبعد الناس وقوعها قضاء وقدرا ...

ولم يكتف الانكليز في بث دعاياتهم في البلاد بوساطة عملائهم في

داخل البلاد ، بل اخذوا يستقدمون دعاة من الخارج ايضا .. وكان عباس محمود العقاد وعبد القادر المازني الكاتبان المصريان المرحومان من جملة هؤلاء مع الاسف الشديد ... وبعد ان القى كل منهما حديثا من دار الاذاعة الفلسطينية في القدس يستهدف دعاية للدولة البريطانية ، غادرا دار الاذاعة وفي صحبتهما فخري النشاشيبي ، وبينما هم يسيرون في الشارع في طريق عودتهم الى الفندق ، واذا بهجوم مسلح مفاجىء يقع عليهم .. قال لي صديق كان بالقرب من محل وقوع هذا الهجوم : ان العقاد والمازني المرحومين كانا يركضان ، ويصرخ احدهما : الحقونا ... يا شاويش .. الحقونا ... وفي نتيجة هذا الهجوم جرح فخري النشاشيبي ونجا الكاتبان باعجوبة خارقة وليلتئذ حزم الكاتبان امتعتهما وعادا الى القاهرة وهما يلعنان الساعة التي وصلا فيها الى القدس ...

مذكرة فخري البارودي المرحوم

ان فخري البارودي اشهر من نار على علم ليس في سورية وحدها ، بل في جميع البلاد العربية ،وكانوا يسمونه في الشام (زعيم الشباب) وهو خطيب اذا تكلم اصغى المستمعون اليه باعجاب ، وشاعر تتدفق فـــي قصائده الروح الوطنية والحماسة القوميـــة ، واذا تكلـــم فـــي مجالسه الخاصة اضحك الحاضرين بنكته المعسولة وقصصه الطلية . متحمس ، صريح ، جرىء . يقول الحق حتى اذا اصابه ضرر من جراء كلمة حق ، ويحارب الباطل دون هوادة اينما وجده ... ذو نفس ابية وشهامة عربية ، مرفوع الرأس ، يترفع عن كل الصغائر ، ويحتمل أشد المحن بجلد وروح عالية منقطعة النظير ... حارب الفرنسيين في سورية ، فطاردوه واضطر الى الالتجاء الى شرق الاردن واستقر في عمان ... استقبله الامير عبدالله بترحاب وحاول ان يمد له يد المساعدة ببعض المال لكن نفسه الابية كانت تعتبر ان في ذلك شيئا من الاذلال فاعتذر شاكرا أريحية الامير وحسن استقباله ... وبعد ذلك قرر العمل كسبا للرزق وفتح مقهى بسيطة فـــي قلب عمان ، وقد زرته مرة في هذا المقهى وكان كعادته نشيطا لا تفـــارق الابتسامة شفتيه ولا يضمحل الامل في نفسه .. جرى الحديث بيننا عن القضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة ، وصار يوجه لومـــا

شديدا للسياسة الانكليزية في فلسطين ، وفي سورية وقال : هل سمعت انباء محاولات الانكليز الاخيرة ؟•• انهم يبثون دعاياتهم الآن بالتلويح بمساومات جديدة مع روسية وتركية ويعدون هاتين الدولتين بالانتداب على سورية ، بعد ان انهارت فرنسة واستسلمت للالمان ••• قال ذلك والألم يتفجر من عينيه ، وصوته يرتجف من شدة التأثر ، ثم سلمني بعض الاوراق قائلا : اقرأ هذه هي المذكرة التي قدمتها الى المندوب السامي البريطاني في القدس ، وفي مقتبسات منها :

« ان قيام الدعاية البريطانية بمساومات جديدة على حساب سورية العربية ليس من شأنه الا زيادة تسميم العلاقات البريطانية ـ العربية والقضاء على البقية الباقية من امل في حسن نوايا الحكومة البريطانية في الحرب الحاضرة » • وبعد ان ذكر كيفية سلخ سورية الجنوبية عن سورية الشمالية ، ومنح لواء الاسكندرونة الى تركية ، ووقف مشروع المعاهدة السورية ـ الفرنسية قال : « ان العرب يعتقدون ان الصهيونية لها اليد العظمى في هذا الموقف بدعمها الحكومة البريطانية • ولو ابعدت السياسة البريطانية النظر عند اعلان الحرب العالمية الماضية ، لكافأت اليهود يومئذ على غير حساب العرب ومنحتهم احدى المستعمرات الخالية من السكان في افريقية او غيرها ، ولعززت وأيدت استقلال سورية ووحدتها التامة واخرجت منها دولة حديثة متحدة مع الدولة العراقية ومحالفة الحكومات العربية الاخرى • وبعد ان تكلم عن اساليب الدعاية الاستعمارية البالية موضحا انها لم تعد صالحة لاستمالة العرب ، وذكر المصالح الحقيقية والمنافع المتبادلة التي تربط الامم بعضها ببعض استطرد الى ما قام به العرب من خدمات جلى كانت من اهم العوامل التي اكسبت بريطانية النصر في بلاد العرب خلال الحرب العظمى الاولى •• واخيرا قال : « ان بريطانية ، لاجل ان تربح الحرب ، لا بد لها من انصار •• والعرب لا يقل عددهم

عن سبعين مليونا (١) هم قوة اذا عرفت بريطانية كيف تستفيد منها ، ثـم عدد طرق الافادة من هذه القوة بما يلي :

١ ـ تعلن انكلترة انها تعترف باستقلال العرب الحقيقي ، وتساعد على بقائه ، وتوافق على انشاء دولة عربية متحدة تضم جميع حكومات الاقطار العربية ، تحت راية واحدة . وللعرب وحدهم الحق المطلق في تعيين شكل حكومتهم المتحدة .

٢ ـ ان انكلترة تعترف باستقلال سورية بحدودها الطبيعية وتترك لاهلها حق تعيين شكل الحكم الذي يريدونه بوساطة مجلس تأسيسي يضع القانون الاساسي لها .

٣ ـ الغاء وعد بلفور ،والعدول عن فكرة جعل فلسطين وطنا قوميـا للصهيونيين . اما اليهود الموجودون حاليا في فلسطين ، اذا ارادوا ان يبقوا مواطنين لهم ما لنا وعليهم ما علينا . واذا شاؤا تمنـح لهم حقوق الاقليات كغيرهم من العناصر غير المسلمة .

٤ ـ اصدار عفو عام عن جميع المسجونين السياسيين من ابناء العرب في فلسطين وغيرها من البلدان الواقعة تحت النفوذ البريطاني والمبعدين او الفارين منها .

٥ ـ المساعدة على عقد مؤتمر عام تشارك فيه الاقطار العربية المستقلة ورجال الوطنية الاحرار الذين يعملون على تحرير اوطانهم .

---

(١) لا تقل نفوس الامة العربية في الوقت الحاضر عن ١٢٠ مليون نسمة .

ثم تطرق الى الفوائد التي ستجنيها انكلترة ولخصها بما يلي :

١ ــ تمكين الصداقة والود بين البريطانيين والعرب ، تلك الصداقة التي هم أحوج اليها اليوم من اي يوم مضى لضمان مصالحهم المشتركة .

٢ ــ مساعدات عسكرية خطيرة ذات قيمة لا يستهان بها يقدمها العرب للانكليز في هذه الظروف العصيبة مما يكون لها اثر كبير في تحقيق انتصارهم المنشود .

٣ ــ تأمين سلامة المواصلات للامبراطورية البريطانية .

٤ ــ تخفيف العبء عن كاهل الحكومة البريطانية في الدفاع عن هذه البلاد وحمايتها .

٥ ــ ترجيح رعايا الحكومة البريطانية على غيرهم في تأسيس الشركات وفي اعطائهم الامتيازات في الاعمال اللازمة للبلاد العربية .

٦ ــ تأمين المصالح الاقتصادية المتبادلة بين الشعبين الانكليزي والعربي ، اذا ربحت بريطانية هذه الحرب ...

هذه هي خلاصة المذكرة انني دونتها للتاريخ ، وان كانت قد اهملت من الجانب البريطاني وبقيت حبرا على ورق ...

فخري النشاشيبي

نعود الى ذكر فخري النشاشيبي المرحوم مرة اخرى بمناسبة الاجتماع السياسي الذي عقده في داره صباح ٧ حزيران ١٩٤٠ ونقول : توجد طبقة من الناس في كل بلد من بلاد الله تعبد الشهرة وتستجدي الجاه الكاذب والنفوذ المزيف • ويكون هؤلاء في الغالب ممن خلقوا في جبليتهم صغيري النفوس ، ضعيفي الايمان ، لا عقيدة وطنية تردعهم عن الغي ولا زاجر اخلاقي يزجرهم •• هم يركضون وراء الزعامة وان أتت طعما من الاجنبي ، ويجرون وراء المنفعة الشخصية وان عادت بالضرر على بلدهم وبني قومهم • والمحافل العربية في فلسطين متفقة على ان فخري النشاشيبي يأتي في مقدمة اولئك الذين وصفتهم في مقدمة هذا البحث • ان هذا الشخص حارب الثورة الوطنية في فلسطين ، وكافح رجالها ، وتسبب في سوق كثيرين من ابناء جلدته الى المشنقة او الى غياهب السجون ، حبا في الحصول على رضا البريطانيين واملا في اكتساب زعامة موهومة • وقد انتهز اشتداد الحرب العالمية واراد ان يتظاهر بشد ازر الحكومة البريطانية وتوطيد دعائمها في البلاد ، ونصب من نفسه داعية للحلفاء ، مناشدا عرب فلسطين ان يتعاونوا والسلطات الحكومية على مكافحة الدعايات المضرة (في نظره) في هذه البلاد • وفي امل انجاز هذه

المهمة دعا عددا من الاشخاص ، جمعهم من مختلف القرى والضواحي وفيهم عدد من القساوسة دون ان يدعو واحدا من وجوه البلد واشرافه الحقيقيين الى حفلة شاي تظمها في داره صباح اليوم المذكور وانتصب في هذا الحفل التافه خطيبا وداعية من دعاة العدو المستعمر ... واخذ يتكلم ، بوقاحة ولباقة ، موضحا الحالة الدوليةالحاضرة وعلاقة الشعوب العربية المتينة ببريطانية وحلفائها ، وواجب العرب في مناصرتهم مناصرة تامة . ثم اعقبه خطيبان من الطائفة المسيحية اشارا الى اعداء الحلفاء ومطامعهم في هذه البلاد وغيرها وكيف يجب ان تقاوم دعاياتهم ... واخيرا اتخذوا قرارا بأسم عرب فلسطين ، ولا ادري كيف يحق لهم ان يتخذوا لانفسهم صفة تمثيل عرب فلسطين ، يتلخص بما يلي :

١ ــ يعلن عرب فلسطين انهم سيعملون بكل الوسائل الممكنة الفعالة في مقاومة الدعايات المضللة والشائعات الكاذبة والتعاون التام مع الحكومة في هذا السبيل .

٢ ــ يعلن عرب فلسطين انهم مستعدون للدفاع عن وطنهم باموالهم وارواحهم ضد أي اعتداء خارجي .

٣ ــ يعلن عرب فلسطين انهم في هذا الظرف القاسي هم أشد واوثق ارتباطا بحكومة صاحبة الجلالة البريطانية منهم في أي وقت مضى .

٤ ــ يرجو عرب فلسطين ان يقرب الله سبحانه وتعالى الظرف المناسب الذي تتمكن فيه بريطانية من تحقيق بقية المطالب الوطنية .

٥ ــ ويبتهل عرب فلسطين ويضرعون الى الله القوي الجبار ان يجعل

النصر حليفا للحلفاء الذين يدافعون عن الشرف والحق والانسانية .

وبعد ذلك انفض هذا الاجتماع الذي جعل الناس في مجالسهم وانديتهم يتندرون به تهكما واستخفافا .

ونريد ا ننشير الى ان فخري النشاشيبي ، الذي يتخذ القرارات باسم عرب فلسطين ، قد قبل بكل غبطة وسرور ان يكون مديرا لشركه التجارة والمقاولة اليهودية وفتح مكتبا لاعماله في شارع « واكهوب » في مدينة القدس ...

واقول اخيرا : ان هذا الشخص لم يكتف بما يقوم به من خدمات وضيعة للانكليز وللصهيونيين على حد سواء ، بل يعتبر نفسه عدوا لكل عربي يعتز بعروبته او يعمل بتضحية وسخا في سبيل امته وبلاده . ولذا كان فخري يمقتني مقتا شديدا ويكيل لي التهم والافتراءات دون حساب ، وفي جملة ذلك انه وشى بي لدى السلطات الفلسطينية بانني كنت احد المحرضين على الاعتداء الذي وقع عليه وعلى كل من الكاتبين المصريين بعد القائهما الاحاديث ومغادرتهما دار الاذاعة الفلسطينية في القدس (١) وقد نقل لي خالد الجوربه جي ، الذي كان نائب قنصل معي في القدس انه بعد مغادرتي القدس واندلاع ثورة رشيد عالي الكيلاني المرحوم سنة ١٩٤١ زار دار القنصلية نوري السعيد المرحوم ومعه فخري النشاشيبي وقد التفت فخري الى نوري وقال متألما : أسفا يا باشا .. لقد فلت الرأس من ايدينا ...

---

(١) هما عباس محمود العقاد وعبد القادر المازني المرحومان ، كما ذكرت آنفا .

انجازات ومراجعات لخدمة فلسطين والفلسطينيين

انني في الواقع شعرت بغدر الانكليز وسوء نواياهم في قضايا العرب العديدة منذ صدور وعد بلفور المشئوم في سنة ١٩١٧ ، وكنت لا ازال طالبا في المدرسة السلطانية (الثانوية) في مدينة ايزميت بالقرب من استانبول ، ومنذ ذلك التاريخ صرت اتابع القضية الفلسطينية عن كثب ونذرت نفسي لخدمتها بكل ما اوتيت من قوة وحول في كل المجالات ... من ذلك مثلا :

١) انني في عقد نكاحي (في ايلول ١٩٢٩) رفضت ان اوزع المناديل على المدعوين حسب العادة الجارية ، بل طبعت خمسمئة بطاقة كتب على كل منها : (منكوبو فلسطين يشكرونكم على تبرعكم اليهم بثمن المنديل) ثم تبرعت بمبلغ خمسمئة روبية لمنكوبي فلسطين ، وقد استحسن الناس عملي هذا وتمنوا ان اكون قدوة للغير في مثل هذه المناسبات .

٢) عندما قدم السير الفريد موند الى العراق حرضت الطلاب على الاضراب والخروج بمظاهرة تهتف بسقوط الصهيونية وحياة فلسطين العربية ،

وقد كنت انذاك مديرا للثانوية المركزية • وفعلا اضرب الطلاب في معظم المدارس ان لم نقل كلها وخرجت بغداد بمعظم اهاليها وطلابها بمظاهرة صاخبة تهتف بسقوط الصهيونية وحياة فلسطين العربية ، وسارت المظاهرة حتى وصلت الى محطة السكك الحديد في جانب الكرخ ، وحاول رجال الشرطة بوسائلهم المعتادة (كالضرب بالعصي ودعس بعض الطلاب تحت سنابك الخيل وانواع الشتائم والتهديدات) ولم يفلحوا فاضطرت الحكومة الى تغيير سير موكب هذا الصهيوني الاثيم من جسر الخر الى طريق عقرقوف فالكاظمية حتى وصل الى المحل الذي خصص له في احد قصور بغداد • وقد كنت اسير في هذه المظاهرة مع طلاب مدرستي متضامنا معهم ومشجعا اياهم ••• وقد وجه لي وزير المعارف انذاك انذارا يتضمن كل معاني التهديد والوعيد ، وطردت الحكومة بضعة طلاب من المدرسة الثانوية المركزية ، وكان ضمنهم اخي ادهم مشتاق ••• وفي اثناء التحقيق مع الطلاب سأل المحقق اخي ادهم سؤالا باردا : (ما هي الصهيونية ؟) وأجابه متهكما : (انها نبات يزرع في اليمن) وكان هذا الجواب حديث الناس عدة ايام •••

٣) عندما كنت قنصلا في بيروت (سنة ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨) اصدرت جوازا عراقيا مزورا باسم عبد القادر الحسيني المرحوم شهيد مذبحة القسطل انقاذا لحياته ، ومنحت سماحة المفتي محمد امين الحسيني سمة عراقية (باسم مستعار) تمهيدا لهروبه من لبنان الى العراق (١)

٤) عندما عينت قنصلا عاما في فلسطين خصصت لي وزارة الخارجية خمسين دينارا مخصصات للدعاية ••• ويشهد الله انني صرفت معظم

---

(١) نجد تفصيل ذلك في القسم الخاص بمذكراتي عن اعمال في قنصلية بيروت •

هذه المخصصات على ارامل وايتام الثورة الفلسطينية ، بالاضافة الى ما كان يرسله سماحة المفتي لتوزيعه على هؤلاء الايتام والارامل بموجب قائمة كانت محفوظة لدي باسمائهم وعناوينهم ...

٥) راجعني يوما (وانا في القدس) الصديق جلال زريق ، وكان يشتغل آنذاك موظفا في القسم العربي من السكرتيرية العامة في حكومة فلسطين، وقال : اتعرف ابراهيم طوقان قلت وكيف لا اعرفه ؟.. انه شاعر مجيد ، وعربي اصيل ، ومناضل عنيد .. قال : انهم فصلوه من عمله في دارالاذاعة لخلاف نشب بينه وبين عجاج نويهض مدير القسم العربي في دار الاذاعة ... قلت : حسنا وماذا تريد ان افعله الان ؟... قال : ايجاد عمل له في بغداد .. قلت : هذا واجب ، وعلي ان ابذل كل جهد في سبيله ... اعطني فرصة مناسبة ، وستجدني موفقا انشاء الله ... وبعد خروج جلال زريق طلبت بغداد تلفونيا واتصلت بصادق البصام المرحوم ، وزير المعارف انذاك ونقلت له الخبر وطلبت اليه باصرار ، ان يتم تعيين ابراهيم طوقان استاذا للغة العربية في احدى المدارس الثانوية .. وبعد اخذ ورد وافق الوزير على استقدامه وخولني ان اسفره فورا الى بغداد . وهكذا سافر الشاعر العربي الى احد اجزاء وطنه ، واشتغل فيه معززا مكرما ... ولكنني اقول والحزن يحز في قلبي : ان اقامة هذا الشاب الممتاز لم تطل في بغداد اذ مرض بعد وصوله اليها بأشهر قليلة وعاد الى فلسطين ، ولم تمض على عودته الا اسابيع حتى لبى نداء الرب وتوفي مأسوفا عليه وبكاه العرب بكاء مرا وحزنوا عليه حزنا اليما ... ان هذه الكارثة أثرت في نفس شقيقته الشاعرة فدوى أثرا بليغا ورثته بديوان موسوم (اخي ابراهيم) وقد تفضلت

باهدائي نسخة من هذا الديوان الذي يفيض عاطفة واحساسا رقيقـــا ، فكتبت اليها شاكرا هديتها وهذا هو نص الكتاب :

البنك العربي ــ بغـــداد

٢٢ تشرين اول ١٩٤٦

عزيزتي الانسة فدوى ،

تحية واحتراما •• وبعد ، فقد نفحني البريد هديتك الكريمة : (اخي ابراهيم) ويؤسفني ان تحول مشاغلي الكثيرة دون ان اقدم لك شكـري الجزيل على اللطف الذي خصصتني به في حينه ••• اما وقد فرغت الان من مطالعة هذا السفر الصغير بحجمه ، الكبير بما احتوته صفحاته من ادب جم ، وبيان عذب ، وعواطف جياشة ، فاني ابادر وابعث اليك وافر الامتنان على تذكرك صديقا لا يزال يكن لكم أنبل عواطف الاخلاص •••

لقد ذكرني كتابك عن ابراهيم تلك الشمائل الحلوة وذلك الخلـق الكريم الذي كان يتحلى به الفقيد الغالي ، وعادت بي الذكرى الـى تلك الايام الخوالي التي قضيتها في البلد الحبيب على نفسي ، العزيز على قلبي (فلسطين) التي ارجو الله مخلصا ان يمتعني بخدمتها ورؤيتها حرة عزيزة مستقلة ، وكان من آثار تلك الاقامة في البلد الشهيد تعرفي باخيـك ، بل بأخي ابي جعفر رحمه الله ، الذي تقست فلسطين عليه وددت ان يسفر لها في العراق ، وكل املي ان يطول مكثه في بغداد ليلقن طلابها الادب العالـي ويغرس في نفوسهم الناشئة افانين العلم والمعرفة وينشئهم على مكـــارم الاخلاق ••• ولم يكن يدور في خلدي ان تشتد عليه العلة في بغداد ولا يقوى على البقاء فيها ويعود اليكم ، ثم لا تمضي اسابيع حتى يستحـث الله خطاه اليه ويمضي الى ربه راضيا مرضيا •••

كنت ارجو ان يمد الله في حياة ابراهيم ، ليكون شاعر العرب وامير دولة الادب ، اما وقد اختاره الله الى جواره فليس لاصحابه واخلائه ، وهم كثر لا يكاد يخلو منهم بلد عربي ، الا ان يتأسوا بما ترك من اثار ، وما سجل من اخبار ، وما نظم من قصائد واشعار ستبقى خالدة تذكر الناس بابراهيم الشاعر الوطني البار ...

احسن الله اليك ابنتها العزيزة ، ورحم الله ابراهيم الذي اذكرتنا وفاته بما قاله الرسول حين فجع بوفاة ولده : (اللهم ان القلب ليجزع ، وان العين لتدمع ، وانا عليك ، يا ابراهيم ، لمحزونون).

هذا وتقبلي مني من الشكر اجزله ، ومن الحمد افضله واقبلي التهنئة بما وفقت اليه في اخراج هذا الاثر النفيس . ام حازم تشاركني في تقديم تحياتها الى السيدة طوقان واليك والسلام ،

المخلص ــ طالب مشتاق

٦) كنت أحث الناس دوما في القدس وفي سائر الانحاء الفلسطينية ، على ان يزيلوا الحزازات من قلوبهم ، ويتجنبوا الخصومات ويتعاونوا على الخير فيما بينهم كي لا يتركوا مجالا للعدو ان ينفذ عن طريق ثغرات تنفتح في صفوفهم ويزرع بذور التفرقة والشقاق اضعافا لهم ، ويكون الحصاد وهن العرب وتمكين الصهيونيين وتقويتهم . وكان الناس يؤمنون بما اقول ، حتى ان البعض منهم اقسم ان لا يراجع المحاكم الفلسطينية بعد الان عن نزاع خاص يحدث بينهم ، بل سيراجعني في ذلك ، ويقبل الحكم الذي اصدره . وفعلا فصلت بين البعض في عدة قضايا وقبل الطرفان الرأي الذي ابديته والقرار الذي اصدرته ...

٧) كان الكثيرون من اصحاب المراجعات في دوائر الحكومة

الفلسطينية يطرقون باب القنصلية ويلتمسون مني ان اتعقب قضاياهم في دوائر الحكومة .. هذا يطلب دية وتوضع امامه العقبات لتأخير دفعها ، وذاك بطلب تنفيذ قرارصادر عن المحاكم وتوضع العراقيل في سبيله بمداخلات شخصيـــة من بعض اصحاب النفوذ .. وتلك امرأة بائسة قتل زوجهـــا ظلما وعدوانا وبقيت تتسكع في الطرق لا تجد من يأخذ بيدها وتطلـــب مساعدتي على حل لمشكلتها ، وغيرها وغيرها مـــن القضايا التي يصعـب حصرها في هذه الصفحات . وكنت احتار في امري ، مـــاذا استطيــع ان افعل ؟.. انا قنصل دولة اجنبية عرفا ، فكيف يتسنى لي ان اراجع السلطات الحكومية لانجاز قضايا اناس غير عراقيين ؟.. ومع ذلك كان ضميــري لا يطاوعني في اهمال هذه المراجعات ... تراني اركض من دائرة الـــى اخرى أتعقب القضايا واسأل هذا وذاك افضل الطرق لحلها . ا نبعض هذه القضايا كان لدى موظفين عرب ، وفي هذه الحالة لم اجد صعوبة فـــي مراجعاتي . وأرى لزاما علي وانا استعيد ذكريات حياتي في فلسطين ، ان اذكر المساعدات القيمة التي لقيتها حينئـــذ من بعض الموظفـين العـــرب ، كالاساتذة : روحي عبد الهادي وعارف العارف وفريد السعد وجلال زريق واحمد طوقان وغيرهم ممن لا تسعفني ذاكرتي باسمائهم في الوقت الحاضر وازجي اليهم خالص الشكر وفائق التقدير على وطنيتهم الصادقة ، وحرصهم على المصلحة العربية في اقسى الظروف واصعب المحن ... جزاهم اللـــه عن عرب فلسطين خيرا ... اما الامور التي يبت فيها عادة مـــن قبـــل رؤسا بريطانيين فكنت اراجع فيها المستر كركبرايد ، المعاون السيـــاسي للسكرتير العام ، مباشرة . وقلت له في احدى زياراتي : اسمح لي يا مستر كركبرايد ان اعترف لك : انني كقنصل امثل حكومتي في هذه البلاد ، لا يحق لي ان اراجع اية سلطة حكومية في شؤون تخص المواطنين في هـــذه البلاد ، ولكنني في الوقت نفسه اعتقد انك تقدر ايضا ظروفي في هـــذا المحيط ... فانا عربي امثل دولة عربية في قطر عربي ، وعرب فلسطين في

طبيعة الحال يعتبرون العراق من المدافعين عن القضية الفلسطينية ويعقدون عليه الامال الجسام في انجاح قضيتهم ، وهم عندما يراجعونني للتوسط في امر (في دائرة حكومية) يعتقدون انني استطيع ان اقدم مساعدة يعجز عن تقديمها اي شخص سواي •• وبحكم هذه الحال ، لا اقدر ان اهمل مثل هذه المراجعات او ارفضها ••• وعليه فانا عندما اتوسطك في اي امـــر يتعلق بعرب فلسطين ارجوك ان تعتبر مراجعتي اياك ، وتوسطي لديــك رجاء يتقدم به صديق الى صديق وتنسى عند ذاك كوني قنصلا ••• وقد ضحك المستر كركبرايد وقال : الامر كما تريد ، وباب مكتبي مفتوح لك متى شئت •

٨) زارني يوما اكرم الركابي الصديق الكريم ورحبت به ترحيبا حارا هو اهل له بصفته صديقا قديما عرفته في سنة ١٩١٣ ، وكنــا انذاك فــي الصف الاول الثانوي من المدرسة الاعدادية الملكية في بغداد • ابتدرنــي هذا الصديق القديم قائلا : الناس هنا جميعهم يثنون على مساعيــك فــي ازالة الخلافات بينهم ، وفي تأليف القلوب وتوحيد الكلمة وجعلهم يعيشون كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا • قلت : هذا واجب علي وعلى كــل عربي يغار على مصلحة بني قومه • وقال : هذا صحيح ، وهل تريد انتضيف حسنة الى حسناتك • قلت : والله هذا جل ما اتمناه وابتغيه قال : اسمع اذن يا صديقي • تقيم في صفد عائلتان من اعرق العوائل وانبلها واثقفها ، ولكن الخلاف ويا للاسف الشديد دب في صفوفها منذ زمن والحقد يأكل قلب كل فرد من افرادها ، وابناء السوء يبثون روح الفتنة بين الطرفين ، ويسكبون الغاز على النيران فتزداد لهيبا ، والعدو يتربص بكل منهمـــا ليوقعه في الشرك ويتقدم خطوة نحو هدفه (١) ••• قلت : سبحان اللــه

---

(١) عائلة الشيخ قدورة وعائلة علي النحوي المرحومين .

افي مثل هذه الظروف والمحن يأكل العرب بعضهم بعضا ؟.. أأنت مستعد للسفر معي غدا الى صفد وانا كفيل بازالة هذه الخلافات واعادة الميـــاه الى مجاريها الطبيعية ؟ قال : انا على اتم استعداد . قلت : خذ اذن سماعــة التلفون واطلب الشيخ اسعد قدورة واخبره اننا سنكون ضيوفه في مساء الغد ... وتمت المخابرة التلفونية فعلا ورحب بنا الشيخ اسعد قـــدورة وكان يومئذ مفتي صفد . وفي اليوم التالي كنا في طريقنا اليه وقد رافقنا في هذه السفرة علي حيدر الركابي ايضا ، الاخ الاصغر لاكرم الركابـــي .. وصلنا الى صفد قبيل المغرب من ذلك اليوم الذي لا اتذكر تاريخه بالضبط وسرنا فورا الى دار اسعد قدورة المرحوم الذي استقبلنا بترحيب حـــار وحفاوة كريمة . جلسنا في صالة كبيرة مفروشة فرشا جيدا وفق الطريقة الشرقية المتبعة في بلادنا واكثر مدن الشرق العربي . وبعد قليل امر بالقهوة العربية ، ولما قدم الساقي لي فنجانا تناولته ووضعته على الطاولة الصغيرة الموضوعة امامي ، ثم خاطبت الشيخ اسعد قدورة قائلا : يا سماحة المفتي ، انني مقبل من القدس على صفد بمهمة خاصة فاذا انت وعدتني المساعدة على تنفيذها ساكون لك شاكرا باسم عرب فلسطين ومصلحة كل العرب فيها والا فانني اعتذر عن شرب القهوة وساغادر هذه الدار فورا عائـــدا الى القدس ... تلقى المفتي كلمتي هذه بحيرة واستغراب وقال علـــى الفور : ان مجيئك الى هنا لطف وشرف اوليتني اياه ،ووالله لو طلبت الي ذبح احد اولادي تحت قدميك لما ترددت في ذلك لحظة واحدة ... قلت : هذا كرم منك يدل على الاصالة وعلو النفس ، ثم استطردت في الكـلام بصوت مرتجف من تاثير التهيج والانفعال وقلت : يا سماحة المفتي انـــي منذ وصولي الى القدس حتى هذه الساعة وانا اسعى في توحيد كلمـــة عرب فلسطين وازالة كل الخلافات بينهم ، فعدونا جبار عنيد لا نقوى على الوقوف امامه ونحن متفرقون مشتتون ، يأكل الاخ لحم اخيه ميتا ... وقد سمعت الخلاف المتفشي بين عائلتكم وعائلة علي النحوي . وكلتـــا

العائلتين من كرام العوائل العربية الفلسطينية ، وهذا العداء السائد بين الطرفين يضعف قوى العائلتين ويفت في عضدهما ، وهو في الوقت نفسه يزيد العدو قوة فوق قوته ، وماذا جنيتم من هذه العداوة طوال هذه السنين ؟ وهلا فكرتم فيما ستؤول اليه الحالة في هذه البلاد لو تفشت مثل هذه الامراض النفسية بين الناس وكثرت العدوى ؟ ... انني اريد ان تزول هذه الحال وتحتضن العائلتان بعضهما بعضا وتعيد الصفاء الى الجو ويزول كل خلاف بينهما ، فهل ستأخذ بيدي لنسير نحو هذا الهدف ونكسب من الناس شكرا ومن الله اجرا جزيلا ؟.. أطرق المفتي المرحوم قليلا ثم رفع رأسه وقال : حقا ان العداء بين العائلتين مستفحل منذ زمن طويل ، وانني اعترف بان كل ما ذكرته هو الصواب بعينه ، وانا منذ الان أوقع لك على بياض وأعدك بأنني ساوافق على كل قرار تتخذه في هذا الموضوع .. قلت : لقد أوليتني ثقة كبرى اعتز بها طول حياتي ... وبعد ذلك اخذت التلفون وطلبت علي النحوي المرحوم وهو من معارفي القدامى.. انه رجل مثقف أتم دراسته في الكلية الملكية الشاهانية في استانبول وأشغل وظيفة المتصرف في عدة الوية في العهد العثماني ، ومن عائلة فلسطينية كريمة . استغرب علي النحوي في اثناء حديثه معي ، أن آتي الى صفد ولا اخبره قبل ذلك او لا اذهب الى بيته على الاقل ، فاعتذرت اليه واخبرته بأني ضيف سماحة الشيخ اسعد قدورة مفتي صفد وانني مقبل على زيارته بعد العشاء مباشرة ... تعشينا في تلك الليلة على مائدة المفتي المرحوم مع عدد من اشراف صفد ، وقد خطب المفتي في اثناء العشاء مطريا خدماتي وشهامتي ونبل غاياتي ومقاصدي ، ونوه بالمهمة التي قدمت من اجلها وتجشمت عناء السفر في سبيلها . وبعد ان أتم خطابه أجبته بكلمة قصيرة شرحت فيها الخطر الجاثم على قلب فلسطين ، واوضحت الواجبات التي تترتب على العرب لدرء هذا الخطر وقلت : ان تفرق الكلمة في مثل هذه الظروف اشد خطرا من كل عمل صهيوني ، وعلينا ان نتحد ونعمل في

مختلف الميادين دون ملل وكلل ... وبعد الانتهاء من العشاء تقدم الـي احد الحاضرين ورجاني ان اقبل دعوته للغداء او العشاء غدا ، فاعتذرت قائلا : انني اريد ان اعود الى القدس يوم الغد بعد الفطور مباشرة ... فقال : ليكن الفطور عندنا اذن ... قلت : مع كل الممنونية ، ولكن بشرط ان يكون علي النحوي احد المدعوين .. تردد المومأ اليه ، برهة وهو ينظر الى الشيخ اسعد قدورة ولما لم يجد معارضة منه قال : هل يقبل الدعـوة يا ترى ؟ قلت : اترك الامر لي وانني على يقين انه سيقبل دعوتك شاكـرا ... وبعد ان تفرق المجتمعون عقب العشاء ، ركبت سيارتي وذهبت الـى دار علي النحوي وفي اثناء الطريق كانت الافكار تتلاطم في مخيلتـي ، والهواجس تخيفني ، وكنت اخشى ان لا يستجيب علي النحوي دعوتي ، واعود الى القدس أتخطى باذيال الفشل مصابا بخيبة الامل . ولكن الله كتب لي التوفيق اذ استقبلني علي النحوي المرحوم بسرور ما فوقه سرور وبشاشة ما فوقها بشاشة ، ثم اخذ يعاتبني على نزولي في دار الشيخ قدورة تاركا دار اخي وقال بحرقة قلب : انني اعتبر عملك هذا طعنا في كرامتي .. قلت مهلا ايها الاخ العزيز . انك تعرف مبلغ ثقتي بك وكثرة محبتي اليك وانا لم آت الى صفد الا لهدف مقصود ، واعتقد ان نزولي ضيفا عـلى الشيخ اسعد قدورة يساعدني على بلوغ هذا الهدف ، ومع هذا فانـي أتيتك الان طالبا مساعدتك ايضا لانجاز مهمتي بنجاح .. وصرت اشرح له ما سبق ذكره في بيت الشيخ قدورة وقلت له : انني لا اريد منك ايـة مناقشة في الموضوع ، فالصلح يجب ان يتم بينكما على يدي وفي اسرع وقت ممكن ، قال : حقا انها لمهمة شاقة ، وأشق منها على نفسي ان تعـود الى القدس فاشلا في مهمتك .. اطلب اذن ما شئت ، وأنا صاغ وطائع ... قلت : بارك الله فيك من اخ كريم ، وعربي غيور ، ووطني صادق .. انني رتبت ما يقتضي لاتمام هذا الصلح ومهدت السبيل له ، وان الشيخ اسعد

قدورة سيصافحك ويعانقك غدا في دار ... (١) على مائدة الفطور ... وبينما كنت اكلمه في هذا الموضوع تلقى دعوة تلفونية لحضور مأدبـــة الفطور في صباح اليوم التالي وتقبلها شاكرا ... ثم طلبت اليه ان يدعــو كل من يحضر الفطور في الغد الى تناول يعض المرطبات والفاكهة في داره ... قال : على رأسي وعيني ، وهذا فضل آخر يضاف الى سابق أفضالك ... وحضرنا الى مأدبة الفطور في اليوم التالي ولما وصل علي النحـوي قام الشيخ اسعد قدورة واستقبله واحتضنه ، وصار احدهما يقبل الاخر والدموع تتساقط على خديهما ، ولم أتمالك نفسي تجاه هذا المنظر الفريد واخذت بدوري أبكي من شدة الفرح ونشوة النصر .. وفي جوار مائدة الفطور وقف الشيخ اسعد قدورة والقى كلمة قيمة مثنيا على توسطي في تحقيق هذا الصلح ، وقال تأكد يا سعادة القنصل العام ان هذا الصلــح سوف لا يكون صلحا وهميا اقتضته ظروف طارئة ، وانما سيكون صلحا خالدا على مر السنين بين عائلتينا وسيبقى اسمك ايضا خالدا في قلب كــل فرد من افراد هاتين العائلتين فشكرا لك على حسن صنيعك ... ثم قام علي النحوي والقى كلمة مماثلة وطلب الى الحاضرين مرافقته الــى داره لتناول الفاكهة وبعض المرطبات وقد وافق الجميع على ذلك وسرنا في رتــل طويل من السيارات بشكل مظاهرة صامتة الى دار علي النحوي وبعــد تناول الفاكهة والمرطبات وقفنا امام الدار واخذت صورة لنا وقف فيها الى يميني الشيخ اسعد قدورة والى يساري علي النحوي ، وودعــت الجميع وركبت سيارتي ومعي كل من الصديقين : اكرم الركابــي وعلــي حيدر الركابي واخذنا طريقنا الى القدس ووصلنا اليها من بعد العصر من اليوم نفســه ...

كانت وطأة هذه الحادثة شديدة على السلطات البريطانية والمحافــل

(١) انني لا اتذكر اسم هذا الاخ العربي الكريم مع الاسف الشديد .

الصهيونية على حد سواء .. اعتبرها الانكليز مداخلة في شؤون البلد الداخلية ، واخبرني رشيد عالي الكيلاني المرحوم انهم طالبوا مرات عديدة بنقلي من فلسطين ، الا انه كان يعارض في ذلك ويهمل شكاويهم غير ملتفت اليها . اما اليهود فاعتبروا الصلح بين عائلتين كبيرتين متنفذتين في صفد نذير شؤوم عليهم واخذوا يضغطون على الانكليز طالبين اقصائي عن هذه البلاد في اقرب وقت ممكن ... ومنذ ذلك الحين تلقت الجرائد العربية أمرا ان لا تذكر اسمي في الصحف في اية مناسبة كانت ، وقبل ذلك كانت الصحف العربية تعج باخباري : من قدوم وسفر وتصريحات وبيانات واعمال وغيرها ، حتى انها كانت تنشر خبر قيامي بصلاة الجمعة واستقبالي وتوديعي من قبل بعض المشايخ ، وفي مقدمتهم الشيخ يعقوب البخاري المرحوم بشكل بارز مثير يسبب الانزعاج للسلطات الفلسطينية والمحافل الصهيونية . وقد ابطلت الصحف هذه العادة ايضا بعد حادثة الصلح في صفد الامر الذي سبب استفسار بعض الاصدقاء عن السبب الداعي الى ذلك .

الامير عبد الله (الملك بعدئذ)

الامير عبد الله شخصية فذة يجمع في نفسه الكثير من المتناقضات ... تراه يحدثك عن التجدد ووجوب الاخذ باساليب المدنية الحديثة ، واذا به بعد دقائق قليلة يعود يتهجم على مروجي المدنية الغربية وينتقد السفور ، ولا ينظر الى المرأة الشرقية الا كتماع في داخل البيت وليس اكثر من ذلك ... وقد انبثق تفكيره هذا في امر اصدره الى رئيس وزرائه وقاضي قضاته يتضمن سن قانون مستعجل يفرض على كل مسلمة ان ترتدي الملاءة عندما تخرج من بيتها اتباعا للاخلاق الموروثة عن السلف الصالح ومنعا للسفور الذي اخذ ينتشر بين النساء . كما ان سموه حذر الرجال من حسر الرأس في اثناء السير في المدينة باعتباره يتنافى ومكارم الاخلاق .. وقد استقبلت هذه الاخبار في الاوساط العربية في فلسطين بشيء من الاستخفاف وعدت كمثال للروح الرجعية التي تسود حكم امارة شرقي الاردن ، لان الدين الاسلامي لم يأمر قط بالحجاب وانما منع التبرج فقط ، ومن البديهي ان السفور شيء والتبرج شيء آخر ...

وما دمنا قد تطرقنا الى هذا الموضوع أرى من الطريف ان اذكر الحادثة التالية ايضا : اتفقنا (قنصل تركية العام وقنصل ايران العام وانا)

على ان نذهب سوية في احد الاعياد الى عمان مستصحبين زوجاتنا ، حيث يقدم الرجال منا التهاني الى الامير ، والنساء يقمن بهذا الواجب لسيدة القصر الاميري . وبعد قيامنا بالمراسم المعتادة في مثل هذه المناسبات عدنا الى فندق فيلاديفية ، وبعد دقائق قليلة تلقينا تلفونا من رئيس التشريفات يدعونا الى تناول الغداء على مائدة الامير ، واستطرد مخاطبنا قائلا : لا مانع من حضور السيدات معكم ايضا ... تقبلنا الدعوة شاكرين وذهبنا في الوقت المعين الى القصر ، ومع كل منا زوجته . وبينما كنا على مائدة الطعام اخذ الامير يتكلم عن المرأة الشرقية المسلمة وصار ينتقد المسلمات اللواتي يلبسن البرنيطة مستقبحا ذلك ، فاخذت وجوه الحاضرين تصفر تارة وتحمر اخرى لان زوجتي القنصلين : التركي والايراني كانتا ترتديان البرنيطة عند ذاك ... انه لم يكتف بذلك ، بل اخذ ينتقد المرأة الشرقية قائلا : انها جاهلة ، ناقصة العقل والادراك ، غير صالحة للعمل .. وكنا نستمع الى هذه الاقوال من غير ان يجسر احدنا على الرد او الاعتراض ، ولكن مرام حازم (زوجتي) لم تحتمل السكوت وانبرت الى الرد عليه قائلة اسمح لي يا سيدي الامير ان أرد عليك دفاعا عن المرأة الشرقية واقول : المرأة الشرقية ليست جاهلة ، بل ذكية مدركة وقد برزت في الشعر والادب حتى في زمن الجاهلية ، ونبغ عدد من السيدات في بعض البلاد الشرقية في العلوم والفنون في عصرنا الحاضر ، خاصة في تركية ومصر . ان المرأة تبقى جاهلة في طبيعة الحال اذا ما حبست وراء الاقفاص ومنعت من التزود بالعلم والفن في الجامعات ، ولو وضعنا الرجال موضعهن لرأينا الرجال عندئذ أحط من النساء الجاهلات عقلا وادراكا .. وفي تركية ومصر وغيرها من البلاد العربية نجد في النساء طبيبات واستاذات ومحاميات وموظفات يقمن بواجباتهن في خدمة الوطن بكل جد واخلاص ... وقد احمر وجه الامير قليلا واظنه ندم على ما فرط منه وقال : ان ما ذكرته كان بدافع الغيرة على سمعة نسائنا ولا اقصد اهانتهن او الحط من كرامتهن ، فلا

تغضبي يا ابنتي ولا تتألمي واستطرد قائلا : انني ساقدم لك هدية مناسبة ترضية لك .. وبقيت زوجتي في انتظار هذه الهدية حتى يومنا هذا ..

ومع كل ذلك كان رحمة الله عليه ، يتقن الكلام الجيد باللغـــة الفصحى ، ويطيب له ان يتكلم باللغة التركية مع من يتقنها ، وكان يتحدث بها بطلاقة كأحد ابنائها . وكان حديثه مع مخاطبيه يتصف بالرزانة والتوأدة وحين يتكلم تظهر على وجهه ملامح الانفة ... اما معلوماته في التاريخ العربي والاسلامي فكانت جمة لا تضاهى ، وكان شغوفا بالسؤال علـى طريقــة الامتحــان .

حضرت يوما حفلة عشاء نظمت على شرفه فيفندق الملك داود في القدس وكنت قريبا منه على مائدة الطعام فصار يوجه لـي سؤالا بعـد سؤال ، ليس في السياسة او التاريخ او علم الاجتماع ، بل كانت اسئلته كلهـا محصورة في تفسير بعض الآيات القرآنية ، ولم اكن قد قرأت اي تفسير في حياتي وكنت اجيبه بحذر ولباقة وكنت موفقا في اكثر اجاباتي . وكلما فزت بالرضا على الجواب همس المعاون السياسي للسكرتير العام ، وكان يجلس الى شمالي ، قائلا : أحسنت ، لقد فزت بالنجاح في الامتحان ... وكان الامير رحمه الله يحسن الظن بالانكليز الى حد بعيد ويتمنى لهـم النصر بكل جوارحه ... زرته في صباح ٢٤ حزيران ١٩٤٠ في مقر ديوانه وجرى الحديث بيننا عن الوضع العالمي ، فوجدته متألما من غير يأس .. قال : صحيح ان الحرب البرية انتهت بخسارة الحلفاء وخروج فرنسة من الميدان خائبة خاسرة ، ولكن الفوز النهائي سيكون في جانب بريطانية التي لا تزال سيدة البحار . وكان يرى رحمه الله ان واجب الوفاء يقضي على الامة العربية ان تشد ازر بريطانية في هذه الظروف العصيبة اكثر من اي وقت آخر ، وسيكون صوت العرب في مؤتمر الصلح المقبل متنـاسبـا

مع المساعدة التي يقومون بها في مناصرة الدولة البريطانية في هذه الحرب(١) ويستغرب كيف ان مصر لم تقم بما يترتب عليها من مشاطرة فعلية للانكليز في حربها الحاضرة ... وقد أدلى بما يتضمن هذه الاراء والافكار الى احدى الصحف المحلية في اليوم التالي لمقابلتي سموه ...

لم ينس سمو الامير يوما ما يزعمه من حق له في عرش العراق . كان يتحدث عنه في كل مناسبة ، ويصرح على ملأ من الناس ان هذا العرش كان من نصيبه ، حيث ان المؤتمر العراقي الذي انعقد في دمشق بعد الحرب العالمية الاولى قرر تنصيبه ملكا على العراق ، وبناء على ذلك فهو الملك الشرعي للعراق (!) اما شقيقه فيصل الاول فكان غاصبا ومعتديا .. انني شخصيا سمعت هذا القول منه ، وسمعه معي كثيرون ممن يحضر مجلسه ... ولما تأكد ان هذا الباب اغلق في وجهه نهائيا وليس ثمة امل فيه ، صار ينظر الى سورية ويمهد لاعتلائه العرش هناك واخذ ينسج في مخيلته مطامع اوسع يعقد عليها الآمال الجسام . وفي صيف ١٩٤٠ كان عدد من مريديه ودعاته ، وفي مقدمتهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في سورية والشيخ عبد القادر المظفر وفخري النشاشيبي وآل التاجي في فلسطين ، يبثون الدعوة لتوحيد سورية وفلسطين وشرقي الاردن وتنصيب الامير عبد الله بن الحسين ملكا عليها . وشاع في حينه ان الامير يحاول السفر الى انقرة للحصول على تأييد تركية ومساندة الرئيس عصمة ابن اونو في اعتلائه العرش الذي هو حصيلة نسج الخيال لا أكثر ولا أقل وابدى سموه رغبة في زيارة انقرة وجرت مخابرات طويلة بين وزارة الخارجية التركية والقنصلية التركية العامة في القدس حول هذه الزيارة انتهت بموافقة الحكومة التركية على دعوته الى انقرة في زيارة رسمية .. وبينما

(١) يظهر ان الامير رحمه الله كان يظن ان العرب سيحتلون احد المقاعد في مؤتمر الصلح والتفكير في هذا الامر غريب في حد ذاته ! ..

كانت ترتيبات السفر آخذة مجراها بنشاط ، وسميت الحاشية التي سترافق الموكب ، عاد توفيق باشا ابو الهدى ، رئيس الوزراء من رحلته في سورية ولبنان (بعدما اخذت موافقة السلطات الفرنسية على مرور الموكب في البلاد المشمولة بالانتداب الفرنسي) واذا بشائعة تقول : ان الفرنسيين عدلوا عن رايهم السابق وهم يوافقون الان على مرور سمو الامير ببيروت على ان يستقبل هناك رسميا من غير ان يتوقف في دمشق .. وبعد بضعة ايام عدلوا عن هذا الرأي ايضا وطلبوا ان يكون مروره حتى ببيروت دون توقف ومن غير مراسم ... وما كان لسمو الامير الا ان يقبل ذلك رغبة منه في عدم تأجيل السفرة ، ولكن الفرنسيين رفضوا اخيرا رفضا باتا ان يسمحوا له بالمرور في البلاد المشمولة بانتدابهم ... وقيل في حينه : ان الحكومة التركية قد تتوسط في الامر واذا لم تنجح تؤجل الزيارة ، او تجري على طريق العراق . غير ان سمو الامير رأى في نهاية الامر ان يلغي هذه الزيارة ، وهكذا كان ... ويظهر لي ان الفرنسيين كانوا يعارضون فكرة تشييد عرش للامير عبد الله معارضة شديدة ، وكان الانكليز يماطلونه بالوعود المعسولة ولكنهم في حقيقة الامر غير جادين في مساعدته على هذا المشروع ، ومع ذلك فان طموحه اخذ يزداد ونشاطه لا يفتر ، فهو يريد عرشا بأي ثمن كان ... وسعيا وراء هذا الامل ، قدم الى القدس في صباح ٢٠ اذار ١٩٤١ وتقابل مع المندوب السامي ثم عاد وحاشيته الى عمان بعدما مكث ليلتين في فندق الملك داود ... وشاع في وقته ان لهذه الزيارة علاقة بمشروع اعلان ملوكية سموه على سورية وفلسطين وشرقي الاردن ، والانكليز يقصدون من وراء ذلك تسهيل مشروع التجنيد الاجباري في هذه المنطقة من البلاد العربية ليكسبوا قوة لا يستهان بها تشد ازرهم في حربهم ضد الالمان والطليان . وقيل في حينه ايضا ان الانكليز متى ما تأكدوا من ان تركية ستنضم نهائيا الى الحلفاء وتشارك في الحرب ضد المانية ، سيحتلون سورية ويؤسسون

دولة تشمل سورية وفلسطين وشرقي الاردن ، وينصبون الامير عبد الله ملكا عليها ••• وكذلك راجت شائعات وقتئذ فحواها : لقد دار البحث بين الامير من جهة والسلطات الفلسطينية وممثلي المؤسسات اليهودية من جهة اخرى وتمت موافقة اليهود على ملكية الامير على هذه البلاد الموحدة شرط ان يسمح الامير ، بعد اكمال الوحدة المزعومة ، بادخال ثلاثة ملايين يهودي مهاجر الى هذه البلدان (اي فلسطين وسورية وشرق الاردن) وان الامير وعد ذلك •••

* * *

ثورة رشيد عالي الكيلاني (٢ ايار ١٩٤١)

عدت الى بغداد باجازة عادية في حوالي منتصف اذار ١٩٤١ وكانت رغبتي شديدة جدا في لقاء بعض الاصدقاء من المسؤولين وغير المسؤولين فيها لافهم حقيقة الوضع في بغداد ، ذلك ان الاخبار التي كانت تطـــرق مسامعي وانا في القدس تبعث على القلق والاضطراب . وعند وصولـــي الى بغداد خابرت رشيد عالي الكيلاني وكان آنــذاك رئيسا للــوزراء ، فرحب بي ترحيبا حارا صادقا ... قلت اريد ان اقابل فخامتكم ، قـــال : اين انت الان ؟.. قلت : في بيت اخي اكرم مشتاق في الصليخ ، وكان بيت اخي قريبا من بيت فخامته .. فاجاب حسنا انني مقبل عليــك الان ... وبعد دقائق كنت والكيلاني نتجاذب اطراف الحديث في اهم القضايـــا العراقية ... كان يقذف باقواله كالبركان الهائج ... يريدون ان يأخذوا منا كل شيء من غير ان يعطونا اي شيء (ويقصد الانكليز طبعا) يريدون ان نكون دوما طوع ارادتهم ، نفعل ما يريدون ، ونعمل بما يشتهون .. قطعت الحكومة العراقية في عهد نوري السعيد علاقاتها (الدبلوماسية) مع الالمان ، وسلمت جميع رعاياهم المقيمين في العراق الى اعدائهم الانكليز واليوم يريدون منا ان نقوم بنفس هذا الدور الشائن مع الطليان ... لماذا يطلبون الينا مثل هذه التضحيات الضخمة ؟ هل هم اصدقاؤنا وحلفـــاء

حقيقيون ؟•• كلا ••• انهم اعتادوا ان يملوا ارادتهم على العراق ، ولم يجدوا امامهم من يقول لهم : كلا يا سادتي •• قفوا عند حدكم •• لسنا بعد الان ننقاد اليكم انقياد الشاة الى القصاب •• طلبنا اليهم سلاحا لتقوية جيشنا فرفضوا والتمسناهم ان يصدروا بيانا يوضحون فيه السياسة التي ستتبع في حل قضايانا في فلسطين وسورية ولبنان ، فانكمشوا وماطلوا (١) ••• اننا لم نقصر معهم ••• طبقنا بنود المعاهدة بحذافيرها ••• ابحنا لهم استخدام موانئنا ، وطرقنا وسككنا الحديد ووضعنا امامهم كل ما لدينا من امكانيات كي نبرهن على حسن نيتنا معهم ، ولكن عبثا ••• انهم يصرون على قطع علاقاتنا (الدبلوماسية) مع ايطاليه ، ويفرضون علينا صداقتهم فرضا • والصداقة في عرفهم انقياد اعمى وطاعة صماء ••• لا ، انني سوف لا اطاطىء راسي امامهم ، فلنا مصالح وطنية يجب ان نرعاها ، واهداف قومية يجب ان نصل اليها باي ثمن ••• هكذا كان رشيد عالي متحمسا غاية الحماسة ، ومتذمرا أشد التذمر ليس من الانكليز حسب ، بل ومن اذنابهم وعملائهم في داخل البلاد ايضا ••• انني في طبيعة الحال باركت فيه هذه الروح واكدت له عهدي بانني ساكون دائما في ركابه أقوم بما يفرضه علي الواجب الوطني بعزيمة لا تتزعزع وايمان صادق ••• شكرني الكيلاني وودعني طالبا الي ان لا انقطع عن الاتصال به اثناء مكثي في بغداد •••

(١) فهمت اخيرا ان وزير الخارجية موسى الشابندر ، ابرق ، قبيل الاشتباك ، الى القائم بالاعمال العراقي في لندن طالبا اتصاله بوزير الخارجية البريطانية وتبليغه استعداد الحكومة العراقية لأعلان الحرب على دول المحور على أن تضع فرقتين عسكريتين في امرة الحلفاء لتشتركا في القتال معهم في أية جبهة يختارونها شرط ان تصدر الدول المتحالفة بيانا تؤكد فيه ، منح فلسطين وسورية ولبنان استقلالا في حالة خروج الحلفاء من الحرب منتصرين ... الا ان جواب مستر ايدن ، وزير الخارجية البريطانية كان رفضا باتا ...

وفي تلك الايام كانت بغداد تعيش حياة صاخبة ، فالوجوه متجهمة ، والاعصاب متوترة ... والاجتماعات متتالية تعقد هنا وهناك ... وطبقة مختارة من الشباب المثقف كانت في اتصال دائم بالقواد الاربعة (١) الذين اطلق عليهم الانكليز لقب (المربع الذهب) ، وهؤلاء جميعهم في اتصال مباشر بسماحة الحاج امين الحسيني المفتي الاكبر والناس جميعهم ينتظرون بقلق وحذر انفجار البركان الذي لا مناص من انفجاره ، قرب موعد هذا الانفجار أو بعد ...

انتهت اجازتي وغادرت بغداد وانا في اشد حالة من الاضطراب ، وبقيت اياما قليلة في بيروت في اثناء عودتي الى القدس قابلت خلالها رياض الصلح وعادل ارسلان الزعيمين العربيين المرحومين ، وسالاني الوضع في العراق واوضحت لهما كل شيء على حقيقته وقلت لهما : ان العراق جالس فوق فوهة بركان ، واخشى ان يكون هذا البركان على وشك الانفجار ... كان الله في عون العراق ...

وبعد ان وصلت الى القدس واستأنفت اعمالي هناك اخذت الاخبار تتوارد الى مسامعي ... الانكليز يصرون على قطع العلاقات الدبلوماسية مع ايطالية ... ويطلبون تنحية الكيلاني المرحوم عن رآسة الوزارة ... وعليه فالصراع بين العراق وبريطانية اصبح على اشده ... والامير عبد الاله كان في طبيعة الحال في جانب الانكليز ... اما القواد الاربعة ووراءهم الشعب العراقي برمته ، فكانوا وراء الكيلاني مندفعين بروح وطنية عالية منقطعة النظير ... واخيرا انتهت المعركة باستقالة الكيلاني وتألفت بعده وزارة برئاسة العميد طه الهاشمي المرحوم ، ويقول على

---

(٢) هم العقداء ، صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب المرحومين

محمود الشيخ علي المرحوم في كتابه « محاكمتنا الوجاهية » ما يلي :
«فالقواد بعد استقالة الكيلاني انقطعت صلتهم بقصر الامير ، ولم يعودوا يترددون عليه ، كما ان الامير لم يتصل بهم بعد ذلك وكذلك رشيد عالي ...» وبعد ذلك تتابعت الاحداث الممهدة للصدام ... كان الانكليز يخشون تحركات القواد الاربعة (لا سيما وهم يعلمون نفوذ سماحة الحسيني المفتي الاكبر عليهم ، واتصالاتهم به ، وانقيادهم الى تعاليمه ..) وراجعوا الامير الوصي وصاروا يلقون الرعب في قلبه من نوايا القواد ، وأوهموه بان هؤلاء يكونون اشد خطر عليه وعلى عرش العراق .. واقترحوا نقلهم من بغداد تمهيدا لابعادهم من الجيش بالمرة في المستقبل ... فحاولت وزارة طه الهاشمي تنفيذ هذه الرغبة دفعا لشر اعظم ، وخصما للنزاع ، وتفاديا لازمات مجهولة المصير ... وعندئذ هاج القواد واعتبروا النقل مقدمة مؤامرة في غير صالح البلاد حتما .. وقد صعب عليهم الانقياد الى مثل هذا الامر ، لا سيما وهم يعلمون ان النقل تم بخطة مدبرة من الانكليز انفسهم ، واسرعوا الى مقابلة الهاشمي (باعتباره رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، وهو بصفته هذه يكون في طبيعة الحال مرجعهم الرسمي في مثل هذه الحالات) ولما شعر الهاشمي بعزمهم واتفاق كلمتهم على عدم الانصياع الى الامر الواقع قدم استقالته وانسحب من الميدان معتكفا في داره ... ومن هنا بدأت الاحداث تسير من سيء الى اسوأ ، وكان ذلك في مطلع شهر نيسان ١٩٤١ ... ولما رأى الامير استفحال الخلاف ، وان الخرق قد اتسع ، خشى العاقبة على نفسه ، وتم الاتفاق بينه وبين السفير البريطاني على الالتجاء الى سفينة بريطانية ، ومن هناك تتخذ كل الترتيبات التي تكفل وصوله بامان الى عمان .... وقد نجحت هذه الخطة واصبح الامير هاربا في خارج العراق ، فاصبحت البلاد بدون حكومة مسؤولة واخذت الشائعات تروج في داخل الجيش وبين الاهلين بشكل مثير يهدد الامن بشكل مخيف ويلقي الرعب في

قلوب الناس • ولما رأى الجيش خطورة الحالة طلب الى رشيد عالي الكيلاني تسلم مسئولية السلطة ، وقامت في اثر ذلك حكومة الدفاع الوطني •••

وفي ١٠ نيسان ١٩٤١ اجتمع مجلس الامة وانتخب الشريف شرف المرحوم وصيا على العرش ••• وكلف الوصي الجديد في اثر انتخابه رشيد عالي الكيلاني بتأليف الوزارة • وهكذا اصبحت في البلاد حكومة دستورية مشروعة ••• كل هذه الاخبار اسمعها وانا في القدس كمن يعيش في دوامة ، وقد تراكمت علي الهموم وصرت اتلظى بنار الجوي مضطربا حائرا لا ادري كيف العمل والى اين المصير ••• وفي صباح ١٨ نيسان ١٩٤١ خابرني تلفونيا موسى الشابندر ، وزير الخارجية انذاك ، فطمأنني بان الامور تسير من حسن الى حسن وطلب الي الحضور الى بغداد باسرع وقت ممكن ••• ولم تنته محادثتي مع بغداد الا ودق جرس التلفون ثانية واذا بصوت لطيف هادىء يخاطبني سائلا :

ــ اتعرف من انا ؟ ••••

ــ لا والله لا اعرف ••

ــ قال : انا علي جودة الايوبي ••• قلت : اهلا وسهلا ••• اين انت الان ؟••• قال في فندق الملك داود •• ثم تغير الصوت في التلفون ووجه الي سؤالا اخر هو نفس السؤال الاول : وقد عرفت صاحب الصوت فورا ، وقلت له اهلا وسهلا بابي سعد (جميل المدفعي المرحوم) ومن معكم ايضا ؟•• قال سمو الامير عبد الاله •• وقد وصلنا الى القدس قبل دقائق معدودة ونحن في طريقنا الى عمان ، وقد احببنا ان نسلم عليك تلفونيا قبل مغادرتنا مدينة القدس • قلت : شكرا كثيرا ، انني مقبل

عليكم حالا . قال : لا تفعل ، اخشى عليك من حكومة بغداد ... قلت كلا ... انني سازوركم بصفتي الشخصية كاصدقاء ... وركبت سيارتي حالا وكنت بعد لحظات في قاعة فندق الملك داود ... صافحني الامير المرحوم مبتسما وكذلك رفاقه ... وكانت حاشيته مؤلفة من جميل المدفعي وعلي جودة الايوبي والرئيس الاول عبيد المضايفي وكان يجلس في جانبهم مستر كركبرايد المعاون السياسي للسكرتير العام وبادرني الامير متسائلا : ما هو رأيك في ما جرى في بغداد ؟ قلت : والله يا سيدي ان معلوماتي في هذا الموضوع قليلة ، وهي مقتصرة على ما اطلعت عليه من بيان رئيس اركان الجيش ، وما اتصل بسمعي من اخبار الاذاعات ، وانني لا زلت اجهل الاسباب الحقيقية لهذه الاحداث المثيرة والمفاجآت الغريبة.. وعلى كل فأنا لا انتمي الى حزب معين واعتبر نفسي قبل كل شيء موظفا في دولة ، والموظف يتلقى اوامره من حكومته المركزية .. وعندئذ شعرت بان وجه الامير اكفهر ، وانه امتعض من هذا الجواب الذي لم يكن ينتظره مني ... كان يعتبرني صديقه واقف في جانبه في الملمات واسانده عند الحاجة ، وهو الان في اشد ايام محنته وفي حاجة الى كل مساعدة ممكنة تزيد في قوته وتشد ازره ... صحيح انني كنت في موقف حرج في تلك الساعة : فهو صديقي حقا (١) ولكن الموضوع الان ليس موضوع الامير ووصايته وانما موضوع الوطن برمته ، وموضوع واجبي تجاه وطني بصفتي مواطنا ... الست الذي وضعت شعار (الوطن قبل كل شيء وفوق كل شيء) وعلقت لوحة كبيرة تحمله في قاعة المحاضرات في المدرسة الثانوية المركزية عندما كنت مديرها في ١٩٢٧ ــ ١٩٢٩ ؟.. كيف يمكنني اذا ان اتردد في الوقوف بجانب وطني في يوم شدته ؟...

---

(١) تجد تفاصيل علاقتي بالامير في بحث خاص من هذه المذكرات

هكذا تجاهلت علاقتي بالامير ووقفت في صفوف ابناء وطني مجاهدا ومناضلا نقاوم المعتدين وندافع عن حق صريح لنا ... كان الامير يتوقع مني ان اعلن عصياني على حكومة بغداد وافتح دار القنصلية العراقية العامة له ولحاشيته لتصبح مركزا للعمل ضد العراق وبث دعاية ضد حكومة الكيلاني . ولكن خابت اماله وتلاشت احلامه ... وعندما وقفت مستاذنا ومودعا اخبرته بانني تلقيت امرا تلفونيا من بغداد للسفر اليها ، وانني سأغادر القدس في صباح الغد متوجها اليها .

غادرت القدس في الوقت المقرر من صباح ١٩ نيسان ١٩٤١(٢) ومعي جميع افراد عائلتي ولما وصلت الى بغداد في صباح ٢٢ نيسان وجدت الحماسة ظاهرة على كل الوجوه ، والجيش في الانذار وقد احتلت سراياه النقاط الحساسة التي توصل مدينة بغداد بالخارج ... وفهمت بعد وصولي الى بغداد ان سبب استدعائي كان عزم الوزارة على تعييني وزيرا مفوضا في القاهرة بدلا من تحسين العسكري المرحوم ... وقبل ان تتم هذه الاجراءات انفجر البركان ووقع الصدام في صباح يوم ٢ ايار ١٩٤١ وكانت القوات البريطانية هي البادئة بالهجوم على قواتنا المتمركزة حول الحبانية ... وفي الواقع ان الحكومة العراقية لم تجهل نوايا الحكومة البريطانية واستعدادها لتحطيم الجيش العراقي . او لسنا اطلعنا على تصريح لمستر تشرشل يقول فيه بصراحة تامة ووقاحة ما بعدها وقاحة : ان دملة العراق يجب تفجيرها على كل حال وكيفما كان . او لم تبلغ مسامعنا اخبار الجنرال اوكنلك الذي كان يرى من الضروري احتلال العراق بأي ثمن وذلك بعد اعلان الحرب العالمية الثانية ببضعة شهور ؟

---

(٢) على طريق بيروت ـ دمشق لانني تلقيت تعليمات من بغداد تقضي بوجوب مواجهتي شكري القوتلي المرحوم وتفهم الوضع في سورية ، وتزويده ببعض الايضاحات عما كان يجري في بغداد ...

اذا فالاعتداء البريطاني لم يكن مفاجأة غير منتظرة بالنسبة لنا ، وقد وقفنا في وجه العدو رغم ضعفنا ندافع عن شرفنا وحقنا في الحياة …

وفي اليوم الاول لهذا الاعتداء الاثيم (٢ ايار ١٩٤١) طلبني رشيد عالي الكيلاني المرحوم وكان جالسا امام مكتب موسى الشابندر وزير الخارجية ، وسالني اذا كنت مستعدا للسفر الى طهران بمهمة خاصة ؟ اجبته انني طوع امرك وقيد اشارتك. قال: اذهب الان واستعد للسفر الى طهران في صباح الغد على كل حال … انك ستكون ضابط اتصال بيننا وبين السفارة الالمانية هناك (١) وقد املى علي تعليماته كما يلي :

١) اننا نحتاج الى عدد من الطائرات المقاتلة في اسرع وقت ممكن

٢) ان مطاراتنا في بغداد والموصل وكركوك مستعدة لنزول هذه الطائرات .

٣) لدينا من البنزين ما يكفي مئتي طائرة لمدة ستة اشهر …

سافرت بسيارتي الى طهران في صباح ٣ ايار ١٩٤١ وبت الليلة الاولى في كرمنشاه ضيفا على السيد عبد الله بكر قنصلنا هناك انذاك وفي صباح ٤ ايار اخذت طريقي الى طهران ووصلت اليها قبيل المغرب من ذلك اليوم … وذهبت رأسا الى دار المفوضية العراقية واجتمعت فورا بالمرحوم شاكر الوادي القائم باعمال المفوضية وابلغته المهمة التي قدمت من

---

(١) استطيع ان أؤكد للقارىء الكريم انه قبل هذا التاريخ لم يجر اي اتصال كان مع الالمان ، وان اتهام الانكليز لثورتنا بالنازية هراء وافتراء …

اجلها ... واتصلنا بالسفارة الالمانية وطلبنا موعدا مستعجلا لمقابلة السفير وفي صباح اليوم التالي كنت في دار السفارة الالمانية وفي رفقتي شاكر الوادي ومنذ اول وهلة شعرت ان السفير الالماني منكمش في الحديث معنا وكان يتكلم بغموض وحذر واقتضاب بل هو غير صريح في كلامه ويغلب عليه التردد في الحديث ... لقد ابلغته المهمة التي اتيت من اجلها وعرضت عليه التعليمات التي زودني بها رشيد عالي الكيلاني المرحوم ورجوته الاسراع في مساعدتنا بالطائرات لنتمكن من صد الاعتداء البريطاني الأثيم ، وبعد ان وعدني خيرا شكرته وودعته وعدت الى دار المفوضية العراقية ... وفي اليوم التالي كلمني السفير الالماني تلفونيا وقال : انني اريد ان اواجهك على انفراد ، فهل تريد ان آتي اليك بنفسي ام تفضل المجيء الي ؟.. قلت : لا انا آتيك فورا . وعندما استقبلني السفير في غرفته كان مرحا بشوشا بعكس ما كان عليه في المقابلة الاولى ... بادرني الكلام قائلا : يظهر انكم لا تعرفون الشيء الكثير عن القائم باعمالكم هنا؟.. قلت انني اعرفه شخصيا ، انه ضابطقديروموظف مجد .. قال : هذا صحيح ، ولكنني اظن انكم تجهلون انه جاسوس بريطانيممتاز ... وأريدان تخبر حكومتك فورا انني لا استطيع،لهذا السبب ، ان أتعاون مع سفارتكم هنا ما دام شاكر الوادي موجودافيها ... والحقيقة انني عندما فوجئت بهذا التصريح وقعت في حيص بيص ، ومأزق لا ادري كيف أخرج منه ... كان شاكر الوادي المرحوم صديقي ويصعب علي ان اصدق انه جاسوس انكليزي... ولكنني ، في نفس الوقت اعرف مدى كفاءة الاستخبارات الالمانية ،وعندما يقول السفير عن شخص انه «جاسوس» فمعنى ذلك انه متأكد مما يقول.. كنت تواقا الى العودة الى بغداد بعد اداء مهمتي على الوجه الاحسن ، ولكن تصريحات السفير هذه من شأنها أن تؤخر عودتي الى بغداد ... وبعد تفكير طويل قررت ان اكتب الى رشيد عالي بما جرى مفصلا مع

بيان رأيي في الموضوع ، وقمت بذلك فورا . لقد اوضحت في كتابي مواجهتي السفير الالماني تفصيلا ، وذكرت له رأي السفير في شاكرالوادي واضفت الى ذلك قائلا : انني لا استطيع ان اؤيد رأي السفير او أن ادحضه ، ولكنني اميل الى الاعتقاد بان في الامر مبالغة وقد يكون ثمة خطأ ادى الى تكوين هذا الظن عن شاكر الوادي ...

وبعد بضعة ايام طلب السفير الالماني مواجهتي ، فذهبت اليه .. وبعد ان حياني ورحب بي ابتدرني سائلا : اما قلت لي ان لديكم من البنزين ما يكفي مئتي طائرة مدة ستة اشهر ؟... اجبت : نعم وهوكذلك.. قال : ان عددا من طائراتنا وصل الى بغداد ، وقامت طائراتنا فعلا بقصف معسكر الحبانية ... ولكنني أخبرك يا عزيزي ان طائراتنا الآن معطلة ، اذ لم تجد في بغداد قطرة واحدة من بنزين الطائرات !..(١) واردف : انك اخبرتني ايضا ان مطارات بغداد والموصل وكركوك جاهزة لاستقبال طائراتنا أليس كذلك اجبته : انني قلت ذلك حقا . قال : ان هذه المطارات غير مجهزة حتى بصفارات انذار ، وطائراتنا الجاثمة على الارض لا تعلم بوجود طائرات معادية في الجو الا بعد ان تقصف من قبل الطائرات المعادية . واننا في طبيعة الحال لا نريد ان تحرق طائراتنا وهي جاثمة في ارض المطار ... قلت هذا هو الحق والصواب .. ولكنني لم انقل اليك الا ما زودت به من تعليمات ، وليس على الرسول الا البلاغ المبين ...

وبعد بضعة ايام كتبت الى رشيد عالي الكيلاني المرحوم : ان مهمتي انتهت واستأذنته العودة الى بغداد ، ووردني جوابه بالموافقة على ذلك . ويظهر ان سفير المانية في طهران كتب الى حكومته عن شاكر الوادي طالبا

---

١ ـ اضطر الالمان بعد ان اطلعوا على الحقيقة الى استيراد جهاز تصفية بنزين بحجم صغير على متن الطائرات من برلين ...

اليها ! نتتوسط لدى حكومة بغداد في سحبه من طهران ، ذلك انني بعد ما وصلت الى بغداد بتاريخ ٢٧ ايار وواجهت الكيلاني صرخ في وجهي : انك ورطتني يا طالب مع الحكومة الالمانية بخصوص شاكر الوادي وعليك ان تعود حالا الى طهران ، وساطلب الى وزارة الخارجية الآن سحب شاكر الوادي الى بغداد . اسمع يا طالب : ساعينك وزيرا مفوضا في طهران ، ولكن الوقت لا يسمح بانتظار الاجرآت اللازمة كاستمزاج رأي الحكومة الايرانية وغيرها ... لذلك سنصدر حالا كتاب تعيينك قائما بالاعمال دائما وفي خلال بضعة ايام ستتم الترتيبات اللازمة لتعيينك وزيرا مفوضا ... وما عليك الآن الا ان تعود الى طهران في اسرع وقت ممكن ..

انني كنت في الحقيقة مترددا في موضوع العودةالى ايران لأن الاخبار التي كانت تصل الينا من الجبهة على الدوام لا تبشر بخير ، وكنت اشعر ان الكارثة توشك ان تحل والانهيار واقع لا محالة ... وعليه اخذت اماطل في السفر واستقصي اخبار الجبهة وانا على أحر من الجمر ...

وفي عصر ٢٩ ايار ١٩٤١ (وبعد ان وصلتني اخبار مقلقة عن الوضع العام في الجبهة) ذهبت الى دار رشيد عالي الكيلاني في الصليخ مستفسرا متسائلا ... فوجدته يحرق بعض اوراقه والاضطراب باديا على محياه ... قال لي : ان امل النجاح في الجبهة الحالية ضعيف ، ولكننا سنقاوم وسنحارب الى اخر جندي مهما كان الامر ، ونفضل ان نموت شرفاء كرماء على ان نعيش اذلاء صاغرين ... سننقل مركز الحكومة الى منصورية الجبل ، وسنفتح جبهة ثانية في جبل حمرين وسنتكل على الله ونرضخ لارادته ومشيئته ... وبينما كنت اساعده على حرق الاوراق وتمزيق بعضها واذا بجرس التلفون يرن فذهبت اليه ورفعت السماعة ، وقلت : هذا بيت رشيد عالي الكيلاني ، اجابني مخاطبي : من انت ؟ قلت طالب

مشتاق . قال : اهلا ومرحبا ..انا صلاح الدين الصباغ واريد ان أتكلم مع الاستاذ الكيلاني . وكان يتكلم بصوت مضطرب متهدج ... وقد فهمت من الاستاذ الكيلاني ان العقيد صلاح الدين الصباغ المرحوم اخبره: ان رتلا بقيادة كلوب ، قائد الجيش الاردني ، يحاول العبور من الضفة الغربية من نهر دجلة الى الضفة الشرقية بالقرب من الفحامة ... وبعد ذلك سألني الاستاذ : ما رأيك ؟.. انني في الحقيقة اضطربت من سماع هذا النبأ المزعج وخشيت ان نقع اسرى بيد العدو الحانق اذا بقينا في مكاننا .. فقلت له : هيا عجل يا استاذ وما علينا الا ان نغادر هذا المكان فورا . وبينما كنا في السيارة في طريقنا الى دار علي محمود الشيخ علي المرحوم في الاعظمية ، صرت احاكم الموضوع في ذهني ، كيف يمكن ان يعبر هذا الرتل نهر دجلة ولدينا مدفعية ضخمة ، بقيادة العقيد داود سلمان ، لا تزال تقصف العدو نارا حامية من الصليخ ؟.. وبأية واسطة نقل يمكن ان يتم هذا العبور ونهر دجلة خال حتى من الزوارق العادية ؟... انها اذا كذبة قذف بها جاسوس حاذق ليحطم معنويات القواد ويقضي على آخر مقاومة لهم ...

وصلنا اخيرا الى دار السيد علي محمود الشيخ علي المرحوم وزير العدل آنذاك ،وكان هناك كل من سماحة المفتي ، واللواء امين زكي رئيس اركان الجيش وغيرهم ... كان المفتي يحترق غيظا وألما ويقول حرام علينا كيف تترك بغداد لهذا العدو الاثيم ؟ اما من سبيل للمقاومة واستمرار الكفاح ؟.. وفي هذا الاجتماع تم القرار على مغادرة بغداد فورا ، فرشيد عالي والمفتي يسافران بقطار الليل ورئيس اركان الجيش وعلي محمود يسافران بالسيارات ومعهما محتويات الخزينة العراقية من نقود ، وأنا بسيارتي أسافر ومعي كل افراد عائلتي ، ووجهة الجميع كانت بعقوبة ... حيث كان المقرر ، كما بينت سابقا ، ان نفتح جبهة حرب

في جبال حمرين وان يكون مركز الحكومة في منصورية الجبل ...

وبينما كنا مجتمعين في مديرية شرطة بعقوبة ، ومعنا عبد الحميد عبد المجيد المرحوم متصرف اللواء واذا بغداد تطلب علي محمود تلفونيا . كان المتكلم من بغداد الاستاذ الكيلاني ، وقد اعطى تعليماته الى وزير عدليته بصورة مقتضبة .

أ ـ ان الوضع تغير .. لا تنتظروا في بعقوبة وواصلوا سيركم الى خانقين .

ب ـ اننا سنسافر بالقطار فورا الى خانقين .

جـ ـ سلموا خزانة النقود الى متصرف اللواء مقابل وصل ...

ان الوضع تغير ؟.. كيف تغير ؟.. وعلى اية صورة جرى التغيير ؟.. لا ندري ؟... طلب الي رشيد عالي الكيلاني قبل ان اغادر بغداد وانا احمل كتاب تعييني قائما باعمال المفوضية في طهران ان لا استعجل في السفر الى طهران وعلي ان ابقى في كرمنشاه منتظرا تعليماته الاخيرة ، فاذا شعر بالحاجة الي سيستدعيني الى حيث يكون والا سيطلب ان استأنف السير نحو طهران ... وعليه استأنف علي محمود الشيخ علي ورئيس اركان الجيش سفرهما الى خانقين بعد المخابرة التلفونية اما انا فلم أر ضرورة للاستعجال لان زوجتي واولادي الاربعة كانوا نائمين في بيت السيد عزة المرحوم رئيس بلدية بعقوبة ، ولم أر ضرورة لازعاجهم في مثل هذه الساعة من الليل ، وقررت ان اقضي ليلتي معهم ونسافر في الصباح الباكر متوجهين نحو خانقين .. وهكذا كان ...

ولما وصلت الى خانقين قصدت رأسا دار القائمقام ابراهيم صالح

شكر المرحوم ••• كنت انتظر أن ارى حشدا من السيارات امام الدار . ولكنني باستغراب وجدت ان الهدوء يخيم على الدار ، وان الساحة التي امامها قاعا صفصفا خالية من أية واسطة نقل على الاطلاق ••• دخلت الى الدار وانا ادير رأسي يمينا وشمالا فلم ار احدا ولم اسمع صوتا ••• ثم تقدمت الى «سرداب» واقع في الجهة الشمالية من الدار ، ودخلت اليه وهناك وجدت اسماعيل غانم المحامي متمددا على كرسي شطح وابراهيم صالح شكر متكئا على يديه فوق طاولة موضوعة امامه ••• وكلاهما في حالة يأس ظاهر واضطراب شديد وألم دفين ••• سلمت عليهما وردا علي تحيتي •• ثم سألتهما الخبر ؟ ••• فقال اسماعيل غانم : عن أي امر تسأل ؟•• قلت : اين الجماعة ؟••• قال : انهما الان قد وصلا الى ايران (١) ••• ثم سرد علي القصة الأليمة وقال : ان القواد الاربعة تركوا الجبهة وفروا الى ايران قبل ان يعلموا رئيس الحكومة بعزمهم هذا ، وان الجيش العراقي لا يزال يقاوم ويحارب بدون قيادة ••• كان وقع هذه الاخبار على نفسي أليما ، فقد شعرت ان الارض تميد تحت قدمي ، وان السماء تمطر صواعق على رأسي ، وان نارا تضطرم في احشائي ••• ولكن ما العمل ؟•• فالقضاء قد اصدر حكمه ، والمشيئة الالهية قد قدرت لنا هذا المصير ••• طلبت بغداد عندئذ تلفونيا فورا واتصلت بيونس السبعاوي المرحوم الذي كان متهيجا ومتحمسا وفي حالة غضب شديد••• قال : أرأيت القواد كيف تركونا وهربوا ؟••• اهذههي الشهامة والمروءة •••انالجيش لا يزال يقاتل ،وان وضعنا ليس برديء بالمرة ••• انني تسلمت المسئولية واعلنت نفسي حاكما عسكريا وليس معي من يساعدني، فارجوك ان تعود الى بغداد كي تتعاون سوية علنا نستطيع انقاذ الموقف ••• أجبته : اني أقدر غيرتك وافاخر بشجاعتك ووطنيتك ولكن يا اخي يونس ، أرى ان

---

١ ــ يعني المفتي والكيلاني رحمه الله .

الوضع تردى الى حد لا يمكن اصلاحه ، وان كل عمل بعد الآن قد يضر ولا ينفع ، فانا انصحك ان تغادر بغداد فورا وتلتحق بنا ، لأنني اخشى ان يبطش بك الاعداء قبل ان تجد مجالا للخلاص ... كان رحمه الله عازما على المقاومة حتى النفس الاخير ، وكان جازما ان يستمر على القتـال حتى في شوارع بغداد ... وبعد ان انهيت مكالمتي مع السبعاوي المرحوم اخذت أستعد للسفر الى ايران ... وكانت لدي مشكلة : انني لم اجد متسعا من الوقت عند مغادرتنا بغداد لاحصل على جواز سفر الى كاظـم سائق سيارتي فذهبت الى القنصلية الايرانية في خانقين واوضحت الامر الى القنصل ورجوته ان يجد لي حلا لهذه المشكلة ... وبعد الكلام المستفيض والرجاءات المتكررة وافق القنصل على ان يتصل تلفونيا بالسلطات الايرانية المختصة في خسروى وهي اول نقطة ايرانية في مدخل الحدود وتم الاتصال واخذت موافقة هذه السلطات على ان يوصلني سائقي الى خسروي ومن هناك يرجع الى الحدود العراقية ، واواصل سفري الى كرمنشاه بوساطة سائق ايراني احصل عليه في خسروي نفسها وقد أكد لي القنصل بـان الحصول على سائق هناك ليس بالأمر العسير ...

وبينما كنت عائدا الى افراد عائلتي وكانوا ينتظرونني على أحر من الجمر ، واذا بسيارة يعلوها الطين والغبار تتقدم ، واذا بيد تخرج مـن احد ابوابها وتشير الي ، وقد وقفت السيارة جنب سيارتي ، ولما تبينـت من فيها عرفت ان المقبل علي هو صديق شنشل مدير دعاية ثورة ٢ ايار ، وبعد السلام والكلام فهمت منه الوضع الاخير على حقيقته ... فالاستسلام اذا قد تم وكل شيء قد انتهى ... ولما سألته مصيـر يـونس السبعاوي المرحوم ايضا ، قال لي : انه آت خلفي ، ولم تمض اكثر من دقائق معدودة حتى وصل يونس السبعاوي المرحوم ايضا ، وبعد قليل من الوقت كنا جميعنا في خسروي . وقد فهمت بعد وصولي الى خسروى ، ان رشيد عالي الكيلاني

وسماحة مفتي فلسطين ، والقواد الاربعة المرحومين وغيرهم من العراقيين موجودون في خسروى ايضا ، وقد قبلتهم السلطات الايرانيـة لاجـئين سياسيين ••• اما أنا فكنت احمل جواز سفر (دبلوماسي) ومعي كتاب تعييني قائما بالاعمال في ايران ،ولذلك لم أسجل نفسي لاجئا واستأنفت سفري الى كرمنشاه ، بعدما اكملت المعاملات الرتيبة في دائرتي جواز السفر والكمرك•• بقيت في كرمنشاه بضعة ايام ، وفي خلال تلك المدة ، وصل اليها كل اللاجين العراقيين : الكيلاني والمفتي والقواد وغيرهم ، فخرجنا لاستقبالهم ومعنـا عبدالله بكر ايضا قنصلنا في كرمنشاه الى موقع يبعد عن كرمنشاه مسافـة لا تقل عن عشرين كيلو مترا ، وبينما كنا واقفين على تل يشرف على الطريق ومحوط بمناظر طبيعية خلابة ،من اشجار وازهـار وخضرة سندسيـة ، وجبال مكسوة بالاشجار واذا برتل من السيارات بانت طلائعه ، وبعـد لحظات كنا نتصافح مع القابلين ، مرحبين بهم ومهنئينهم بسلامة الوصول•••

كان رشيد عالي الكيلاني يصر علي بالسفر الى طهران وتسلم المفوضية هناك بصفتي قائما بالاعمال ، ولكنني كنت اعلم ان بقائي في طهران موظفا (دبلوماسيا) سوف لا يطول ، وان الوزارة الجديدة التي الفها جميل المدفعي المرحوم سوف لا تقر هذا التعيين ، فعلام اكلف نفسي اذن عناء تقديم كتاب الاعتماد ثم اقفل راجعا الى بغداد ، او اطلب اللجوء السياسي وابقى في ايران ؟••• تركت عائلتي واطفالي في دار القنصلية العراقية في كرمنشاه في رعاية عبدالله بكر قنصلنا الصديق الكريم وزوجته الوفية ، وسافرت الى طهران بمفردي ••• وفي طهران قابلت شاكر الوادي المرحوم ، الذي كان لا يزال قائما بالاعمال هناك ، وافهمته انني احمل كتاب اعتماد قائما بالاعمال ولكنني سوف لا أقدم هذا الكتاب الى وزير الخارجية الايرانية • وقد اردت بقولي هذا ان اطمئنه على بقائه في منصبه ، وانني لا افكر قط بمنافسته في هذا المنصب • كان لقائي بشاكر الوادي في هذه المرة فاترا ،

وقد استقبلني بوجه عابس ، وكبرياء غريب ثم سألني متهكما : اين اصبحت جماعتك ؟.. قلت له : ان جماعتي غلبوا على امرهم امام جماعتك المتفوقة عليهم جوا وبرا ، ولكنهم والحمدلله قاتلوا قتال الابطال وتقهقروا بشرف وكرامة وحافظوا على سكينتهم بكل صبر وجلادة ... وعليك ان تعلم ان الفشل في غالب الاحيان يكون بداية الانتصار ، والليالي حبالى لاندري ما سيلدن في مستقبل الايام ...

وعدت كئيبا الى فندق الفردوسي الذي حللت فيه ، وبعد ايام صارت قوافل اللاجئين تصل الى طهران تباعا : الكيلاني ، والمفتي ، وامين زكي رئيس اركان الجيش والقواد العسكريون وعلي محمود الشيخ علي ، ويونس السبعاوي ، وصديق شنشل ، وعدد غير قليل من الشباب المتحمس الذي ساهم في الحركات ...

وقد لاحظت طول مدة بقائي في طهران ان رشيد عالي والمفتي وامين زكي لم يكونوا يتصلون بالقواد العسكريين ولا يواجهونهم ، ولا يسلمون عليهم وكان الجفاء مستحكما بين الجهتين ... وسبب ذلك يرجع على ما يظهر الى انسحاب القواد المرحومين من القيادة ، وسفرهم الى ايران دون ان يعلموا احدا ذلك ...

لم يحمل معظم الشبان الذين لجأوا الى ايران في جيوبهم الا كميات قليلة من النقود العراقية وقد انتهز الصيارفة هذه الفرصة (وكان معظمهم من اليهود) وصاروا يرفضون تصريف الدينار العراقي ، واذا قبلوا تصريفه تفضلا يصرفونه بنصف قيمته في الغالب . ولما فهمت ذلك اسرعت في مقابلة سماحة المفتي ورجوته ان نعمل شيئا لرفع الغبن عن هؤلاء الشبان قدر الامكان ... قال : حسنا ، انني ساطلب مساعدة بعض الجهات في هذا الامر .. وفي اليوم التالي طلبني المفتي ، وسلمني ما يعادل خمسمئة دينار

من الريالات الايرانية وقال : خذ هذا المبلغ واتصل باللاجئين من الشبان وصرف لهم بنسبة عادلة ما تقبضهمنهم من الدنانير العراقية بالسعر الرسمي المقرر .. وهكذا صرت أمر بمنازل هؤلاء أصرف لهم الدنانير بسعرهـا الرسمي ، وقد فرحوا بهذا العمل الذي انقذهم من براثن الصرافين وصاروا يشكرونني ويثنون على همتي وخدمتي لهم في هذا المضمار ...

ولا ازال اذكر بأسف واسى ان العقيد كامل شبيب المرحوم صار يشهر بالمفتي ويتهمه على مرآى من الناس بانه تسلم اموالا من السفـارة الايطالية أو الالمانية ليوزعها على اللاجئين العراقيين الا انه اختلس هـذه الاموال وحطها في جيبه .. وانني اشهد وجميع الذين يعرفون المفتـي يشهدون على ان هذا الزعيم العربي ارفع بكثير من ان يدنس نفسه بمثل هذه التصرفات وهو الذي ضحى بكل ما يملك من نفس ونفيس في سبيل القضية الفلسطينية والدفاع عن حقوق عرب فلسطين ...

قررت العودة إلى العراق

بعد ان اجتاحت القوات الالمانية الحدود الروسية في صباح يوم ٢٢ حزيران ١٩٤١ صرت أفكر بالعودة الى بغداد ، اذ كان من البدهي ا . يضطر الحلفاء الى نجدة روسية بالمعدات الحربية المختلفة ، واقرب طريق واسهلها يكون اذ ذاك عبر ايران في طبيعة الحال وعليه سيتوغل الروس والانكليز في ايران ويحتلونها على كل حال ... يضاف الى ذلك ان عائلتي التي تركتها في كرمنشاه صارت تلح علي بالعودة الى كرمنشاه لمواصلة السفر الى بغداد ...

وبناء على هذه الاسباب قررنا العودة الى بغداد مهما كانت العقبى وكيفما آل اليه المصير ... نعم ، كنت متأكدا من ان حكومة بغداد لا تتركني اسرح وامرح كما اريد وكيفما اهوى ... ولكنني فضلت أن اكون موقوفا في بلدي على ان اكون اسيرا تحت رحمة الانكليز ... وهنا جوبهت بمشكلة : ان (تايرات) سيارتي كانت مستهلكة بشكل لا يمكن السفر مطلقا بها ، وبيع (التايرات) في ايران كان منحصرا بالدولة ولا يباع للاجنبي شيء منها الا بتقديم شهادة او توصية من السفارة التي ينتمي اليها الراغب في الحصول على (التايرات) فهرعت الى السفارة العراقية

وقابلت شاكر الوادي القائم بالاعمال واوضحت له قضيتي ورجوته تزويدي بالشهادة المطلوبة لأتمكن من شراء (التايرات) والعودة الى بغداد ... فنظر الي رحمه الله بوجه عبوس متجهم يقطر الغضب منه وقال : كلا ... انني لن ازودك بمثل هذه الوثيقة ــ وكانت الوثيقة جاهزة واحملها بيدي حيث امر بتنظيمها وكتابتها على الالة الكاتبة سكرتير المفوضية لانها من الاعمال الرتيبة التي لا تحتاج حتى الى اخذ رأي رئيس الدائرة فيها ... والحقيقة ان هذا التصرف الغريب من شاكر الوادي المرحوم كان مفاجأة لي غير منتظرة ... فقلت له : أأنت مازح ام جاد يا شاكر ؟.. لماذا لا تزودني بمثل هذه الوثيقة ؟ أو لست عراقيا احمل جواز سفر (دبلوماسي) ؟ أو لست موظفا كبيرا في الحكومة العراقية ؟ هل صدر قرار بفصلي من خدمة الحكومة ؟ ام هل انتزعت عني الجنسية العراقية ؟. قال : لا ، ومع ذلك لا ازودك بالوثيقة التي تريدها وافعل ما تشاء ... وعندئذ شعرت ان كل اعصابي تهتز حنقا وألما وان الدنيا اظلمت في عيني فمسكت الكتاب الذي كان بيدي ومزقته اربا اربا وقذفت به رأس القائم بالاعمال ،وصرخت في وجهه : خذ وثيقتك ولعن الله الحكومة التي تعين موظفين هم على شاكلتك ، وتبا للوصي ولرئيس الوزراء ولكل من يحمي اناسا هم من امثالك ، وكان محمد علي محمود المرحوم حاضرا آنئذ هذه الحادثة وقام وصار يلاطفني ويهون علي الامر وخرجت فورا وعدت الى فندق فردوسی وانا في أشد حالات الغضب ... ان هذا العمل الشاذ لو كان صدر عن غير شاكر الوادي المرحوم لما تألمت ولما انفعلت الى هذا الحد ، اما انه يصدر عنه نفسه فذا أمر اليم ... وعندما تمددت على كرسي مريح في فندق فردوس سرح خيالي في شاكر الوادي المرحوم ... كان يعتبر من اصدقائي الطيبين وانا الذي اقنعت نوري السعيد المرحوم بتعيينه سكرتيرا ثانيا في مفوضيتنا في طهران ، بعدما تكررت بين السعيد وبيني المحادثات والمناقشات في هذا الموضوع ... حتى أن المرحوم صرخ في وجهي مرة :

أأنت تتوسط في تعيين شاكر الوادي ، الا تعرف دوره في انقلاب بكر صدقي ؟٠٠ أو لست أنت مؤلف «ايام النكبة» ؟٠٠ افبعد كل ذلك تأتي نفسك ترجوني تعيين هذا المخلوق الجاحد ؟٠٠٠ ولم يوافق السعيد على تعيينه الا بعد تكرر رجائي عنده واشتداد ضغطي عليه في مقابلات عديدة في أيام متفاوتة ٠٠٠ وعندما احيلت قضيته الى البلاط لاستصدار الارادة الملكية بتعيينه تأخرت الارادة اياما واياما اضطررت بعدها الى الذهاب الى البلاط ومقابلة رشيد عالي الكيلاني ملتمسه وراجيه ، وكان الكيلاني المرحوم مصر على عدم اصدار الارادة ولكنني كررت رجائي في زياراتي التي قمت بها بعد ذلك وقلت له : انني اعرف ان لي دالة عليك ولم أكن اظن فخامتك تقبل لي هذه الخيبة ٠٠٠ وبعد اللتيا والتي ابتسم الكيلاني وقال : لتكن رغبتك ٠٠٠ انني ساقدم الاوراق للتوقيع عليها اكراما لخاطرك ولكنني غير مرتاح من هذا التعيين نفسيا ٠٠٠ وفي طهران نفسها ، بعد ان اتهم السفير الالماني شاكر الوادي المرحوم ووصفه بأنه جاسوس انكليزي ، استنكرت هذا الاتهام وكتبت الى رشيد عالي الكيلاني ، وثورة ٢ ايار لا تزال قائمة ، مشككا في هذا الاتهام وبذلت المستحيل في تزكيته واثبات براءته ٠٠٠ افبعد ذلك كله يأبى شاكر الوادي ان يزودني بوثيقة شراء (تايرات) انا في اشد الحاجة اليها ؟٠٠ اللهم ان هذا لأمر عجاب !٠٠٠ وبينما انا في هذه الحالة النفسية افكر في كيفية الحصول على ما يلزمني من (التايرات) واذ برشيد عالي المرحوم وسماحة المفتي يدخلان الى صالة الفندق التي كنت جالسا فيها ٠٠٠ وفي أول نظرة علي لاحظا آثار الألم في وجهي وسألاني : خيرا ان شاء الله ؟ ماذا اصابك يا طالب ؟ ان آثار الامتعاض بادية على وجهك ٠٠٠ وحكيت لهما القصة فاستغربا وتألما ٠٠٠ وعندئذ جلس سماحة المفتي بجانبي واخذ يهون علي الامر وقال : كم (تايرا) تحتاج ؟٠٠ قلت : اثنين في الاقل ٠ قال : لا تبتئس يا بني سارسل اليك (تايرين) بعد ظهر اليوم ٠٠٠ وهكذا مكنني سماحة

المفتي من اللحاق بعائلتي في كرمنشاه . وقد فهمت بعد ذلك انه اخـرج (التايرين) من سيارته وارسلهما الي ، وانه تدارك غيرهما اخيرا بوساطـة بعض اصدقائه في طهران ... وبعد وصولي الـى كرمنشاه وجـدت ان عائلتي متفقة ايضا بوجوب العودة الى بغداد،ومع ذلك رأيت ان لا نستعجل الامر وان نتريث قليلا حتى ينكشف الوضع على حقيقته ورأيت من المناسب أن اكتب الى السيد علي جودة الايوبي ، وكان آنذاك وزيرا للخارجية ، مستمزجا رأيه في العودة او البقاء في ايران في الوقت الحاضر ... ووردني جوابه بعد بضعة أيام وفيه يؤكد علي عدم وجود شيء ضدي ، وان لا دخل لي في ما جرى ، وانني لا ازال موظفا في السلك الخارجي ، ويشير علـي بلزوم العودة الى بغداد فورا ...

فصلي من وزارة الخارجية

وهكذا غادرنا كرمنشاه في طريقنا الى بغداد ووصلنا اليها في يوم ٢٦ حزيران ١٩٤١ ،وفي اليوم التالي من وصولي قابلت علي جودة الايوبي ، وزير الخارجية واخبرني انه قرر ارسالي قائما باعمال المفوضية العراقية في انقرة ،وشكرته على هذا اللطف والتقدير .. ولكنني بعد ايام ثلاثة فوجئت بقرار فصلي عن السلك الخارجي . ولما واجهت الوزير مستفسراً غير مستغرب قال لي : تأكد يا طالب ان فصلك جرى بناء على ضغط مقامات عليا وانني وافقت على ذلك مضطرا ، وقد صرحت في اثناء المناقشة في مجلس الوزراء : انني اوافق على الفصل بناء على ظروف استثنائية ورغبة سامية ولكن أشعر بأن الواجب يقضي علي ان أوضح في هذا المجال بان طالب مشتاق من ابرز الموظفين كفاءة واتقنهم عملا وان فصله خسارةلوزارة الخارجية قبل كل احد ... أجبته : تأكد يا معالي الوزير انني غير متألم من فصلي ، وان الفصل لم يكن مفاجأة لي ، وعلى كل انني اقدر موقفك واشكرك على حسن ظنك وكامل ثقتك ، وكان تاريخ فصلي في ٢ تموز ١٩٤١ .

وبعدما قطعت علاقتي بوزارة الخارجية اخذت اجازة المحاماة وصرت اشتغل فيها ...

دفاعي عن طلاب موقوفين

وفي ذات يوم من شهر تموز وانا خارج من المحكمة العسكرية المؤلفة في معسكر الرشيد ، وكنت اعقب احدى الدعاوى فيهـــا ، واذا بصوت يناديني : الاستاذ طالب ••• الاستاذ طالب !•• التفت واذا بالمنادي فائق السامرائي الصديق الكريم (١)••• رجعت اليه ، وكانت رجعتي فـرصة لملاقاته ، وبعدما تبادلنا التحية والاستفسار عن الصحة ، قال : انظر يـا اخي الى هؤلاء وعددهم لا يتجاوز الخمسة عشر طالبا وكلهم طلاب فـي المدارس الثانوية او دار المعلمين ، وهم متهمون بتنظيم عصابة مسلحـة لقلب الحكومة الحاضرة ،••• وقد رفض كل المحامين الذين راجعوهـم الدفاع عنهم فهل لك أن تأخذ بيدهم وتتوكل عنهم ، وانت الوطني الصادق الذي نعهد فيك الشهامة والغيرة على ابناء وطنك ؟ قلت : مرحـبا بهذا التكليف ، انه تشريف لي وواجب اقوم به بشوق غير متناه ، ونظمـت الوكالة حالا ووقعوا عليها جميعهم ووضعتها في حقيبتي ••• وفي يـوم المحاكمة اتيت الى قاعة المحكمة ، وشارك معي جمال جميل المحامي والقيت

---

١ ـ كان فائق السامرائي وبعض الشباب الوطني موقوفين في معسكـر الرشيد آنذاك ...

في المحكمة دفاعي وكان موجبا للاستحسان من جميع المتهمين والسامعين ••• ولكن المحكمة ، على ما بلغني بعد ذلك ، وجدته تحديا لها وفيه الشيء الكثير من الاستفزاز والوقاحة حسب تلقيهم (١) ••• وقاطعني الرئيس عدة مرات في اثناء المرافعة ، ولفت نظري الى وجوب التروي في الكلام ••• وقد جرى توقيفي بعد المرافعة الاولى ببضعة ايام ، اي قبل اصدار الحكم النهائي في هذه الدعوى •••

(١) ان هذه المحاكمة كانت مهزلة من المهازل ، اظهرت الباطل حقا والحق باطلا وحكم على عدد من المتهمين بالحبس او الجلد ظلما وعدوانا وبريء بعضهم وكنت اود ان انقل صورة دفاعي ذاك في هذه المذكرات الا ان الحرس القومي استولى على كثير من كتبي واوراقي الخاصة وفيها صورة الدفاع المذكور ، عندما دهم بيتي في بغداد لالقاء القبض على ولدي باسم .

آراء وملاحظات على هامش الحوادث

١ ـ انه مما لا شك فيه ان الانكليز كانوا يريـدون تفجير دملة العراق ، كما قال مستر تشرشل ولكن لا ادري هل كان تشرشل على صواب في رأيه هذا ؟ وهل كان في مصلحة الانكليز ان يشغلوا انفسهم بمحاربة الجيش العراقي ، في حين أنهم كانوا يقاسون الامرين من عدو قويم الشكيمة يقاتلهم بقسوة وضراوة في جبهات عديدة ؟ هل كان في صالحهم ان يوقدوا النار في بلد كالعراق يقع في منتصف الطريق بين قواتهم في الجبهتين : الافريقية والغربية ، وقواتهم في الهند ؟ .. اذا كان حقاً أنهم هم الذين ارادوا القتال ، وتقصدوا اثارة الفتنة واضرام النار ، يكونون ممن لم يقدروا مصلحتهم ولم ينظروا الى أبعد من انوفهم ... ومهما كان الامر فانني اعتقد اننا دفعناهم دفعاً الى الامر الواقع بعدما حاصر الجيش العراقي معسكرهم في الحبانية وسن الذبان ... ولست ادري هل كان هذا الحصار ضرورياً ؟ وما الفائدة المتوخاة منه ؟ ... انني سمعت في حينه من بعض الوزراء في الوزارة الكيلانية الاخيرة ان مجلس الوزراء لم يقرر الحصار ولم يعرض عليه اي اقتراح يتعلق بهذا الامر ، بل ان رئيس الوزراء نفسه لا يعلم به ولم يؤخذ رأيه في الموضوع ، وانما الترتيبات اللازمة للحصار تمت ونفذت باتفاق القواد الاربعة المرحومين فقط ! وفي اثر ذلك دعيت الوزارة الى اجتماع عاجل ، واجتمع الوزراء

في دار ناجي السويدي المرحوم ، ولما اعترض بعض الوزراء على عدم اخذ قرار مجلس الوزراء في امر حيوي كهذا ، اجابه القواد المرحومون : ان هذه القضية من الامور العسكرية ، وليس من المصلحة عرضها على مجلس الوزراء قبل اكمال عملياتها !! ..

٢ ـ وانه مما لا شك فيه ان حركة رشيد عالي المرحوم لم تكن موجهة في بدايتها ضد العرش او ضد الأمير الوصي ، وانما كان هناك نزاع قائم بين الانكليز والحكومة العراقية ... نزاع يتعلق في صميم السياسة ، ولم يكن لزاما على قواد الجيش المرحومين ان يتدخلوا فيه ويثيروا مخاوف الوصي من جهة ويستفزوا الانكليز من جهة اخرى .. واندفاع القواد الى صميم الامور السياسية وتغلغلهم في هذا الميدان سبب كل الارتباكات التي أدت الى وقوع الصدام ...

٣ ـ انني كنت ولا ازال من اصدق المؤمنين بوطنية القواد وشديد غيرتهم على المصلحة القومية ونزاهتهم وايمانهم بحق العراق في الانعتاق والاستقلال ، ومع ذلك لا يسعني في هذا المجال الا ان اقول انهم كانوا قليلي الخبرة في الامور السياسية ، تنقصهم المرونة ويعوزهم بعد النظر في معالجة الامور ، وكان عليهم والحالة هذه ان يتفرغوا لمعالجة الامور العسكرية البحتة ويتركوا المجال السياسي لاصحابه الذين هم اقدر منهم على تمشية الامور وايصال سفينة الدولة الى ساحل السلام .

٤ ـ ان القواد لم يحسبوا حسابا دقيقا لتفوق العدو علينا ، سواء أكان ذلك في الجو ام البر ... كانت اسلحتنا بالية وليس لدينا من العتاد ما يكفي ، في عمليات حربية اكثر من بضعة ايام ... وعندما فتش الخبير العسكري الالماني الذي قدم الى بغداد بصحبة الدكتور غروبة سفير المانية في العراق ، واطلع على موقف الجيش العراقي وما يملكه من سلاح وعتاد قال للقواد : اذا استطعتم ان تقاوموا شهرا واحدا على نهر الفرات يعتبر ذلك نجاحا باهرا لكم . « و اكد لي وزير مسئول يومئذ ان صلاح

الدين الصباغ الشهيد المرحوم اجاب على ملاحظة الخبير العسكري الالماني بما يلي : « اننا واثقون من النجاح ، ولسنا في حاجة الى قواد ، ونحن في غنى عن الجيوش كذلك ... ان ما ينقصنا هو السلاح الجوي فقط ، فاذا اعطيتمونا مئتي طائرة مقاتلة سنتعهد لكم ليس بطرد الانكليز نهائيا من العراق ، بل بفتح فلسطين ايضا ورفع العلم العراقي على القدس ...

٥) يظهر لي ان الاستعدادات الفنية العسكرية ، من خرائط وخطط وغيرها كانت ناقصة لدينا بشكل معيب ، فالخبير العسكري الالماني طلب يوما من الجهة العسكرية خرائط موقع الحبانية واستحكاماتها ، فقيل له : ليس في حوزتنا شيء من ذلك ، واضطر الى الابراق الى برلين ووصلته نسخ من هذه الخرائط بعد اسبوع واحد ... وعندما طلب خريطة تبين الوضع في الجبهة قدموا له ، خرائط الري في تلك المنطقة ! ...

٦) عندما سافر السيد ناجي شوكة الى انقرة وقابل الفون بابن سفير المانية هناك ، اخبره هذا : « ان الحكومة الالمانية لم يسبق لها علم بعزم العراق على محاربة الانكليز ، وكانت حركة العراق مفاجأة غير منتظرة بالنسبة الى المانية ، ونحن آسفون ان وضعنا في الوقت الحاضر لا يمكننا من مد يد المساعدة اليكم بصورة جدية . وانني اشير عليكم ان تتفاهموا مع الانكليز بشروط تحفظ لكم كرامتكم وتعزز كيانكم .. » وفي الوقت نفسه حاولت تركية التوسط بين المتخاصمين وعرضت توسطها فعلا ، ويغلب على الظن انالانكليز انفسهم هم الذينطلبوا هذا التوسط ، واكد لي وزير مسئول في الوزارة : ان الشروط من حيث العموم كانت ملائمة وكان رشيد عالي نفسه يميل الى قبولها ، وهي تتضمن الاعتراف بالوضع القائم في العراق ، وتقديم السفير البريطاني اوراق اعتماده الى الشريف شرف الوصي الجديد ، على ان يتعهد العراق ان يأخذ بنظر الاعتبار مصالح بريطانية في البلاد ويتبنى سياسة لا تخل بهذه المصالح وفقا للمعاهدة ... ولما عرض الكيلاني هذه الشروط على العقيد صلاح الدين الصباغ في حضور موسى الشابندر وزير الخارجية في مكتبه

في الوزارة ، فكر الصباغ المرحوم تفكيرا عميقا واعاد قراءة الشروط ، واخيرا انتفض فجأة وقال : « اننا لا نكتفي بذلك ، بل نريد سحب البعثة العسكرية البريطانية من العراق نهائيا وان تدفع لنا الحكومة البريطانية تعويضات مالية مرضية ... » وعند ذلك طفح صبر وزير الخارجية وخاطب العقيد الصباغ المرحوم متسائلا : «ترى ، متى دفع الغالب تعويضا للمغلوب ؟ ... وهل نحن في وضع نستطيع فيه ان نملي مثل هذه الشروط على دولة كبيرة كالدولة البريطانية ، وهي في وضعها الحاضر الذي نعرفه ؟ ... وفي اثر ذلك امتعض الصباغ وغضب وهصر الورقة المدونة فيها الشروط بيده ورماها في سلة المهملات وقال : « ان الاقدام على قبول مثل هذه الشروط خيانة وطنية عظمى ليس في مقدور احد ان يقدم عليها (١) ... »

٧) شاع في حينه انه جرت محاولة بعد ذلك لابعاد رشيد عالي عن الحكم واحلال يونس السبعاوي محله ... وفي اثر ذلك غضب الكيلاني المرحوم ، وثار وزمجر وقرر ابعاد السبعاوي عن بغداد وتعيينه سفيرا في احدى السفارات العراقية في اوروبة ، وقد بقي الكيلاني ناقما على السبعاوي الى الاخير وكان يتجنب ملاقاته طيلة مدة مكثنا في طهران ..

٨) انه من الامور التي توجب الاسى وتثير في النفس كوامن الالم ان المسؤولين عن التموين في الجيش اظهروا عجزا شائنا في تنظيم التموين ، وقد وجد في جيب احد ضباطنا الشهداء الابرار ورقة كتب فيها : (انني لم اقتل برصاص العدو ، ولكنني اموت عطشا ...) .

٩) واخيرا أود أن ادون هنا بمداد الفخر والاعتزاز الروح الوطنية

---

(١) في اليوم التالي من هذا الحديث غادر العراق كل من الوزراء ناجي السويدي المرحوم وموسى الشابندر ومحمد علي محمود متوجهين الى ايران ...

العالية التي تحلى بها القواد المرحومون والاحتفاظ بشجاعتهم عند اعتلائهم اعواد المشانق ، والاعتزاز بكراماتهم حتى النفس الاخير • ولولا هفوة شط بها العقيد كامل شبيب المرحوم بمراجعاته بعض رجال الحكم في بغداد وهو ما يزال في طهران (برسائل يلتمس فيها العفو والغفران ويتهجم فيها على امين الحسيني المفتي الاكبر (٢) وينعته بـ « المفتي القذر ») لاطلقت على هؤلاء الشهداء البررة لقب (المربع الماسي) بدلا من (المربع الذهب) (٣) •

---

(٢) ان كل ما ذكرته عن سماحة المفتي في هذه المذكرات ، يعكس شعوري نحوه خلال الحوادث التي مرت ، والظروف التي اجتزناها معا في الجهاد ومكافحة الاستعمار ...

(٣) انني اعتقد ، ويؤيدني الكثيرون من المطلعين على الاحوال ان كامل شبيب المرحوم كتب ما كتبه بناء على ضغط والحاح وقعا عليه من جانب احد اقاربه ، وكان آنذاك موظفاً في سفارتنا في طهران .

التوقيف والاعتقال

بعد فشل ثورة ٢ ايار الوطنية ودخول الانكليز الى بغداد فاتحين ، وفي ركابهم الامير عبدالاله ، اصبح العراق تحت الاحتلال ثانية تدير شؤونه حكومات صورية لا تتحرك الا بايعاز من الانكليز ولا تبت في شيء الا بأمر السفير البريطاني ••• وكانت مع ذلك تتظاهر انها آمرة ناهية ، تعمل بوحي من المصلحة العامة ، مسترشدة بتوجيهات سمو الامير ! ••• بينما لا يهم هذا شيء بعد الان سوى الانتقام من الخصوم بأخس الطرق وأبشع الاعمال ••• وهكذا بدأت الشرطة العراقية القبض على الاحرار ، الذين عرفوا بصدق العزيمة وصادق الوطنية وزجهم واحدا بعد الاخر في السجون والمعتقلات تنفيذا لقوائم ترد من السفارة البريطانية !!

وكان يوم ١٦ ايلول ١٩٤١ يوم نحس علي ، فقد رجعت الى داري في حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر ذلك اليوم ، وفي اثناء نزولي من الباص صدمني من الخلف باص آخر طرحني على الارض وسبب لي خدوشا طفيفة في اصابع يدي اليسرى وجرحا غير بليغ تحت ركبتي اليسرى •••• ولما وصلت الى الدار وحاولت فتح باب الحديقة انحبس اصبعي بين البابين وسبب لي ألما مريرا •••قلت في نفسي هذه الثانية ، والله يسترنا من الثالثة ••• وبعد ان تناولت الغداء وتمددت على السرير لاخذ قسط من الراحة دق جرس الباب وركضت الخادمة وفتحته ، واذا بها

قد عادت فاقعة اللون وقالت بلسان متلعثم : شرطة في الباب ... اما انا فقلت في نفسي هذه هي الحادثة الثالثة ، والتفت الى زوجتي وقلت لها : هيا استعدي ... انهم جاءوا لتوقيفي واسرعت لمقابلة الزائرين ، فوجدت امامي احد معاوني الشرطة واسمه « صبري » ومعه مفوض آخر لا اتذكر اسمه ولكنني اعرفه شكلا ، فقد كان احـد طلابي القدامى في المدرسة الثانوية المركزية في بغداد سنة ١٩٢٧ ، وخاطبني المعاون قائلا : ان مدير الشرطة يريد مقابلتي بضع دقائق ؟.. ولكن الامر كان واضحا ، والمجرب خير من حكيم ، ذلك انني كنت تبلغت نفس التبليغ عندما اوقفت ونفيت الى قلعة صالح في سنة ١٩٣٨ ... ولما ركبت في السيارة لم اجد سائقها في محله ، فناداه المفوض ورأيته يأتي من خلف الدار ، والظاهر انه كان يراقب الدار من الخلف خوفا من احتمال هروبي منها ...

دخلت الى غرفة مدير الشرطة في مركز السراي ووجدت نفسي امام رجل حليق الرأس واللحية والشارب ، اسمر اللون ، اقرب الى القصر منه الى الطول ... لم ار الرجل من قبل ، وانما سمعت الناس يقولون عنه : انه حجازي اتى مع من اتى من امثاله من تلك الديار واستوطن في العراق محتميا بالبلاط ، ودخل الى خدمة الحكومة وتدرج في وظائفها حتى وصل الى مقامه هذا ... قابلني بابتسامة مريبة ، قائلا : « طالب بك ! ... آسف لقد تلقيت امرا بتوقيفك ... » اجبته حسنا ثم ماذا ؟ قال : تفضل الى الغرفة المجاورة وسيجري اللازم في امرك قلت : الا اتمكن من معرفة التهمة الموجهة الي ؟ . . قال : آسف لانني انا نفسي لا اعرفها لحد الان..

وبعد نصف ساعة أتاني المعاون صبري وفي يده مذكرة التوقيف ، وطلب الي ان اوقع عليها . ولما وقعت ، لاحظت انه ليس فيها غير اسمي وهويتي ولا اثر لاية تهمة موجهة الي ... وبعد ذلك اخذني احد الموظفين ومعه شرطيان ، بعربة الى الموقف المركزي في باب المعظم وجرى تسليمي هناك الى الضابط الخفر واسمه « شريف » وهو شاب من اهل الموصل ، وأمر هذا ان اؤخذ الى التوقيف ... قلت له : انني لم استصحب شيئا

مما احتاج اليه من فراش ولباس وغير ذلك واريد ان اقابل مأمور التوقيف لاكلمه بهذا الشأن ، فأجابني باسلوب سمج وخشونة وغلظة « من قال لك انه يريد ان يقابلك ؟...» قلت : العظمة لله ، وعسى ان لا يكون مأموركم هو الله نفسه ؟ ... لم يرد علي وانما نظر الي شزرا ، وكانت في نظراته معاني الوعيد والتهديد ...

ادخلت الى التوقيف من باب فولاذية ضخمة اقفلت بسلسلة كبيرة من الحديد ، تحمل في نهايتها قفلا ضخما يضيف الى رهبة الباب رهبة خاصة ... ووجدت نفسي في تلك اللحظة وسط جمع غفير من الناس في اشكال والوان مختلفة ، عرفت فيهم اكرام الربيعي المرحوم وبعض الشباب الذين سبق ان دافعت عنهم في المجلس العرفي العسكري ، وبعد ان رحب الجميع بي خاطبني احد الشبان قائلا : « اقسم لك بشرفي انني كنت منتظرا توقيفك بعد ان سمعت عرضيا محاورة تلفونيـــة جرت بين نائل عيسى احد موظفي التحقيقات الجنائية ، وبين مديره ... انهم كانوا يتكلمون في موقفك في الدفاع عن الطلاب امام المجلس العسكري ... وقال آخر : « كان الطلاب المحكوم عليهم يتكلمون عن دفاعك المجيد في قضيتهم بالمدح والاطراء ويظهرون تقديرهم لك بعرفان الجميل ... » قلت : شكرا لهم وها انني اتقاضى الان اجر ذلك الدفاع ... على انني شاهدت آثار الالم والتأثر مرتسمة في وجوه هؤلاء الزملاء الجدد وكأن غشاوة من الكآبة والحزن سترت هذه الوجوه التي كانت هاشة باشة قبيل ثوان معدودات ... « كيف أتوا بك الى هذا المكان يا استاذ ؟ .. اما كانت الشهامة والمروءة تستوجبان وضعك في محل يليق بكرامتك ومركزك ؟... تبا لهم من اوغاد قليلي الانصاف ضعيفي الوجدان ..» هكذا خاطبني احدهم ، وقال آخر : « واين ستنام هذه الليلة ؟ ... قلت : لا ادري ... قال: «اذا نمت معنا في هذه القاعة سترى العجب..» وقال ثالث : « ان هنا يا استاذ حوالي مئتي موقوف ، تأكد ان ما لا يقل عن ربعهم مبتلى بالامراض : داء الفرنج ، السيلان ، السل ، وغير ذلك ..

ان لدينا هنا مضمدا واحدا من اخواننا اليهود ، أتعرف اليهود يا استاذ ؟ انهم خير امة انجبت على الارض ... واذا طلب احد الموقوفين نقله الى المستشفى بقصد المعالجة فأمر ذهابه موكول بهذا اليهودي ، فاذا شاء سجل اسمه واذا أبى فله الامر الاخير ... واذا اخذته الشفقة وسجل اسم مريض ، بقصد ارساله الى الطبيب ، ينتظر بعد ذلك جواب الطبيب فاذا وافقه استقدمه واذا ابى بقي المريض يستجير بالله الواحد القهار ... وكثيرا ما يطلب موقوف معاينة طبية فلا يرسل الى الطبيب الا بعد ثلاثة او اربعة ايام ... قلت : سبحان الله ، وما هي التهم الموجهة الى هؤلاء الموقوفين ؟ .. قيل لي : القتل ، والجرح ، والضرب ، والسرقة ، والنهب، وفي ضمنهم عدد كبير من الابرياء الذين لا يدينهم لدى السلطات الحاكمة الا صدق وطنيتهم ومؤازرتهم حركة رشيد عالي الكيلاني المرحوم ، يضاف الى ذلك ان امامك ما يقرب العشرين شابا : فيهم التلميذ ، والموظف ، والتاجر ، والملاك .. وهؤلاء جميعهم متهمون بالانتماء الى جمعيتين : احداهما حزب الحرس الحديد والثانية جمعية الموت ..

كانت الساعة حوالي الرابعة بعد الظهر ، والحر قد بلغ اشده في هذه الغرفة التي جلسنا فيها في داخل الموقف تتجاذب اطراف الحديث ، والعرق يتصبب من جبيني ورقبتي ويؤلف سيولا صغيرة لم يكن في وسع منديلي ان يجففها ... صرت افكر في هذه الحالة المؤلمة : كيف جرى توقيفي ؟ ولماذا ؟ ... ما هي التهمة الموجهة ضدي ؟ .. ولماذا تتوسل الشرطة بطرق الاحتيال عندما تريد توقيف متهم سياسي ؟ .. لماذا قال لي معاون الشرطة عندما قابلته امام داري : ان مدير الشرطة يريد مقابلتي بضع دقائق ، ولم يكن صريحا يسلم لي مذكرة التوقيف ويطلب الي مرافقته الى مركز الشرطة ؟ ... انني في الحقيقة لا ادري لم تتوسل الشرطة بهذه الطرق المعوجة والتصرفات الرخيصة ولا تواجه الناس بالواقع ، وتبلغهم الاوامر صريحة واضحة وفق اصولها القانونية ؟ .. هل تخاف بطشهم وهم العزل وهي المجهزة بالسلاح ؟ او تخاف هروبهم وهي

تحيط بهم احاطة السوار بالمعصم ؟ .. انه الجبن والغباء والهواجس التي تحيط بهم من كل جانب وتعمي فيهم الابصار ... أيليق بشرف الحكومة ان يوقف متهم سياسي مثلي ، مع اكثر من مئتي شخص اكثرهم متهم بجرائم عادية ؟ ... وعدد كبير منهـم مبتلى بشتى العاهات ومختلف الامراض ؟ ... صرت افكر بما تنطوي عليه ضمائر رجال الحكم في هذا البلد ، اولئك الذين يسوغون مثل هذه الاعمال ضـد خصومهم السياسيين ، من غير ترو ولا تفكير ؟ أليس من الممكن ان ينقلب دوران الفلك ، او تجري الرياح بما لا تشتهي السفن وتنعكس الاية وينقلب المصير ؟ .. بأي وجوه سيقابل هؤلاء خصومهم عندمـا تحين ساعة الحساب ؟ ... وماذا يجدي الندم ساعة لا ينفع فيها الندم ؟ ...

وبعدما امضيت يومين داخل التوقيف العام (كالمتهمين بجرائـم عادية) سمح لي بالبقاء في الحديقة ليل نهار في خارج ردهات التوقيف ، وفهمت بعدئذ ان ذلك جرى بتوسط السيد علي جودة الايوبـي لدى حميد الشالجي المدير العام للسجون وقتئذ .. وكان هذا الترتيب نعمة كبرى بالنسبة لي لم اكن اطمـع في اكثر منها ... وفي صبـاح يوم الخميس الموافق ١٨ ــ ٩ ــ ١٩٤١ زارني اخي ادهم واخبرني ان الشائع عند الناس هو أن اسباب توقيفي تعود الى شدة دفاعي عن الطلاب في المجلس العسكري ، ثم تهجمي على اساليب دائرة التحقيقات الجنائية اثناء المرافعة . اما زوجتي فنقلت لي اخبارا على لسان العقيد مصطفى راغب المرحوم رئيس المجلس العسكري يستبان منها ان الرئيس نفسه لم يكن مرتاحا من دفاعي للاسباب التالية : (١) انني كنت ادافع بحماسة زائـدة وقناعة تامة عن مشروعية العمل الذي قام به الطلاب كأنني واحد فيهم او شريك او محرض ... (٢) يعتقد الرئيس ان هناك تقارير عديدة ضدي لدى الشرطة يستبان منها: انني احرض الناس ضد الحكومة القائمة، وادعوهم الى اقرار مشروعية الحركة التي قام بها رشيد عالي الكيلاني المرحوم (٣) يعتبرني الرئيس من المهوسين الذين ينتظرون من رشيد عالي الكيلانـي

وجماعته المكافأة والتقدير ، عندما يغير دولاب الفلك اتجاهه ويدور دورة لا يشتهيها الحكم الحاضر ... (٤) واخيرا يظهر ان سعادة رئيس المجلس مستاء من تطرقي الى المستعمرين واذناب المستعمرين في اثناء المرافعة ويعتقد سعادته ان الانكليز هم الذين خلقوا الحكومة العراقية ، فكيف يجوز تسميتهم بالمستعمرين ؟ ... ثم من اقصد بأذناب المستعمرين ؟ .. أوليس الرئيس ومن كان على شاكلته من الموظفين ؟ ... وقيل لي : ان الرئيس اردف قائلا : انه يستغرب ان ينجب والدي الهادىء الطبع ، البعيد عن القلاقل والمشاغبات ولدا مثلي متهوسا ومتهورا ... وقيل لي على لسان الرئيس ايضا : ان دائرة التحقيقات الجنائية طلبت صورة من دفاعي المحفوظ في المجلس العسكري ورفض اعطاءها اياه .

زارني سلمان الشيخ داود المحامي في احد الايام وانا في التوقيف المركزي ، وأكد لي ان موضوع اتهامي لا يتعدى أمر دفاعي عن الطلاب وان جميع التحقيقات ستدور حول دفاعي التحريري عنهم ... ولقد لامني على قبولي مهمة هذا الدفاع في مثل هذه الظروف الاستثنائية لا سيما وهناك شبهات تدور ضدي . قلت له : انني صاحب مهنة ، وصاحب المهنة لا يتملص من القيام بواجبات مهنته لدواع سياسية ، وكما ان الواجب الانساني يحتم على الطبيب ان يعالج مرضاه مهما كانت عواطفهم وميولهم كذلك المحامي لا يجوز له ان يرفض الدفاع عن متهمين يعتقد ببراءتهم مهما كان الدافع لاتهامهم ... ثم سألني : هل كنت اقوم بالدفاع بنفس الحماسة والاهتمام لو لم تكن القضية تتضمن الانحياز الى رشيد عالي وحزبه ؟... قلت : والله انني ادافع عن الحق ، وابذل الجهد لاعرى الباطل ، واظهره على حقيقته ، وسواء لدي أكان الامر يتعلق برشيد عالي ام بخصومه ؟..

وبعد ان امضيت عشرة ايام في هذا التوقيف ، خطر لي أن اكتب

الى مصطفى العمري المرحوم ، وكان آنذاك وزيرا للداخلية ، شارحا وضعي ومطالبا معاملتي معاملة موقوف سياسي • وكتبت له رسالة قصيرة قلت فيها : انني على كل حال لست بمتهم عادي ، واذا كانت هناك تهمة موجهة ضدي فهي سياسية في طبيعة الحال ، فلماذا احشر مع المتهمين العاديين من قتلة وسراق وقطاع طرق وغيرهم ؟•• وفضلا عن ذلك انني اعتبر من موظفي الدولة الكبار السابقين ،وعار على الدولة ان تسف هذا الاسفاف معي وتضعني في هذا المحشر •••

وفي نفس اليوم الذي ارسلت فيه هذه الرسالة (٢٥ ايلول ١٩٤٩) وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحا قيل لي : انني مطلوب الى مديرية شرطة بغداد ، وان مفوضا وعريفا ينتظرانني في غرفة مأمور السجن لاستصحابي الى هناك ••• لبست ملابسي وسرت اليهما،فاركباني في عربة من باب المعظم وسارا بي الى مركز شرطة السراي ••• ادخلت الى غرفة المعاون صبري عبدالله فحياني وأجلسني على كرسي موضوع بجانب مكتبه وامر مراسله ان لا يدخل عليه احدا لانه مشغول بتحقيقات سرية •• وفي اثر ذلك اخذ القلم بيده واخرج من بين الاوراق ، ورقة كان مكتوبا عليها اسئلة استحضرت من قبل لتوجيهها الي •• انني لا اتذكر حرفيا جميع الاسئلة المستحضرة ، وانما اذكر منها ما ملخصه : (١) انني اتهمت مؤسسات الحكومة بان الاعمال فيها لا تسير وفق المصلحة العامة ، وانالتحقيقات الجنائية استعملت شتى وسائل التعذيب لحمل الطلاب المتهمين بتأسيس الشبيبة الوطنية على الاعتراف ••(٢) هل اقصد بكلمة «المستعمرين» الحليفة بريطانية وبكلمة «اذناب المستعمرين» سمو الامير عبدالاله ونوري السعيد وجميل المدفعي وعلي جودة الايوبي وغيرهم من رجال الحكم الحاضر ؟ ••• (٣) ما هو رأيي في مشروعية وزارة رشيد عالي الكيلاني الاخيرة؟ ••(٤) كيف أدعي بان المنشور الذي نظمه المتهمون

من الطلاب الذين دافعت عنهم ، يحتوي على شعور وطني؟•• (٥) كيف أدعي في دفاعي بان المنشور المذكور لا يتضمن امورا يمكن اعتبارها تحريضا ضد بعض الطوائف في العراق ، مع ما فيه من تحريض صريح ضد الطلاب اليهود ؟ ••(٦) هل اؤيد ما جاء في هذا المنشور ؟•••

أجبت على السؤال الاول انني لم اقصد شيئا معينا ضد مؤسسات الحكومة ، وانما كان كلامي في معرض الدفاع لكي أوضح ان مؤسسات الحكومية لم تصل في طبيعة الحال الى درجة الكمال ، وان كثيرا من الامور تجري فيها خلافا لما هو مطلوب • اما ادعائي عن معاملة دائرة التحقيقات الجنائية فهي لا تخرج عن كونها تكرارا لبعض افادات أدلى بها الطلاب المتهمون انفسهم • وهي تتلخص في ان بعض موظفي التحقيقات قد ضربوا الطلاب واستعملوا معهم القسوة بقصد حملهم على الاعتراف ، وان جميع الاعترافات المدونة في الملفات انما جاءت نتيجة تعذيب لا يقره القانون •• اما ذكري كلمة «المستعمرين» فكانت في معرض الدفاع لابرهن على عدم وجود سوء النية في عملية المناشير ، حيث قلت : « لو جردنا المنشور من بعض عبارات السب والشتم على بعض الشخصيات ، لوجدنا فيه روحا طيبة تدعو الى الوحدة والتكاتف لمكافحة « المستعمرين واذناب المستعمرين» ، ومع ذلك فانني اقصد بكلمة مستعمر « كل دولة اجنبية تسيطر على شؤون امة اخرى سواء أكانت تلك الدولة «بريطانية» ام غير «بريطانية» • واما الاشخاص الذين قيل انني اقصدهم بكلمة «اذناب المستعمرين» ، فظن باطل بعيد عن الحقيقة لانني شخصيا مرتبط بصداقة مع جميعهم ••• واجبت على ما وجه الي في سؤال «ما هو رأيي في مشروعية وزارة رشيد عالي » ان تعيين مشروعية او عدم مشروعية الوزارات ليس من اختصاصي •••

واما في قضية التحريض ضد الطوائف ، فقلت : انني في الحقيقة لم أطلع على صورة المنشور الا عرضيا في اثناء المرافعة امام المجلس العرفي العسكري اذ كانوا، قد منعوا اتصالنا بالمتهمين في اثناء توقيفهم ، كما انه لم يسمح لنا بصفة كوننا محامين ، ان نطلع على الاوراق التحقيقية وغيرها لنلم بموضوع التهم الموجهة ضد موكلينا ، وعليه لم اتنبه قط الى العبارة الواردة في المنشور ضد الطلاب اليهود .. وعلى فرض اطلاعي على هذه العبارة ، فالامر لا يعتبر تحريضا ضد طائفة من الطوائف العراقية لان ما جاء في المنشور في هذا الموضوع لا يتعدى التنديد ببعض الطلاب اليهود الذين شجعوا حركة المشاركة في الامتحانات خلافا للاكثرية الساحقة من الطلاب الذين قرروا عدم المشاركة فيها ، وانني كمواطن عراقي لا احمل اي شعور بالكراهية والبغضاء ضد اية طائفة من سكان العراق . وفي جوابي على سؤال تأييدي لما جاء في المنشور او عدم تأييدي اياه ، قلت : هل يمكن لرجل يصف المنشور في دفاعه كونه «عملا صبيانيا قام به شباب عديمو الخبرة والتجربة» أن يؤيد ما جاء في محتوياته ؟...

* * *

نقلي الى موقف مديرية الشرطة

يظهر ان مصطفى العمري المرحوم وهو الصديق القديم ، تأثر مما جاء في رسالتي ، وامر بنقلي فورا الى مدرسة الشرطة ... ولما عدت من مركز الشرطة الى الموقف المركزي ، كان الجوع والاعياء قد اخذا مني مأخذهما ، وبعد وصولي بدقائق قليلة وصل غدائي من البيت وجلست التهم الطعام كجائع نهم ... ولم أكد اخلع ملابسي واتمدد على سريري حتى باغتني نداء : «طالب مشتاق الموقوف !...» صحت : حاضر افندم .. قالوا : هيا استعد ، لقد اتى اليك مفوض يطلبك مع كل حوائجك وفراشك ... واستبشر رفاق التوقيف وقالوا بصوت واحد : «افراج ، انشاء الله ..» اما انا فكنت اعلم علم اليقين ان الافراج عني امر مستحيل ، وان الامر لا يتجاوز نقلي الى مكان آخر نتيجة الكتاب الذي ارسلته الى مصطفى العمري المرحوم ، وفي الحقيقة كان الامر كذلك ... اخبرني السيد ابراهيم مفوض الشرطة ، ويظهر انه شاب دمث الاخلاق ، طيب السريرة انه قد صدرت الاوامر بنقلي الى موقف مدرسة الشرطة ... ولما وصلت الى مدرسة الشرطة استقبلني عدد من الشباب المثقف كانوا جميعهم موقوفين هناك بتهمة مؤازرة ثورة ٢ ايار ١٩٤١ وفي مقدمتهم فائق السامرائي .. وقد صاحوا كلهم بصوت واحد

ها .. جابوك ؟... اهلا وسهلا .. قلت الحمدلله الذي اوصلني اليكم في هذا النعيم ، وانقذني من نار جهنم في التوقيف المركزي العام . وصرنا تتكلم في مواضيع شتى ... وصرت أقص عليهم احسن القصص عما رأيت من مناظر والواح في التوقيف المركزي ، وقد اظهروا اسفهم على تلك المعاملة الجافة السمجة التي رأى (من اللياقة وحسن الادب) ان يعاملني بها المسئولون آنذاك فحشروني مع اولئك المتهمين من اصحاب السوابق كالقتلة والسراق وغيرهم ... والحقيقة انه لولا بضعة اشخاص هناك استطيع ان اقتل الوقت معهم في الحديث والقصص الطريفة لتعذرت الحياة لي في ذلك الموقف البغيض ... كان اكرام الربيعي الموقوف المرحوم يقص علينا نوادر طريفة من مغامراته وتجاربه في التوقيف ، وفي السجن ، وفي سفره الى البصرة ايام «الفتنة العمياء» (١) كما يسميها المتزلفون والمنافقون الذين يحرقون البخور امام رجال الحكم القائم .. وافجع قصة واغربها هي قصة هجوم وقع عليه وعلى رفيقيه : ابراهيم عودة ورجل تركي عندما كانوا في سيارة بالقرب من السدة في اخر الوزيرية ، ونزلوا منها محاولين الاختفاء عن بعض الطائرات الانكليزية التي كانت تقصف بعض المواقع العسكرية بالقرب من بغداد ، ورأى رجل هؤلاء الرفاق الثلاثة فاشتبه بهم وظنهم يعطون بعض الاشارات اللاسلكية الى الطائرات الانكليزية ، فهرع الى الناس يستنجدهم للفتك بهؤلاء الجواسيس .. وكان رصيد هذا الاستنجاد قتل الرجل التركي البريء ، وجرح كل من اكرام الربيعي وابراهيم العودة(٢) بجروح عديدة كادت تؤدي بحياتهما ... وهذا غازي ، واظنه كان طالبا في كلية الطب ، يتأوه ويتحسر ، لان السنة الدراسية ستضيع عليه وهو في داخل التوقيف من

(١) ثورة ٢ ايار ١٩٤١ الوطنية .
(٢) شاب محام من طلابي القدامى في المدرسة الثانوية المركزية في بغداد .

غير ان يعلم الذنب الذي ارتكبه ... ثم يشتد غيظه من حين الى آخر ويقول : « اتدري يا استاذ ؟.. لقد وضعوني في غرفة لا تتجاوز مساحتها السطحية مترين مربعين ... والله يا بيك كدت اختنق من ضيق النفس ، وكانت نزهتي الوحيدة التي تمكنني من استنشاق الهواء هي الفرصة التي أذهب بها الى بيت الخلاء!... اما ستار وهو طالب ثانوي ، فقد كان يقرض اسنانه من حين الى آخر ويقول ! آه ...(١) تايل ، استاذ ! هل تعرفه ؟ .. لا يمكن ان يكون هذا المخلوق بشرا ... انه ذئـــب مفترس بشكل بني آدم . والله يا بيك سمعته باذني يخاطب الطلاب قائلا: «لو كان في جسمي عرق شفقة واحد لقطعته بيدي ...» فهل بعد ذلك من شيء يا استاذ ؟ ... واما سامي داود ، وهو تلميذ ثانوي ايضا ، فكان اقل الموقوفين كلاما ، يصغي الي عندما اتحدث بانتباه شديد ودقة فائقة ويده على اذنه لئلا تفوته كلمة واحدة ، ومع ذلك فالابتسامة كـانـت لا تفارق شفتيه ، وتقاطيع وجهه تدل على سذاجة هذا الشاب ودماثــة خلقه ...

والجواهري الشاعر ... هدوء في وقار ، وجلد في رزانة ، ينتظر المصير بقوة قلب وايمان ... ولم تشغل باله الا «الوثبة» انها في الواقع مجموعة مقتبسات من الصحف ، ولكن فيها بعض تعليقات قد لا تغتفر؟.. ما رأيك يا استاذ ؟ هل في ذلك جريمة ؟.. فأجيبه : لا صلة للقانون في ماهية الاحكام في الوقت الحاضر ، ولا محل للمنطق في تكييف الاقدار .. انتظر واصبر واستقبل حكم القضاء في جلد وثبات ...

وصبيح نشأة ، كان مطربة الحي ، ولكنها تطرب ... أين انت يا

---

(١) معاون شرطة في التحقيقات الجنائية ، مات في مرقف السجن في اثناء محاكمات المهداوي.

صبيح ؟ اسمعنا صوتك يرحمك الله ، فيبدأ التغريد ••• ثم يقول : «انت احلق يا استاذ وانا اغني •• وهذا لعمري منتهى ما يمكن من الترفيه والترف في مثل هذا الموقف •••»

اما كامل الشيخلي ، فكان بعيدا عن كثير من المحاورات والمناقشات •• انه مشغول البال بمعالجة عينيه فقط • أين القطرة يا اكرام بيك ؟ دخيلك لا تهمل معالجتي •• واحيانا يصفق بيديه ، ويتحسر ، ثم يصيح : ويل للظالمين ، الظلم مرتعه وخيم !•••

ومن المؤسف انني لم أبق في مدرسة الشرطة مع فائق السامرائي واسماعيل الغانم المحاميين الصديقين لان الحكم عليهما بالحجر قد صدر قبل ثلاثة ايام من وصولي الى مدرسة الشرطة ، وانهما سفرا الى الفاو في مساء اليوم الذي نقلت فيه الى هذه المدرسة ولم أبق معهما في توقيفي الجديد والحالة هذه اكثر من سويعات معدودات •••

بقينا في مدرسة الشرطة سبعة موقوفين فقط بعد سفر الرفاق الى الفاو ، ناجي معروف وعبد الرزاق حمود المحامي ، وعبد الرحمن البسام ، وحميد رشيد المحامي ، وابراهيم شوكة ، وعبد الملك البدرى المحامي وانا •••

كنت ارى في التوقيف المركزي العام في باب المعظم ان الادارة تقدم للموقوفين الطعام ثلاث وجبات في كل يوم ، صباحا وظهرا ومساء ••• ففي الصباح يأتي بضعة مسجونين يسحبون عربات تحمل قدور الشوربة ، وفي الغداء يقدم التمر الزهدي مع رغيف من الخبز ، وفي العشاء توزع الخضرة تارة مع اللحم واخرى مع الرز • كانت هذه الاطعمة نعمة غير مرتقبة لمعظم الموقوفين لأنهم كانوا من الفقر بحيث

لا يجدون حتى مثل هذا الطعام في بيوتهم ، وقد سمعت باذني أن الكثيرين منهم يتمنون لو بقوا العمر كله في هذا النعيم من العيش : راحة تـامة بلا عمل ، ونوم هادىء نسبيا ، وطعام لا بأس فيه ••• وقد رأيت البعض من هؤلاء يستقبلون امر الافراج عنهم بفتور ويأس وخيبة أمل !•••

اما في مدرسة الشرطة فليس هناك ترتيب من هذا القبيل ، فلا طعام يوزع على الموقوفين وانما تعطى مخصصات يومية الى كل موقوف ••• وفي اليوم الثالث من وصولي الى مدرسة الشرطة اتى الي رجل يحمـل بيـده خمسة عشر فلسا وقال : هذه مخصصاتك لهذا اليوم يا بيك ••• فاندهشت وقلت : اية مخصصات هذه ؟•• التفت الرفاق الي وهـم يضحكون وقال احدهم خذها يا استاذ هكذا جرت العادة هنا : خمسة عشر فلسا يوميا لكل منا لقاء ما نستحقه من ارزاق !••• قلت حسن ، حسن جدا ••• ولكن اين مخصصاتي ليوم امس ؟••• قال : والله لا ادري • هذا هو كل ما ارسله « الياهو افندي » •• قلت : ومـن هو الياهو افندي هذا ؟•• فانبرى احد الرفاق وقال : هو رئيس عرفـاء في مركز السراي ويكاد يكون الكل في الكل هناك •• هو الآمر وهـو الناهي ، يعلم من امور المركز ما لا يعلمه حتى المدير نفسه ••• قلت : هذا والله هو العجب العجاب ؟••• ولكن اسمع يا عم •• اذهب فورا الى الياهو افندي وقل له : انني لا اسقط حقي من مخصصات الأمس • واريدها دون اي نقص ، وليرسلها الي فورا خمسة عشر فلسا بالتمام ، والا ساضطر الى تقديم شكوى خاصة الى وزير الداخلية نفسه •••

عند حاكم التحقيق

وفي صباح يوم السبت الموافق ٢٧ ـ ٩ ـ ١٩٤١ استدعيت الى الحضور امام حاكم تحقيق الرصافة ، وذهبت في صحبة مفوض وشرطي ، واخذت افادتي هناك من قبل جميل الاورفه لي الحاكم ، وكانت اسئلتـه شبيهة بعض الشبه بالاسئلة التي وجهت الي في مركز شرطة السراي ، واجبت عليها اجوبة شافية ... واخيرا قرر حاكم التحقيق الافراج عني بكفالة شخصية بمبلغ مئتي دينار ، فكفلني اخي ادهم بهذا المبلغ .. وبعد ذلك قال لي الحاكم : اذا صح ان هناك جريمة في دفاعك عن الطلاب فهي القذف لا اكثر ، ولا حاجة والحال هذه الى توقيفك ... هذا من حيث وجهة نظرنا ، اما من حيث وجهة نظر متصرف بغداد فالأمر يتعلق بـه وهو نفسه صاحب المرسوم ... قلت ما قيمة الكفالة اذا ؟.. وما قيمة القرار بعدم لزوم توقيفي ؟.. ضحك وضحكت وودعته شاكرا وعدت الى التوقيف ...

كان ابراهيم شوكة أضعف الموقوفين بيننا تحملا للمشاكل ، وكان متشائما ، يائسا ، وخائفا ... يتذمر ويشكو ، ويعلن براءته مما اسند اليه بمرارة وألم ... « هل يمكن لرجل مثلي يا ناس ان يلقي «بوتاسة»

على دار جاره[1] ؟ ثم اين كنت انا في ساعة الحادثة ؟ لم اكن انئذ في البيت ... والله كنت في السينما ولدي شهود رأوني في السينما في تلك الليلة ... اجبته مازحا : لا تتنصل من تبعة عملك بمثل هذه الادعاءات الفارغة ... ألم تكن انت في كتائب الشباب ايام «الفتنة العمياء» ؟ ألست انت كغيرك من الشباب المثقف من مؤيدي رشيد عالي الكيلاني المرحوم ومؤازري ثورته ؟.. ما المانع لشاب من هذا الطراز ان ينتقم لرفاقه الكثيرين الذين حكم عليهم المجلس العرفي العسكري ؟.. ثم لماذا تقول : «بوتاسة» ولا تقول : قنبلة ؟.. كن شجاعا وقف امام حاكم التحقيق واعترف قائلا « انا الذي رمى القنبلة على دار سعادة رئيس المجلس العرفي بدافع وطني وشعور قومي ..» فيبتسم ابراهيم عندئذ ويصيح باعلى صوته : دخيلك ... انت تريد سوقي الى المشنقة ... كفى .. كفى هذه النصائح والارشادات !...

هكذا كانت الحالة النفسية في ابراهيم شوكة عندما طلب معي في نفس اليوم الى حاكم التحقيق .. ذهبنا سوية في سيارة واحدة وافترقنا في الميدان ، ذهب هو بسيارة اخرى الى حاكم تحقيق الاعظمية ، واستمررت على طريقي الى حاكم تحقيق الرصافة ...

ولما عدت الى مديرية الشرطة فهمت ان حاكم تحقيق الاعظمية قرر اطلاق سراح ابراهيم شوكة بكفالة شخصية قدرها مئتا دينار ، وكان الرفاق جميعهم فرحين بهذه النتيجة مستبشرين بها ... اما انا فابتسمت ساخرا وقلت : اسمعوا يا اخوان ، ألم تقولوا انهم اطلقوا سراحه ؟ قالوا : نعم . قلت : اشهدوا على قولي جميعكم ، انهم سيعودون ويلقون القبض

---

(١) يقصد دار العقيد مصطفى راغب المرحوم حيث القيت عليها بوتاسة في اثناء قيامه برآسة المجلس العرفي العسكري ، وكان الدكتور ابراهيم شوكة متهما بالقائها ...

عليه بعد فترة وجيزة استنادا الى المرسوم ••• قالوا : لا نظن ذلــك ابدا ، فهل اصبح التوقيف لعبة صبيانية ؟ ••• ولم يمض على حديثنــا هذا اكثر من ساعة واحدة حتى قدم الينا مأمور مركز المدرسة بوجه حزين وقال : يا للاسف ، لقد القي القبض على ابراهيم شوكة مرة اخرى استنادا الى المرسوم ••• لقد اخبروني الآن تلفونيا ، وهو مقبل علينا بعد زمن يسير • « وجفل الجميع لهذا النبأ وصاح بعض الموقوفين : يا استــاذ ، أأنت رسول يوحي اليك أم ساحر تقرأ المستقبل بوضوح ؟•• قلت : ما انا بنبي ولست بساحر ، وانما اقرأ حوادث المستقبل في مرآة الماضي ••• وبعد نصف ساعة من هذا الحديث جاءنا ابراهيم يتهادى في مشيته ، حزينا كئيبا ، واخذ يقص علينا قصته ، قال : « اطلق حاكم التحقيق سراحــي بكفالة وكدت اطير من الفرح والسرور ••• دخلت الى بيتي واستقبلتني زوجتي بالترحيب والتهليل ، طوقتني ابنتاي واشبعتاني قبلا وعناقا ،وكانت عينا أبي مغرورقتين بالدموع فرحا ، وامي تسبح بذكر الله وحمده وتصلي على النبي مظهرة أرق عواطف الابتهاج بعودتي ••• وسرت في داخــل البيت حركة نشطة لتحضير كل ما يلزم لراحتي ، وصاروا يستعدون لتهيئة عشاء عائلي واكلنا هنيئا وشربنا مريئا ، وما هي الا ساعة واحدة حتــى طرق الباب علينا قادم ، واذا به مفوض شرطة مع شرطي مسلح •• خرجت اليهما استقصي الخبر واذا بالمفوض يقول : « والله يا استاذ ، لا ادري ماذا اقول ؟•• انقذنا الله من هذا الجور والظلم •• لقد صدرت مذكرة توقيف في حقك من المتصرف استنادا الى المرسوم ••• فدع الامر للــه الواحد القهار وسر معي الى مركز الشرطة •• انني اسف يا بيك ، ولكــن ماذا نعمل ؟•• اننا مأمورون ومن واجبنا أن نطيع الاوامر وننفذها •••»

عبد المجيد زيدان المرحوم يزورنا في الموقف

وفي اليوم التالي من حادثة ابراهيم شوكة من الله علينا بصديق زائر ، ارسله الينا ليسري عنا بعض همومنا بنكته الظريفة وقصصه الطلية ، ذلك هو عبد المجيد زيدان المرحوم ... « يا اخوان والله انا اغبطكم على هذه الحياة..انها حياة الرجولة والبطولة...ها هوذا معكم طالب مشتاق ، كم له من مواقف وطنية واعمال جريئة ؟.. انه من الاوائل السابقين في مضمار الوطنية ... الوطنية ؟ كم اصبحت رخيصة مبتذلة في هذه الايام ؟.. لقد كانوا نوادر جدا اولئك الذين يطلق الناس عليهم عنوان «وطني» ، وهذا طالب مشتاق ، اقسم لكم بشرفي انه يحمل هذا اللقب بجدارة واستحقاق منذ سنة ١٩٢٠ ايام الثورة العراقية ... اتذكر يا استاذ يوم القي القبض علينا سوية في حوادث المجلس النيابي عندما عرضت عليه المعاهدة البريطانية ـ العراقية ؟.. وكيف كنت انت في ذلك اليوم تحافظ سيارة ساطع الحصري وتشق لها الصفوف كي تخترق جموع المتظاهرين ؟.. آه ، كم هي جميلة تلك الايام ... ثم هل تذكر يوم دخلنا الى التوقيف ايضا ، بعد محاولة اغتيال عداي الجريان وسلمان البراك المرحومين ... ثم يلتفت الى اخواننا الموقوفين ويقول لهم : «انكم لا تعرفون بقدر ما اعرفه انا من اعمال طالب مشتاق في الحقل الوطني...

عندما ذهبت الى البصرة في سنة ١٩٢٤ كنت اسأل الناس في الطريق : « اين المدرسة ؟» واراهم ينظرون في وجهي حيارى لا يجيبون ••• ولما تكرر سؤالي الى عدة اشخاص من المارين اجابني من بينهم شخص نبيه :« ها ، عرفت ماذا تريد ، انك تسأل عن«الاسكول» اليس كذلك؟•• اجبته : نعم ، اريد ان اعرف مكان الاسكول ، وعندما وصلت الى باب المدرسة وجدت قد علقت لوحة كتب عليها بالانكليزية SIF Elemen Tary School وعلى نفس النمط كان عنوان دائرة المعارف نفسها : Area Education officer ولما عين طالب مشتاق وكيلا لمديرية معارف منطقة البصرة في تلك السنة ، استبدلت كل هذه العناوين باللغة العربية •••» • وهكذا صار يكيل المدح لي والثناء علي ، وبعد ذلك صار يقص علينا قصصا طريفة عن الماضي ويضحكنا تارة ويهيجنا اخرى •• ثم انتقل الى نفسه واخذ يسرد لنا مغامراته ومواقفه في اثناء الاحتلال البريطاني خلال الحرب العالمية الاولى الى ان وصل في حديثه الى قضية نفيه الى الهند ، وقال : لقد اوقفوني في بغداد ، ثم سفروني الى البصرة ، ومن هناك وضعوني في احدى البواخر الصغيرة بغية نفيي الي الهند ، وبعد ان تحركت بنا الباخرة استدعاني ضابط انكليزي وقفت امامه ، وصار ينظر الي من اعلى رأسي الى اخمص قدمي وقال : an Iraqi? Ha... a Political Prisoner ! agitator ثم مسكني من يدي وقادني الى حيث لا ادري ، واخذ ينزل ويصعد بي ويمر من طرقات ضيقة وغرف مظلمة الى ان وصل الى باب ضيقة • فتحها واشار علي ان ادخل ، فدخلت من الباب ولم اضع قدمي في الداخل الا وشعرت ان الباب سدت من خلفي بعنف •• اواه ••• ما هذا ؟ انها ليست بغرفة بل شيء شبيه بتابوت من حديد •• والله يا اخوان ليس في قولي هذا اي شيء من المبالغة ، انه تابوت طولاني اوقف عاموديا ••• حاولت ان

امد يدي فارتطمت بالجدار . اردت الجلوس على الارض فلم تمكنني الجدران الاربعة المحيطة بي ، كأنني كنت في داخل بئر لا نور فيها ولا هواء .. فتشت عن نافذة وذهبت جهودي سدى ... كدت اختنق من قلة الهواء ، وصرت أصيح باعلى صوتي ولكن ليس من مجيب ... وكان العرق يتصبب من جبيني ومن رأسي ، لا بل من كل مسامة في وجودي... يئست من الحياة وصرت استقبل الموت المحتم بذكر الله والاستنجاد برحمته ... كدت افقد عقلي ، وصرت اضرب على الباب بقبضة يدي ولكن هيهات ... لقد انقطعت عن العالم كله ، ولم اسمع الا هدير المكائن والآلات ، ولم أشم الا روائح كريهة عفنة كانت تضيق الخناق على نفسي ... واظنني بقيت على هذه الحالة ساعة واحدة من الزمن رأيت بعدها ان المفتاح يدور في حقل الباب والباب يفتح على مصراعيه وان صوتا يناديني ... Comon خرجت والعرق يتصبب مني كسيول متشعبة ، ورمقني الضابط بعينيه الحادتين وابتسم وقال : good اجبته : yes very good, Thankyou ولما سألت عن هذه الغرفة ، او القبر الموقت قيل لي : انها «غرفة الرياضة» وهي خاصة بتعذيب بعض المجرمين بقصد الزجر والارهاب .. تصوروا يا اخوان ، ما قاسيناه من عذاب في سبيل الوطن ، ولا تبالوا بما انتم فيه فان وضعكم هذا اذا قيس بما قاسيناه تكونون انتم في عيش رغيد ونعمة كبرى ... ولما ودعنا عبد المجيد زيدان المرحوم مستأذنا بالانصراف رجوناه وألححنا عليه أن يعيد زيارته لنا ، وان لا يغيب عنا طويلا . ولم يخب ظننا فيه فقد اعاد زيارته لنا في اليوم التالي ، وكانت بيننا وبينه احاديث طلية ، وفكاهات طريفة ، وقصص شائقة بعضها قد يضحك الثكلى ... ابتدأ كلامه بنتف عن الماضي ، والماضي لعبد المجيد زيدان المرحوم منبع ذكريات ما أجملها ، وصندوق حوادث ما أحلى سويعاتها .. « رجالنا كلهم في الحالة سواء ...

يعدون ولا يوفون ، ويقولون ولا يفعلون ••• وانت يا طالب لا تختلف عنهم في هذا المضمار ••• كم وعدتني في ما مضى ، انك اذا صرت مديرا عاما تأخذني سكرتيرا عندك ؟•• وقد رأيناك مديرا عاما للمحاسبات ، ثم مديرا عاما للدعاية ، واخيرا قنصلا عاما في فلسطين ، ولكنني بقيت كما انا ، لا زيادة ولا نقصان ، تارة معلما واخرى مفتش مدارس ابتدائية وسابقى هكذا الى يوم الدين ، قلت : ليس للمديرين العامين سكرتيريات وانما للوزراء فقط ، فانتظر اليوم الذي اصبح فيه وزيرا وعندئذ تنال مناك واكثر !••• ضحك ضحكة عالية حسب عادته وقال : «هذا ايضا وعد من طراز الوعود السابقة ، ومع ذلك ساسجله واذكرك به وانت على كرسي الوزارة انشاء الله •••» ثم صرت اداعبه قائلا : «اليس من العجيب ان لا تكون معنا الآن في التوقيف يا عبد المجيد ؟•• اننا لم نخطب في الراديو ، ولم نملأ اعمدة الصحف بالمقالات المثيرة المهيجة في ايام «الفتنة العمياء !» ومع ذلك ترانا رهن التوقيف ، ولا ندري ما يخبئه لنا القدر من سوء العاقبة والمصير ••• اما انت فخطبك الجهنمية لا تزال ترن في اذني ، وكنت اسمعها وانا في طهران ، وكانت تثير شعورا كامنا في صدري وتؤجج في قلبي نيران الثورة والانتقام ••• « صاح : « اسكت دخيلك ••• واخفض صوتك لئلا يسمعنا احد» (١) ، ثم ظهرت على صفحات وجهه علائم الرضى والابتهاج بما اعتلاها من ابتسامة وانشراح وقال : « حقا لقد كانت تلك الخطب جهنمية ، وكنت أشعر ان بركانا يقذف جحيما من فمي ••• آه ، لو نجحت تلك الثورة لما كنا اليوم في مثل هذه الحال ••• آه ، ما اخبث صاحب جريدة الزمان وما أشد لؤمه ••• انه لم ينشر شيئا من خطبي رغم ملاحقتي اياه والحاحي عليه •• كان يتجنب ذلك حفظا لخط الرجعة ••• اما تراه اليوم كيف

---

(١) لقد اوقف وسيق معتقلا المرحوم مع قافلتنا بعد ايام قليلة من هذا الحديث .

يدبج المقالات الطوال شارحا تلك الايام ؟ ••• الله كريم ••• الله كريم ••• لا بد ان الزمان يعود !••• « واخيرا قلنا له : انك شرحت لنا كيف كانت سفرتك عندما ابعدك الانكليز من بغداد الى الهند ، فهل لك ان تقص علينا كيف كانت عودتك الى بغداد بعد تأسيس الحكم الوطني فيها؟••• انتفض على كرسيه كمن يحاول استعادة ذكريات بعيدة ، ثم ابتسم وقال : قصة مضحكة مرت بي في اثناء العودة ••• صدر الامر بعودتي الى بغداد ، واركبت في احدى البواخر المتجهة الى البصرة ••• وبينما كنت منتفخا على كرسي ضخم في الصالون وقلبي مفعم بالسرور والحبور ، وافكر مفتخرا بانني ساصل الى بغداد كزعيم وطني عاد من منفاه بعد جهاد مرير •• واذا بضابط انكليزي دخل الى الصالون ، والتفت يمينا وشمالا حتى ارتكزت عيناه في عيني وصار يحدق بي ، ويتطلع في وجهي كمن يريد ان يلحق الاذى بي ••• ثم اخذ يخطو نحوي رويدا رويدا حتى وقف امامي وقال : هل انت عراقي ؟•• قلت نعم ••• قال : « ها ••• عراقي ••• قذر ••• اترى اصبعي هذا ؟ واراني اصبعا مبتورا في احدى يديه وقال : لقد فقدته في اثنا ثورتكم في العراق ضد الحكم البريطاني ••• قم اذا واكنس هذا الصالون •••» كانت صدمة لي غير منتظرة ••• وقفت على رجلي ولا ادري بماذا اجيب وماذا اعمل ؟ •• قلت له : انا» ؟•• قال : نعم انت ، هيا اسرع وامسك المكنسة بيدك واكنس هذا الصالون ••• قلت : عفوا هذا ليس عملي ، ثم انني لا احسن الكنس ولم يسبق لي ان كنست طول حياتي ••• قال هذا هراء ، يجب عليك ان تكنس ••• ولما رأى وضعي هذا بعض الحاضرين من الضباط الهنود قام احدهم واخذ المكنسة بيده وقال لي مازحا : هكذا يكنسون ، وصار يعلمني طريقة الكنس ، ثم اخذ الضابط الانكليزي المكنسة بيده واخذ يعيد ما قاله وفعله الضابط الهندي ، وصاح بحدة : هيا ابدأ الكنس دون أي توان ••• اصبحت تجاه امر واقع ، خفت اذا انا رفضت الكنس

ادخلني هذا الضابط الفظ غرفة الرياضة التي جربت اهوالها في اثنـــاء سفري من البصرة • وتناولت المكنسة بيدي وكنست الصالون من اوله الى آخره ••• وعندما انتهيت منه خرجت من الصالون ولم اعد اليـه الى ان وصلنا الى البصرة »••• ضحكنا من هذه القصة ضحكا طويلا ، ورجونا عبد المجيد المرحوم ان يأتينا بقصة اخرى من هذه القصص الطريفة فقال : والله لا اتذكر شيئا مهما ، ولكن اذا اردتم احكي لكم كيف كنـا نعيش في سجننا في الهند ••• قلنا: هيا ابدأ ••• ان ذلك يفيدنا ، ومن يدري ؟ ربما يكون ذلك السجن من نصيبنا ايضا عما قريب ••• وصار يقص علينا : «والله كنا مرتاحين في داخل السجن ••• والسجن عبارة عن قرية صغيرة محاطة بالاسلاك الشائكة ، فيها ابنية عديدة وكان قد خصص واحد منها لاقامتنا • ولكل منا في البناء غرفة خاصة به ، أمامها ايوان بطراز الايوانات والغرف المحيطة بصحن مسجد الامام موسى الكاظم في الكاظمية•••ولكل سجين سياسي خادم هندي يكون عادة من المحكوم عليهم بالسجن••• اما الارزاق فتوزع علينا بوساطة المتعهد في صباح كل يوم رز،: حطب، خضرة فواكه، سكر، شاي، نفط، سكاير ••• ونحن مكلفون بالطبخ،لكن الخادم عادة كان يقوم بهذه المهمة،والشاي والسكر يوزعان علينا بكميات اكثر من حاجتنا • وكان طبيب السجن الهندي يستجدي منـا سكرا وشايا ، وكنا نزوده في كل يوم بكميات لا بأس بها ••• ولقاء هذا السخاء من لدنا كان بدوره يكتب لنا وصفات يوصي فيها بمنحنا ارزاق خاصة كالدجاج مثـلا ، فكنا وكأنـنا نستبـدل معه السكـر والشاي بالدجاج ••• وكان موظفو السجن يحاولون كسب رضانا ويعملون كل شيء في سبيل راحتنا ••• ويرجع سبب ذلك الى ان حاكم المقاطعــة كان يزورنا مرة كل اسبوع مستفسرا عن حالتنا سائلا عما اذا كانت لدينا اية شكوى من معاملة الموظفين ••• وحدث مرة ان اضرب عن الطعام الشيخ محمود الزعيم الكردي المشهور فقامت الدنيا وقعدت في ادارة

السجن وعملوا المستحيل لاسترضائه ... اما الملابس فكانت تعطى لنا مخصصات سنوية بدلها تقدر بستة وثلاثين روبية . وعلاوة على ذلك كان يسمح لنا تحت مراقبة الحراس بالتمتع والتنزه ساعتين يوميا في الهواء الطلق بين الازهار والرياحين في حديقة عامة تقع على مسافة ثلاثة كيلو مترات عن سجننا ... وفي هذا السجن استطعنا ان نكون فكرة عامة عن اذلال الهنود على يد المستعمرين البريطانيين ... ان ملاحظ السجن كان بريطانيا يقيم في بناية خاصة في خارج السجن لا تبعد عنه اكثر من ٢٠٠ أو ٣٠٠ متر ... ولما يغادر داره صباحا في طريقه الى مكتبه في السجن يعلن ذلك ببوق ينفر فيه احد الحراس الهنود ، وعندئذ يكون على كل موظف في داخل السجن ان يقف على قدميه منتظرا قدوم الملاحظ البريطاني ... وقد صدف ان كنت يوما في غرفة ادارة السجن وضرب البوق ، ولشد ما كانت دهشتي عندما رايت جميع الموظفين قد وقفوا وقفة الاحترام ، ولما سألت السبب ، قيل لي ان الملاحظ قادم .. وبقي الموظفون في وقفتهم هذه ثلاث دقائق بالضبط ، وعادوا الى اماكنهم بعدما دخل الملاحظ الى مكتبه ... وهنا انتهى حديث عبد المجيد زيدان المرحوم وقال: ألا يكفي ؟ قلنا : والله انها احاديث طلية وليت ادارة السجون عندنا تتعلمها وتحسن المعاملة مع الموقوفين السياسيين على الاقل ، ورجاؤنا منك ان تذهب الى وزارة الشؤون الاجتماعية وتقص عليها حديث الارزاق ، علها تعيد النظر في مخصصاتنا اليومية البالغة خمسة عشر فلسا لا زيادة فيها ولا نقصان .

محاكمة البعض من الزملاء الموقوفين

وفي صباح ٣٠ ايلول ١٩٤١ سيق كل من الرفاق : ناجـي معروف ، عبد الرحمن البسام ، حميد رشيد ، عبد الرزاق الحمود ، عبد الملك البدري الى المحاكمة امام متصرف بغداد ... وقبل ان يغادروا مدرسة الشرطـة وقفوا امامي وقالوا : انك قبل ايام قليلة تنبأت في قضية ابراهيم شوكـة وصح تنبوءك ، فما رأيك في قضيتنا اليوم ؟.. قلت : ستعودون الى هنا دون اية نتيجة ... وعندما عادوا الينا قبيل المغرب بادروني بقولهم : زاد ايماننا بتنبؤاتك ، وزادت ثقتنا باصالة ارائك ... ها اننا عدنا كما ذهبنا ، لا محاكمة ولا سؤال ولا استجواب ... قلت : اذا (تيتي ، تيتي مثل مـا رحت مثل ما جيت)

وفي اليوم التالي سيقوا ثانية الى المحاكمة وقد ذهبوا مبكرين (اي منذ الساعة التاسعة صباحا) وبقى معـي الاستاذ ابراهيم شوكـة فقط . وانتظرنا اصحابنا حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ولم يعودوا ، ولم يردنـا اي خبر عنهم ... وقال ابراهيم : اغلب الظن ، ان القرار قد صدر بالافراج عنهم وذهبوا الى بيوتهم مسرعين دون ان يمروا بنا ؟.. قلت : يترآى لي انك حسن الظن كثيرا بسجايا رجالنا المسؤولين ... قال : وهل ترى غير

هذا الراي ؟ قلت : اظن انهم لا يزالون في انتظار المتصرف الذي قد يكون مشغولا بامور اخرى اكثر اهمية في نظره من محاكمة مثل هؤلاء الشباب المشاغبين المغامرين ... قال : والله انني ذاهب لاستفسر عنهم تلفونيا ، ولما عاد قال : حقا يا طالب انك من اصحاب الكرامات ولا تتكلم عن الهوى وانما بوحي يوحى ؟... قلت : خيرا انشاء الله ... قال : انهم حتى الان في انتظار المتصرف ، وقد بلغوا الان بتاجيل المحاكمة الى يوم الغد وهم في طريقهم الينا ... ولما عاد الرفاق وقص عليهم ابراهيم شوكة ، ما جرى بيننا من الحديث حول محاكمتهم قالوا : يشهد الله اننا بك لمؤمنين وباقوالك لمن المصدقين ...

وفي صباح ٢ تشرين اول ١٩٤١ سيق اولئك الرفاق الخمسة الى المحاكمة للمرة الثالثة ... ووقفوا امامي يتساءلون : هيا يا استاذ انبئنا المصير في هذا اليوم ... قلت : سيطلق سراح البعض منكم ، ويحكم على بعضكم بالحجر ويعود الى زمالتنا هنا ... ولما عادوا الينا قبيل المغرب فهمنا : انه اطلق سراح عبد الرحمن البسام (دون قيد وشرط) اما حميد رشيد فاطلق سراحه بكفالة ، وحكم بالحجز على عبد الرزاق الحمود ، واجل النظر في محاكمة ناجي معروف وعبد الملك البدري ...

وبعدما بقينا في مدرسة الشرطة حوالي ٤٥ يوما واذا بقافلة كبيرة من خيرة رجال البلد ومثقفيه تصل الينا تحت حراسة مشددة وصدرت الاوامر الينا بعد وصول هذه القافلة بان نستعد للسفر في نفس اليوم بالقطار الى البصرة ، فارتبكنا واخذت الهواجس تقلقنا ، فمنا من يقول : انهم سينفوننا الى الهند ، ومنا من يجزم بان مستقرنا سيكون الفاو ، ولا اكثر من ذلك ..

وصرنا تتهافت على التلفونات نخبر عوائلنا بهذا القرار ونطلب استحضار بعض حاجاتنا الى المحطة في الوقت المعين لسفر القطار ...

كان عددنا على ما اظن لا يقل عن ٧٥ شخصاحشرنا حشرا في عربة من الدرجة الثالثة فكان قسم منا يجلس على الارض : والبعض يشرك صديقا له في مقعده فيجلس اثنان على مقعد واحد ، والبعض الاخر يقف على رجليه ، وكانت ليلة تعساء لم نذق فيها نوما او راحة الى ان وصلنا الى البصرة من بعد ظهر اليوم التالي من مغادرتنا بغداد ...

* * *

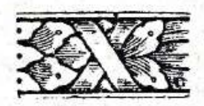
تسفيرنا الى الفاو

وبعد استراحة قليلة في محطة البصرة اخذنا الى السجن المركزي فيها وبقينا هناك مدة قصيرة نقلنا بعدها بباصات صغيرة وكبيرة الى الفاو ...

وضعنا في الفاو في مجموعة من الدور محاطة باسلاك شائكة ، وكانت هذه الدور قد انشأت خصيصا لعمال الميناء وكل واحدة منها تتكون من غرفتين ومشتملات لا بأس بها . انقسمنا الى مجموعات متجانسة ، كل مجموعة منها تتألف من اربعة او خمسة اشخاص ، واختصت كل واحدة من هذه المجموعات بدار واحدة ... ان اكثر ما كان يزعجنا ويضايقنا في معتقلنا الجديد هو الماء ، فقد كان يأتينا بواسطة انابيب من شط العرب ، وماء شط العرب في منطقة الفاو مالح (مج) تعافه النفس ولم نكن نستطيع تجرعه الا بعد خلط كمية كبيرة من الثلج معه ... وكانت ادارة الميناء تتحفنا في كل يوم بكميات وافية من الثلج تخفيفا لبلوتنا بهذا الماء المالح .. وحل الشتاء وكان شتاء باردا زمهريرا خلافا لما يعهده اهل الفاو ... لقد تجمدت المياه وانفجرت انابيبها وهطلت الامطار بغزارة لم يعرفها سكان الفاو من قبل ،واخذت سقوف بيوتنا تخر علينا،واصبحنا نعيش وكانا نطوف على سطح بحيرة ... وقد قيل لنا : ان الفاو لم تشهد مطرا قبل الان بهذه

الغزارة ولا يتذكر احد من اهلها ان المياه جمدت بهذا الشكل الغريب ..
وقد كنا نتمتع بقدر محدود من الحرية في معتقلنا هذا ، وكنا نذهب جماعات
بحراسة الشرطة في صباح كل يوم الى مركز الناحية ، وتبعد عنا حوالـي
ثلاثة كيلو مترات او اربعة على الاكثر ، اما بحجة مراجعة المستوصف او
لشراء بعض الحاجات .. وعلى كل حال كنا نفيد من السير على الاقدام ،
ونكحل نواظرنا بغابات النخيل الزاهية ومناظر الشط الخلابة ، وبذلـك
نحاول تخفيف شيء مما ألم في انفسنا من الم دفين وما استولى على افئدتنا
من غم عميق ... انني كنت اشكو منذ زمن طويل ، من سوء الهضـم
وحموضة المعدة التي تلازمني بعد كل وجبة طعام ، وهذا الماء المالح الاسن
الذي اضطررنا الى شربة زاد في حموضة معدتي وصرت اشعر بوطأتهـا
بشكل اليم ... وبعد التامل والتفكير قررت ان ابذل كل جهد ممكـن
للابتعاد عن الفاو ، ولم اجد وسيلة تمكنني من ذلك الا ان امثل دور مريض
مصاب بداء وبيل يستلزم نقله الى المستشفى على عجل ، وتمددت عـلى
السرير وصرت ائن واتلوى ، ولما استخبر أمر المعتقل وضعي اسرع الـي
وحينما راني على تلك الحالة اتصل تلفونيا بمتصرف البصرة وكان يومئذ
عبد الحميد عبد المجيد المرحوم وطلب موافقته على نقلي الى مستشفـى
البصرة . وهكذا وبعد اقل من ساعتين نقلت بالسيارة الى مستشفى البصرة
حيث بقيت فيها اكثر من عشرين يوما وكان قد سبقني الى هذه المستشفى
صديقي العزيز جمال المفتي المرحوم ، فامضينا اياما مريحة للغاية وكنـا
نقضي اكثر اوقاتنا في سجن البصرة ، الذي يقع امام المستشفى تماما فـي
زيارة ضابطين وطنيين كريمين هما : محمود الدرة وعامر حسك ، وكـان
كل منهما محكوما عليه بالسجن عدة سنين لمشاركتهما في ثورة رشيد عالي

الكيلاني المرحوم ايضا ••• واخيرا انتهت معالجتي في المستشفى وتقررت اعادتي الى معتقل الفاو فوصلـت اليهـا وانا منقبض النفس ، مبتئس ، مغموم ••• ولكن ما حيلتي ؟ كان علي ان استسلم للامر الواقـع واكيف نفسي حسب المحيط واعيش كزملائي الراضخين لارادة الله المنتظريـن ساعة الفرج بارادة الله •••



نقلنا الى العمارة

امضينا في الفاو اكثر من ستة شهور علا فيها صراخنا وكثرت شكاوينا وازدادت مراجعة ذوينا لرجال الدولة مطالبين بنقلنا الى مكان اخر يكفل راحتنا قدر الامكان ولا يكون نائيا عن بغداد ••• وكانت التوقيفات في تلك الايام مستمرة وعدد المعتقلين يترداد يوما بعد يوم ، ففكرت الحكومة ان تجمع كل المعتقلين في مكان واحد ولم تجد مكانا يكفل هذا الغرض خيرا من مقر حامية العمارة ••• وتم نقلنا الى معتقلنا الجديد في يوم من اشد ايام الصيف حرارة ، يوم مغبر خانق ••• ومع ذلك كنا فرحين مستبشرين بايامنا القابلة لا سيما وقد تخلصنا من ماء الفاو (المج) الثقيل وصار في امكاننا ان نرتشف ماء دجلة العذب الرقراق •••

قسم المعتقلون في معتقل العمارة الى درجتين : الاولى والثانية ، وكانت تدفع الى معتقل الدرجة الاولى مخصصات يومية نقدية قدرها اربعمائة فلس، والى معتقلي الدرجة الثانية مئتان وخمسون فلسا•••وصار عدد المعتقلين يزداد في المعتقل يوما بعد يوم حتى وصل الى سبعمئة وخمسين شخصا ، وكان عدد المعتقلين من الدرجة الاولى ضئيلا لا يتجاوز ١٥ معتقلا ، كنت احدهم وقد خصصت غرفة خاصة بكل واحد من معتقلي الدرجة الاولى • اما معتقلو الدرجة الثانية فوضعوا في ردهات (بنكلات)

كبيرة يتسع كل منها لعدد كبير من المعتقلين ، ولما ازدحمت هذه الامكنة واصبحت لا تؤمن راحة ساكنيها اضطر عدد كبير من المعتقلين الى ان ينشئوا صرائف مستقلة من القصب والحصران على حسابهم الخاص تامينا لراحتهم فيها ... وقد خصصت ادارة المعتقل عددا من الخدم يقومون بتنظيف الغرف والردهات ويساعدون المعتقلين على شراء ما يحتاجون اليه من مواد غذائية وغيرها من الضرورات من اسواق العمارة ...

ان اول ما فكرت فيه بعد وصولي الى العمارة هو نقل عائلتي اليها وقد تم نقلها فعلا بعد وصولنا بايام قليلة ، وقد انتظمت حياتي تماما بعد وصول عائلتي واستقرارها في العمارة ، واصبح طعامي مؤمنا على احسن وجه ، وغرفتي قد فرشت بشكل مريح ، وملابسي تغسل وتكوي بانتظام ، واطفالي يزورونني في كل يوم ، وقرينتي تأتي بطعام الغداء في ظهر كل يوم جمعة وتتغدى سوية مع اطفالنا في غرفة خاصة في داخل المعتقل ، وهكذا اصبحنا نعيش حياة رتيبة ، لكنها مستقرة مريحة... كانت المشكلة الوحيدة التي تضايقني في داخل المعتقل عدم وجود اي حمام فيه .. وكانت مجاري المياه القذرة مفقودة ايضا ، والمراحيض قذرة تتقزز النفس منها ... وقد استحضرت من البيت جهاز (بريموس) للتسخين وصفيحة (تنكة) للماء وصرت احمي تنكة الماء على (البريموس) واجلس في (الطشت) واستحم وبهذه الصورة اجتزت هذه المشكلة ايضا ... وبعد عدة اشهر من اقامتنا في المعتقل شيدت الحكومة لنا حماما جيدا للغاية ، لا يقل عن حمامات السوق العادية ، تحمى بالنفط ... وتعهد بترتيبه احد الاذكياء من المعتقلين ، وهو شرطي سابق اسمه محيي وصار يقوم بتنظيفه ومداراة المستحمين لقاء (بخشيش) زهيد ، وقد فهمت ان هذا المعتقل الذكي جمع مبلغا يزيد على اربعمئة دينار من عمله هذا وكون منها رأس مال لا بأس فيه بعد اطلاق سراحه ...

كنا في الفاو ، وعددنا لا يتجاوز ٧٥ معتقلا ، ممن سبق لهم الاشتغال في السياسة ، او المشاركة في حركة رشيد عالي الكيلاني المرحوم او ممن آزورا هذه الحركة بشكل من الاشكال ... اما في العمارة فاصبحنا خليطا عجيبا غريبا ، فينا السياسي ، والوزير ، والنائب ، ورؤساء العشائر ، والموظفون الكبار ، وفينا اناس متهمون بالسرقة ، او القتل او جرائم اخرى لم تثبت عليهم في المحاكم لنقص الادلة ضدهم ... وفضلا عن ذلك فان الانحلال الخلقي قد تفشى في المجتمع العراقي بشكل فظيع في تلك الايام ، ولم تبق قيمة للمقاييس الاخلاقية عند الناس ولا وازع ديني يمنع ضعاف النفوس من الانتقام من خصومهم بشتى التهم ومختلف الاسانيد ، فالذي يماطل في تسديد دين عليه ، او يريد التخلص من مضايقات الدائن يدس على الاخير لدى سلطات الامن بانه فعل كذا وكذا في ايام ثورة ٢ ايار وانه كان من موآزريها ، ومدير الشرطة او المتصرف او اي شخص آخر من رجال الادارة والامن اذا غضب على اي فرد من الناس قال عنه : انه نازي ، وهذا يكفي لزج المنكود الحظ في المعتقل دون سؤال او جواب ... ومعظم المعتقلين الذين امضوا سنوات عديدة في الاعتقال دخلوا الى المعتقل وخرجوا منه وهم لا يعرفون التهمة الموجهة اليهم ولم تؤخذ افادتهم او يوجه اليهم اي سؤال كان من قبل سلطة قضائية او من الامن العام ... وانا نفسي امضيت اربع سنين في معتقلات مدرسة الشرطة والفاو والعمارة وسامراء ولم يقابلني خلال هذه المدة احد من رجال الحكومة عدا مرة واحدة زارني فيها الكولونيل سارغن في غرفتي في معتقل العمارة ، وكان آنذاك (اذا لم تخنني الذاكرة) مفتشا في مديرية شرطة البصرة ، واخذ يحادثني في كيفية اعتقالي ويسألني الاسباب التي دعت الحكومة الى اتخاذ هذا الاجراء معي ، وكان حديثه شفهيا وخاليا من اية صبغة رسمية .

كان المعتقل قد انشىء في الضفة الغربية من نهر دجلة على ارض

سبخة ، قاحلة لا اثر للخضرة فيها بعيدة عن العمران ، محاطا باسلاك شائكة عالية وحواجز عديدة وهذا مما جعل التوتر العصبي ظاهرة بارزة في معظم تصرفات المعتقلين ٠٠٠زد على ذلك سؤ ادارة المعتقل والاستفزازات التي كانت تتقصدها لأثارة المعتقلين ، او مس كراماتهم ٠٠٠ فيصدر مثلا آمر المعتقل على حين غرة ودون سابق انذار امرا يمنع فيه الخدم من القيام بشراء ما يحتاج اليه المعتقلون من اسواق العمارة ، وآمر المعتقل يعرف في طبيعة الحال ان المعتقلين يتقاضون مخصصات يومية نقدية ، واذا منع عنهم التسوق بوساطة الخدم فمن الذي يؤمن لهم حاجاتهم من المواد الغذائية ، وهم انفسهم ممنوعون ايضا من الخروج الى خارج الاسلاك حتى ولو كان ذلك تحت حراسة الشرطة ؟ ٠٠٠ ويمنع احيانا هذا الآمر دخول الخدم انفسهم الى داخل المعتقل ، وهؤلاء هم مستخدمون تدفع رواتبهم من خزينة الدولة ومكلفون بالعمل في المعتقل للقيام باعمال التنظيفات وخدمة المعتقلين ، فبأي حق يمنع آمر المعتقل دخول الخدم الى المعتقل؟٠٠ ان عددا كبيرا من المعتقلين استقدموا عوائلهم الى العمارة واسكنوها فيها ليكونوا على مقربة منهم ويخففوا عنهم وطأة البعد والام الفراق ، وكان اولاد المعتقلين يسرحون ويمرحون في داخل المعتقل يدخلون اليه أني شاؤا ويخرجون منه متى أرادوا ٠٠٠ اما العوائل فتخصص لهم اياما للمقابلة، وكان المعتقلون مكتفين بهذا القدر من المساعدات ولا يطمعون في اكثر منها ٠٠٠ ولكن آمر المعتقل (٠٠٠) عندما يغضب لسبب من الاسباب، حتى وان لم تكن له علاقة بالمعتقل والمعتقلين ، يأمر الحراس ان لا يسمحوا لاولاد المعتقلين بان يدخلوا الى المعتقل ، وعند ذلك تثور ثائرة المعتقلين ويشتد الغضب ويكثر السب والشتم على رجال الحكومة وغير ذلك من التصرفات التي سببت كثيرا من الحوادث المزعجة التي أدت بدورها الى سوق بعض المعتقلين الى المحاكم والحكم عليهم بالسجن ليقضوا بعض الاسابيع او الاشهر في سجن العمارة ٠٠٠ على ان التوتر

العصبي بين المعتقلين كان احيانا يسبب منازعات ، ومشاجرات بينهم انفسهم آلت في بعض الاحوال الى معارك بالعصى .

اوفد عبد الرزاق عدوة متصرف اللواء يوما مدير التحريرات الى المعتقل ليستمع الى شكاوى المعتقلين ومقترحاتهم ومطالبهم ، فانهالت عليه الشتائم والسباب من كل جانب دون أي مبرر ، ومنذ ذلك اليوم اصبح عبد الرزاق عدوة عدوا لدودا عند المعتقلين ، وخائنا لئيما ، ومارقا اثيما ... ويشهد الله انني لم ار منه عملا شائنا او تصرفا ضارا يستوجب كل هذه النقمة عليه . وانما كان يقوم باعماله كموظف مسئول ضمن حدود الواجبات المترتبة عليه في مثل تلك الظروف ... وبهذه المناسبة اود ان اذكر صالح داود ، احد ضباط الشرطة الذين تولوا آمرية المعتقل مدة قصيرة ، بالثناء والتقدير لما اتصف به من اخلاق عالية ، وروح انسانية سامية ، وادب في القول وكياسة في العمل ، وارجو له التوفيق والنجاح اينما كان في الوقت الحاضر ...

وكذلك ارى لزاما علي ان أخص عبد الجبار صدقي المرحوم وكان آنذاك مديرا لشرطة العمارة ، بالحمد والمنة لما كان يبديه من ضروب النخوة والشهامة تجاه المعتقلين ، فكان يزور المعتقلين في غرفهم ، ويتفقد احوالهم، ويسألهم حاجاتهم ، ويبذل كل جهد ممكن في تطمين رغباتهم وكان يحمل اليهم في كثير من الاحيان الهدايا المختلفة يتحفهم بها هاشا باشا ، يوءاسيهم ويخفف من وطأة مصيبتهم ومحنتهم ...،

حريق في المعتقل

وفي أحد الايام ، وعلى حين غرة ، لم نر الا والصرائف تشتعل ولهيبها يتصاعد في داخل المعتقل ، وهرع المعتقلون يتراكضون نحو الباب يدفع بعضهم بعضا طلبا للنجاة اما الحراس فاقفلوا الباب واشهروا السلاح ومنعوا اي معتقل ان يتخطى عتبة الباب •• وبينما نحن في تلك الحال واذا بافواج من الناس تتراكض قادمة من مدينة العمارة ظانة ان الحكومة عمدت الى هذا الحريق لتقضي على المعتقلين وتتخلص منهم • وقد لاحظت وانا خلف الاسلاك الشائكة ان قرينتي تركض حافية القدمين نحو باب المعتقل ومعها اطفالي الاربعة يصرخون ويبكون بشكل يفتت الاكباد ، فصرت اناديهم باعلى صوتي مطمئنا اياهم ومخففا من فزعهم ومؤكدا ان لا موجب للاضطراب ••• ان اهالي العمارة اتهموا الحكومة بتدبير الحريق ، والمعتقلين قالوا : انه بايعاز من عبد الرزاق عدوة المتصرف ، اما الحقيقة فتكمن في اهمال وقع من عبد الحميد زيدان المرحوم الذي ترك (البريموس) يشتعل في داخل صريفته وخرج ، فلهب (البريموس) فجأة وتناول اللهيب الحصران فاشتعلت وسرت الى ما جاورها من الصرائف •••

حادثتان طريفتان

لا اغالي اذا قلت انني كنت في معتقل العمارة ، من اسعد المعتقلين حظا واحسنهم حالا ، فعائلتي تسكن في العمارة وأجتمع باولادي في كل يوم ، حتى ان واحدا من ولدي كان ينام حتما معي خلال العطلة الصيفية . فتارة يقضي حازم اياما بلياليها ، وبعضا يبقى باسم عندي عدة ايام ، وكنت أنسى اثناء وجودهما معي كل هموم الدنيا واستخف بكل المحن والمصائب .. وفي يوم من الايام زارني في غرفتي السيد كاطع العوادي المرحوم ،وقدمت له بعض الحلويات المرسلة الي من بغداد واكل منها هنيئا مريئا ، وكان ولدي باسم معنا عند ذاك ، فلما انتهى السيد كاطع من الاكل وقف على قدميه ومد يده الى فمه واخرج طقم اسنانه واخذ يغسله في المغسلة وباسم يمعن النظر فيه بكل دقة واهتمام ، وبعد ذلك ودعنا وعاد الى غرفته ، ولم يكد يتخطى المرحوم عتبة الباب حتى ركض باسم الي وقال : هيا ، يا بابا اخرج اسنانك انت ايضا كي اراها فقلت له : هذا ليس بالامكان يا ولدي لأن اسناني ثابتة لا يمكن اخراجها مطلقا ... وعبثا حاولت اقناعه وصار يصرخ

ويبكي قائلا : لماذا يستطيع ان يخرجها «عمو» ولا تستطيع ان تخرجها انت ؟ ...

وفي يوم آخر ، كان صالح داود آمر المعتقل يزورني في غرفتي ، وبينما هو جالس معي واذا بولدي باسم يدخل علينا وهو يلهث من شدة الركض ، وتقدم الي وقال : خذ علبة الكبريت هذه وافتحها تجد في داخلها تذكرة من امي أمررتها من الباب دون ان اعرضها على امر المعتقل !... قلت له : ماذا فعلت يا شاطر ؟.. لقد انكشفت الحيلة وافتضح السر فهذا آمر المعتقل جالس امامك ...

* * *

تفاقم مرضي ونقلي إلى مستشفى البصرة

في خريف العام ١٩٤٤ صرت اشعر بآلام معدتي تستفحل ، فالحموضة تتزايد بعد كل وجبة طعام والمغص يلازمني في معظم الاحيان ، وكنت اخشى ان يكون سبب هذه الاضطرابات والاوجاع قرحة في المعدة ، وبعــد مراجعات وفحوص في مستشفى العمارة تقرر نقلي الى مستشفى البصرة لاجراء فحص جدي هناك بالاشعة ... وقد رافقني في سفرتي هذه عبــد المجيد الهاشمي المرحوم للمعالجة ايضا في مستشفى البصرة ... وضعنا في سيارة باص كبيرة مزدحمة بالركاب من كل نوع : نساء ، ورجال ، بدو وحضر ، اطفال وشيوخ ، ومعنا شرطيان للحراسة ... كانت امامنا سيارة باص اخرى تسير بسرعة جنونية ، وتترك ورا ها غبارا يمنع الرؤية ويعمي العيون ، وكان سائق سيارتنا احمق وارعن أبى ان تسبقه هذه السيارة ، واراد ان يكون هو نفسه السباق في هذا المضمار وضغط على (البنزين) فاخذ الباص يطير بسرعة البرق ، وفي تلك الاثناء صدفته قنطرة لم يتميزها من شدة الغبار فاصطدم بحافتها واذا بالباص ينقلب ويتدهور الى حفرة في الجهة الشمالية من الطريق وكنت وعبد المجيد الهاشمي المرحوم محتلين

مقعدين جنب السائق لم اشعر بشيء سوى ان يدا دفعتني الـــى الامام ووجدت نفسي جالسا على غطاء الماكنة والدم يتدفق من شفتي ومن جرح طفيف تحت عيني اليسرى ... وقد فهمنا بعدئذ ان الزجاجة الاماميــة انكسرت وان شدة الصدمة دفعتني الى الامام واجلستني على غطاء الماكنة. ومن حسن الحظ كان المفتش ساركن في ذلك الوقت مقبلا من البصرة في طريقه الى العمارة ، فلما رأى وضع الباص وانين المصابين وصراخ الاطفال اسرع لنجدتنا وساعد الكثيرين على الخروج من الباص ، ثم عاد الى سيارته ووعدنا ان يرسل الينا فورا نجدة من قلعة صالح تنقلنا الـــى مستشفاها لتضميد جروحنا ... وكان حقا بارا بوعده ، فقد وصلت الينا بضع سيارات بعد ساعة من الزمن نقلتنا الى مستشفى قلعة صالح حيــث استرحنا في المستشفى بضع ساعات ضمدت خلالها جروحنا ، ونقلونـــا بسيارة صغيرة مع الشرطيين واخذنا طريقنا الى البصرة . اما رصيد هذا القضاء فكان كسورا ورضوضا وجروحا لعدد غير يسير مـــن الركـــاب ونحمد الله على انه لم تقع بيننا أية اصابة قاتلة ...

وجدنا في مستشفى البصرة عددا من المعتقلين بينهم عبد الرزاق شبيب ، وكانت راحتنا في المستشفى مؤمنة على اكمل وجــه والاطبـــاء يعاملوننا بروح انسانية عالية وتتمتع في داخل المستشفى بكامل الحرية ، تتنزه في حدائقه وتتمشى في مختلف اقسامه وردهاته ... حتى انني كنت اخرج في بعض الليالي دون ان يشعر احد من زملائي من المستشفى بـــل ولا اي واحد من حراسنا واسير على قدمي داخل المدينة واؤم دارا للسينما واعود الى المستشفى في آخر العرض وادخل الى الغرفة بكل هدوء واتمدد على فراشي مطمئنا راضيا ...

وفي ذات يوم زارنا عبد الرزاق الامير المرحوم مستصحبا معه بعض الهدايا لعبد الرزاق شبيب ولي ، وقال يخاطبنا : هيا بنا الى الخربوطلية قلنا : وكيف نستطيع الذهاب الى هناك ؟ قال : لقد اخذت موافقة المتصرف على ذلك ، وسيرافقنا احد مفوضي الشرطة لحراستكما ... وكان المتصرف وقتئذ مظفر احمد ، والمفوض الحارس ابراهيم عزة آل معروف اغا ، والمتصرف صديق قديم اقابله من حين الى آخر في اثناء مكثي في مستشفى البصرة ويظهر لي من الود وحسن المعاملة ما يعجز الوصف عن ايفائه حقه . اما المفوض فمن عائلة كانت تسكن في بعقوبة ، وكانت علاقة عائلتينا متينة بها ، فوالده عزة آل معروف اغا المحامي المرحوم من اعز اصدقاء والدي المرحوم واخوه خليل عزت المرحوم من رفاق صباي في بعقوبة . وفضلا عن ذلك يتمتع هو نفسه بمزايا واخلاق عالية ... حلو الكلام ، كريم النفس ، وافر الادب في جميع تصرفاته ... اظهر لي من العطف خلال وجودي في البصرة ما لا يمكن ان انساه مدى الحياة ، وكان كلما أتى الينا الى المستشفى لا تخلو يده من هدية يقدمها لي ، وكان كثيرا ما يصحبني الى المدينة ، نجوب في اسواقها ، ونتردد الى مقاهيها ، ونقتل بعض الساعات على ضفاف شط العرب ، ثم نعود الى المستشفى فاشعر بارتياح لا مزيد عليه وطمأنينة ما فوقها طمأنينة ...

ومن الطريف ان الشيخ صالح باش اعيان المرحوم كان في احد الايام وجها لوجه معي عندما كنت اسير في سوق العشار ، وعلى مقربة مني المفوض ابراهيم عزة ، فبش بوجهي متسائلا : « هل اطلق سراحك ؟» قلت : كلا يا معالي الشيخ ، وهذا المفوض جنبي مكلف بحراستي ...

وعند ذلك لم يطل الكلام معي متجنبا محادثتي وودعني على عجل وهو يقول : مع السلامة مع السلامة ...

ولقد تعددت زياراتنا للخربوطلية بدعوة من عبد الرزاق الامير المرحوم ،والخربوطلية عبارة عن حديقة غناء تقع على الضفة الغربية من شط العرب ، محوطة بغابة من النخيل ، وفي وسطها قصر انيق هو المسكن الصيفي لعائلة الامير .. وكنا نذهب الى هناك في الضحى ونبقى حتى غروب الشمس ، نتغدى على مائدة الامير ونشرب الشاي في الحديقة بين الزهور اليانعة والاغصان اليافعة ، ثم نعود الى مستشفانا يرافقنا المفوض ابراهيم عزة ذلك الشاب الكريم ...



نقلي الى سامراء

وفي احدى الليالي ، بينما كنت مضطجعا على سريري وبيدي كتاب اقرأه ، دخلت الى غرفتي احدى الممرضات وطلبت الي ان اتبعها الى غرفة التلفون ، لأن نداء من بغداد يطلب مكالمتي ••• كان النداء من قرينتي وقد زفت لي فيه بشرى نقلي الى سامراء اقيم فيها اقامة اجبارية • والحقيقة انني فرحت بالنبأ السار ومهما كانت الاحوال في الاقامة الاجبارية فهي اهون من العيش وراء الاسلاك الشائكة في سبخة العمارة ••• وعلى هذا طلبت اعادتي الي معتقل العمارة وسافرت اليها في اليوم التالي ، ولما وصلت الى المعتقل وجدت ان برقية وردت بلزوم تسفيري الى سامراء فورا ••• وبعد يومين من وصولي الى العمارة استأجرت سيارة لوري على حسابي شحنت فيها جميع اثاث دارنا في العمارة (١) ، وركبت بجنب السائق ومعي شرطي لحراستي وسافرت الى بغداد ووصلت اليها في نفس اليوم مساء ، وقد اخذت اولا الى مديرية شرطة بغداد حيث حاولوا تسفيري الى سامراء

---

(١) كانت قرينتي واطفالي قد سافروا الى بغداد بعد سفري الى مستشفى البصرة ، وفي اثناء وجودهم في بغداد تمت معاملة نقلي الى سامراء ••

فورا ... وبعد رجاءات ومراجعات والحاح وافقوا على بقائي في بغداد ثلاثة ايام اقيم فيها في دار والدي ولا اغادرها حتى موعد سفري الى سامراء ...

وما دمت انتهيت من ذكرياتي في معتقل العمارة ارى من المفيد ان الحق بهذه الذكريات اسماء ابرز الذين كانوا في معتقلي العمارة والفاو ، وها انني اذكر اسماءهم في ادناه مع حفظ الالقاب :

١ ــ عبد الواحد الحاج سكر المرحوم ٢ ــ علوان الياسري المرحوم ٣ــ عبد الرحمن البزاز ٤ ــ بهجة الاثري ٥ ــ كاطع العوادي ٦ــ فائق السامرائي ٧ ــ صديق شنشل ٨ ــ بشير الصقال ٩ ــ شامل السامرائي ١٠ ــ روفائيل بطي المرحوم ١١ ــ خليل كنة ١٢ ــ سليم النعيمي ١٣ــ جمال المفتي المرحوم ١٤ ــ حازم المفتي ١٥ ــ عبد الرزاق شبيب ١٦ ــ اسماعيل غانم ١٧ ــ سلمان الصفواني ١٨ ــ عبد القادر جميل ١٩ ــ عبد الكريم كنونة ٢٠ ــ عباس كاشف الغطاء ٢١ ــ عبد الرزاق حمود ٢٢ ــ نوئيل رسام ٢٣ ــ بشير الجراح ٢٤ ــ الحاج نعمان العاني ٢٥ ــ جمال الالوسي ٢٦ ــ عبد الرحمن خضير ٢٧ ــ مظهر الشاوي المرحوم ٢٨ ــ الدكتور نجدة سامي سليمان ٢٩ ــ جودة سامي سليمان ٣٠ ــ ابراهيم شوكة ٣١ ــ عبد القادر السياب ٣٢ ــ ناجي معروف ٣٣ ــ ابراهيم وصفي ٣٤ ــ عبد القادر صالح المرحوم ٣٥ ــ علي العواد المرحوم ٣٦ ــ العقيد داود سلمان ٣٧ ــ ناصر الجنابي ٣٨ ــ فاضل رشيد ٣٩ ــ حقي المفتي ٤٠ ــ علي اغا ٤١ ــ جميل روحي المرحوم ٤٢ ــ شاكر الاوقاتي ٤٣ ــ نزار الصباغ ٤٤ ــ عدنان صبري مراد ٤٥ ــ الدكتور مظهر المالح ــ ٤٦

الدكتور صبري مراد المرحوم ٤٧ ـ علي حيدر سليمان ٤٨ ـ عبد القادر الحسيني المرحوم ٤٩ ـ عوني يوسف ٥٠ ـ عبد الرزاق الفضلي ٥١ ـ الشيخ كمال الطائي ٥٢ ـ عباس حسن بغدادي ٥٣ ـ زكي خطاب ٥٤ ـ اكرم فهمي ٥٥ ـ الدكتور يوسف عبود ٥٦ ـ الدكتور مظفر الزهاوي المرحوم ٥٧ ـ درويش المقدادي المرحوم ٥٨ ـ العقيد سعيد يحيي المرحوم ٥٩ ـ عبد المجيد زيدان المرحوم ٦٠ ـ حبيب غلام المرحوم ٦١ ـ انطون سمحيري المرحوم ...

في سامراء

وصلت الى سامراء بالقطار يحرسني شرطيان مسلحان ، واخذت فورا الى دائرة الشرطة وهناك بلغني المعاون ما يلي ، بعدما رحب بمقدمي وتمنى لي حياة مريحة في مركز القضاء :

١ ــ انني مقيم في سامراء اقامة اجبارية .

٢ ــ ستدفع لي مخصصات يومية قدرها اربعمائة فلس .

٣ ــ يحق لي ان استأجر دارا اعيش فيها مع اسرتي

٤ ــ يحق لي التجول في داخل القصبة بكامل الحرية ، ولكن محظور علي ان اجتاز حدود البلدية .

هذه كانت مجمل التعليمات التي تلقيتها من معاون الشرطة ، وبعد ذلك اردت ان اعرف من هو القائمقام ؟.. ولما سألت عنه قيل لي انه : رفيق نوري السعيدي ، فطرت فرحا بذلك لان رفيقا كان يعتبر من اعز اصدقائي القدامى ، فكان زميلا لي في التعليم وتلميذا في دار المعلمين العالية عندما كنت وكيل عميدها واستاذا للاقتصاد السياسي . تركت امتعتي في دائرة

الشرطة فاسرعت للقاء الصديق العزيز ... استقبلني رفيق استقبالا ينم عن حب عميق ، وعاطفة اخوية جياشة تفيض حرمة وتقديرا ، فتعانقنا وتبادلنا التحية وامر لي بالشاي والقهوة ، ولما انتهينا من ذلك كله ، قلت له : والان يجب ان نفكر في الحصول على دار لسكناي لانني عازم على جلب عائلتي واطفالي باسرع وقت ممكن . فقال : كن مطمئنا الى انني ساجد لك دار عصرية من احسن الدور في سامراء ، وبعد ساعتين من الحديث كانت الشرطة تنقل امتعتي الى هذه الدار التي سكنها قبلا معاون الشرطة ، وهي دار عصرية تقع امام حديقة البلدية وتجاور دار طبيب القضاء ، وكانت بصورة عامة تؤمن راحتي وراحة كل افراد العائلة على احسن ما يكون ...

وبعد ايام قليلة وصلت عائلتي وفرشنا دارنا الجديدة بما استوردته معها من اثاث ومتاع ، واستقر حالنا وعادت الطمأنينة الى نفوسنا .. والقائمقام رفيق يغمرنا بفيض من كرمه ورعايته ... وبعد هذا الاستقرار والاطمئنان قررت ان اشتغل في المحاماة ، واشتغلت فعلا في حدود ضيقة وكان الاشتغال وسيلة للتسلية وتمضية الوقت على كل حال ...

وبعد اسابيع قليلة من وصولي الى سامراء جاء امر نقل رفيق السعيدي الى قضاء اخر ... واسفت لهذا النقل اسفا كثيرا وحزنت له حزنا عميقا ... كان رفيق محبا للخير يحسن معاملة الناس ويجاملهم ، له لسان احلى من الشهد ، متواضعا ، يصغي الى شكاوى الناس بكل جوارحه وينفذ الرغبات من غير خروج على القانون .. ولذلك كله كان سكان القضاء يحبونه ويجلونه ويحترمونه ... ولما ذاع خبر نقله عم الاسف كل انحاء القضاء ، وتقديرا لخدمته نظمت له بلدية القضاء حفلة تكريم انيقة تبارى فيها الخطباء والشعراء ذاكرين مزاياه ومنوهين بحسن خدمته

ومكارم اخلاقه ، وكنت احد المدعوين لهذا الحفل استمع الى ما يقال عن رفيق وازداد حبا له واعجابا ... وبعد ذلك وقف هو وشكر الخطباء والشعراء وسائر الحاضرين وانتقل الى الكلام عني منوها بخدمتي السابقة لهذا البلد في الميادين المختلفة ويعدد تضحياتي واعمالي (منذ اندلاع ثورة ١٩٢٠ الى يومنا هذا) بجرأة نادرة المثال ، وشجاعة منقطعة النظير . انني في الواقع لم اكن اريد ان يتطرق رفيق الى هذا الموضوع مطلقا ، لانني لا ازال معتقلا ويعتبر المعتقل في ذلك العهد من العصاة المارقين بينما كان البعض من المداهنين الذين يحرقون البخور امام ارباب السلطة يتهموننا بالخيانة الوطنية ويطالبون بحرقنا احياء ويهددون بنسف المعتقلات على رؤسنا ، فعبد الاله الوصي المرحوم ناقم علي والانكليز يعتبرونني عدوا لدودا! فكيف يقدم والحال هذه رئيس وحدة ادارية في الدولة على مثل هذه البيانات التي يعتبر كل حرف منها تحديا لرجال الحكم في تلك الايام ؟... انني كنت شديد الخوف على مصير رفيق وكنت قلقا مضطربا على مستقبله .. ولكن حمدا لله فقد مرت الزوبعة بسلام ولم يمس احد رفيقا بأقل سوء او اذى ...

وبعد مغادرة رفيق قصبة سامراء وصل اليها محمد علي الخياط القائمقام الجديد المرحوم ومعرفتي به كانت موروثة من صداقة قديمة بين عائلتينا لذلك كنت مستبشرا بمقدمه ، وفي الحقيقة كان يعاملني بالحسنى منذ وصوله وكنا نتزاور باستمرار وكانت دعواته لي لا تنقطع في معظم ايام الاسبوع ، يرعاني ويلبي طلباتي دون ادنى تردد او تكليف ، وهكذا استمرت حياتي في وقته تسير ايضا بهدوء واستقرار .. ومع انه محظور علي تجاوز حدود المدينة كان يغض النظر عن بعض نزهاتي الى خارج هذه الحدود ويصطحبني في بعض جولاته الى القرى والاماكن المجاورة للقضاء دفعا للملل وترويحا للنفس ...

وفي صباح احد الايام دق جرس الباب فهرعت لفتحه واذا القائمقام امامي وجها لوجه •• انني توجست لاول وهلة خوفا من هذه الزيارة لانه لم يسبق له ان زارني مرة واحدة صباحا ، وكانت زياراته لي بعد الظهر دائما ، فما الداعي للزيارة المفاجئة يا ترى ؟•• اخذت المخاوف والافكار تمر في خاطري سريعة مضطربة ••• ترى هل هناك امر جديد بنقلي الى مكان آخر ؟••• هل تلقى امرا بالتضييق علي وتقييد حريتي ؟•• اللهم احفظ عبدك العاجز من بطش العابثين وكيد الطغاة المستهترين ••• دخل القائمقام مقام وجلسنا في غرفة الضيوف ، وقد زالت عني المخاوف وابتعد عني القلق عندما رأيته يبتسم واسارير وجهه منبسطة لا تدل على سوء •••

قلت له : خيرا انشاء الله ، ماهذه الزيارة المفاجئة في الصباح ؟•• قال : انني قادم الآن من محطة القطار ، وقد ذهبت اليها لاستقبال سمو الامير زيد الذي اقبل على بغداد لتسلم مهام نائب الوصي بمناسبة سفر الامير عبد الاله الى خارج العراق ••• قلت وكيف حاله ؟•• قال : بخير وقد وجدته على احسن حال من النشاط والصحة والعافية ••• قلت : حمدا لله فالامير انسان طيب ذو قلب كبير ، وخلق عظيم ••• قال : أتعرفه من قبل قلت : كيف لا اعرفه وقد اشتغلت في معيته سكرتيرا في مفوضية انقره عدة سنين ؟••• قال : كم انه يحبك ؟ انني عندما صعدت الى القطار وقدمت له نفسي ، ابتدرني متسائلا : هل طالب عندكم ؟ •• اجبته : نعم سيدي • قال : « اعتن به ودير بالك عليه» قلت : شكرا لسموه على كل حال ، وان مثل هذا الوفاء ليس عنه بغريب •••

استمرت اقامتي الاجبارية في سامراء حوالي الستة اشهر ، لقيت فيها من كرم اهلها وحسن ضيافتهم ما يعجز القلم عن وصفه •• وفي يوم من الايام ، وكان ذلك في اواخر شهر حزيران من ١٩٤٥ ، بينما كنت أستحم

في داخل الحمام واذا باطفالي يصيحون ويصفقون ويتراكضون نحـــو الحمام ... دقوا الباب علي ، وقالوا : بشرى يا بابا ... لقد اطلـــق سراحك ؟ ها اننا سمعنا قائمة اطلاق السراح في الراديو الآن ... فحمدت الله على ذلك وشكرته ، وخرجت من الحمام وارتديت ملابسي علـــى عجل ، وذهبت توا الى القائمقام استطلعه الخبر ، فاكده لي وهنأني باطلاق السراح ، وقال : انك الآن حر تستطيع ان تعود الى بغداد متى شئت .. فشكرته وعدت الى البيت وقد امضينا ليلة سعيدة بين اهلي واطفالي ، وفي اليوم التالي اخذنا نستعد للسفر الى بغداد وتم ذلك خلال يومين ، وهكذا انتهت مدة اعتقالي التي دامت حولي اربع سنين ...

البنك العربي ـــ كيف عينت مديراً له في بغداد

١ تشرين اول ١٩٤٥ – ١٢ تشرين اول ١٩٥٨

عندما تسلمت القنصلية العامة في القدس سنة ١٩٤٠ وجدت ان جميع حسابات القنصلية مودعة لدى احدى البنوك الاجنبية ، واظنه البنـــك العثماني ، فرأيت من الحيف ان تستمر هذه الحال بوجود بنك عربي في القدس وامرت المحاسب ان ينقل حساباتنا الى البنك العربي فورا وهكذا كان ... ان عملي هذا كان موضع تقدير لدى عبد الحميد شومان المدير العام للبنك العربي ولقي استحسانا في جميع الاوساط العربية . ومن هنا بدأت صداقتي مع عبد الحميد شومان ، فكثر التزاور وتعددت الاجتماعات والدعوات بيننا ، وكنا نلتقي مرة واحدة وفي الغالب مرتين في كل اسبوع.. وكنت معجبا بشخصية هذا الرجل العصامي اعجابا بالغا ، فهو لم يدرس في مدرسة ولكنه يحمل من الافكار التجددية والاراء الصائبة ما يفتقـر اليها الكثيرون من حاملي الشهادات العالية ... كان مخلصا في عمله ، صريحا في قوله ، مندفعا في عروبته وقوميته ، جريئا شجاعا ، امينا ، نزيها ، متمسكا بفرائض دينه لا يهمل اي ركن من اركانها . وبعدما توطـدت الصداقة بيننا صار يظهر لي رغبته في ان انتسب الى اسرة البنك العربي .. وكان يكرر قوله لي باستمرار : « والله يا بني ، احسن من وزارة ، دع

وظائف الحكومة ، وتعال افتح لك فرعا للبنك العربي في بغداد تصبح انت مديره ••• مالك والحكومة ؟•• الخدمة في البنك العربي خدمة للاقتصاد العربي ، خدمة للقومية العربية ••• انت ستجد هناك ارضا خصبه للعمل تظهر فيها مواهبك ، وتبرز كفاءتك ••• هيا يا بني ، قدم استقالتك وتعال عندنا ، فوالله انها احسن من وزارة !•••» ••• ومع انني كنت اقابل هذا التكليف بالشكر لأنه دليل حسن ظن الرجل بي ومظهر من مظاهر الثقة والتقدير ، كنت استبعداحتمال قبول عمل كهذالانني فتحت عيني وانا ابن موظف ، وبدأت حياتي العملية موظفا وسلخت من عمري ٢١ عاما حتى ذلك التاريخ في الوظائف الحكومية ••• لذلك كنت اجيبه على سبيل المجاملة : « انتظر يا اخي العزيز ، وامهلني فترة ، وسيأتي اليوم الذي اتشرف فيه بالانتساب الى اسرة البنك العربي •••»

ومضت الايام تباعا ، واذا بنشوب ثورة ١٩٤١ واذا انا معتقل بعد فشل الثورة ، ثم مقيم اقامة اجبارية في سامراء في اشهري الاخيرة من الاعتقال ••• وفي ذات يوم ، وانا اطالع احدى الصحف البغدادية ، لفت نظري خبر محلي يقول : قدم العاصمة الاستاذ عبد الحميد شومان المدير العام المبنك العربي في القدس ، لاخذ موافقة الحكومة العراقية على فتح فرع للبنك العربي في بغداد • « يا للخيبة ، ويا للأمل الضائع ، ويا لمصيبتي بالفشل والخسران ••• من كان يصبح مديرا لهذا الفرع للبنك العربي غيري لو لم اكن معتقلا فاقدا الحرية نائياً عن بغداد ؟••• اما حالتي النفسية آنذاك فكانت سيئة للغاية ••• وهل يستطيع احد ان يصدقني اذا قلت : انني كنت اخشى اطلاق السراح ؟••• كنت اخشى ان يطلق سراحي واضطر الى مراجعة هذا وذاك للحصول على عمل ••• انني كنت مضطرا الى العمل ، ولكن هل من سبيل الى ذلك ؟ كنت استطيع ان اشتغل في المحاماة ، ولكن المحاماة في تلك الفترة من الزمن كانت وقفا على

بعض المحظوظين من المحامين الذين لهم حظوة عند الانكليز ودالة على البلاط ؟... اما الاعمال الاخرى فتكاد تكون مغلقة الابواب في وجهي . واما الاشتغال في الشركات فكان ايضا ضعيف الاحتمال ... اذ من يجرأ على توظيفي في شركة او مؤسسة خاصة وهو يعرف ان الانكليز يعتبرونني عدوا لدودا وان البلاط يكرهني ويناصبني العداء ؟ ... اما حالتي المالية فكانت سيئة للغاية ، ولا املك سوى دار للسكنى وراتبا تقاعديا لا يتجاوز الستة عشر دينارا في الشهر ، بالاضافة الى مخصصات الاعتقال المقطوعة وقدرها اربعمئة فلس في اليوم ... ولهذه الاسباب كلها كنت مضطرا ، في حالة اطلاق سراحي الى ان اتشبث بوظيفة حكومية اكسب منها لقمة العيش لافراد اسرتي ... وكان لزاما علي عند ذلك ان اطرق باب هذا الوزير وذاك الكبير ، وكان يقشعر بدني وتهتز اعصابي عندما اتخيل ، انني سألقى اللوم والعتب عندئذ من هؤلاء : « اما قلنا لكم ان اعمالكم طائشة ليس وراءها الا الخراب والدمار ؟.. ماذا كسبتم من وراء تأييد حركة رشيد عالي الكيلاني ، تلك الفتنة العمياء ، والثورة الرعناء ؟... أين اصبح زعماؤكم الاغبياء ... ثرتم في وجه سيد البلاد ، وحاربتم حلفاءنا الانكليز ، وشردتم الحكام والزعماء وبعد ذلك كله تأتون وتطلبون عملا من الدولة ؟...» ان مثل هذه التخيلات وهذه المشاعر كانت تكتم انفاسي وتضايقني الى حد كنت أفضل ان ابقى معتقلا طول العمر على ان يطلق سراحي واعود متسكعا في بغداد يحيط بي جوها الملوث بالخيانةوالعبودية والذل والاستهتار ...

كنت في صباح احد الايام جالسا في نادي الموظفين في سامراء كعادتي، وقد مر على اطلاعي على خبر مجيء عبد الحميد شومان ثلاثة او اربعة ايام ... واذا بخادم النادي يقبل علي مسرعا ويقول : هناك رجلان في الباب يسألان عنك ويطلبان مواجهتك ، فخرجت حالا اليهما واذا انا وجها

لوجه مع عبد الحميد شومان والحاج نعمان العاني ... يالله ما اوفى هذا الرجل وما اطيب قلبه ؟... عبد الحميد شومان في هذا الصيف المحرق واللهب اللافح يقطع ١٢٠ كيلو مترا في طريق متربة متعرجة ، غير معبدة ليزور صديقا له تنكر له الكثيرون من الاصدقاء وابتعد عنه حتى الاقرباء ، مغضوبا عليه من قبل الانكليز وحكام ذلك الزمان على السواء؟.. عانقني عبد الحميد شومان ، متلطفا بحديثه ، مستفسرا صحتي ، مشجعا ومواسيا .. وبعد هذا اللقاء بقليل كنا في غرفة الاستقبال بداري المتواضعة وتحدثنا حديثا طويلا وانس كل منا بصاحبه كثيرا ... ولما حان موعد الغداء ، قلت لصاحبي : تفضلا الى الطعام .. فانبرى لي عبد الحميد شومان وقال : اسمع يا اخي طالب ، انا مقبل من بغداد الى هنا بمهمة خاصة عندك ، فاذا انت عاهدتني على انجاز هذه المهمة سأتناول الغداء معك والا فأنني اعتذر عن تناول الطعام في دارك واعود من حيث اتيت خائبا خاسرا ... قلت والله انه خير لي ان القي حتفي والفظ آخر انفاسي بين يديك من ان اراك خائبا خاسرا ... قال : انني حصلت على اجازة الحكومة العراقية بفتح فرع للبنك العربي في بغداد ، وانني اتيت اليك راجيا ان تقبل مديرية هذا الفرع ... قلت : ان هذا شرف لي عظيم وتقدير سوف لا أنساه مدى الدهر ، ولكنني معتقل كما تعلم ، والمعتقل لا يدري متى يطلق سراحه ؟.. قد يطول امد الاعتقال الى عدد من السنين ، وقد يأتي الفرج ويطلق سراحه بعد ايام ... قال : قل انت نعم ، وانا اعاهدك ان لا افتح الفرع قبل اطلاق سراحك . قلت : انا عاجز عن ايفاء حقك من الشكر ، وارجوه سبحانه وتعالى ان يأخذ بيدي لاكون عند حسن ظنك جديرا بثقتك وتقديرك ، وتصافحنا على اثر ذلك وسرنا نحو مائدة الغداء واستأنفنا احاديثنا على المائدة ... وقد فهمت منه اثناء الحديث ان الكثيرين من المداهنين وحارقي البخور امام الاصنام ، عندما فهموا انه عازم على تعييني لمديرية هذا الفرع حذروه من مغبة ذلك قائلين له : ان الانكليز يكرهون

طالبا والبلاط يمقته ، فكيف ترجو نجاحا لمصرفك على يد رجل مبغوض من قبل سلطتين حاكمتين في البلاد ؟... وكان يقابلهم بشدة وصلابة مؤكدا انه اما ان يفتح هذا الفرع على ان يكون مديره طالب مشتاق او لا يفتحه بتاتا ... ولم تمض على عودة عبد الحميد شومان الى القدس الا ايام قليلة حتى تم الافراج عني وعدت الى بغداد عزيز النفس ، مرفوع الرأس ، لم اطرق باب الدولة ولم ألتمس العون من احد رجالها ... وبعد وصولي الى بغداد وردتني برقية منه ، يهنئوني فيها باطلاق السراح ، ويطلب تأييد الوعد بقبول مديرية البنك العربي في بغداد ، فاجبته شاكرا مؤيدا ...

وفي اول تشرين اول ١٩٤٥ صدر الامر بتعييني مديرا لفرع البنك العربي في بغداد ، وفي الثلث الاول من هذا الشهر افتتحنا الفرع وباشرنا العمل فيه بتسعة موظفين فقط ... وقد عين معي في نفس اليوم ابراهيم البسام المرحوم معاونا للمدير ، والحاج نعمان العاني سكرتيرا للفرع ...

كان البنك العربي منذ اول يوم من تأسيسه تبنى مبدأين اساسيين :
الاول : ان لا يكون مساهما في البنك اي شخص غير عربي .

ثانيا : ان لا يكون في عداد موظفي البنك اي شخص يهودي ، كما انه لا يجوز لليهودي ان يكون مساهما في البنك ... ولما اطلع الناس على هذين المبدأين الاساسين توجسوا الفشل للبنك واستبعدوا ان ينجح في اعماله الصيرفية ... وكيف يكون النجاح متيسرا والبنك يفتقر الى أيد يهودية ماهرة ؟... وهل يمكن ان تدار امور حسابية بدون أيد يهودية ؟.. وهل يكتب النجاح لمؤسسة مالية يناصبها اليهود العداء ؟.. زد على ذلك ان مدير الفرع مغضوب عليه من الانكليز والبلاط ورجال الدولة ؟ فالنجاح لا يتم اذا الا بمعجزة ... وكان الناس يفاتحونني بهذه الاراء بصراحة

تامة وكحقيقة لا يمكن الطعن فيها ••• ولكنني كنت واثقا بالله ، وواثقا بنفسي بعد الله ، ومؤمنا بقدرة الشباب العربي اذا ما وجه توجيها حسنا في كل عمل من الاعمال ، وكنت اجيب هذه الطبقة من المتشائمين بقولي : دعوا هذه الخرافات وكفوا عن هذه التوهمات ••• انني ساخلق لكم المعجزة بأذن الله ••• وسابرهن لكم بعد اشهر معدودة ان الفكر العربي لا يقل ابداعا عن الفكر اليهودي ، وانني ساخرج لكم في هذا البنك عددا من الشبان العرب يبرزون في الشؤون المالية بشكل يدعو الى الفخر والاعتزاز ••• وكلما تقدمت الايام صار الناس يشعرون بمدى تقدم البنك في اعماله الصيرفية ، وكلما مرت الايام اخذت فكرة التفوق اليهودي تضمحل وتزول من الاذهان •••

ورغم قيامنا بكل الخدمات الممكنة لعملائنا ، ورغم النظام الدقيق الذي كنا نسير عليه في اعمالنا ، كنا نجابه مشاكل وعراقيل توضع امامنا ، يقصد بها الحد من نشاطنا والحط من سمعتنا وافساد ثقة العملاء في كفاءتنا وقدرتنا ••• واول صدمة تلقيناها جاءت من البنك المركزي العراقي الذي رفض ان يمنحنا اجازة تعاطي التحويل الخارجي ، وكان مدير التحويل الخارجي في البنك يومئذ انكليزي اسمه مستر ديكس ، واخذ اليهود يبثون الدعاية ضدنا في الاوساط التجارية ويحذرون التجار من وضع ودائعهم لدينا • وصاروا يسمون البنك بالبنك الاسود تارة وببنك المعتقلين أخرى، لان عددا من موظفي البنك سبق لهم ان نالوا شرف الاعتقال اثر فشل ثورة ايار ١٩٤١ وفيهم نعمان العاني وبشير الجراح وفاضل رشيد وانا••• وعلى كل ثبتنا امام كل الدعايات وتوفقنا بعد مراجعات عديدة وكفاح مرير في الحصول على اجازة بتعاطي التحويل الخارجي •••

حادثة مؤسفة كادت تقضي على سمعة الفرع وتهد كيانه

في مساء السبت الموافق ١٢ كانون ثان ١٩٤٦ كنت في دار عطا امين الصديق العزيز مدعوا الى العشاء مع ثلة من الاصدقاء ... وبينما تتجاذب اطراف الحديث استدعيت الى التلفون وكلمني كريم خوري رئيس مكتب سابا وشركائهم في بغداد ،ورجاني ان آتي الى البنك على عجل لأمر مهم ... وعند وصولي الى البنك اخبرني بان هناك تزويرا في قيود البنك واختلاسا بعشرة الاف دينار سحبت من الصندوق بصكين اثنين باسم عميل موهوم ليس له اسم او حساب في سجل الودائع ... وأكد المدقق ان العملية جرت بشكل فني متقن بحيث لا يمكن ان ينكشف التزوير الا نتيجة تدقيق دقيق ... وعندما اطلعت على تفاصيل القضية كدت افقد شعوري من شدة الصدمة غير المنتظرة .. وقد كان ألمي شديدا جدا لهذه الفضيحة التي كادت تدك سمعة البنك دكا ... ومع ذلك تمكنت بعد فترة وجيزة من تهدأة اعصابي واستجمعت قواي الفكرية وقررت ان نجمع فورا جميع الموظفين في البنك ، لنبدأ التحقيق معهم . وبعد ساعة من الزمن كان جميع الموظفين حاضرين في البنك عدا بشير الجراح الذي لم يكن احدنا يعرف داره لاستدعائه ...

وبدأت تحقيقاتنا باستجواب الموظفين واحدا واحدا ، ولم نحصل على نتيجة تنير لنا السبيل ... كانت اغلبية الاراء متجهة الى ان هذه الجريمة دبرت نتيجة تآمر بضعة اشخاص وليس من الممكن تنفيذها من قبل شخص واحد ، أما قناعتي الشخصية فكانت منحصرة بان المجرم شخص واحد لا اكثر .. على ان الامر الذي كان متفقا عليه ان الجريمة وقعت من قبل موظفين في البنك وليس في امكان احد من الخارج ان يقوم بجميع الادوار التي لعبت في تنفيذها ...

وكان ابراهيم البسام يركز التهمة في كل من الموظفين (نعمان العاني ومدحة منير وتوفيق شريف وسالم الحمداني (١) يؤيده في هذا الظن جميل بركات المراقب ... وكانا يستندان في قناعتهما الى الادلة الظاهرية التالية :

١ ــ ان التحريف وقع في دفتر المخصومة الذي يعتبر نعمان العاني مسئولا مباشرا عنه .

٢ ــ ان دفتر اليومية يحفظ عادة في خزانة مفتاحها عند سالم الحمداني وقد وقع تحريفان اثنان في هذا الدفتر ...

٣ ــ افاد عبد الرزاق غنيم انه سمع من امين الصندوق يقول : « انني أتذكر في يوم دفعي محتويات احد الصكين المزورين ، ان نعمان العاني طلب الي ان ادفع للقابض اوراقا نقدية من فئة كبيرة .» على انني عندما سألت امين الصندوق عما اذا كان يؤيد هذا القول انكر وقال : انني لا استطيع ان اجزم في ذلك مطلقا ...

---

(١) تبين بالنتيجة ان الفاعل الاصلي لم يكن واحداً من هؤلاء ...

٤ ـ قبل انكشاف الجريمة ببضعة ايام خرج نعمان العاني وسالم الحمداني من البنك بحجة انهما يريدان مواجهة بعض التجار في سوق الشورجة بقصد حثهم وتشجيعهم على التعامل مع البنك العربي ... ومن المحتمل انهما اتصلا ببعض الاشخاص في الخارج لتنظيم وتدبير هذا التزوير ...

٥ ـ ان هؤلاء الاربعة الذين تحوم حولهم الشكوك طالما يجتمعون في الغرفة الفوقانية ويتهامسون في ما بينهم في امور يجهلها سائر الموظفين ... وغير ذلك كثير من الظنون والاتهامات التي لا تستند الى بينة قاطعة او دليل مقنع ...

والحقيقة انني كنت استبعد ان تكون للحاج نعمان العاني يد في الموضوع لان ثقتي في استقامته وامانته عظيمة لا يمكن ان تتزعزع مطلقا بمثل هذا الاتهام ... واما الاخرون فكانت معرفتي بهم حديثة وليس لي سابق اطلاع على درجة متانتهم الخلقية ولذلك ساورني (مع الاسف) شيء من الشك نحوهم ...

وبعد جمع هذه المعلومات ، بنتيجة اخذ الافادات وضبطها ، قررت ان ابدأ اتخاذ التدابير النهائية للوصول الى عمل حاسم ... وعندما سألت رأي كريم خوري فيما يجب عمله بعد الآن ، قال : « ان واجبه انتهى بمجرد كشف التزوير وضبط الافادات ، واما التدابير الواجب اتخاذها في ما بعد فامر يعود الي مباشرة بصفتي مديرا للبنك ... وعلى هذا الاساس بدأت العمل ، ورأيت ان الواجب يقضي اخبار المركز العام بالامر قبل كل شيء فاتصلت تلفونيا بعبد المجيد شومان ، نائب المدير العام للبنك العربي في القدس واطلعته على خلاصة القضية وافهمته بانني لا اميل الى اخبار الشرطة وفسح المجال لمداخلتها حرصا على سمعة البنك وأرى ان

تريث في الامر حتى الصباح علني استطيع بتأثيراتي الشخصية على نفسيات الموظفين ان اتوصل الى إظهار الفاعل واعادة المبلغ المختلس الى خزانة البنك ... فوافقني على رأيي وبدأت تنفيذ خطتي ...

جمعت الموظفين كلهم في غرفتي وصرت اوجه اليهم العتب واللوم بشدة ولخصت لهم رأيي في الموضوع بصراحة تامة وقلت :

اولا : اننا امام فضيحة اختلاس هائلة وقعت في هذا البنك بمبلغ عشرة الاف «دينار»

ثانيا : ان الفاعل ، او الفاعلين ، لا شك من موظفي هذا البنك .

ثالثا : ان عددكم لا يتجاوز ١٢ موظفا واستطيع ان ازكي منكم خمسة اشخاص : (ابراهيم البسام ، بشير الجراح ، مصطفى سامح ، صبيح صادق ، وجميل كاظم) لانني واثق تمام الثقة من ان عملية التزوير لم تصدر عن واحد منهم لاسباب عديدة وساشرحها في ما بعد ... وعليه فانني احصر التهمة في سبعة اشخاص ، ومع ذلك فبامكاني ان اخرج اثنين من هؤلاء ايضا هما : جميل بركات وعبد الرزاق غنيم لعدم اشتغالهما المباشر في الدفاتر المزورة او في قسم الودائع او الصندوق ، فيبقى العدد محصورا اذا بين خمسة اشخاص هم : (نعماني العاني) (١) ، ومحمد الكحيمي ، وسالم الحمداني ، ومدحة منيروتوفيق شريف) وعليه ألتمس منكم باسم الشرف والغيرة القومية

(١) ادخلت اسم الحاج نعمان العاني بحكم ضرورة التحقيق ، اذ تبين ان تحريفين اثنين وقعا في دفتر المخصومة الذي يعتبر الموما اليه مسئولا عنه آنئذ علماً بأن التحريفين المذكورين كانا بخط يختلف تمام الاختلاف عن خط كاتب اليومية .

وشباب العرب في امصارهم واقطارهم المختلفة ان لا تلطخوا شرف العروبة بهذه الوصمة من العار .. فكروا جيدا هل في استطاعتي ان اغض النظر عن هذه الفعلة الشنعاء ؟.. والله لو كنت املك هـذا المبلغ لدفعته من جيبي الخاص حرصا على سمعتكم ، ورحمـة بشبابكم ... ولست بمبالغ اذا قلت لكم : ان فجيعتي بموت احد اولادي لاهون علي من فجيعتي بانهيار سمعة البنك الذي عاهدنـا الله على العمل فيه بكل ما أوتينا من قوة وامانة واخلاص ...وأراني مضطرا في موقفي هذا ان اتجاوز حدود الآداب العامة واقول : لو نكبت بعرضي في هذه الليلة لما كان الامر أشد وقعا في نفسي من هذه الفضيحة التي اقف امامها وجها لوجه منكس الرأس ، مبتل الجبين خجلا واستحياء ... قد يخطىء كل منا في حياته ، والعصمة للـه وحده ، والخاطىء قد يعود الى رشده ويرجع الى صوابه في منتصف الطريق وكلكم تعلمون ان الرجوع عن الخطأ فضيلة ، وها ان السبيل ممهد لمن اخطأ منكم وانني على يقين أن ليس بينكم من مات فيـه الضمير وعمي فيه البصر ... ساعطيكم فرصة للتفكير، ولكن اعلموا انكم سوف لا تخرجون من باب هذا البنك احرارا الى بيوتكم ... تأملوا مليا في مصيركم وتأكدوا من انكم ستجدون انفسكم رهـن التوقيف اذا بقي الوضع على ما هو عليه الان ولم احصل على بصيص من نور يهديني الى الحقيقة التي انشدها ، وسالاحقها دون تراخ او تماهل او ملل ...

وهكذا صرت اكلمهم بمثل هذه الاحاديث بين اونة واخرى في تلك الليلة السوداء ... أحثهم تارة على لزوم التمسك بالشهامـة والفضيلة واهددهم طورا بسوء العاقبة والمصير حتى انبثق الفجر

وبان الصباح ، فاتصلت آنئذ تلفونيا بعبد المجيد شومان في القدس واخبرته انني لم اتوصل الى نتيجة حاسمة ولكنني لا ازال آمل ان اجد ضالتي دون حاجة الى مراجعة الشرطة ... لانني اعتقد ، وقد لا اكون مخطئا في هذا الاعتقاد ، ان مداخلة الشرطة تفسد علينا الوضع ، وتضيع كل فرصة ممكنة لاكتشاف الجريمة ... فوافق على رأيي مرة اخرى وواظبت على سيري في التعقيب والتحقيق ..

وفي تمام الساعة السابعة صباحا كنت في حالة من التعب والاعياء لا احسد عليها طبعا ، وجمعت الموظفين مرة اخرى وقلت لهم ما ملخصه : « لا نزال كما كنا منذ المساء ، وآسف على هذا الاصرار غير المجدي من قبل الفاعل الاصلي ... انني مصمم مهما كلفني الامر على اكتشاف سر هذا الاختلاس ، ولا اريد ان اكرر على مسامعكم ما سردته عليكم طوال هذه الليلة انما اطلب اليكم أن تضعوا ايديكم على قلوبكم وتصغوا الى نداء ضمائركم ، وتفكروا في ما عسى ان يقوله اليهود اذا ما وضعت الشرطة يدها في الامر ... وماذا سيقول الاجانب عن بنك عربي ليس فيه غير شباب من العرب. وماذا سيكون موقفكم تجاه الرأي العام الذي سيراقبكم نازلين صاعدين في دوائر الشرطة والمحاكم ؟.. وماذا سيكون موقفي انا عندما اشاهد وضعكم هذا ؟ .. دعوني امنحكم اخر فرصة ممكنة ودعوني اعرض عليكم اخر عرض في امكاني أن أتقدم به اليكم : اقسم لكم بشرفي ، وجميع مقدساتي انني سوف لا ابوح باسم الفاعل ولا امسه بسوء اذا ما ندم على فعلته واعترف بخطئه واعاد المال المسروق ... ولا تظنوا انني اهزأ بهذا الوعد ، وتأكدوا من انني جاد في الامر ، ومنفذ قولي بالعمل ... وها انني ساذهب الآن الى بيتي واعود الى هنا بعد ساعة واحدة ونصف الساعة ، وهي مهلة

كافية لكم لتعيدوا التفكير ويتدبر الفاعل ما يجب عمله ليس لانقاذ نفسه حسب ، بل لانقاذ موقفنا جميعا ... وبعد ذلك غادرت البنك ، بعدما طلبت الى الموظفين أن يمارسوا عملهم اليومي بصورة طبيعية ، وان يكتموا سر ما حدث ، وان لا يبوحوا حتى الى اقرب الناس اليهم باية كلمة في ما وقع ... وقبل ان اترك البنك قلت لابراهيم البسام : انني اشعر بشيء من الاطمئنان في قلبي لما رأيته على وجوه الموظفين من علائم التأثر والأسى ، ولا يستبعد ان يبوح الفاعل الاصلي بما فعل بعد عودتي الى البنك ، وعليك الان ان تراقب الوضع الى حين عودتي وان لا تسمح لاحد من الموظفين بمغادرة البنك قبل رجوعي ..

وعند عودتي الى البنك في الساعة التاسعة صباحا وجدت الموظفين كلا في محله والعمل يسير في حالة طبيعية كالمعتاد ... فطلبت معاوني ابراهيم البسام فورا وسألته : هل من جديد ؟.. قال : لا.. فجلست امام مكتبي وصرت أفكر بالخطة الجديدة التي يجب علي ان انتهجها بعد الآن ، وكنت قد قررت مع نفسي ان أتحرى بيوت الموظفين واحدا واحدا كأخر تدبير دون ان أتيح لاي واحد فيهم فرصة الذهاب الى البيت او الاتصال باية واسطة كانت قبل التحري . وبينما انا في هذه الحالة النفسية من الاضطراب والقلق واذا باحد الموظفين (...) يدخل علي ويدنو مني بشيء من التردد والحياء ليفاجئني بالحقيقة التي أنشدها منذ المساء الفائت ...

ـ ارجو عفوك يا سيدي . الدراهم عندي ، وانا اقدمت على عمليتي بدوافع نفسية لو اطلعت عليها ربما غفرت لي هفوتي ... وانا شاب فقير مكلف باعالة اثني عشرة نفسا من الاهل

والاقارب .. وها انا اضع مصيري بين يديك ، على ان تكتم امري كما وعدت ...

شعرت في تلك اللحظة ان سعادة غير مرتقبة تغمرني وان سهري وتعبي منذ المساء لم يذهبا سدى وان قواي تعود الى سابق عهدها .. قلت له : هل الدراهم موجودة في دارك ؟... قال : نعم ... قلت : ألم ينقص منها شيء؟.. قال : بلي اكثر من مائة دينار بشيء قليل ... قلت : لا بأس ، وهل انت مستعد لترافقني الآن الى بيتك كي أتسلمها منك ؟ ... وقال : طبعا ولكن الافضل بعد الدوام .. فاوعزت اليه عندئذ ان يتأخر قليلا بعد ان ينصرف الموظفون في فرصة الظهر لمرافقتي بسيارة تكسي الى داره . وهكذا كنت واياه في سيارة واحدة في الساعة الواحدة والربع في طريقنا الى داره ... ولما وصلنا الى الدار ادخلني في احدى غرفه الجانبية في الطابق الثاني واشار باصبعه الى صندوق كبير من الخشب وقال : انها هنا ... ثم خرج من الغرفة وعاد بعد برهة وجيزة وبيده مفتاح الصندوق . ولما فتح الصندوق وجدت فيه صحيفتين نفط دون غطاء مملؤتين بالصابون ، واخذ يفرغ من احداها الصابون ويرميه على الارض ، وقبل ان يصل الى قعرها بانت الاوراق النقدية بربطاتها الاصلية .. وصار يعد الرزمات واحدة واحدة وقد كانت خمسة الاف دينار ، ثم تقدم الى الصفيحة الثانية واجرى نفس العملية واخرج من قعرها رزماً اخرى من الدنانير ، فوضعتها جميعا في كيس كبير حمله معي ووضعه في السيارة ، وسرت في طريقي الى البنك منفردا ووصلت اليه في الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم

اجد احدا فيه غير الحارس . وبعد ان وضعت الدراهم في خزانتـــي ذهبت الى البيت لتناول طعام الغداء ، وعند عودتي الـــى البنـــك اخرجت الدراهم ووضعتها فوق مكتبي واستدعيت جميع الموظفين الى غرفتي وأريتهم الرزم المكدسة فوق مكتبي وقلت لهم : ها هي الدراهم المفقودة ، لقد رماها احدكم في داري بينما كنت اتنـــاول طعام الغداء في دار احد الاصدقاء ... وقد تلقيت تلفونا من قرينتي تخبرني الامر فاسرعت الى الدار ونقلت الدراهم الى هنا ، ومهمـــا كان الامر نحمد الله على هذا التوفيق ، وانني لأغفر للخاطىء زلته وأتمنى ان لا يكرر فعلته لأن سلوك مثل هذا السبيل الوعرة فـــي الحياة يؤدي الى نتائج سيئة العقبى وخيمة ... ويظهر لي ان روح الفضيلة لم تمت في الفاعل وانما خبت مدة مؤقتـــة ثـــم تنبهت واستيقظت .. وانني ان شكرته على رجوعه الى السبيل القويـــم والنهج السوي ارجوه بذات الوقت ان يتخذ من هذا الدرس عبرة فلا يعود الى عمل مماثل في المستقبل ، واذا وجد في شخصي رئيسا انتشله من الهوة السحيقة التي وقع فيها قد لا يجد ذلك في رئيس غيري اذا ما كرر هذا العمل والعياذ بالله ... واخذ بعض الموظفين عندئذ ، يعانقني من شدة الفرح والهيجان ، كما ان عيون البعض منهم كانت تفيض بالدموع .. وبعد ذلك سلمت الدراهم الى كـــل من امين الصندوق جميل بركات فعدها وكانت (ـ ٨٩٨٩) دينارا سجلت في القيود وسجـــل المبلغ (ـ ١٠٢١) دينـــاراً في حســـاب الموقوفات ...

وبعد الانتهاء من هذه المشكلة والتوصل الى احسن واسرع نتيجة ممكنة ناديت ابراهيم البسام ولفت نظره الى تقصيره وافهمته ان الواجب كان يقضي عليه ان لا يوقع على الصك قبل التأكد من هوية الساحب لا سيما والمبلغ المسحوب كبير ، وان الاشخاص الذين لهم في الودائع عشرة آلاف دينار فاكثر قليلون جدا وشخصياتهم بارزة معروفة لدى جميع موظفي البنك ، واذا جاز له ان يسهو في السحب الاول لغفلة او انشغال او ذهول ، كيف نعلل تصرفه في سحب الصك الثاني ، لا سيما وسبق لي ان طلبت اليه والى غيره من الموظفين المختصين ان يعرضوا علي كل الصكوك التي تحوي مبالغ كبيرة كي اعرف الساحب اولا ، ولا تأمل في سبب سحبه مبلغا كبيرا ثانيا وأحقق في ذلك اذا اقتضى الامر ...

وفي تقريري الذي رفعته الى الادارة العامة عن الحادث قلت : «انني لا ازال اعتقد ان عناصر الخير كامنة في نفس هذا الشخص الفاعل أكثر من عناصر الشر ، وانه اخطأ فندم وأجرم فأستغفر ... وقد قال لي بعد ان سلمني الدراهم المختلسة وجبينه يندى خجلا : (انني اشعر الان بحمل ثقيل رفع من فوق ظهري ... لقد كنت طوال هذه المدة معذبا ، وحاولت كثيرا ان اجد مخرجا لهذا المأزق ، وفكرت كثيرا بطريقة اعيد فيها المبلغ فلم اجد سبيلا) وفي رأيي ان الاخذ بناصر امثال هذا الشخص وتوجيههم في مسلك الفضيلة والشرف باصلاح ما اعوج من اخلاقهم اولى من تركهم يتخبطون في دياجير الفقر والعوز وتتأصل فيهم روح الاجرام ويصبحون خطرا على انفسهم ومجتمعهم في آن واحد »... على انني نفذت وعدي بكتمان اسم الفاعل ولم ابح به حتى الى الادارة العامة ، وابقيته مستمرا على عمله كالسابق حتى استقالته بمحض ارادته من البنك بعد اشهر قليلة من وقوع هذا الحادث ...

ان فاحصي الحسابات (سابا وشركاهم) قد قدموا في طبيعة الحال

تقريرا ضافيا في الموضوع اقتبس منه بعض فقرات تخصني ، قال كريم خوري في تقريره : «ولا بد لنا من توجيه شكرنا لطالب مشتاق مدير الفرع على الجهود الجبارة التي بذلها والحنكة الممتازة التي اظهرها في هـــذا الموضوع ، ولا شك انه كان لشخصيته وسيطرته على الموقف ووعــده المطلق بعدم افشاء اسم الفاعل في ما اذا أقر بفعلته عظيم الاثر في نفس مقترف الاختلاس مما اكرهه على الاعتراف بجريمته ، واننا نحمد اللــه على الوصول الى هذه النتيجة الحسنة دون اللجوء الى الاجرآت الرسمية .... (١)

وفي اثر ذلك وصلني كتاب برقم ١٤/٣٤٨ وتاريخ ٣ شباط ١٩٤٦ من الحاج عبد الحميد شومان المدير العام هذا نصه :

حضرة الفاضل السيد طالب مشتاق المحترم

تحية واحتراما .. وبعد فقد عدت من القاهرة واطلعت على تقريركم بخصوص الحادث المؤسف الذي اكتشفه فاحصو الحسابات عند تدقيــق حسابات الفرع ، واني مع اسفي العميق لتعرض الفرع في اول عهده لهذه التجربة القاسية حقا لشديد الاغتباط لما تم على ايديكم وبفضل حســن ادارتكم وهيمنتكم على الموقف من تحول فجائي ومدهش في ســـير تحقيقكم في ملابسات العمل الاجرامي ، مما أدى الى اعادة المبلغ وتجنب النتائج السيئة التي تترتب على وضع مثل هذا الامر بين يدي رجـــال

(١) تقرير سابا وشركاهم المرقم د/١٢٤٣ والمؤرخ في ٢٢ كانون ثاني ١٩٤٦.

التحقيق والقضاء • واني اغتنم هذه الفرصة لاشكركم على توفيقكم النادر وبراعتكم الفائقة في التأثير على الجاني الذي ارتكب فعلته مرتين بسابق اصرار وتعمد ، واثارة وازع الخير والتوبة في نفسه فاعترف لكم بكل شيء • ولولا عملكم المتواصل وقوة شخصيتكم والحزم الذي ابديتموه لما انتهى الامر الى هذه النتيجة الطيبة • وتفضلوا ايها الاخ بقبول فائق الاحترام •••»

تصريح لعلي جودة الايوبي وزير الخارجية

نشرت جريدة لواء استقلال في عددهـــا ٥٤٨ الصادر في ١٢ـ١٢ـ١٩٤٨ بيانا لوزير الخارجية القاه في المجلس النيابي ردا على انتقادات بعض النواب لاحدى اللوائح التي قدمتها وزارة الخارجية الى المجلس • وهذا نص ما جاء في الجريدة :

وتكلم وزير الخارجية فشكر النواب على اهتمامهم باللائحة واعلن انه ممنون جدا ان يسمع هذه الانتقادات ، ثم قال : ان هذه اللائحـــة استهدفت تطبيق بعض الاراء التي جاءت مخلصة لرفـــع كفاءة وزارة الخارجية سواء اكان ذلك في الديوان ام في مؤسسات الوزارة في الخارج ثم استعرض الوظائف المستحدثة وقال بعد ذلك : اؤكد للمجلس انـــه لا توجد زيادات في النفقات ولا مبالغة في التعويضات ، وانما هي لتحسين ديوان الخارجية لانه الدماغ المفكر لوزارة الخارجية • وانني آسف ان اقول ان الخارجية انحطت في كفاءتها مع الاسف ، بعد سنة ١٩٣٩ فقـد كان عندنا موظفون اذكرهم بكل تقدير يقومون بواجباتهم حق القيـام ، اذكر منهم موسى الشابندر وعلي حيدر سليمان ، وعبد القادر صالح ، وطالب مشتاق ، وجميل السلام وغيرهم • وقـــد خرجوا في ظروف

استثنائية ، وكانوا يمشون الماكنة بكل مقدرة ، ولكن ظروفا قاسية اخرجتهم . وهذه اللائحة استهدفت ارجاع قسم من هؤلاء او ما يمكن ارجاعه ...

وفي أثر صدور هذا البيان ارسلت الى عبد الحميد شومان ، المدير العام للبنك العربي ، الكتاب التالي برقم ١٤٢٥٩ وتاريخ ١٥–١٢–١٩٤٨

سعادة السيد عبد الحميد شومان المحترم

المدير العام للبنك العربي – القاهرة

تحية واحتراما

تتذكرون ان فصلي عن وزارة الخارجية جرى في سنة ١٩٤١ عندما كان فخامة علي جودة الايوبي وزيرا للخارجية ، ومن دواعي سروري ان فخامته الآن هو نفسه وزير للخارجية يصرح في المجلس النيابي بالظروف الاستثنائية التي دعت الى فصلي وبعض الزملاء من الخدمة ، ويشيد معلنا على رؤوس الاشهاد اننا كنا نقوم بواجباتنا حق القيام ، ويعترف بصراحة ما وراءها صراحة اننا كنا نمشي ماكنة وزارة الخارجية بكل مقدرة .

ارسل اليكم قصاصة من جريدة لواء الاستقلال للاطلاع عليها ،علما بان بعض المسئولين استمزجوا رايي في العودة الى الخارجية وزيرا مفوضا ورفضت عرضهم باباء مفضلا خدمة مؤسستنا العزيزة (البنك العربي) بكل ما لدي من قوة وفقنا الله واياكم الى ما فيه الخير لهذه

المؤسسة التي اعتبر خدمتها خدمة للمصلحة العامة نفسها •

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

التوقيـــع
طالب مشتاق

وقد رد المدير العام على كتابي هذا بكتابه المرقم ٤٢٤٩٩ والمؤرخ في ٢١ــ١٢ــ١٩٤٨ الصادر عن القاهرة :

تحية واحتراما وبعد ،

بالاشارة الى كتابكم المؤرخ ١٥ــ١٢ــ١٩٤٨ برقم ١٤٢٥٩ ، اطلعنا على بيان وزير الخارجية في مجلس النواب وفيه الثناء على حضرتكـــم واخوانكم رجال السلك الخارجي السابقيـــن الذين خسرتهـــم وزارة الخارجية دون مبرر ، مع اعتراف وزير الخارجية الآن باخلاصكم وكفاءتكم وتفانيكم في خدمة المصلحة العامة ، لا للعراق خاصة بل للبلاد العربيـــة عامة ، وهذا ما لمسته شخصيا وانتم تمثلون الحكومة العراقية الموقـــرة في القدس •

ولا يسعنا الا تقديم شكرنا على عواطفكم النبيلة وثقتكم العظيمة في هذه المؤسسة العربية التي قامت وستقوم بخدمات جلى للامة العربية ، وهي لله الحمد سائرة الى الامام رغم الظروف الحاضرة ، وخصوصا في فلسطين ، وقد قامت بواجبها على الوجه الاكمل اذ كانت المؤسسة الوحيدة بين البنوك المحلية والاجنبية في فلسطين التي دفعت للمودعين واصحاب الامانات مئة في المئة عند الطلب (١) ، مع ان البنوك الاخرى قفلت ابوابها

---

(١) يقصد اثناء غلق البنوك ابوابها في وجه العرب عندما حلت نكبـــة فلسطين ...

منذ تسعة اشهر دون اي اعتبار لمصالح الشعب العربي ، وقريبا ستسمعون اننا اقمنا قضية على بنك باركليز في لندن والقدس ومصر لانه امتنع عن دفع الاحتياطي المودع من البنك العربي لديه ، وهو مبلغ يزيد على ستمئة وخمسين الف جنيه فلسطيني ...

وان نالت هذه المؤسسة من سمعة طيبة في العالم العربي والخارجي ، فيرجع الفضل فيه الى جهود واخلاص وامانة ادارتها ومديريها وموظفيها . هذا وفي الختام نرجو من الله سبحانه وتعالى ان يوفقنا لما فيه خير هذه المؤسسة والامة العربية ، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

عبد الحميد شومان
المدير العام

ازمة السوق المحلي تتطلب علاجاً سريعاً

انني منذ أن بدأت العمل ، بعد افتتاح فرع البنك العربي في بغداد ، وجهت جل اهتمامي الى صغار التجار والطبقة المتوسطة فيهم لأنني كنت اعرف ان هؤلاء كانوا على الدوام ضحايا الصيارفة ، والمرابين من اليهود .. والمصارف كانت تفضل التعامل مع التجار والمتنفذين فيهم وتهمل هاتين الطبقتين وتتركهم لقمة سائغة في فم اليهود والمرابين ، وبعد انتهاء معارك فلسطين بالشكل الفجيع الذي نعرفه اصبح وضع هؤلاء حرجا للغاية ، فالنقد في الاسواق اخذ يقل والحاجة اليه اخذت تزداد لا سيما بين التجار متوسطي الحال ، ومعاملة الصيارفة اخذت تشتد قسوة وعنفا بغية الربح الفاحش والاستغلال ، فرأيت ان الواجب الوطني والانساني يدعوني ان أسد الطريق في وجه المرابين الجشعين وان اكون عونا للتجار الصغار اقف في جانبهم وآخذ بيدهم وأمدهم بالمال الذي يحتاجون اليه لتسهيل اعمالهم وتمشية امورهم وتحسينها .. وهكذا تبنى البنك العربي في بغداد سياسة مناصرة التجار الصغار ومساعدتهم خلال تلك الازمة المالية الخانقة . ومنذ ذلك التاريخ ازدادت الثقة بالبنك وذاع صيته في الاوساط التجارية وكثر التعامل معه واخذ التوفيق يسايره بفضل من عند الله ...

وكان قبل ذلك ان حولت الحكومة العراقية مبلغا كبيرا من المال الى الجامعة العربية ، وقد سمعت في حينه ان التحويل تم بوساطة بنك زلخة في القاهرة ، فاستغربت ان يصدر عمل مثل هذا عن مصرف وطني ، لأن العمل في حد ذاته مخالف ليس للمصلحة العامة ذاتها ، بل للذوق السليم ايضا لا سيما وانني شخصيا كنت قد بلغت المسئولين في ذلك المصرف ان البنك العربي مستعد لتحويل اي مبلغ الى الجامعة العربية دون اية عمولة ... وفي أثر انتشار هذا الخبر بين الناس وانعكاسه في أروقة البرلمان وفي المجلس نفسه اصدرت الحكومة بيانا تكذب فيه الشائعات التي تروج عن تحويل المبلغ المرسل الى الجامعة العربية عن طريق بنك زلخة ، وتؤكد ان المبالغ حولت بوساطة البنك العربي ... وقد كان هذا البيان مفاجأة غريبة لي حقا ، وكان من الطبيعي ان لا اسكت عنه ، فنشرت بيانا كذبت فيه ادعاء الحكومة وأكدت على ان التحويل تم بوساطة بنك زلخة ... وقد كان هذا الموضوع حديث الصحف والمجلس في ايام كثيرة ... وقد كتب اسماعيل الغانم المحامي مقالا قيما بهذه المناسبة نشرته جريدة (اليقظة) بتاريخ ١٥ كانون أول ١٩٤٩ ، رأيت من المناسب نشره هنا خدمة للتاريخ وتأييدا لما سبق ان ذكرته في هذا المجال .

« منذ ابتدأت معركة فلسطين تتخذ طورها السيىء الاخير انكمشت الاوساط التجارية على نفسها واحجم المتمولون ، وغالبيتهم الكبرى من اليهود ، عن الاقدام على التعامل بالنسيئة والاقراض بمبالغ كبيرة لآجال قصيرة مما تتطلبه طبيعة التداول التجاري المحلي ، كما امست البنوك وبيوت المال والصيارفة ، وغالبيتهم العظمى كذلك من اليهود ، اصبحت هذه العوامل الاساسية في الهيكل الاقتصادي تنخفض كثيرا وتتشدد في

شروط الاقراض ، وتشتط في طلب الضمانات ، وتفرض اقسى الشروط على المتعاملين معها سواء اكانوا من اوساط التجار ام من كبارهم • امـا الصغار والناشئون فيهم فقد تقطعت بهم الاسباب ، وانسحب الكثيرون منهم من سوق التعامل ، ولولا مؤسسة واحدة من المؤسسات القومية مدت يدا من المعونة الى امثال هؤلاء البؤساء لاصبحوا كالأيتام في مأدبة اللئام، وتلك المؤسسة هي البنك العربي الذي لولاه لأفلس اكثرية التجار مـن المسلمين سواء اكانوا من طبقة الاوساط ام الطبقة الدنيا •

ويبدو ان الحكومة كانت ـ ولا تزال ـ في شغل عن رقابة السوق التجاري بحيث تظهر البنوك كأنها دولة مستقلة لا رقيـب عليهـا ولا حسيب ••• وحتى مصرف الرافدين الحكومي ، اتخذ لنفسه موقفا هو اقرب الى كونه مؤسسة مالية اجنبية ، من كونه منشأة وطنية اقيمـت قواعدهـا واركانها بأموال الشعب ودموعـه وعرقـه فقـد أخـذ المصرف يترسم خطا البنوك الاجنبية كالبنك الشرقي والبنك الايراني ، في محاربة التجار الوطنيين وخاصة الصغار فيهم والناشئين ، فهو يمتنع عن اقراضهم حتى مع أقوى الضمانات ، في الوقت الذي يقوم بفتح اعظـم الاعتمادات ، وباسهل الشروط للتجار اليهود والاجانب بسبب ما يسيطر عليه من عناصر لا تخفي ولاءها لليهود ••• وقد يعجب القارىء اذا ما علم ان هذا المصرف المفروض فيه انه مؤسسة وطنية اقيمت لحماية مصالح الشعب والوطن من تصرفات الشركات المالية والاجنبية ، قد وظف مبلغا جسيما من ودائعه يبلغ الاربعة ملايين دينار في شرائه سندات القـرض البريطاني ذي فائدة اربعة بالمئة ، وبهذا العمل شل حركة التداول النقدي

المحلي وجمد هذا المبلغ الجسيم ومنع التجار المحليين من الافادة من تشغيله وتداوله ، واضاف هذه الكمية الجسيمة من النقد المجمد الى الملايين الاخرى من اموال الرعايا العراقيين المجمدة في المصارف البريطانية في انكلترة .

لقد كنا ننادي بلزوم قيام الحكومة بانشاء المؤسسات المالية والصيرفية لتفادي حركات التخريب الاقتصادي الذي قد تتعرض له البلاد في ما اذا اراد اليهود المحليون لغم السوق المحلي واحداث شلل شامل في المرافق الاقتصادية لسيطرتهم على سوق النقد والتداول ، فاذا بهم يمتد نفوذهم حتى الى مؤسساتنا الوطنية الصرفة ويستحوذون عليها بصورة غير مباشرة بوساطة اذنابهم وصنائعهم . ونحن لا نشك في ان عملية شراء سندات الدين البريطاني من قبل مصرف الرافدين كانت جزءا من الخطة التخريبية التي رسمتها السلطات اليهودية في الخارج ، واغرت بها صنائعها الكثيرين في بلادنا كي تحدث هذا الاثر الذي تعاني البلاد من اثره اليوم ... وكيف يستطاع نكران هذه الحقائق ، ولم تمض اكثر من سنة على حادثة ارسال حصة الحكومة العربية من تكاليف الجامعة العربية بوساطة بنك زلخة من قبل المسؤولين في بنك الرافدين ، وجرأتهم على تكذيب الواقع وادعائهم ان المبلغ ارسل بوساطة البنك العربي وتوريط الحكومة باصدار تكذيب رسمي لم يلبث البنك العربي ان كذبه واضطرت السلطات الحكومية الى السكوت ؟..

اننا نرى ، ان ترك الحبل على الغارب في هذه الشؤون الحيوية جريمة بحق الوطن ، وعلى الحكومة ان تتخذ موقفا جديا لمعالجته وان

تضرب بقسوة على عوامل التدمير الخفية العاملة في هدم الكيان الاقتصادي للبلاد وان تضع المؤسسات النقدية والصيرفية ، اجنبية كانت ام محلية تحت رقابة صارمة وان يكون لها من الجرأة الادبية ما يمكنها من اقصاء من يثبت تلاعبه في مقدرات البلاد المالية وعبثه بمصالحها كائنا من كان ولاي جهة انتسب ، فقد تأزم الوضع المالي في السوق واصبح ينذر بكارثة »...

المؤتمر الثاني للبنك العربي

عندما عدت الى بغداد مقبلا من القاهرة ، بعدما شاركت في المؤتمر الثاني لمديري البنك العربي الذي انعقد هناك ، قابلني احد محرري جريدة اليقظة وطلب الي ان ادلي بحديث لجريدته عن مقررات ونتائج المؤتمر سالف الذكر ، فأدليت له بحديث مسهب نشر في عددها الصادر في حزيران ١٩٥٠ وهذا نصه :

« ذكرنا سابقا خبر أوبة طائب مشتاق مدير البنك العربي في بغداد من مصر ، بعد حضوره مؤتمر مديري البنك العربي الذي انعقد في القاهرة في اليوم العاشر من شهر أيار المنصرم وقد زاره مندوب اليقظة ورجاه الادلاء بحديث عن اثر هذه الزيارة في نفسه وما تركته من انطباعات عن النهضة الصناعية والاقتصادية في القطر الشقيق ، وما اسفر عنه مؤتمر البنك العربي العتيد من مقررات ، فأدلى بالحديث الشامل الذي يطالعه القراء ، واليقظة تنتهز هذه الفرصة لتشكره على اجابة رغبتها وتبارك فيه جهوده الطيبة في خدمة الامة العربية في الحقل الاقتصادي ...

انعقد المؤتمر في اليوم العاشر من شهر ايار ١٩٥٠ في احدى قاعات

فندق شبرد في القاهرة برآسة سعادة عبد الحميد شومان المدير العام للبنك العربي ورئيس مجلس ادارته وقد دام الاجتماع ثلاثة ايام تذاكر المجتمعون خلالها في شتى المواضيع التي تخص امور البنك وتعود بالنفع الجزيل على ارباب المصالح التجارية والمودعين في الوقت نفسه . وقد استعرض المجتمعون الحالة العامة للفترة الواقعة بين المؤتمر الاول الذي انعقد في القدس قبل ثلاثة اعوام وبين المؤتمر الثاني ورسم الخطط الشاملة لمجابهة حالات الطوارىء والازمات ، ثم درس قضايا الادانات (بحث الديون) درسا وافيا ووضع سياسة دقيقة لها واوصى بصورة خاصة بضرورة تبادل المعلومات بين الفروع وارسال تقرير شهري للمركز العام يتضمن معلومات عن الاستيراد والتصدير وحركة الاسواق بصورة عامة ...

ومن اهم الامور التي درسها المؤتمر قضايا الملاك وقانون التقاعد للموظفين ، واتفق المجتمعون على نظام خاص بالملاك يكفل للموظفين كثيرا من المنافع والحقوق واتفقوا كذلك على نظام للتقاعد يؤمن مصلحة الموظفين من جميع الوجوه ...

واخيرا تذاكر المؤتمر في تزييد الكفاءة الفنية في جميع فروع البنك وقرر ضرورة ارسال بعثات ينتقى اعضاؤها من بين موظفي البنك ويرسلون الى البنوك العالمية كشيزناشتال بنك في اميركة ومدلند بنك في انكلترة وغيرها من امهات البنوك بقصد التمرين والاختبار ..

وانعقاد هذا المؤتمر في القاهرة كان بمثابة دعاية واسعة النطاق للبنك العربي في جميع الاوساط التجارية والاقتصادية والمالية والسياسية ، فقد سنحت الفرصة لرجال البنك العربي ان يتصلوا برجال المال والاقتصاد الكبار في القطر المصري الشقيق كاصحاب المعالي والسعادة حافظ عفيفي

باشا ، وعبد الرحمن حمادة باشا ، ومحمد علي نمازي باشا ، وسيد باشا المنشاوي ، وعبد الحليم باشا ، والدكتور عبد المنعم عاشور ، وصلاح الدين الشور به جي بك ، وصبحي الشوربه جي بك ، وعبدالله القباني بك ، والسيد عبد الجليل عبد الدائم ، وغيرهم من أساطين التجارة والمال في القطر المصري العزيز ، كما زرنا صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء الذي استقبلنا في داره العامرة بشاشته المعهودة ولطفه الجم وادبه الوافر ، وحيا في اشخاصنا الشعوب العربية التي ننتمي اليها ورجانا ان نبلغها تحياته وتمنياته الطيبة لها .

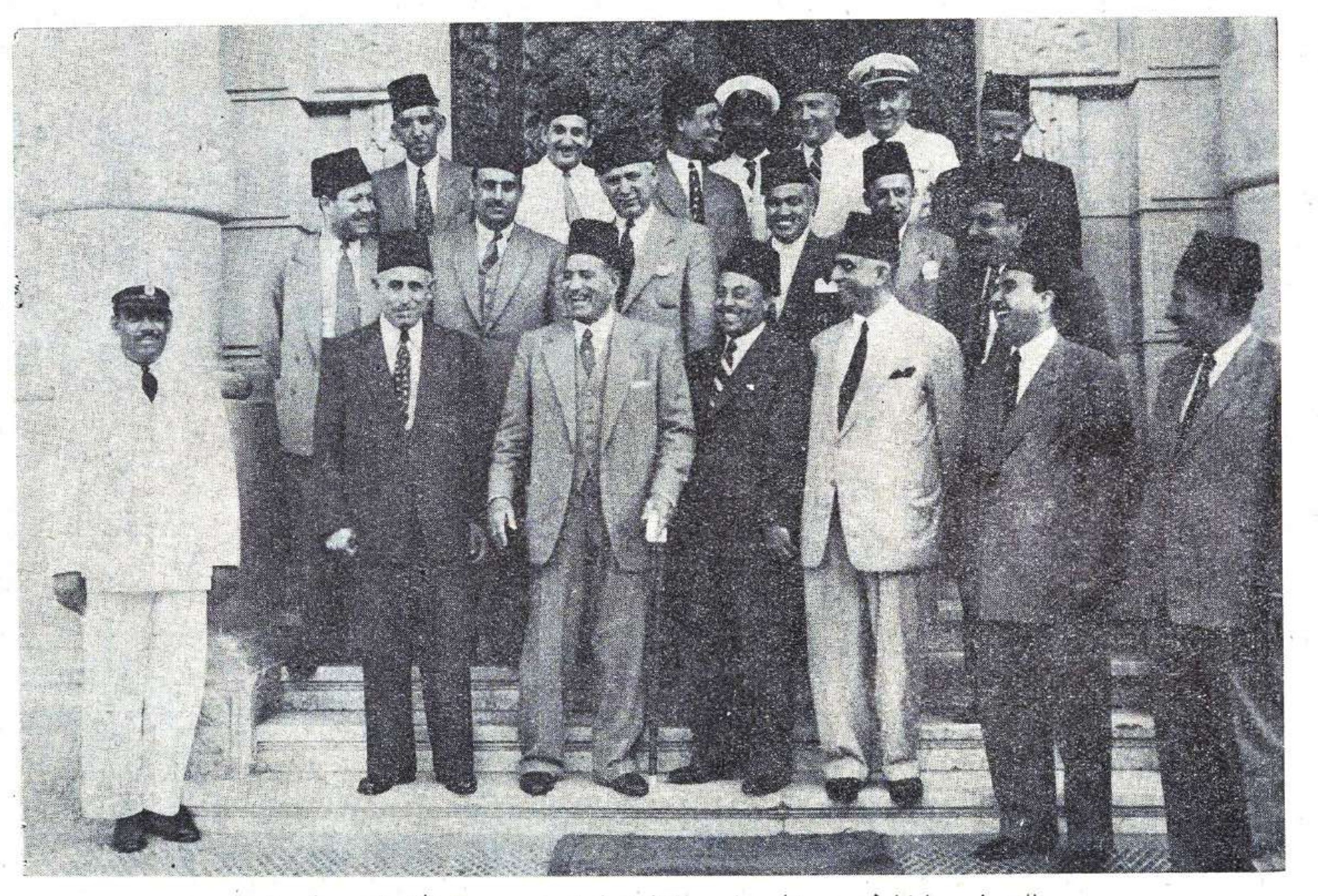
وفضلا عن ذلك كله هيأ لنا انعقاد هذا المؤتمر زيارة اهم المعامل المصرية واذكر في رأسها معامل شركة مصر للغزل والنسيج في المحلة الكبرى . واذا قلت المحلة الكبرى ، انما اعني مفخرة مصر الكبرى ودعامة اقتصادياتها ، فانها والحق اية من ايات العمل المثمر ، ومثلا رائعا لكفاءة العربي اذا ما وجه التوجيه الصحيح في ميادين العمل والانتاج . ولاجل ان اعطيكم فكرة عامة عن هذه الشركة اذكر لكم ان مصانع انتاجها الحالية تتألف من : مصانع الغزل والقطن والنسيج وتبييض الاقمشة القطنية وصباغتها وطبعها . ان مصانع غزل القطن تحتوي على (١٤٣) الف مغزل ومصانع النسيج تحتوي على اربعة الاف نول وعدا ذلك فالمعمل يحتوي على مصانع لغزل ونسيج الصوف ايضا وتحتوي هذه المصانع على (٨٧٠٠) مغزل للصوف و(١٤٠) نولا ، خلاف ماكينات الصباغة والتجهيز . وكذلك في المعمل مصانع خاصة لعمل القطن الطبي .

ويتضح لكم من ذلك كله ان شركة مصر للغزل والنسيج بهذه المصانع اكبر وحدة كاملة من نوعها لانتاج غزل ونسيج القطن والصوف ، لا في مصر وحدها بل في كثير من بلاد العالم ايضا . وتبلغ مساحة الارض

التي اقيمت عليها مباني المصانع الحالية وما خصص منها للمرافق العامة ومساكن الموظفين والعمال (٤٣٠) فدانا . اما الانتاج ، فمن غزل القطن تصدر سنويا (١٩) مليون كيلو ومن المنسوجات القطنية (٩٥) مليون ياردة . ويقدر انتاج الصوف السنوي من الغزل بـ (١٫١٣٠٫٠٠٠) ومن النسيج مليون ونصف مليون متر وانتاج القطن الطبي يقدر بـ (٣٣٠٫٠٠٠) كيلو سنويا . ويدير الشركة (٨٧٠) موظفا تبلغ رواتبهم السنوية (٢٨٠) الف جنيه . اما العمال فعددهم (٢٠) الف عامل يتقاضون اجورا سنوية تبلغ مليون وستمئة الف جنيه ، هذا عدا المبالغ التي تصرف للمكافآت السنوية ولصناديق ادخار الموظفين والعمال والتأمين عليهم...

وتسهر الشركة على تحسين حال موظفيها وعمالها من جميع النواحي الثقافية والتعليمية والاجتماعية والصحية والغذائية والرياضية ، والشركة ترسل البعثات الى الخارج وتفتح المدارس للعمال في الداخل ، وقد انشأت عددا من المساكن الصحية للموظفين ومدينة نموذجية للعمال وعيادة لمعالجة المرضى ومستوصفا للولادة ومستشفى ومصحة للامراض الصدرية ومطعما لتقديم وجبات الطعام بأثمان زهيدة وسوقا تباع فيها الحاجيات الضرورية وساحات للالعاب الرياضية وغيرها من المرافق ...

وعدا ذلك تلقى رجال البنك العربي دعوات كثيرة من اوساط مختلفة لم تسنح لهم الفرصة لاجاباتها كلها وانما قام مديرو البنك العربي بالزيارات التي تمكنوا منها ، وفي جملة ذلك مثلا زيارتهم معامل شركة الشرق للغزل والنسيج في القاهرة وشركة سباهي للغزل والنسيج في الاسكندرية ومعامل شركة الشوربه جي لصنع الجوارب والفانلات والاقمشة الحرير في القاهرة ، وكذلك قمنا بزيارة البورصة العامة وبورصة القطن في الاسكندرية وغرفة تجارة الاسكندرية وسكرتيرها العام علي شكري خميس ، واخيرا



مع النحاس باشا في مدخل داره اثناء زيارة مديري البنك العربي لسيادته
بمناسبة انعقاد المؤتمر الثاني للبنك العربي سنة ١٩٥٠

قمنا بزيارة خاصة لستوديو نحاس فلم الذي تفضل اصحابه وارفقوا بنا (في جميع سفراتنا) مصورا سينمائيا التقط لنا فلما قد يكون من اجمل الافلام ...

وفضلا عن ذلك سنحت لنا الفرصة للسفر الى الاسكندرية وبور سعيد والمنصورة وطنطا والاسماعيلية وقمنا بزيارة خمسة فروع من البنك العربي في القطر المصري الشقيق .

وخلاصة القول ان هذه السفرة كانت مفيدة لنا من جميع الوجوه :

اولا : هيأت لنا فرصة المداولة مع زملائنا في جميع الفروع في الوضع العام للبنك العربي وفي الاصلاحات التي يجب القيام بها في المستقبل .

ثانيا : قوت ايماننا بان العرب قادرون على النهوض باقتصاديات بلادهم اذا وجهوا توجيها صحيحا .

ثالثا : ان مصر دعامة لا يستهان بها في بنيان الامة العربية ، ومن يسعى الى تقويض هذه الدعامة فانما يسعى الى هدم كيان الامة العربية جمعاء ...

موظفو البنك

إن الموظف ، سواء اكان يشتغل في مؤسسة حكومية ام شركة خصوصية ،اهم عنصر للنجاح وبحسن سلوكه يجتذب قلوب الناس وبأمانته يكسب ثقتهم وبنشاطه وجده واخلاصه في عمله يرفع مكانة المؤسسة او الدائرة التي يعمل فيها ، ولذلك وجهت جل عنايتي منذ بدأنا تأسيس فرع البنك العربي في بغداد الى انتقاء الموظفين من الشباب الذين تكمن فيهم القابليات المتطلبة للعمل في مؤسسة مثل مؤسستنا ••• وكنت اقابل عشرات المراجعين في كل يوم واكلمهم في شتى الامور واوجه اليهم الاسئلة المختلفة مستطلعا مداركهم وقابلياتهم ، ثم اؤشر على عريضة من أراه صالحا للعمل منهم وافرزها عن غيرها من العرائض ••• لقد رميت كل الرجاءات عرض الحائط واغضبت عددا من الاصدقاء لأنني لم ألب طلبهم في تعيين المقربين او المنتسبين اليهم ، وهكذا استطعت ان احصل على عدد من الشبان الذين توسمت فيهم الصفات المطلوبة لعمل جدي مثمر ••• وكنت موفقا حقا في انتقائي هؤلاء الشبان ، وهذه الحفنة المنتخبة من الشباب اللامع المتلهف للعمل بجد واخلاص التي كانت مثلا رائعا على ان العربي لا يقل عن غيره ذكاء واتقانا للعمل اذا ما وجه توجيها صحيحا ودرب تدريبا صالحا في العمل المنوط به ••• واذكر م نهؤلاء خاصة : بشير الجراح ،

مراد رشيد ، عبد الرحمن السامرائي ، صبيح صادق ، جميل كاظم وسليم العبيدي ، وقد بدا كل من هؤلاء موظفا بسيطا في الفرع واصبح يشغل مركزا مرموقا في البنوك المختلفة بعد التأميم ...

كنت احاول دائما ان ابعد الموظفين عن الاقتداء بموظفي المؤسسات الحكومية ، فالموظف في دوائر الدولة مهما كان صغيرا يعتبر نفسه سيدا لكل مراجع ، تراه منتفشا وراء مكتبه ويطلب الى المراجعين الانقياد التام لاوامره والرضوخ لارادته ... ولذلك كنت اجمع الموظفين بعد ساعات الدوام واناقشهم في بعض الاعمال التي تلفت نظري خلال ساعات العمل فمثلا : شاهدت مرة احد الموظفين شتم فراشا لتقصير صدر عنه ، فتطرقت الى هذا الموضوع في احد الاحاديث ووضحت لهم ان عملا كهذا لا يليق بموظف مهذب ، وليس عقاب الفراش المقصر الشتم ، بل هناك عقوبات مقررة يطبقها المدير في المقصرين سواء اكانوا فراشين ام موظفين ، وكان بالموظف الشاتم جدير ان يراجع المدير ، والمدير يقرر العقاب المناسب ... واضفت الى ذلك قائلا : اود ان يعلم الجميع اننا هنا جميعا متساوون بالحقوق ، وليس بيننا شريف ووضيع ، والوظيفة لا تكسب صاحبها شرفا وانما الشخص هو الذي يكسب الكرسي شرفا بحسن تصرفاته وحميد صفاته ، وقد يكون الفراش اكثر شرفا من وزير او مدير في بعض الاحيان .. .

امانة موظف

وكنت ، في هذه الاجتماعات احاول ان اغرس في شعور الموظفين الثقة بالنفس ، والتضحية في سبيل الواجب ، واتخاذ المصلحة العامة هدفا ساميا ، وأبث في نفوسهم كل المثل العليا ليتحلوا بها ويظهروا امام الزبائن بالمظهر اللائق بموظف يعمل في مؤسسة بثقة الناس واحترامهم جديرة ... وكنت سعيدا جدا بالنتائج العملية التي حصلت عليها في هذا المضمار ... راجعني يوماً صبيح صادق امين الصندوق[1]واخبرني انه بعد ان دقق الصندوق وجد زيادة فيه تبلغ ثلاثة الاف دينار ... سألته : من هم الزبائن الذين تسلمت منهم مبالغ كبيرة خلال هذا اليوم ؟... قال : اذكر منهم الحاج اسماعيل شنشل ... قلت : آتني بالمبلغ ولا تبح بكلمة واحدة امام احد .. تسلمت المبلغ ووضعته في الصندوق الحديد الموجود في غرفتي ، وفي صباح اليوم التالي دق جرس التلفون وكان مخاطبي الحاج اسماعيل شنشل المرحوم قال : عفوا يا استاذ ، انني اريد ان افاتحك في موضوع ويمنعني خجلي ... قلت : تفضل يا حاج وافصح بما لديك ... قال : دققنا صندوقنا اليوم ووجدنا نقصا فيه بثلاثة الاف

(١) انه مدير عام بنك بغداد بالوقت الحاضر .

دينار ••• ومحاسبنا يوم امس سلمكم مبلغا كبيرا لوضعه في الحساب ، فهلا يجوز ان يكون المبلغ المفقود قد ادخل ضمن المبالغ المسلمة الى البنك ؟••• قلت : هل انت متأكد من ان حسابكم نقص ثلاثة الاف دينار ؟•• قال : كل التأكيد ••• قلت : تعال اذا يا حاج وتسلم المبلغ المفقود • وبعد بضع دقائق اتى الحاج اسماعيل شنشل المرحوم وتسلم المبلغ المذكور كاملا ••• وبعد ان عاد الى مكتبه ارسل الينا كتابا يثني فيه على امانة امين الصندوق ، ويشكر البنك على حسن صنيعه ، وحرصه على مصالح زبائنه ، والكتاب المذكور لا يزال محفوظا في ملفات البنك •

* * *

وامانة مستخدم

واليك مثال اخر على الامانـة التي يتحلى بهـا موظفو البنـك ومستخدموه :

ان احد الصيارفة الكبار رهن عندنا كمية كبيرة من الذهب يبلغ وزنها مئة وعشرين كيلو غراما ، وهي مؤلفة من مئة وعشرين قطعة كل قطعة منها تزن كيلوغراما واحدا ... ناديت شلال حطاب الفراش وطلبت اليه ان يصف هذه القطع في محل خاص من الصندوق الحديد فوضعها واحدة فوق اخرى وذهب ... وكان ذلـك في يوم الخميس ويظهر ان كثرة انشغالي ومتاعبي الفكرية انستني ان اقفل الصندوق وارفع مفاتيحه ، وقد تركت هذه المفاتيح فوق الصندوق وغادرت البنك بعد الدوام الى بيتي .. وبعدما يقارب الساعة الواحدة ، طلبني شلال تلفونيا وقال : انك نسيت المفاتيح على الصندوق يا سيدي ، فهل تريد ان اتي بها اليك الآن ام اضعها عندي حتى صباح السبت القابل ؟ اجبته مرتبكا : اتني بها حالا ، وبعد ان وصلتني المفاتيح ، وابتعد الفراش شلال عائدا الى داره ، اسرعت في العودة الى البنك وانا في حالة عصبية وفتحت الصندوق فورا ووجدت كـل شيء على حاله ... القطع الذهبيـة موجودة بكامـل عددها ،

والكمبيالات في محلها والامانات الاخرى في مكانها ... بقيت افكر طويلا ، هذا فراش لا يملك من مكاسب الدنيا سوى راتبه الضئيل وقد اصبحت ثروة طائلة تحت يديه كان في امكانه ان يستحوذ عليها ، ولديه متسع من الوقت للسفر بها الى خارج العراق ، ولم يفعل .. انه مستخدم صغير ، ولكنه ذو نفس رفيعة ، وسجية عالية واخلاق كريمة ... وانني لم اخطىء قط عندما قلت للموظفين : قد يكون الفراش اكثر شرفا من وزير او مدير عام وقد احببت شلالا منذ ذلك اليوم وساحتفظ بذكراه مدى الحياة ، وبارك الله بشلال وامثاله وجعلهم قدوة للناس ...

وفي جملة الاسباب التي ساعدتنا على النجاح في اعمالنا تلك الابتسامة التي نقابل بها كل من يراجعنا من الزبائن ... كنت اخاطب الموظفين قائلا : اننا هنا ، من المدير الى اصغر فراش ، خدام كل مراجع يدخل الى هذا البنك ، وعلينا ان نقابله ببشاشة وترحيب نكلمه بلطف وأدب ، ونلبي طلباته ضمن امكانياتنا ، ونستمع اليه برحابة صدر وجلد ، واذا غضب اياكم ان تقابلوا غضبه بغضب ، واذا غلبته العصبية اياكم ان تجبهوه بعصبية مثلها ، بل هشوا بوجهه وبشوا فانه سرعان ما يفتر وتهدأ اعصابه ويعود اليه الهدوء والاطمئنان ...

البنك العربي في ساحة الحرب في فلسطين

ان البنك العربي في بغداد لم يكتف بشن الحرب الاقتصادية والمالية ضد الصهيونية في العراق حسب بل تعدى ذلـك وشارك في حرب فلسطين فعلا ... كان فاضل رشيد من موظفي فرعنا البارزين بين زملائه بشهامته وصدق وطنيته واخلاصه .. عرفته في معتقل العمارة ، وعينته في البنك العربي في بغداد بعد تأسيسه بقليل ، وهو ضابط عسكري قدير، أبلى في معارك ثورة ٢ ايار بلاء حسنا واظهر شجاعة نادرة ، ثم هرب الى ايران بعد فشل الثورة فاعتقله الانكليز مع من اعتقلوا من رجـال العراق اللاجئين وساقوه معهم الى جنوبي افريقية ، ومن هناك اعادوه الى معتقل العمارة ... راجعني هذا الشاب الشهم عندما اندلعت الحرب بين العرب واليهود في فلسطين ، مظهرا رغبته في السفر الى ساحة الحرب متطوعا ، فقدرت فيه هذا الشعور النبيل وشجعته على المضي في سبيله وباركت فيه هذه الروح العالية وأكدت له انني سادفع راتبه منتظما طول مدة بقائه في ميدان الحرب ... وهكذا سافر الى القدس وتولى هناك قيادة منطقتنا ، وقد ذكر لي بعض الاخوان الفلسطينيين مرات عديدة ان خدماته في الجبهة كانت مضرب الامثال ، وان شجاعته في احرج الظروف

وادق المواقف كانت موضع تقدير عام ...

اني لم اخبر الادارة العامة بسفره وواظبت على دفع راتبه منتظماً وكأنه موظف يقوم بعمله في داخل البنك ، وبطبيعة الحال ان عملي هذا كان مخالفا انظمة البنك ، ولكنني في مثل هذه الظروف رجل شاذ اخالف القوانين واسحق الانظمة تحت قدمي ولا ابالي الا بالمصلحة العامة ، والقوانين والانظمة تفقد في نظري مشروعيتها عندما تصدم المصلحة العامة او المنطق السليم ... هكذا كانت نظرتي عندما منحت عبد القادر الحسيني المرحوم جواز سفر عراقي مزور ، وهكذا كان رأيي عندما منحت الحاج امين الحسيني ، مفتي الديار الفلسطينية ، سمة باسم مستعار ليدخل الى العراق هاربا من الفرنسيين ... وهكذا فعلت مع فاضل رشيد، المحارب في جبهة الحرية والشرف في ساحة الحرب في فلسطين ، فانا ادفع رواتبهفي بغداد كموظف في البنك العربي .. على انني يجب ان اذكر بلسان الاعتزاز والتقدير ان الادارة العامة للبنك العربي قد اطلعت بعد ذلك على عملي هذا واستصوبته وأقرته ، وقدرت في فاضل رشيد روح التضحية وأثنت على شعوره الفياضووطنيته الصادقة وعمله النبيل..

نوري السعيد والبنك العربي

عندما قدم بغداد عبد الحميد شومان لافتتاح البنك العربي قــام بزيارة مجاملة لنوري السعيد المرحوم ، وبعد ذلك اراد نوري السعيد ان يعيد الزيارة فاوفد رؤف الكبيسي المرحوم يسأل عبد الحميد شومان المكان الذي يراه مناسبا لاعادة زيارته فاجابه : ليتفضل الى مبنى البنك العربي في شارع السموأل ••• ذهب الكبيسي ثم عاد الى عبد الحميد شومان واخبره ان الباشا يقول : انني لا ادخل الى البنك العربي ما دام طالب مشتاق مديره ••• امتعض عبد الحميد شومان من هذا الجواب وقال للكبيسي اذا قل للباشا يا سيدي ، ليس لدي مكان آخر استطيع ان اقبل فيه فخامته وليرجيء زيارته الى وقت آخر ••• وهكذا رفض الباشا دخول مبنى البنك العربي وبقيت زيارة شومان اياه دون اعادة ••• اما انا فلم اعر هذا الامر اهمية ولا ادري لماذا كنت اشعر في قرارة نفسي ان نوري السعيد سيدخل الى البنك العربي يوما من الايام حتما ، وقد صرحت بشعوري هذا الى عبد الحميد شومان نفسه وقلت له مؤكــدا : سترى ان نوري السعيد سيدخل الى هذا المبنى مرارا عديدة ، وستبرهن

الايام لك صحة ما اقول ••• وذهبت الايام سراعا واذا بعامل بدالة التلفون في البنك يقول لي في ذات يوم : ان نوري باشا السعيد على الخط يريد محادثتك •• قلت : ليتفضل •• وسمعت صوت نوري السعيد يخاطبني : صباح الخير يا طالب ••• اجبته : اهلا وسهلا صباح الخير يا باشا • قال : لدي موضوع اريد ان احدثك فيه ، فكيف استطيع ان اراك ؟ ••• قلت انا آتي اليك متى شئت يا باشا •• قال : اذا تفضل لنشرب الشاي معا في داري اليوم عصرا •• قلت : امرك يا باشا ••• وذهبت في الوقت المعين ، واستقبلني الباشا المرحوم بترحيب حار واخذ يلاطفني كعادته مع كل الناس الذين يتودد اليهم ••• وبعد ذلك صار يعاتبني على بعض تهوراتي ، واندفاعاتي السياسية وقال يخاطبني : «انك حرمت الدولة خدماتك بمثل هذه التصرفات ••• قلت : اذا كانت الدولة قد حرمت خدماتي فالشعب لم يحرم منها وقد يكون الشعب أولى بهذه الخدمات من الدولة ••• قال : يا لله انك لانسان غريب ••• لقد كنت نجما لامعا في وزارة المعارف وموظفا ممتازا في وزارة الخارجية ، ومديرا حازما للمحاسبات العامة ••• كل ذلك قد يكون شيئا طبيعيا بالنظر الى تدرجك في الوظائف وكسبك الخبرة المطلوبة للعمل المثمر الناجح ••• كل ذلك حسن ، ولكن قل لي : كيف اصبحت مدير بنك ناجح ؟••• أجبته مبتسما : ان الفضل في ذلك يعود اليك يا باشا •• اجاب باستغراب: الفضل يعود لي ؟ قلت : نعم ، لو لم توعز بفصلي عن وظيفتي وزجي في المعتقل لما عينت مديرا للبنك العربي ومارست عملي بجد واخلاص حتى برزت مديرا ناجحا كما تقول فضحك وضحكت معه حتى جاء الى اصل الموضوع الذي طلب مواجهتي من أجله ••• قال عندئذ : طلبتك اليوم

لاكلمك في موضوع خاص ‥ انني في حاجة شديدة الى ستة الاف دينار، ومستعد لرهن اسهمي في معمل الغزل والنسيج لقاء تسلم المبلغ ، فهل في امكانك أن تدبر ذلك في البنك العربي ؟ قلت : بكل ممنونية يا باشا ، تفضل غدا الى البنك لنجري ما يلزم تنفيذا لرغبتك ، فأنفجرت اسارير وجهه عندئذ عن ابتسامة تنم عن الرضا وقال : شكرا ، سأكون عندك في صباح الغد ان شاء الله … وقد كرر الباشا زياراته لي في البنك عدة مرات حتى انتهينا من معاملة رهن الاسهم ، وغير ذلك من الاعمال الرتيبة وبعد ذلك تسلم الباشا المرحوم المبلغ المطلوب وزال ما بيننا من جفاء منذ تلك اللحظة … وأرى من الانصاف ان اذكر في هذه المناسبة ان تصرفات نوري السعيد المرحوم في تسديد هذا القرض كانت دقيقة وسليمة للغاية ، فالاقساط سددت في مواعيدها ، والفوائد دفعت عند استحقاقها ، وقد صدف مرة ان تأخر قسط من اقساط الفوائد ، وكان هو في خارج العراق ، فارسلت اليه كتابا رقيقا اذكره ذلك ، ووصلني منه الجواب بعد بضعة ايام بخط يده ، وهذا فحواه :

٢٨ حزيران ١٩٤٨

عزيزي طالب

«تلقيت كتابكم المرسل الي في البريد ، واني اشكركم كل الشكر عليه وآسف على تأخر محمد علي الجلبي في دفع الفائض ، وانني كتبت اليه كتابا رسميا بذلك ليدفع للبنك العربي في التاريخ المستحق الفائض المقرر ، وقد ارسلت له برقية قبل يومين عند تسلم كتابكم ليدفع فائض السنتين عوض السنة الواحدة كما اشرتم ، املا ان يكون قد نفذ رجائي

هذا ، واني انتهز هذه الوسيلة لاشكركم شخصيا على مساعدتكم الثمينة في هذه الظروف العصيبة . كنت اتمنى ان تقدموا له ــ اي لمحمد علي الجلبي ــ ورقة الاستحقاق ، واظن انه كان ينتظر منكم شيئا من المراجعة له على ما اتذكر واتفقنا عليه معكم (١) ، ومع ذلك ارجو اخبار صباح او اخباري ما تم في الامر ، ولكم مني مزيد الشكر ووافر التحيات .

المخلص

نوري السعيد

تحياتي لوالدكم المحترم ، وانا بحاجة الى طيارة عجمية موزونة دون ذيل ، وكذلك الى جميع اعضاء العائلة المحترمة(٢)..انتهى الكتاب..

وفي ما يلي صورة زنكوغرافية لهذا الكتاب ...

(١) لا يخطر ببالي قط اننا اتفقنا على شيء من ذلك ولو جرى بيننا اتفاق مثل هذا لما كتبت اليه وهو في استانبول على ما اذكر ، بل كان اوفق لنا ان نراجع محمد علي الجلبي مدير مصرف الرافدين لتسلم الفوائد عند استحقاقها ..

(٢) يشير الى الطيارات التي كان يعملها له والدي المرحوم عندما كان صبيا نوري السعيد .

٢٨ حزيران ٩٤٦

عزيزي [illegible]

تسلمت كتابكم المرسل الى [illegible] واني اشكركم على [illegible] واسف

لتأخر صديقكم الجليل عن رفع العرائض وشأني كنت له [illegible]

[illegible] الناكر المعترف وقد ارسلت له

برقيه قبل يومين عند استلام كتابكم [illegible]

السنه الواحده كما اشرتم املا ان تنفذ رغبتي هذه [illegible]

وانتهز هذه الوسيله لشكركم شخصيا لمساعدتكم الثمينه في هذه الظروف [illegible]

كنت اتمنى ان [illegible] – اي لصديقنا الجليل – [illegible] انه

كان [illegible] له [illegible] اشكركم [illegible]

[illegible]

ودمتم

المخلص

[illegible]

تحياتي [illegible]

[illegible]

[illegible]

كتاب من نورى السعيد بخط يده وتوقيعه .

عمارة البنك العربي في بغداد

عندما افتتح شارع المصارف الحالي ، قررت امانة العاصمة عرض العرصات التي اصبحت ملكا لها للبيع بمزايدة علنية وعينت موعدا للمزايدة ، وكان من الطبيعي ان تتقدم البنوك للمشاركة في المزايدة لأن كلا منها كان في حاجة ماسة الى بناء عصري تتوفر فيه كل متطلبات البنك من حيث البناء ... وفي صباح يوم المزايدة اخذني عبدالله القصاب المرحوم امين العاصمة وقتئذ على حدة وشاورني قائلا : سمعت أن مديري البنوك الاجنبية يتواطئون على سعر معين اثناء المزايدة لا يتجاوزونه مطلقا فما العمل ؟ ... سألته : بكم تريد ان يكون المتر المربع الواحد في هذه العرصات قال : مئة دينار تكون سعرا معقولا على ما أرى ... قلت : دعني افتتح المزايدة قبل كل احد وانني سأضع اول سعر للمتر المربع الواحد مئة دينار ، فشكرني على ذلك وعدنا الى قاعة الاجتماع ... وتنفيذا لاتفاقنا افتتحت المزايدة بمئة دينار للمتر المربع الواحد ، فبهت مديرو البنوك الاجنبية من هذه المفاجأة وصاروا تحت امر واقع ، وتم الشراء للجميع بهذا السعر ...

وبعد قليل من الزمن تم تسجيل عرصتنا في الطابو ، بعدما دفعنا

الى أمانة العاصمة ، ستين الف دينار ثمن ستمئة متر مربع من الارض ٠٠٠ وقد اسرعت ادارتنا العامة الى تهيئة الخرائط اللازمة للبناء وباشرنا العمل على طريق شركة شاهين والجنابي ، وانجز خلال سنتين بهمة لا تعرف الملل والكلل ... وعندما برز البناء شاهقا ، وكان في حينه اعلى بنـاء في العراق ، زارني احد محرري جريدة الحارس وطلب الي حديثا عن البنك العربي ، وفي اثر ذلـك كتب مقالا في جريدتـه (العدد ٦٢ في ٣٠ ــ ١ ــ ١٩٥٤) هذا نصه :

البنك العربي ، هذا الصرح العتيد الذي حول الهزيمة الى النصر والمجد والفخار . رأس مال البنك يرتفع الى مئتي ضعف خلال ٢٣ سنة فقط ٢٥ فرعا في ٨ أقطار عربية ــ كيف بدأ المصرف اعماله في القدس ونقـل الى العواصم العربية ٠ من ١٥٫٠٠٠ دينار الى ٣٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار ٠

«ولا بد ان ندرك قيمة الاعتماد على انفسنا ، ولا قيام لنهضة في بلادنا الا اذا اعتمدنا على الاقتصاد وكانت قوة ارتباطنا اهم عامل فيها ، فلنرتبط اذا بما يعود على بلادنا العزيزة بالنجاح» ٠ بهذه العبارة خاطب الرئيس محمد نجيب رئيس الجمهورية المصرية مؤسس البنك العربي ٠٠ وهو يدرك انه لا يثير اعتزاز العرب بالعرب الا قيام هذه المشاريع التي يرتكز اليها كيان العرب ومستقبلهم ٠

والبنك العربي يمثل البعث الجديد في الشرق العربي ٠ هنا صرح عتيد قام حجارة فوق حجارة ، وسار خطوة خطوة ، ونهض فوق خطة مدروسة ، وترك الحقائق وحدها تلقي كلمتها الاخيرة ٠ من هنا يجب ان يتعلم الغرب كيف يعمل الايمان والطموح ٠٠ ومن هنا يجب ان يؤمن

العرب بان لا مكان للضعيف بين الاقوياء ••• ومن هنا يجب ان يشعر العرب ان الاستقلال الاقتصادي هو كل شيء وفوق كل شيء •••

البلد المقدس

وفي الساحة الواسعة التي تنهض عليها بنايات المصارف ••• يجري العمل الآن ليل نهار في انشاء المبنى الجديد ، بصخور من فلسطين ، وبأيدي إناس يحسون آلام فلسطين ، ويشعرون بوقع الكارثة ، ولكنهم لا يريدون ان يعترفوا بالهزيمة ، بل ان يقلبوها نصرا ••

وتحس الدموع تترقرق في عينيك ، وانت تشاهد الايدي العربية صاعدة نازلة وفي كل مرة تستقر صخرة من صخور الارض المقدسة ، وتختنق بالعبرات اكثر من مرة ، ويدق قلبك بسرعة عندما تتصور هذا الصرح العتيد يقوم كالعملاق ، ويطل بوجهه العربي السمات في عاصمة الفيصلين ••

عبـرة ••

وتثير صخور فلسطين في مبنى البنك العربي الجديد ، اكثر مـن احساس واحد في النفس ••• لقد بدأ البنك اعماله في القدس قبل ثلاث وعشرين سنة ، ولـم يكن عندئذ في فلسطين وشقيقاتها العربيات ايـة مؤسسة قومية مالية سوى بنك مصر • وآمن رجال البنك العربي ؟ عبد الحميد شومان وعبد المجيد شومان وطالب مشتاق وغيرهم ••• ان عناصر الحياة يجب ان تتوفر لهذه النبتة حتى تصبح سنديانة شاهقة •••

وفي غضون اعوام قليلة تفتحت النبتة وأينعت وأتت ثمارها يانعـة

شهية .. كان للبنك عند تأسيسه رأس مال لا يزيد على خمسة عشر الف دينار ، وبعد ثلاث وعشرين سنة اصبح رأسماله واحتياطية يزيد على ثلاثة ملايين و ٢٠٠ الف دينار . وكان يقوم باعمال البنك عدد محدود من الموظفين ، وبعد هذه الحقبة من الزمن اصبح يضم اكبر مجموعة من الموظفين تضمها مؤسسة مالية عربية .. وتترقرق الدموع في عينك اكثر من مرة واحدة لمغزى صخور فلسطين في بناء البنك ... ان القلوب الفتية والنفوس الطامحة لا تهن امام الكارثة ولهذا ان هؤلاء الرجال الكبار لم يضعفوا ولا يزال في قلوبهم امل واحد هو البناء من جديد الحجر فوق الحجر والصخرة فوق الصخرة حتى يقف العملاق في مكانه قويا ، رهيبا ، عزيزا ...

وفي بغداد يتولى منصب مدير البنك طالب مشتاق ، يعاونه عدد كبير من الموظفين العرب لان البنك العربي فوق الاقليميات وفوق الحدود المصطنعة ، لانه اكبر من ان يعترف بالسدود التي فرضها الاستعمار .

ويستقبلك هذا الرجل الكبير ، يضع قلبه بين شفتيه وتقرأ على صفحة وجهه كفاحا في تعليم النشىء يلقن الفكرة العربية ، ويصنف الكتب القومية ، ويكتب التاريخ ، وكفاحا في السلك الخارجي فلقد كان خير بشير لنهضة بلاده وتطلعها للاستقلال . وكفاحا في خدمة الدولة لانه أحب وطنه حبا جما وآمن به ايمانا خالصا .. وكفاحا في العقيدة ، ولست اعرف بين الذين سخروا من الارهاب والاعتقال اكثر من طالب مشتاق ... وأخيرا هذا الكفاح في بناء المؤسسة التي اصولها في فلسطين وفروعها في سماء البلاد العربية ... وفي بضع سنوات يستطيع (طالب) ومساعدوه كالحاج نعمان العاني وغيره من رؤساء الاقسام ، ان يخدموا اقتصاد بلادهم ، وان يتركوا اعمالهم الصامتة تتكلم وحدها ..

ويقول لك طالب مشتاق في صوت يغلب عليه الحياء والتواضع : ان البنك العربي هو المؤسسة المالية الوحيدة التي دفعت جميع اموال اللاجئين ، ثم يقول بعد ذلك : هل تعلم ان سياسة البنك هي الاخذ بناصر الاقتصاد العربي في جميع الميادين التجارية والصناعية والعمرانية . لقد بدأنا الآن فعلا في سبيل التحرر الاقتصادي ، ونحن اقوياء بما نلقاه من عضد المواطنين ، ومؤازرة الاخوان الذين يشاركوننا عقيدتنا ومحبتنا بلادنا العربية .

التعاون الاقتصادي

ويؤمن طالب مشتاق أشد الايمان بالتعاون الاقتصادي بين البلاد العربية ويقول بحرارة : ان هذا التعاون بدأ ينهض الآن رغم كل العقبات التي تقف امامه ، واننا مؤمنون بانه آت مهما طال الزمن .

الاعمال الصيرفية

وثمة حقيقة اخرى ... لقد اتسعت اعمال المصرف اتساعا يبعث على الفخر واخذ يتولى المعاملات الصيرفية بجميع انواعها ، وهو يتهيأ للانتقال في الصيف القابل الى مبناه الجديد .

هذا درس

هذا درس نستلهمه من البنك العربي ، هذه المؤسسة القومية التي حولت الهزيمة الى النصر ، وقادت الاقتصاد العربي من الذل والشنار ، الى المجد والفخار (انتهى)

أضخم اعتماد يفتحه البنك العربي في بغداد

زراني في يوم ، لا اتذكر تاريخه محمد ناجي الخضيري التاجر الوجيه في بناية البنك العربي القديمة الكائنة في شارع السموأل وقال : لدي موضوع أريد أن افاتحك به ، قلت : خيرا انشاء الله ••• قال : حصلت على استيراد كمية كبيرة من السكر يتجاوز مقدارها مئتي الف طن ، ولكي اتمكن من استيراد هذه الكمية الهائلة من السكر على ان افتح اعتمادا لامر الشركة المصدرة بمليون وربع المليون باون استرليني ••• سألته : هل راجعت احد البنوك ؟•• قال : نعم •• راجعت البنك العثماني واعتذر ، وراجعت مصرف الرافدين وتردد ••• وابدى بعد ذلك كل من هذين المصرفين استعداده لفتح الاعتماد مشتركا بينهما ••• قلت : ماذا طلبا اليك تأمينا لفتح هذا الاعتماد ؟ قال : عشرين في المئة من المبلغ ••• قلت : اسمع يا جلبي ، انني مستعدان افتح لك الاعتماد دون شريك ، ولا استوفي منك تأمينا اكثر من خمسة عشر في المئة فهل يوافقك هذا ؟ اظهر ناجي الخضيري حيرته من تكليفي هذا ، وكأنه لم يثق بصحة قولي ، ولم يؤمن بامكانيات البنك العربي للقيام بعملية جبارة كهذه ؟•• قال : هل أنت جاد يا طالب ؟ •• قلت لم لا ؟ تفضل وتقدم لفتح الاعتماد وسترى ما يرضيك ويطمئن رغبتك باذن الله ••• وفي اليوم التالي فتح الاعتماد ،

واتصلت تلفونيا بالادارة العامة لتهيىء الرصيد الكافي في مد لند بنك في لندن وتم كل شيء حسبما يرام ••• ووصل السكر وتسلمه ناجي الخضيري من ثلاث بواخر في ثلاث شحنات وتسلم البنك العربي ما تبقى من الاعتماد المفتوح وربح مبلغا لا بأس به خلال اشهر قليلة ••• ومنذ ذلك التاريخ اتسعت شهرة البنك العربي في محافل بغداد ، وذاع خبر هذا الاعتماد العظيم بين التجار ، وازدادت ثقة التجار بالبنك ، وكثر التعامل معه ، وزالت من الوجود الخرافة القائلة : انه لا نجاح في الصيرفة الا على ايد يهودية ، ولا اتقان في العمل الصيرفي الا بدماغ يهودي ؟•••

ان مخابر رويتر في بغداد طير برقية الى جريدة التيمس اللندنية بهذا النبأ ، شرح فيها كل صفحات هذا الاعتماد • وقد نشرت جريدة التيمس يومئذ كلمة استوعبت ما يقارب نصف عمود من اعمدتها ذكرت فيها نجاح البنك العربي في فتح هذا الاعتماد ، وقالت : انه اكبر اعتماد باطراء فتح في بغداد منذ ان تأسس اول بنك فيها حتى يومنا هذا ، ثم اعقبت هذا الاطراء بكلمة عني ذاكرة فيها مختصر ترجمة حياتي وبعض خدماتي في دوائر الحكومة العراقية •••

حفلة افتتاح العمارة الجديدة للبنك العربي

اتنهت انشاءات العمارة الجديدة للبنك العربي في بغداد وتم تأثيثها وفرشها في اواخر شهر شباط ١٩٥٦ وجرت حفلة الافتتاح في عصر يـوم ٢٨ شباط ١٩٥٦ في احتفال كبير حضره جمهور غفير من رؤساء وزارات ووزراء واعيان ونواب وموظفين كبار ومحامين وتجار وغيرهم وقد قص نديم الباجهجي ، وزير الاقتصاد يومئذ الشريط بمقص من الذهب الخالص أهدي اليه تذكارا لهذه الحفلة ، ودخل الى العمارة يتبعه مئات المدعوين .

وقد كلفت من قبل المدير العام للبنك أن القي كلمة الافتتاح ،وهذه هـي :

اصحاب الفخامة والمعالي ، ايها السادة !...

اني أرحب بكم باسم رئيس واعضاء مجلس ادارة البنك العربي واشكركم على تلبية دعوتنا للاحتفال بافتتاح عمارة البنك في بغداد ...

هذه العمارة فريدة في نوعها ، فقد جلبت حجارتها من بيت المقدس ، اولى القبلتين وثاني الحرمين ، من ذلك البلـد الذي نحـبه ونقدسه

جميعا ... ونحن نفتخر بان هذه العمارة تباركت بجزء من تلك الارض الطيبة ، واملنا في هذه الامة ان تسترد ما ضاع من وطننا العزيز .

ايها السادة ،

ليست مؤسسة البنك العربي ملكا لشخص واحد او اشخاص معدودين ، وانما هي ملك الامة العربية في كل اقطارها وأمصارها . ففروع البنك كما ترون في البيان الذي قدم اليكم تمتد من طرابلس ليبية الى البصرة والخليج العربي ، ومن السودان الى الموصل ، ومن القدس الشريف الى الدمام فمكة المكرمة . ولقد انتشرت فروعه الثلاثة والثلاثون في ثمانية اقطار عربية ، ونأمل ان تزداد وتشمل بلادا عربية اخرى في المستقبل القريب باذن الله .

ايها السادة ! ... ان هذه المؤسسة الوحيدة في البلاد العربية التي يسهم فيها جميع العرب على السواء ، فمساهموها فيهم : العراقي والسوري واللبناني ، وفيهم الاردني والفلسطيني والمصري ، وفيهم السعودي والليبي والسوداني وغيرهم من اجزاء الوطن العربي الكبير المختلفة .

يبلغ عدد مساهمي البنك قرابة الالفين . اما موظفوه فأكثر من الف يمثلون جميع الاقطار العربية وكلهم من العرب وليس فيهم اجنبي واحد . ولقد بدأت مؤسسة البنك العربي في القدس الشريف برأسمال قدره خمسة عشر الف دينار ، اما اليوم فيبلغ رأسمالها من الاحتياطي ما يقرب من ثلاثة ملايين ونصف مليون الدينار . وبلغت موجوداتها كما ترون من البيان الذي بين ايديكم اكثر من ثلاثة وخمسين مليون الدينار .

ان هذه المؤسسة تفتخر بانها قامت على سواعد عربية منذ نشأتها ،



المؤلف عندما كان مديراً للبنك العربي في بغداد ، يلقي خطاباً في حفلة تدشين
عمارة البنك العربي الجديدة وعلى يمينه رئيس واعضاء ادارة البنك. ٢٨ شباط ١٩٥٦

وكما ذكرت أن مؤسسة البنك العربي هي للأمة العربية ، واكرر قولي لابين ان المؤسسة انما تخدم الامة العربية اينما وجد العرب ، وانها تمكنت بحمدالله خلال ربع القرن من حياتها من المساهمة الفعالة في النواحي العمرانية والزراعية والتجارية والصناعية والثقافية ، وفي كل ما من شأنه ان يعزز الكرامة القومية في كل قطر من الاقطار العربية التي تعمل فيها المؤسسة .

لعلكم تعلمون ايها السادة ان اكبر مساهم (١) في هذه المؤسسة لا يملك بيتا ، ولا يقتني ملكا وانما هو يكرس جهوده وماله وصحته لتقدم هذه المؤسسة العربية الصميمة وازدهارها .

هذه حاله منذ اسس البنك ، بل هذه حاله منذ غادر وطنه قبل خمسة واربعين عاما وذهب الى المهجر في اول صباه ووفقه الله وربحت تجارته وقضى هناك ما يزيد على عشرين سنة ، لكن هذه السنين الطويلة وهذا النجاح الذي اصابه لم تنسه واجباته تجاه وطنه العربي الكبير ، لقد كانت أمنيته دوما ان يخدم امته .

ايها السادة : اذا اعتذرت اليكم لتحدثي عن شخص تربطني به اوثق الصلات فعذري انني اود ان ابين لكم ان مؤسسة البنك العربي لا يملكها فرد ولا تملكها جماعة ، وانما تملكها الامة فهي من الامة الى الامة . واننا نرفع شكرنا الى صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني والى

---

(١) عبد الحميد شومان ، المدير العام ورئيس مجلس ادارة البنك العربي .



قسم من المدعووين في حفلة تدشين عمارة البنك العربي في بغداد .

حكومته الرشيدة وشعبه العراقي الكريم والامة العربية على تشجيعهم الدائم لهذه المؤسسة ، واليكم ايها السادة كونكم لبيتم دعوتنا لافتتاح عمارة البنك العربي في بغداد .

ولا بد لي قبل ختام هذه الكلمة ان انوه بالجهود المشكورة التي بذلها الافاضل شركة شاهين والجنابي للانشاءات العامة وشركة هندسة التبريد وتكييف الهواء المصرية وغيرهم ممن شاركوا في تشييد هذه العمارة والاشراف عليها ، والسلام عليكم ورحمة الله .

* * *

المؤتمر الثالث لمديري للبنك العربي

وفي صباح ٢٩ شباط ١٩٥٦ عقد المؤتمر الثالث لمديري البنك العربي اولى جلساته في العمارة الجديدة برآسة عبد الحميد شومان المدير العام للبنك ورئيس مجلس ادارته ، وحضر هذا المؤتمر ، عدا المدير العام ونائبه ، جميع اعضاء مجلس الادارة وموظفي الادارة العامة الكبار واربعة وثلاثين مديرا ، تبودلت خلال جلساته الاراء الكثيرة ونوقشت مواضيع عديدة عادت بالنفع الجزيل على تسيير اعمال البنك وتنظيم شؤونه .

وكان اعضاء المؤتمر طول اقامتهم في بغداد موضع حفاوة وتكريم عدد كبير من رجالات بغداد ونظمت لهم دعوات عديدة ، تبودلت اثناءها احاديث كثيرة عن شتى الشؤون الاقتصادية والتجارية والمالية ، وقد زار المجتمعون خلال وجودهم في بغداد العتبات المقدسة وبابل والحلة والكوفة وسدة الهندية وكانوا يستقبلون في كل هذه الاماكن باجلى مظاهر التجلة والتقدير . كما قاموا بزيارات البلاط الملكي ، ورآسةالوزارة ووزيري المالية والاقتصاد ، وجميع دور السفارات والمفوضيات العربية

وعدد من المعامل في بغداد •• واستمر المؤتمر على جلساته ثلاثة ايام صباحا وبعد الظهر واختتمت بتثبيت المقررات وكلمة المدير العام ، وانفض الاجتماع في الساعة السادسة من يوم الجمعة الموافق ٢ اذار ١٩٥٦ ••

وفي ٢٥ اذار تلقيت كتابين ، احدهما من عبد الحميد شومان ، المدير العام ورئيس مجلس الادارة ، والثاني من عبد المجيد شومان ، نـائـب المدير العام :

صورة الكتاب الاول

القاهرة في ٢٠-٣-١٩٥٦

حضرة الاخ الكريم السيد طالب مشتاق المحترم

تحية واحتراما وبعد ، وصلنا الى القاهرة ووجدنا ان من الواجب ان نقدم لكم ولجميع موظفي الفرع لديكم جزيل الشكر لما لقيناه من حفاوة صادقة ولقيه منكم جميع اعضاء مجلس الادارة ومديري فروع البنـــك العربي الذين حضروا حفلة افتتاح المبنى الجديد لفرعكم الذي يعتبـــر مفخرة للعرب جميعا • اكرر شكري لكم ولجميع موظفي الفرع ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •••

عبد الحميد شومان
المدير العام

صورة الكتاب الثاني

حضرة الاخ الفاضل السيد طالب مشتاق المحترم

تحية واحتراما ، وبعد فانني اقدم اليك وافر الشكر وعظيم الامتنان على الجهود المباركة التي بذلتها خلال المدة التي قضيناها في بغداد والتي كانت سببا مباشرا في هناء وابتهاج جميع اخوانك وعاملا مهما في نجاح حفلة افتتاح مبنى البنك وما تبعها من حلقات اجتماعية جميلة ، كما اكرر اليك هذا الشكر على كرمك وحسن ضيافتك وعلى جميع ما تحملته من مشقة وتعب ، وانني اسأل الله ان يحفظك بصحة تامة وهناء دائم .

المخلص

عبد المجيد شومان

وفاة امي

في اليوم الاول من شهر كانون ثان ١٩٤٩ انتقلت امي الى رحمة الله .. وقد بكيتها بكاء مرا وحزنت على فراقها الابدي حزناً عميقاً . لقد كانت رحمها الله أما مثالية ، تلقننا الرفق بالصغار والحرمة للكبار ، والعطف على الفقراء ، والوفاء مع الاصدقاء ، ورعاية الجار والرحمة بالحيوان • انها لم تكن تحسن الكتابة ، ولكنها تقرأ كل شيء : القرآن الكريم يلازمها طوال الليل والنهار ، والجرائد المحلية ، والمجلات المصرية تأتيها باستمرار وكانت دؤوبة على القراءة ، تطالع الكتب والقصص والروايات بلا انقطاع ، واكتسبت بفضل ذلك ثقافة قد لا يضاهيها ثقافة الكثيرين من خريجي المدارس الثانوية ، اذا لم نقل العالية ايضا • وكانت اجتماعية تقبل الزوار من الاصدقاء والجيران باختلاف الوانهم واعمارهم ، ولم يكن في عادتها ان تجلس على اريكة او كرسي ، بل كانت تجلس على فراش ممدود على الارض وأمامها (منقلتها) التي لا تخلو من ابريقين على الاقل من القهوة ، وقهوة ام طالب المعطرة بحب الهال لا يجهلها احد من سكان حارتنا والحارات المجاورة لنا ••• وفي ايام الجمعة كان يزورها

عدد لا بأس به من اصدقائنا الرجال ، اذكر منهم صادق البصام المرحوم ورشيد الخوجة المرحوم والفريق عبد اللطيف نوري المرحوم واحمد زكي الخياط وغيرهم ..

انني لا ازال اذكر بفخر ثلاثة مواقف لأمي :

الاول : كان في سنة ١٩٣٨ يوم داهمت الشرطة دارنا في الاعظمية واقتادوني مخفورا الى منفاي في قلعة صالح ... كانت الدموع تتساقط من عيني قرينتي ، ووالدي المسكين يجفف عينيه بالمنديل واولادي الصغار يصرخون ويبكون فزعا وألما . وفي هذه الضجة الحزينة المؤلمة وقفت امي تشجعني وتلقنني همم الرجال : مع السلامة يا حبيبي ، تحرسك عين الله التي لا تنام .. وانتم يا اولادي (تخاطب رجال الشرطة) قولوا لجميل المدفعي بيض الله وجهه ، الحمد لله الذي جعل لنا رجلا بين الرجال ...

الثاني : كان في صباح يوم الاحد الموافق ٢١ ايلول ١٩٤١ ، وكنت موقوفا في التوقيف العام وأتت امي برفقة والدي لزيارتي ، ورأيتها من بعيد وهي تمشي الهوينا قادمة نحوي فهرعت لاستقبالها . كانت هذه اول زياراتها لي في داخل التوقيف ، وكنت اظن انها ستضعف امام المناظر الرهيبة : ابواب ضخمة من الحديد ، اقفال وسلاسل ، رجال مكبلين بسلاسل ثقيلة ، حراس عديدين مدججين بالحراب والبنادق ... وكنت أتوقع انها ستذرف من عينيها دموعاً ساخنة على الاقل ، او تشكو ، او تتألم ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ... لقد استقبلتني بوجه باش ، وابتسامة تنم عن الم دفين ... سلامتك يا بني !... ان ابواب السجون تفتح احيانا للابطال من الرجال ... اياك ان تضعف ... كن مثلا للرجل الذي يخدم وطنه ، ويحترمه بنو قومه ... ثم جلست جنبي واخذت تتلفت يمينا وشمالا ... وتسآلت : من هم هؤلاء الشباب ؟.. قلت :

اكثرهم طلاب مدارس جيء بهم الى هنا بتهم سياسية مختلفة ... وقد لاحظت بينهم شابا لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره وقالت : وهذا ايضا متهم سياسي ؟.. قلت : هكذا يزعمون ... فتأوهت وقالت : اللهم رحماك من جور الظالمين ، اللهم عفوك وكرمك ...

الثالث : كان موقفها يوم تسفيرنا في القطار الى البصرة ومنها الى الفاو ، فهرعت الى المحطة لتوديعي ... وان انس لن انس وقفتها على الرصيف وهي تودعني ، وقد فتحت صدرها ونظرت الى السماء صارخة : ايه يا نوري السعيد لقد سلمتك بيد الله .. انه الحاكم العادل ، والجبار القاهر ، والويل للظالمين . ثم اخذت تذرف الدموع غزارا ، وهي تشير الي بيدها وتقول : مع السلامة يا بني ... لا تخف ولا تحزن ان الله معك ... هكذا كانت امي في سنة ١٩٣٨ وهكذا كانت في سنة ١٩٤١ فلله درك يا اماه ... انت المثال اللائق للامومة الصالحة ، انت الام التي يحتاج اليها والى كثير من امثالها الوطن الجريح ... انت المرأة الصالحة ، التي تغذي ابناءها بالشمم والاباء ... واخيرا انت المرأة التي تليق أن تكون امي. واذا كنت قد سببت لك بعض الآلام والشقاء من حين لآخر فاني التمس عفوك وغفرانك ، ولي من حسن نيتي ونبل مقاصدي خير عذر وشفيع ...

مات ابي

بعد مضي اربع سنين واربعة ايام على وفاة امي مات أبي فجـأة بالسكتة القلبية وكان ذلك في صباح ٥ كانون الثاني ١٩٥٣ • لفظ انفاسه الاخيرة وانا احتضنه بين يدي ، فأثرت هذه الصدمة تأثيرا بليغا في نفسي•• بكيته كما بكيت امي بحرقة والم •• كنت احبه حبا جما ، واحترمه احتراما لا مثيل له ، وكان والدي اهلا لهذه الحرمة وهذا الحب ، فقد كـان عاطفيا وحساسا رقيق الشعور ، وكانت عيناه تترقرقان بالدموع ، اذا سمع صوتا شجيا ، او رأي عملا فيه نبل وشهامة ، او صدفه فقير بائس يستجدي كسرة خبز ••• أتذكر يوما ، وانا طفل في الكاظمية رجلا (من المارة في الطريق بالقرب من دارنا) اعتدى على خاله بالشتم والضرب ، وكان والدي قد شاهد هذا الاعتداء من نافذة دارنا فهرع مهرولا الى الطريق وكال للمعتدي الصاع صاعين ، وبعدما عاد الى البيت وخمدت ثورته ، وهدأت اعصابه تألم لفعلته وندم على عمله ، وقد شهدت بـأم عيني الدموع تجري على خديه ، ونهض مسرعا وارتدى (بدلته) وغادر البيت مضطربا ••• وفهمت بعدئذ انه ذهب مستفسرا مكان ذلك الرجل ،

واخذ يبحث عنه حتى وجده واسترضاه بالاعتذار وبعض النقود وعاد الى البيت وأسارير وجهه تدل على الانشراح وراحة الضمير ... وكان وفيا الى اخر حدود الوفاء لاصدقائه : اعرف صديقا له مات مدينا لبعض الناس فتعهد والدي للدائنين باطفاء هذا الدين باقساط شهرية ، وقد نفذ تعهده حتى اخر فلس دفعه ايفاء لدين صاحبه ...

وفي اليوم التالي من وفاة والدي المرحوم ظهرت الصحف المحلية وهي تحمل خبر وفاته بالشكل التالي :

فاجعة آل مشتاق

استأثرت رحمة الله يوم امس بمحمد مشتاق المرحوم والد اصحاب السعادة طالب مشتاق مدير البنك العربي ، واكرم مشتاق المدير العام للطيران المدني ، وادهم مشتاق مدير اموال القاصرين ، وناظم مشتاق مدير مدرسة التدريب الجوي في جمعية الطيران العراقية والرئيس الاول ثابت مشتاق . وكان رحمه الله من الشخصيات المعروفة بالعمل الصالح والخلق السوي والادب الجم والاخلاص للمجموع ، وقد تقلب في عدة وظائف خلال العهدين العثماني والعراقي وكانت آخرها وظيفة مدير تحريرات لواء ديالي حيث ترك الخدمة في العام ١٩٣٠ .

وشيع بعد ظهر الامس جثمان الراحل العزيز الى مقره الاخير في مقبرة الامام الاعظم في احتفال مهيب مشى فيه رجال الدولة والوجوه والاعيان ورجال المال والاعمال والصحافة ...

تغمده الله بواسع رحمته والهم آل مشتاق جميل الصبر والسلوان ، وخاصة انجاله الكرام وفي طليعتهم سعادة طالب مشتاق (١) .

كان والدي المرحوم شخصية فذة حقا بحدة ذكائه وسعة افكاره ... وهو اول من ادخل الدراجة (البايسكل) الى بغداد ، وكانت دواليبها من الخشب ، ويسميها الناس (الحصان الحديد) ، وقد سمعته يقول: «انني عندما كنت أمر بالميدان في طريقي الى محل عملي في الكاظمية ، كان الصبيان والشبان يتراكضون ورائي مأخوذين بهذا الاختراع العجيب ويصيحون : حصان حديد ، حصان حديد ...» .

وكان في ايام شبابه مولعا بتربية البلابل ، وتربية البلابل في ذلك الزمان كانت احدى وسائل اللهو والتسلية عند طبقة كبيرة من اعيان بغداد وسراتها ... ويقول والدي : ان نقيب اشراف بغداد كان يتجشم متاعب السفر من بغداد الى الكاظمية ليتفرج على بلابله ، ويستمتع بالاصغاء الى تغاريدها ...

---

(١) جريدة الزمان ، العدد : ٤٦٢٨ في يوم ٦ / ١ / ١٩٥٣

والحدث التالي شهدته بنفسي واذكره للدلالة على مبلغ اعتناء والدي بهذه الطيور ذات الانغام الشجية : في يوم من ايام الصيف ، ونحن ننام فوق السطوح بحسب العادة نهضنا صباحا واذا بقفص من اقفاص البلابل قد وقع على الارض بابه مفتوحة وعلى الارض ريش متناثر ، وكان المنظر يدل على ان البلبل ، بعد سقوط القفص ، تعرض الى هجوم احدى القطط وأكلته ... تأثر والدي تأثرا بالغا وحزن على فقدان بلبله الحبيب (سعدون) حزنا عظيما ... ولكن بعد لحظات ، بينما كنا تتناول فطورنا كالمعتاد واذا بوالدي يقوم فجأة ويقول انني اسمع صوت سعدون ... وفي الحقيقة صرنا كلنا نسمع صوت بلبل ، ولكن لا نستطيع ان نميز هل كان حقيقة صوت سعدون ام غيره من البلابل ... أما والدي فركض الى الشارع وهو ينادي باعلى صوته : سعدون ! سعدون !.. وبعد ثوان معدودة واذا بسعدون ينقض على والدي ويحوم فوق رأسه ثم يهبط ويقف على يده ... انها كانت اعجوبة تناقلها الناس في مجالسهم وبيوتهم اياما واياما ...

ان ولع والدي المرحوم بتربية البلابل ساقه الى تعلم صناعة نفيسه ، فيها ذوق وفيها فن واتقان وابداع ... تلك هي صناعة حياكة الاقفاص من الاسلاك والخرز الناعم جدا (النمنم) ، فكان يعمل هيكل القفص من الخشب عند احد النجارين ثم يحوكه في اوقات فراغه بالاسلاك و(النمنم) ، بشكل زهور واشجار ونقوش بديعة ، وكانت

اقفاص مشتاق افندي مضرب الامثال عند مقتني البلابل ومربيها • وكان والدي من عشاق الازهار بلا منازع • ان حبه الأزهار ساقه الى دراسات عميقة تتبع فيها حياة الازهار : غذاءها ، طبيعتها ، مواسم زرعها ، تأثير الاسمدة فيها وغيرها من الامور التي تتعلق بتربية الازهار المختلفة ••• وقد اقتنى من اجل ذلك كتبا عديدة باللغتين: التركية والعربية ••• وكان عبد الحسين الجلبي المرحوم قد خصص له قسما من بستان قصر «ابي الأيـل» على طريق الكاظمية ــ بغداد فانشأ فيه حديقة غناء تتلألأ فيها ازهار القرنفل والشبوي والروز والسنبل وغيرها ••• ولا ابالغ قط اذا قلت : ان والدي كان أول من استورد بذور الزهور من اميركة واوربة منذ اكثر من ستين سنة ، وفي السنين الاخيرة اخذ يستورد كل ما يحتاج اليه من بذور وشجيرات من شركة ستن الانكليزية ، وكانت له مع هذه الشركة مخابرات لا تنقطع ••• وبهمة والدي ومساعيه اصبحت حديقـة داري في الوزيرية تضم اندر انواع الورد والقرنفل والدالية ، وكـان الكثيرون من اصدقائه واصدقائي يزوروننا للتفرج على هذه الاوراد البديعة بصورة خاصة ، وهي لا مثيل لها في كل حدائق بغداد ••• وزرع يوما قطعة كبيرة (لوحا) من الشبوى القطمر بالوان مختلفة زاهية ، وعندما اينعت الازهار اصبح منظرها خلابا ، يبهر الابصار ••• فاخذ صورة فوتوغرافية لهذا (اللوح) وارسله الى شركة «ستن» في مدينة «ريدنغ» في انكلترة ، فما كان من الشركة الا ان وضعت الصورة في كتابها الذي تنشره للدعاية عن منتوجاتها وارسلت الى والدي المرحوم كتابا تثني فيه

على مهارته وتهنؤه بالنجاح ..

لم يحمل والدي المرحوم اية شهادة مدرسية ، ومع ذلك كانت ثقافته لا تقل عن خريج مدرسة عالية .. كان يقرأ كتب أشهر الادباء الاتراك ، ويتتبع ارقى المجلات الادبية حتى اصبح في عداد الكتاب المجيدين في اللغة التركية .

أما ولعه بتتبع القوانين ودراستها فكان عظيما للغاية ، ولا ازال اذكر ان بعض الحكام والمحامين في بعقوبة ، في العهد العثماني ، كانوا يستشيرونه في بعض الامور الحقوقية او الجزائية وكانوا يطمئنون الى آرائه كل الاطمئنان ويعملون بموجبها ... ومع انه كان كاتب تحريرات في قضاء بعقوبة ، فان الحكومة التركية وافقت على تعيينه محاميا للخزينة في القضاء علاوة على وظيفته بعد اجتيازه امتحانا خاصا لهذا الغرض ...

وكان رحمه الله يجيد كتابة الخط اجادة تامة بجميع انواعه : (الرقعة ، الكوفي ، الديواني) وبناء على ذلك انيطت بعهدته وظيفة معلم حسن الخط في المدرسة الرشدية في بعقوبة ، فاصبح يشغل وقتئذ ثلاث وظائف في وقت واحد : (كاتب تحريرات ، محامي الخزينة ، معلم حسن الخط ..)

وكان في الوقت نفسه شغوفا بفك آلات الساعات واعادة تركيبها وبذلك اتقن تعمير الساعات اتقانا تاما ...

ومن غريب اختراعاته انه قلب (البريموس) العادي الذي نعرفه الى جهاز يعطي ضوءا كضوء (اللوكس) تماما ... كنا في بعقوبة وقتئذ قبيل الحرب العظمى الاولى ، وكان الكهرباء غير معروف حتى في بغداد (واللوكس) جهاز الضوء المعروف ، حديث عهد وغالي الثمن وكان ثمن الواحد منه خمس ليرات ذهبية . اما (البريموس) فكان ثمنه ثلاثة مجيديات فقط اي اكثر بقليل من نصف ليرة ذهبية . دقق والدي المرحوم الجهازين بامعان وتوصل الى نتيجة حاسمة : ان الجهازين يشبه بعضهما البعض من حيث الاساس ، والاختلاف في (الماسورة) التي تنقل الغاز من داخل الجهاز الى الرأس ، فقلع (ماسورة اللوكس) وذهب بها الى الحداد وطلب اليه ان يصب واحدة منها ، ثم نزع (ماسورة البريموس) وركب الرأس المصبوب بدلا منها واضاف اليها وتدا من حديد يحمل الغلاف الابيض المخرم الذي يحمله (اللوكس) عادة ، وأشعل (البريموس) واذا به ينير المكان بشكل لا يفرق عن (اللوكس) باي حال... وهكذا صار والدي يعمل هذه (اللوكسات) الجديدة لكل اصحابه في مركز قضاء بعقوبة ولا يكلفهم اكثر من اربع مجيديات (اربعة اخماس الليرة الذهبية) بدلا من خمس ليرات ذهبية ...

وكان من احب هوايات والدي الضرب على الآلات الموسيقية باختلاف انواعها : كان يعزف على الكمان والعود كفنان ملهم ، وكان يستعمل القانون بمهارة اكسبته شهرة فائقة بين العازفين على هذه الآلة الموسيقية . وكان يهوى المقام العراقي ويتقن انغامه اتقانا تاما ، الا انه لا يحسن الغناء لعدم مساعدة صوته على ذلك . وكانت تربطه باحمد زيدان القارىء الشهير المرحوم صداقة متينة ، ولطالما شهدت حفلات موسيقية نظمها احمد زيدان المرحوم في دار ابي في الكاظمية . وكان لوالدي جهاز حاك (فونوغراف) ذو اسطوانات لولبية يسجل صوت احمد

زيدان فيها ، واذا حدث اي خلل في احداها يستطيع والدي مسحها بآلة خاصة اسمها «تورنة» ثم يعيد التسجيل فيها من جديد ولازال عدد كبير من مقامات احمد زيدان مسجلا في هذه الاسطوانات التي خلفها والدي المرحوم وهي محفوظة الآن عند اخي ادهم مشتاق ...

وفي اواخر الحرب العالمية الاولى اشتد ولع والدي بتربية الخيول وكان يقتني اربع افراس من اشهر الخيول العربية الاصيلة عندما كنا مقيمين في بعقوبة . وقد استفدنا من هذه عند سقوط بغداد في سنة ١٩١٧؛ وهجرتنا من العراق في اثر انسحاب الجيش التركي منه فقد ركب والدي المرحوم واحدة وركبت الثانية وسرنا وراء الجيش التركي حتى وصلنا الى كركوك ... هكذا عاش والدي المرحوم انسانا كاملا يعشق الجمال اينما وجده ، وفنانا بارعا يتذوق الفن للفن نفسه وفيا للاصدقاء ، رحيما بالفقراء ، حاد الذكاء ، نير الفكر .. رحمه الله واسكنه فسيح جناته ...

رجال الامن يعدون علي انفاسي ويشددون الخناق علي بمراقبة دقيقة على كل حركاتي وتصرفاتي

أحببت جمال عبد الناصر قبل ان أراه ، وتوسمت فيه خيرا منذ ثورة ٢٣ يوليو ، وزاد ايماني به وتعلقي بانجازاته الثورية بعد ما اعلن بصراحة تامة وبجرأة فريدة : ان الامة المصرية جزء من الامة العربية ... كان نوري السعيد المرحوم يكرهه لانه يناوىء ميثاق بغداد ويحاول ان يحطمه بمعول عزمه وجبروته . وكان عبد الاله المرحوم يجفل عندما يسمع اسمه لانه يعتبره [illegible]دوا ماردا يسعى الى دك العروش ويحطمها فوق رؤوس اصحابها ... وكنت آنذاك من اشد انصار عبد الناصر في العراق ، اكيل له المديح في كل مجلس ، وأبشر بمبادئه في كل فرصة سانحة : ذكره لا ينقطع عن لساني ، وصورته الكبيرة موضوعة تحت زجاج مكتبي يراها كل مراجع وكل زائر ، وكثير من هؤلاء كان من الوزراء او الموظفين الكبار او الاذناب الذين يزودون البلاط بكل شاردة وواردة ..

وكانت دائرة الامن تعتبر نشاطي في جمع التبرعات للجزائر ومنكوبي

بورت سعيد مريبا [1] .. صحيح ان اللجنتين اللتين تألفتا لجمع التبرعات كانتا باذن من الحكومة ، ولا شك في ان الحكومة كانت جادة في تشجيع التبرعات للجزائر واسهمت نفسها بمبلغ جسيم لهذا الغرض ، أمـا في موضوع التبرعات لمنكوبي بورت سعيد فلم تكن كذلك ... ان موافقتها كانت لمجرد التظاهر امام الرأي العام وخدعه ، وكيف يمكن ان تشجع حكومة كان رئيسها من مشجعي الحكومة البريطانية على الهجوم على بورت سعيد ، ومن المؤكوين ان ثورة عارمة ستقوم في مصر ضد جمال عبد الناصر وحكمه في اول يوم من الهجوم تقلب نظامه وتبعثر اتباعـه وتقضي عليه وعلى كل مناصريه ورجاله !... حتى ان سعيد قزاز المرحوم طلبني يوما في مكتبه وكان وزيرا للداخلية آنذاك واشار علي بضرورة حل اللجنة العليا لجمع التبرعات لمنكوبي بورت سعيد ورجاني ان انسحب من سكرتيريتها العامة ... فاعتذرت عن الانسحاب ... وقلت له : ان ذلك يقضي على سمعتي لدى الرأي العام ويعتبر بمثابة هروب مـن ميدان الكفاح الوطني ، وانا لا ارتضي ذلك لنفسي مطلقا ... اما حل اللجنة فالحكومة هي التي اجازت تأليفها وأمر الحل بيدها ، فاذا شاءت تحلها بأمر من وزير الداخلية اما ان تحل اللجنة نفسها بنفسها فهذا امر مستحيل .

وبعد ذلك ازدادت المراقبة علي : التلفون في بيتي وفي البنك مراقب ، وداري محاطة برجال ثلاثة من كل جانب ، ورجل الامن يتبعني بدراجته اينما ذهبت ، واصبحت حياتي في بغداد صعبة شاقة لا تطاق ...

---

(١) كنت سكرتيراً عاماً في اللجنة العليا لجمع التبرعات لكل من الجزائر ومنكوبي بورت سعيد .

سفري الى القاهرة للاشتراك في مؤتمر التضامن الآسيوي الافريقي

كان المقرر ان ينعقد مؤتمر التضامن الاسيوي ـ الافريقي في القاهرة في اواخر كانون اول ١٩٥٧ ، وشجعني بعض الاصدقاء على السفر الى القاهرة والمشاركة فيه ، وطاب لي التشجيع وتقبلت الفكرة بكل ارتياح • وهكذا سافرت الى القاهرة ضمن اعضاء الوفد العراقي الذي كان مؤلفا على ما اذكر من : (محمد حديد ، حسين جميل ، فائق السامرائي ، صديق شنشل ، هديب الحاج حمود ، الشيخ احمد الجزائري المرحوم ، جميل امين ، عبد الوهاب محمود ، قاسم حسن ، امين الرحماني)

والتحق بالوفد في القاهرة كل من عبد الوهاب البياتي الشاعر ، وعزيز شريف ••• وفي يوم مغادرتنا بغداد ، كانت ابنتي لينة لا تزال في التاسعة من عمرها وكانت بين من أتى الى المطار من المودعين من اقارب واصدقاء ، ولما تقدمت الي لتوديعي قبلتني وهمست في اذني : «بابا ، اذا قابلت جمال عبد الناصر قبله نيابة عني» ••• قلت لها : حاضريا حبيبتي ، سافعل ذلك نزولا عند رغبتك ••• وخلال ايام انعقاد المؤتمر نظمت



الوفد العراقي في مؤتمر التضامن الآسيوي الافريقي سنة ١٩٥٧ (الثـــاني من اليمين : محمد حديد ، طالب مشتاق ، الشيخ احمد الجزائري المرحوم ، فائق السامرائي ، قاسم حسن ، عبد الوهاب محمود ، عبد الوهاب البياتي)

على شرف المؤتمرين حفلة كبرى في قصر القبة حضرها عبد الناصر حيث استقبل في القاعة الكبرى بعاصفة من التصفيق ... وصار يدور على حلقات المدعوين يحييهم ويتعرف بهم والابتسامة لا تفارق شفتيه ، ولما وصل الى حلقة الوفد العراقي تقدمت اليه وقبلته في وجنته وقلت له : هذه رسالة من ابنتي البالغة تسع سنين من عمرها فقد همست في اذني وهي تودعني قائلة : «بابا ، اذا قابلت جمال عبد الناصر قبله نيابة عني» . فضحك جمال في اثر ذلك وسر بعواطف طفلة بريئة سمعت اسم جمال وشعرت بما يقوم به من عمل جليل للامة العربية فأحبته وقدرته وارسلت اليه قبلة ، بوساطة ابيها الذي يحب جمالا ويقدسه ... وقد نشرت جريدة الاهرام القاهرية في اليوم التالي انباء هذه القبلة ، وقد اخذت لي صورة فريدة احتضن فيها جمالا واقبله ...

☆ ☆ ☆



هكذا قبلت الرئيس جمال عبد الناصر في حفلة اقيمت على شرف اعضاء مؤتمر التضامن الآسيوي — الافريقي في قصر القبة في القاهرة

نوري السعيد المرحوم يسأل : هل صحيح انك قبلت جمال عبد الناصر

وبعد عودتنا الى بغداد اخبرني احد الاصدقاء : ان الصورة التي اخذت لي وانا اقبل عبد الناصر قد رآها في المديرية العامة للامن وقد حفظت في ملفتي الشخصية هناك ... وفي شهر نيسان ١٩٥٧ اصبت بارتفاع الضغط الدموي وقررت السفر الى فينة للمعالجة ، وطلبت الى نوري السعيد المرحوم موعدا لتوديعه ، وذهبت في الموعد المعين الى وزارة الدفاع وقابلته في مكتبه ... استقبلني المرحوم استقبالا حارا واخذ يلاطفني ببعض نكته وفكاهاته ... ثم سألني : يقال انك قبلت جمال عبد الناصر في زيارتك الاخيرة للقاهرة ، فهل هذا صحيح ؟.. اجبته مبتسما : والله صحيح يا باشا انني أحب جمالا واعتبره زعيما عربيا بالحب والتجلة والتقدير جدير ... فقطب حاجبيه عندئذ وظهرت علائم الامتعاض في سيمائه وقال : ان تصرفك هذا غير لائق لانك اصبحت رجلا تقدر الامور ، وتفكر بالنتائج ، وعمل مثل هذا يثير عليك الحقد ويستفز «الجماعة» ، ويشير بيده الى جهة البلاط الملكي ... وبالمناسبة



الوفد العراقي في مؤتمر التضامن الآسيوي – الافريقي في مدخل دار الرئيس جمال عبد الناصر

فقد سمعت انك لم تدخل الى البلاط الملكي منذ اكثر من سنتين ولم تقابل جلالة الملك وسمو الامير وهذا أيضا تصرف غير مقبول ، ويجعل الشبهات تحوم حولك ••• وبالنظر الى سفرك الى الخارج أرى لزاما عليك ان تذهب قبل السفر الى البلاط وتسلم على جلالة الملك وسمو الامير مستأذنا ومودعا •• قلت : هذا مستحيل الآن يا باشا والساعة تجاوزت الواحدة بعد الظهر ، وان موعد سفري في صباح الغد ولا يليق ان اطلب موعدا لمقابلة فورية ••• أجاب : خابر تحسين قدري اذن واعتذر بصورة مناسبة من عدم حضورك الى البلاط ••• قلت : سأفعل ذلك تطمينا لرغبتك بعد وصولي الى البنك فورا • وفي الحقيقة خابرت عند وصولي الى البنك تحسين قدري رئيس الديوان الملكي وقلت له : اقتضى سفري الى فينة فورا وسأغادر بغداد في صباح الغد وكنت أود ان اقابل كلا من جلالة الملك وسمو الامير لاودعهما مستأذنا بالسفر ، ولكن حال ضيق الوقت دون رغبتي هذه فأرجوك ان تعرض عليهما احتراماتي وتحياتي مع الاعتذار ، على انني سأتشرف بالمثول بين أيديهما بعد عودتي انشاء الله ••• وبعد ذلك شاءت الاقدار أن لا ارى الى الابد احدا منهم (لا الملك ولا الامير ولا نوري السعيد المرحومين••)

التحقيقات الجنائية تكبس دارنا وتحاول توقيف ولدي باسم

شعرت بعد عودتي من فينا ان ملاحقة دوائر الامن قد سرت الى ولدي باسم ايضا بالاضافة الى مراقبتها اياي ، وقد فهمت بعدئذ ان ولدي متهم بالشيوعية .. وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر الاثنين الموافق ٩ حزيران ١٩٥٨ اخبرتني قرينتي تلفونيا ان رجالا من دائرة الامن دخلوا الى دارنا لاجراء التحريات واضافت انني طلبت اليهم التريث حتى تأتي انت ، فهرعت حالا الى دارنا في شارع الحريري ورأيت هناك ثلاثة رجال تقدم الي كبيرهم وحياني قائلا : عفوا يا سيدي اننا لا نريد سوى تحري غرفة ولدك باسم ... قلت تفضلوا وطلبت الى ام حازم ان تفتح لهم الغرفة ، فقلبوها رأسا على عقب ، واخذوا معظم ما تحويه من كتب ... وقدشهدوا في الغرفة صورة كبيرة لجمال عبد الناصر ، فالتفت الي احدهم وقال : كيف تعلقون صورة رجل نعتبره اعظم عدو لبلادنا ؟ أجبته : باستخفاف واستهزاء : كلا يا عزيزي ، انك واهم ... هذه صورة جمال عبد الناصر احد ابطال العرب وزعمائهم ، وليست صورة بن غوريون !.. فأحمر

وجهه غيظا ولم ينبس ببنت شفة ••• وعندئذ التفت الرجل الثاني الـى ام حازم ، وقال لها : لماذا تعلقون هذه الصورة ولا تعلقون صورة جلالة الملك ؟ ••• أجابته : ان هذه غرفة خصوصية وليست دكان حلاق ••• وصاحب الغرفة حر في تعليق الصورة التي يرغب في تعليقها وليس لزاما عليه ان يعلق صورة معينة •••

ولقد تصرفت ام حازم ، والحق تصرفا حكيما للغاية ، عندما شهدت رجال الامن في عتبة الباب الخارجية •• لقد تباطأت أولا في فتح الباب ، ولم تفتحه الا بعد ان هربت ولدي باسما من حديقة دارنا الى حديقـة الجيران ، ومن هناك الى حديقة الجار الثالث ، وبعد ذلك قفز الى الشارع وغاب عن الانظار ••• وهكذا فشلت خطة رجال الامن في القبض علـى باسم ، واكتفت بالاستيلاء على بعض اوراق تافهة ، وكتب لا قيمة لهـا وعادت ادراجها بخفي حنين •••

* * *

ولدي باسم يلتجيء الى سورية

وفي اليوم التالي راجعت السفارة المصرية ومعي الصديــق (•••) وقابلت القائم بالاعمال وشرحت له القصة بحذافيرها ، وسألته : هــل في الامكان حماية ولدي باسم في دمشق لاجئا سياسيا ؟ •• قال : لا اظن ان هناك أي مانع لقبوله ، وسأتصل بحكومتي ببرقية مستعجلة ، واعطيكم الجواب بعد يومين على الاكثر •• وفي الحقيقة انه اتصل بي شخصيا بعد يومين اثنين وقال : ان كل شيء على ما يرام ، واذا أوصلتم المحروس سالما الى تل كوجك سيلقي هناك كل ترحيب واهتمام •••

كان باسم مختفيا في دار احد اصدقائنا ، وبعد يومين من اختفائه ، خابرني بهجة العطية المرحوم وقال : لا موجب لاختفاءباسم وهربه اننا نريد ان نجري معه تحقيقا لساعة واحدة فقط ، وأوكد لك بشرفي انني ساعيده الى البيت بعد اكمال التحقيق معه • قلت له : تأكد انني لا اعرف مقره ، ومع ذلك ساحاول الاتصال به واذا تمكنت من ذلك سآتي به اليكم لاجراء التحقيق الذي تريدونه •••

وفي مساء ذلك اليوم اختليت بسعيد قزاز المرحوم وزير الداخلية ، في احدى غرف نادي بغداد وأخبرته الاقتراح الذي تقدم به بهجة العطية المدير العام للأمن فقال : امهلني وسأخبرك ما يجب أن تفعله غدا • وفي اليوم التالي واجهني في النادي ايضا وقال لي : لا أوصيك بتسليمه فأن عليه قضايا شيوعية عديدة ••• انني لا ازال اشعر بالمنة لسعيد قزاز المرحوم فان عمله هذا كان دليلا على قوة صداقته لي فضلا عن حسن طويته ونبل اخلاقه • صحيح اننا كنا مختلفين في امور كثيرة في اعمالنا وافكارنا السياسية ، الا ان هذا الاختلاف لم يفسد علاقاتنا الشخصية في يوم من الايام •

وفي اليوم التالي لمقابلتي الاخيرة للقزاز قررنا تهريب باسم بأي حال كانت وقد تعهد الصديق (•••) أن يصطحب معه الصديق (•••) ويوصلا باسما الى تل كوجك حسب الاتفاق ، واستأجرنا سيارة لهذا الغرض ركب فيها الصديقان وباسم وأصرت ام حازم على الذهاب معهم ايضا رغم الحاحي عليها بعدم الذهب •• وقد وقفت السيارة في أمسيات شهر حزيران ١٩٥٨ امام نادي بغداد واستدعتني ام حازم على طريق احد الخدم ، فخرجت اليها وقبلت باسما في وجنتيه وسلمته غلافا في داخله نقود عراقية تكفيه ثلاثة اشهر على الاقل .. ثم سلمته ورقة وقلت له : اقرأها في تل كوجك واعمل بموجبها .. وكانت الورقة تحوي التعليمات التالية :

١ ــ عندما تصل الى القامشلي راجع مدير البنك العربي واطلب اليه ان يبرق لي ما يلي : « حوالتكم وصلت بالتمام » .

٢ ــ وعندما تغادر القامشلي متوجها الى دمشق قل لمدير البنك ان يبرق هكذا : « تحرك المدير العام الى دمشق»

٣ ــ وعند وصولك الى دمشق اتصل بي تلفونيا من البنك العربي ايضا

لنطمئن الى وصولك سالما ...

وقد طبق باسم هذه التعليمات بحذافيرها ، اما البرقيتان اللتان وصلتنا من القامشلي فكانتا موضع استغراب الموظفين في البنك العربي في بغداد ، وقد راجعني داود عودة المراقب وبيده البرقية الاولى متسائلا : اية حوالة يعني مديرنا في القامشلي ؟ ... اننا لم نحول الى فرعنا هناك اية حوالة كانت ... أجبته : قد يكون في الامر خطا ، وقد تكون البرقية معنونة الى فرع اخر غير فرعنا وقد وردتنا نتيجة السهو ، واخذت البرقية منه ومزقتها بعد ذلك . ولما وصلت البرقية الثانية ، أتاني الموظف المختص ايضا متسائلا : ما علاقتنا نحن بسفر المدير العام الى دمشق ؟ .. أجبته : انني اعرف ان المدير العام سيصل الى القامشلي لانجاز بعض المهام ، وقد سبق لي أن طلبت الى مدير فرعنا هناك أن يخبرني بعودة المدير العام الى دمشق لانني اريد ان اتصل به تلفونيا بعد عودته ، واخذت البرقية من يده ومزقتها كاختها ...

اخبرني الصديق (...) بعد عودته من تل كوجك ن رجال الامن العام هناك رحبوا بباسم ترحيبا حارا ، واصطحبه ضابط من الجيش السوري بسيارته الخاصة الى القامشلي . واخبرني باسم انه نقل من القامشلي بطائرة عسكرية الى دمشق ، وهناك اعطيت له الحرية الكاملة في اختيار الفندق الذي يريد الاقامة فيه ، وسئل عما اذا كان في حاجة الى نقود فأجابهم بالنفي شاكرا ... وأخبرني شكري القوتلي المرحوم بعد وصولي الى دمشق انه علم بوصول ولدي لاجئا الى دمشق واوصى السلطات المختصة به خيرا ...

الهجرة الى الشام

بعد سفر باسم الى دمشق اصبحت حياتي في بغداد لا تطاق ، فرجال الامن ضاعفوا مطاردتهم لي ، وفراق باسم نغص حياتنا البيتية ، فأمه لم تنقطع عن البكاء من ألم الفراق ، وارتفاع الضغط عندي عاد كما كان قبل المعالجة في فينة بل اكثر ، فقررنا الهجرة من العراق والسفر الى سورية واتخاذ دمشق مقرا لاقامتنا ... وعلى هذا الاساس بعنا ما نملك من اثاث بيتية وما لدينا من متاع ، في ضمنه السجاد ايضا ، وسفرت ام حازم مع ابنتي الصغرى لينة بالطائرة الى دمشق في صباح الاربعاء الموافق ١٨ حزيران ١٩٥٨ وحصلت بعد ذلك على اجازة من الادارة العامة للبنك العربي لشهرين اثنين ، وودعت بغداد العزيزة وما فيها من أقارب واصدقاء وذكريات في ظهر يوم الجمعة الموافق ١١ تموز ١٩٥٨ ومعي ابنتي ندى بسيارة البنك العربي ... بتنا ليلتنا في الرطبة ، وفي صباح اليوم التالي اخذنا طريقنا الى دمشق في ساعة مبكرة ووصلنا اليها قبيل غروب الشمس ، وذهبنا توا الى دارنا في محلة المزرعة ــ شارع الشيخ صالح العلي ــ عمارة الموصلي رقم : ٩٨ الشقة ٤ .

لم اغادر الدار يوم ١٣ تموز وفضلت ان الازمها للراحة من وعثاء السفر ، ودخلت الى الفراش بعدما تناولت عشاء خفيفا ، ونمت نوما عميقا هادئا ...

ثورة ١٤ تموز

وفي ساعة مبكرة من صباح الاثنين الموافق ١٤ تموز ١٩٥٨ سمعت طرقا متواصلا على باب غرفتي فقفزت من الفراش مضطربا وصحت : من ؟ ماذا جرى ؟ واذا باولادي جميعهم يصفقون ويصيحون بأعلى صوتهم : قم يا بابا واستمع الى الراديو ... ان ثورة في بغداد اعلنت في اثرها الجمهورية في العراق . لم أصدق اذني وصرت أفكر وانا في حالة من القلق: هل أنا في حلم ام يقظة ؟ ...

فتحت الباب وهرولت الى الراديو وصرت أستمع بهيجان الى بيانات الثورة واذا فالخيال أصبح حقيقة وانبثق الفجر وولى الظلام ...

ارتديت ملابسي وخرجت الى الشارع ، واذا بدمشق كلها واقفة على قدم وساق ، والمذياع يجلجل في كل مخزن ودار ، والمظاهرات تسير في الشوارع مؤيدة ثورة العراق ... ذهبت توا الى دار شكري القوتلي الصديق الكريم المرحوم رئيس جمهورية سورية سابقا والمواطن الاول الحالي ، فأستقبلني بالبشر والسرور ، وسألني هل تعرف عبد الكريم قاسم ، او عبد السلام عارف قلت : لا اعرف اي واحد منهما ... ولكن عندما شهدت في اليوم التالي صورة عبد الكريم قاسم تذكرته جيدا ،

فهو من طلابي القدامى في المدرسة الثانوية المركزية سنة ١٩٢٧ ...وبينما انا في دار شكري القوتلي واذا بمظاهرة هائلة تصل الى الدار وتهتف بحياة العروبة وحياة ثورة العراق ، والجمهورية العراقية ... وتقدم عدد كبير من المتظاهرين الى فناء الدار فاستقبلهم القوتلي المرحوم بالتهليل والترحيب ووقف خطيبا فيهم ، قال : نحمد الله على هذه النتيجة .. لقد انبلج الصبح ، وفر الظلام ، وانتصر الحق وزهق الباطل ... لقد عاد العراق الى مكانه الطبيعي في قلب العروبة ، والظلم لا يدوم وان دام دمر .. ثم التفت واشار بيده الي وقال : مخاطبا الحشد الذي امامه : ان هذا طالب مشتاق ، صديقي منذ عشرين عاما . اشتغل في الحقل الوطني باخلاص ، وضحى في سبيل مبادئه بكل غال ورخيص وتجرع على أيدي الطغاة من الحرمان والعذاب الوانا واشكالا ... انه ترك العراق مهاجرا الى ديار الشام مع كل افراد عائلته لانه اصبح لا يطيق جحيم العراق في عهده البائد ... وانني أحييه في هذه الساعة الحاسمة تحية اكبار واعجاب واقدم له ولجميع الشعب العراقي أخلص التهاني بهذا اليوم السعيد متمنيا للامة العربية كل خير وتقدم ونجاح ... حاولت ان أجيب على القوتلي بكلمة قصيرة ولكنني عجزت نشدة تهيجي ، الا ان الدموع الغزيرة التي تساقطت من عيني كانت أبلغ من كل خطاب ...

ذهبت بعد مغادرتي دار شكري القوتلي المرحوم الى محل الصديق محمد عبد الهادي العبايجي (١) في سوق الحميدية ، واول عمل قمت به ارسال برقية الى عبد الكريم قاسم المرحوم قلت : فيها : «لقد بيضتم

(١) تاجر عراقي من كربلاء ، تعرفت به في معتقل العمارة ، وقد اتخذ من دمشق محل اقامة دائمة له ، وكان انذاك يشتغل في الصيرفة والتجارة ..

وجوهنا فبيض الله وجوهكم ..» وقد وقع عليها معي محمد عبد الهادي ايضا ...

كانت الثورة الوطنية في لبنان لا تزال مشتعلة ، وكان رئيس الجمهورية كميل شمعون ينتظر العون والنجدة من صديقه نوري السعيد لاخمادها ، وكان نوري السعيد ميالا فعلا الى ارسال نجدة عسكرية تخمد أنفاس الثوار الوطنيين لانه كان يعتقد ان هؤلاء الثوار ناصريون مجرمون ؟.. وكانت فرائص نوري السعيد ترتعد من اسم « جمال عبد الناصر » فكيف يستطيع والحال هذه أن يترك لبنان فريسة للناصرية ؟.. الا أن القوة العسكرية التي هيأها لتضرب الجيش السوري في دمشق وتقضي على الثورة في لبنان ، هي نفسها التي دكت حصون الحكم في بغداد وقضت على النظام الملكي الى الابد ، وأعلنت مولد الجمهورية العراقية ..

كانت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ قصما لظهر الاستعمار الانكلو ـ أمريكي ، وضربة قاضية على نفوذه في الشرق الاوسط ، وتهديدا خطيرا لمصالحه البترولية في كل بلاد العرب ، لذلك استعد لمجابهة الطوارىء : فالاسطول السادس الامريكي رسا أمام بيروت وخرجت بضعة الاف من جنوده الى البر واحتلت مدينة بيروت بحجة حماية استقلال لبنان ، وأسراب عديدة من الطائرات البريطانية وقوة كبيرة من الجنود المشاة البريطانيين توجهت الى الاردن واستقرت في عمان والمفرق ، وصارت تهدد سورية والعراق تهديدا خطيرا .. ولولا المساعدات العسكرية التي وردت من بعض الدول الصديقة وفي مقدمتها الجمهورية العربية

المتحدة والاتحاد السوفيتي والتأييدات السياسية التي جاءت على لسان رجال هذه الدول ، لما تردد الاميركيون والانكليز في التدخل لقلب النظام في كل من سورية والعراق ..

كانت دمشق في تلك الايام المثيرة كأنها تقف على قمم بركان ، لا ندري متى يقذف بحممه ولهيبه ، فالجنود على أهبة الاستعداد ، وأفراد المقاومة الوطنية يملأون الشوارع والميادين وهم دائما تحت الانذار ، والحكومة تبذل جهودا جبارة في اتخاذ التدابير اللازمة لتأمين التموين في حالات لطوارىء .. وخلاصة القول : ان رائحة الحرب كانت تزكم الانوف ، وتملأ القلوب رهبة ووجلا ..



عبد الناصر في الشام وبعده رشيد عالي الكيلاني

وجاء عبد الناصر الى الشام فاستقبلته المدينة بشيوخها وشبابها ، ورجالها ونسائها ، استقبالا عظيما ليس له نظير .. انه رمز الوحدة الشاملة، ومعيد مجد العرب ، ورائد القومية العربية . ومحط آمال العرب الوحدويين من المحيط الى الخليج .. وبينما كان عبد الناصر في الشام أتى اليها وفد الثورة العراقية برئاسة المرحوم عبد السلام عارف ، نائب رئيس وزارة ثورة ١٤ تموز وكان لقاؤه بعبد الناصر لقاء بطلين ثائرين يجمعهما هدف واحد وايمان بوحدة المصير ..

وبعد ذلك بقليل جاء رشيد عالي الكيلاني المرحوم بدعوة تلقاها من عبد الكريم قاسم وسافر الى بغداد بعدما غاب عنها منذ فشلت ثورته في سنة ١٩٤١ ، وقيل لي : ان بغداد احتضنته بمظاهرات شعبية عارمة أجفلت عبد الكريم قاسم وجعلته يندم على تسرعه باستقدامه ، لا سيما وقد كان حريصا على أن ينفرد بالزعامة ، ولا يريد أن يكون هناك رجلا يدانيه في الشهرة والنفوذ والصيت .. وأظن ان تخوفه من شعبية الكيلاني هي التي دفعته الى تلفيق التهم ضده والحكم عليه بالاعدام ، وايداعه السجن

مدة طويلة ، بقصد الاساءة الى سمعته وتحطيمه وكسر شوكته ونفوذه ..

وفي اليوم الثالث من الثورة نشرت الصحف الدمشقية صورة عبد الكريم قاسم ، تبنيتها فاذا هي صورة لا أجهل صاحبها .. انه تلميذ قديم من تلامذتي في المدرسة الثانوية المركزية في بغداد سنة ١٩٢٧ . وأخذت ذكرياتي القديمة تمر بمخيلتي كشريط سينمائي .. ها هو عبد الكريم قاسم تلميذ هادي ، يبتعد عن مخالطة زملائه ، ويقضي فترة التنفس في زاوية منعزلة . مظهره يعلن عن فقر الحال وفقدان المال ، مكتئب النفس ، عابس الوجه ، ضعيف البنية ، مشروم الشفة العليا من جهتها اليسرى ، وهذه العاهة ، على ما يبدو لي سببت له شعورا بالنقص جعلته منقبضا على نفسه ، يتجنب الاجتماع برفاقه وبالناس أجمع .. وأخذت الجرائد العراقية تصل الينا من بغداد ، ونقرأ فيها تصريحات وبيانات وخطابات عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء ونائبه عبد السلام محمد عارف . كان كل منهما يضرب على وتر خاص ، فتخرج نغمات متباينة ليست بينها أية وحدة أو انسجام .. كان الاختلاف ظاهرا بين شخصيتيهما والصدام بينهما محتم اذن لا مفر من وقوعه ... قلت لصديقي محمد عبد الهادي يوما وأنا أنظر الى صورتيهما في احدى الجرائد العراقية : ان أحدهما سيأكل الاخر لا محالة .. قال : هل تظن ذلك ؟.. قلت : بل أعتقد وستكشف الايام هذه الحقيقة على كل حال ..

وبعد أيام نشرت الجرائد العراقية اقصاء عبد السلام عارف عن نيابة رئيس الوزراء وابقائه وزيرا للداخلية فقط .. ولم تمر مدة طويلة على

هذه الاجراءات حتى صدر مرسوم جمهوري ينص على اعفاء عبد السلام من وزارة الداخلية وتعيينه سفيرا في بون ، وتسفيره بأسلوب تغلب عليه حالات النفي والابعاد بالقوة .. وأخيرا عودة السفير الذي لم يقدم حتى أوراق اعتماده الى بغداد دون اذن أو استمزاج رأي المسئولين .. وختمت الرواية بالقبض على عبد السلام ومحاكمته ، والحكم عليه بالاعدام ، وزجه في غياهب السجون الى أن أصدر عبد الكريم قاسم عفوا عنه وأخلى سبيله وأعاده الى بيته ..

* * *

لقائي مع فائق السامرائي في دمشق

في اليوم الثالث أو الرابع من ثورة ١٤ تموز ، وصل الى دمشق فائق السامرائي في طريقه الى القاهـــرة بمهمة خاصة .. واجتمعت بـــه واستمزجت رأيه في عودتي الى بغداد ، فقال ضروري جدا أن تعود لا سيما وهناك فكرة في تعيينك سفيرا في احدى السفارات .. ومع ذلـــك فضلت أن أبقى في دمشق فترة أخرى ، لانني كنت استأجرت دارا وأثثتها تأثيثا كاملا . واذا أردت العودة الى بغداد علي قبل كل شيء أن أصفي هذه الدار ، ثم أراجع أدارة البنك العربي في عمان واستمزج رأيهـــا في قبولي العرض الجديد اذا وقع ..

وبعد أسبوعين أو أكثر ، عاد فائق السامرائي ثانية الى دمشق في طريقه الى القاهرة أيضا ، وفي اجتماعي به في فندق أمية الجديد ، أكـــد لي تصميم الحكومة العراقية على تعيني سفيرا ، وسألني : أية سفـــارة تفضل ؟.. أجبته : أفضل القاهرة على سواهـــا .. ضحك وقال : انني سأعين في القاهرة لبعض أسباب خاصة .. ثم ما أنت والقاهرة ؟.. ان

الوحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحدة ستقوم دون أدنى ريب ، ومهمتي في القاهرة سوف لا تطول أكثر من شهرين اثنين ، وبعــد ذلك تتم الوحدة وتلغى السفارة في طبيعة الحال .. عليك اذا أن تختار سفارة تستطيع العمل فيها مدة طويلة .. والقاهرة لا تصلح لك أبدا .. وشجعني على العودة الى بغداد في أسرع وقت ممكن ..

* * *

العودة الى بغداد

كان طريق الاردن قد أغلق في وجه العراقيين ، والحكومة العراقية لا تسمح لاي شخص أردني أن يدخل الى العراق ، وكان لزامـا علي أن أسافر على طريق أبي الشامات ـ الرطبة والسفر في هذه الطريق محفوف بالاخطار لان جميع وسائط السفر كانـت معطلة بـين بغداد ودمشق ، والصحراء خالية قفراء لا أثر للحياة فيها واذا أصاب السيارة أي خلـل كان فمعنى ذلك الموت الزوآم لنا جميعا •• وكانت ثمة مشكلة أخرى ، ان سائق سيارتي محمـد بلال فلسطيـني (يحمل الجنسية الاردنية) والاردنيون ممنوعون من الدخول الى العـراق •• ومهـما كان الامر ، وكيفما تكون النتيجة قررت العودة الى بغداد بسيارتي واتخـذت التدابير التالية على سبيل الاحتياط :

١) كتبت كتابا مفصلا الى محمد صديق شنشـل الصديق وكـان يومئذ وزيرا للارشاد أخبرته فيه مشكلتي مع سائق سيـارتي (الاردني الجنسية) ورجوته أن يتخذ ما يلزم لمنحه سمة دخول في الرطبة عند وصولنا اليـها •

٢) اتصلت تلفونيا بالبنك العربي في بغداد ، وأخبرتهم يوم وصولنا بالسيارة الى بغداد ، وأكدت عليهم ضرورة التفتيش عنا في الصحراء ما بين الرطبة وأبي الشامات في حالة تأخر وصولنا في اليوم المحدد ..

وفي صباح يوم الجمعة ٥ أيلول غادرنا دمشق بالسيارة . ومعي ولدي حازم وابنتي ندى ، بعدما أخذنا معنا كمية من الطعام والماء تكفي أكثر من ثلاثة أيام ، بالاضافة الى صفيحتين من البنزين على سبيل الاحتياط ..

ومن حسن الحظ اننا لم نصادف أية عرقلة في طريقنا حتى وصولنا الى الرطبة ، وفيها فهمت ان برقية وردت الى الشرطة من بغداد لمنح سائق سيارتي محمد سمة الدخول الى العراق ، وهكذا اجتزنا العقبات بسلام ووصلنا الى بغداد في يوم السبت ٦ أيلول ١٩٥٨ ..

الامير عبد الإله

سمعت وأنا في دمشق ان الامير عبد الاله المرحوم كان في عداد من قتلوا في قصر الرحاب صباح يوم الثورة ١٤ تموز ، ولم أجد في هذا الخبر أية غرابة .. وقيل : ان الثوار الذين حاصروا القصر أنذروا من فيه بأن يسلموا أنفسهم ، وقيل ان الملك المرحوم نفسه ومعه سيدات القصر أبدوا موافقتهم على الاستسلام الا أن الامير عبد الاله شهر مسدسه عليهم ورفض التسليم ، ثم أمر الحرس الملكي أن يقاوم المحاصرين . وفي أثر ذلك قصف الثوار القصر بمدافعهم وقتل نتيجة ذلك كل من كان فيه باستثناء الاميرة هيام قرينة الامير وكريمة محمد الامير ، أمير ربيعة فانها جرحت جرحا بسيطا ونقلت (فور انتهاء الحصار واحتلال القصر من قبل الثوار) الى المستشفى وخرجت منه بعد أيام وقد كتب الله لها الشفاء والحياة .. ان الامر لحد الان شيء طبيعي ، وعادي لا غرابة فيه ولا شذوذ .. الا أن الاحداث لم تقف عند هذا الحد ، بل تعدته الى فظائع بربرية لا يقرها خلق كريم ، ولا يرتضيها دين سماوي رحيم .. فالاديان جميعها أمرت باحترام الميت ، ومنعت التمثيل في الجثث مهما كانت صفة الميت ومهما كانت أفعاله في حياته غير أن الحابل اختلط بالنابل والغوغاء الذين ملأو شوارع بغداد في ذلك اليوم المشهود تصدوا

الى جثة الامير عبد الاله وأخذوا يسحلونها في الشوارع ، ويدوسونهـا تحت أقدامهم ، واجترأ البعض علـى قطع بعض أوصال الجثة تشفـيا وارضاء لحقدهم الكميـن ، دون رحمة أو هوادة ، متحدين بعملـهم هذا كل شعائر الاديان السماوية والمبادىء الانسانيـة ..(١) اننـي لا أتهم الثورة بمثل هذه الاعمال الشاذة وأبرئها من أمثال هذه الارجاس .. انهم الغوغاء وحدهم المسئولين عن هذه الفظائع والاجرام ..

عرفت الامير المرحوم أول مرة وقابلته في يـوم ٨ أيلول ١٩٣٣ ، وكنت آنذاك سكرتيرا للمفوضية العراقية في أنقره ، وكان الامير زيدا وزيرا مفوضا فيها ، وكنت أتيت الى استانبول في معية الامير لنقضي أيام الصيف فيها حسب المعتاد واخترت السكنى في شقة تطل على البوسفور في « ارناووط كوي » .. فاجأني الامير زيـد في ظهر ٨ أيلول ١٩٣٣ بزيارة شقتي وكان مرتبكا وتقاطيع وجهه تدل على ما في نفسه من مرارة وألم . طلبت اليه أن يتفضل بالجلوس فأبى وقال : يجب أن نعود الـى البيت وأنت معي .. قلت خيرا انشاء الله ، وما الخبر يـا سيدي ؟... قال : ان الملك فيصل الاول مات في سويسرة وعلينـا أن نهيىء بعض برقيات التعزية فورا ، فغادرنا الشقة بعد ذلك سوية وذهبنا الى بيت سمو الامير ، ولما دخلنا الى غرفة الاستقبال وجدنا شابا أنيقا ، وسيـم الوجه حياه الامير زيد ثم قدمني اليه والتفت بعد ذلك الي وقال : سيدي عبد الاله .

---

(١) عندما كنت في الشام صدف ان زرت يوماً صديقاً لي وكان هذا الصديق ضابطا برتبـة عقيد في الجيش السوري ، وخلال زيارتي هذه أراني اناء زجاجيا فيه ابهام يد يسرى وقد ملأ الاناء بالاسبرتو ، وقال : هذا ابهام الامير عبد الاله أرسل لي هدية من بغداد .

وفي سنة ١٩٣٥ زارني يوما ياسين الهاشمي المرحوم في مكتبي في وزارة الخارجية وكان حينئذ رئيسا للوزارة ، وقال لي : « انني أرغب في أن ينشأ الامير عبد الاله موظفا (دبلوماسيا) فان بعض مظاهره تدل على قابليته لهذا المسلك ، وأرى من المفيد أن يعمل في وزارة الخارجية ملحقا فخريا باشرافك مباشرة . وأرجوك أن تبذل كل جهد ممكن لتنشأته وتدريبه .. » قلت : أنا طوع أمرك يا باشا ، وسأفعل ما يرضيك في هذا الامر ان شاء الله .. وفي صباح اليوم التالي هيأنا غرفة قريبة من غرفتي وداوم الامير ملحقا فخريا حتى انقلاب بكر صدقي في ٢٩ تشرين أول ١٩٣٦ .

ولقد قمت بمسئولياتي نحوه خير قيام على ما أعتقد .. كنت أعطيه ملفات بعض القضايا ، وأطلب اليه أن يدرسها ويقدم لي تقريرا بخلاصتها .. وكنت أطلعه على بعض المخابرات (الدبلوماسية) وأشرح له ما يصعب فهمه منها .. وأكلفه أحيانا بتحضير مسودات أجوبة على بعض المخابرات الرتيبة التي تمر بالدائرة القنصلية ، وقد هيأت له كتابا في القانون الدولي قدمته اليه هدية مني ، طالبا أن يطالعه في أوقات فراغه .. وكان هو من جانبه يسعى دائما الى تنفيذ ما يطلب اليه ، ولم أر منه طول دوامه في وزارة الخارجية تكاسلا أو تماهلا في اداء واجباته .. وظل يكن لي في قلبه حبا وتقديرا الى أن وصل الى القدس هاربا من بغداد قبيل ثورة ٢ مايس ١٩٤١ وكان ينتظر مني أن أناصره وأسير وراءه رافعا لواء العصيان على حكومة بغداد ورئيسها رشيد عالي الكيلاني .. وقد خاب ظنه وفشلت آماله عندما صارحته بحقيقة وضعي قائلا : انني كموظف أتبع

دائما الحكومة المركزية يا سيدي •• كان موقفي آنذاك طبيعيا اذ لم يكن في امكاني قط أن أضع مصلحة الامير ومصلحة وطني في مستوى واحده ولم يكن في وسعي أبدا أن أسير وراء الامير وأتخلف عن أداء واجبي نحو أمتي وبلادي •• ومنذ ذاك اليوم انقلب حب الامير نحوي الى نفــرة وبغضاء ، وامتلأ قلبه علي غلا وحقدا ، مما أدى بي الى المعتقلات المختلفة في العراق مدة أربعة أعوام ••

* * *

بعض الامثلة على عطف الامير علي

١) كان الامير المرحوم يعرف انني أحب أكل الدراج •• فكان كلما يخرج الى الصيد يرسل الي عددا من الدراج الذي يصيده •• ذهب مرة الى العمارة بقصد الصيد وأمرني أن أكون في معيته • كان ذلك في سنة ١٩٣٩ ، وكان معنا آنذاك كل من السفير البريطاني ونوري السعيد رئيس الوزراء ورشيد عالي الكيلاني رئيس الديوان الملكي وعمر نظمي وزير الداخلية ، وكانت حصيلة الصيد في ذلك اليوم أربعمئة دراجة وزعت على رجال الحاشية كل حسب درجته ، وكانت حصتي من الصيد ٢٥ دراجة • ولما كنا على مائدة الطعام ظهرا سألني الامير : كم أصابك من الدراج يا طالب ؟•• أجبته : خمس وعشرون دراجة يا سيدي •• قال : لا ، هذا قليل •• وأمر أن تضاف الى حصتي خمسا وعشرين دراجة أخرى من حصته نفسه ••

ب) عندما كنت مديرا عاما للدعاية كنت لا أزال محروما من اقتناء سيارة خاصة بسبب ضعف حالتي المالية ، ولما اطلع الامير على ذلك أمر

باهدائي سيارة (شفروليه) مستعملة من سيارات البلاط ..

ج) كنت في ركاب الامير المرحوم في جولته في الشمال وكنا في طريقنا من الموصل الى زاخو ، وكان الطريق متعبا والغبار مزعجا ، ولـم تكن لدي نظارات أتقي بها شر الغبار فتأثرت عينـاي واحمرتا نتيـجة الاحتقان ، ولم نكد ندخل الى دار قائم مقام زاخو حتى صرت أمام الامير وجها لوجه ، ورغم الزحام الشديد في الدار ومتاعب السفر لاحظ الامير حالة عيني وسألني عما بهما ؟.. أجبته : الغبار يا سيدي .. ولـم تمض على هذه المحادثة أكثر من بضع دقائق الا ورأيت أحد المرافقـين يدخل الى غرفتي وبيده زجاجة دواء سلمها الي قائلا : أمر سمو الامير أن آتي بها اليك لتعالج عينيك ..

د) وخلال هذه الجولة الشمالية كنا في السولاف يوما نقيـم في مخيم داخل حديقة واقعة على احدى الهضبات .. وقد خصصت خيمة واحدة لكل من أفراد الحاشية ، أما مقر الامير المرحوم فكان في فسحة أخرى تحت مخيمنا . وفي وسط الطريق الذي يوصل المقر والمخيـم بركة ماء عميقة . وكنا نقضي السهرة عادة في مجلس الامير بعد العشاء ، ثم يعود كل منا الى خيمته .. وفي احدى الليالي بينما كنت عائـدا الى خيمتي في وسط ظلمة حالكة وسكون عميق غير منتبه الى موقع تلـك البركة المنحوسة من الطريق ، واذا بي أهوي في أعماقها واذا بالماء يغمرني حتى عنقي .. فأسرع بعض الرفاق والحراس في الاثر لنجدتي وأخرجوني من البركة والماء يقطر من جميع أطرافي ، وأسرعوا بي الى خيمتي لتبديل

ملابسي قبلما يصيبني البرد ويسوء المصير •• وبينما كان بعض الرفـاق يساعدني في تغيير ملابسي واذا بالامير يدخل الى الخيمة مضطربا ويسأل عما حدث ؟•• ولما رآني في تلك الحالة ابتسم وقال : سلامتك يا طالب •• خير ان شاء الله ••

هـ) عندما كنا في الموصل تقرر أن يزور الامير ومعه حاشيته الاعمال الجارية في نفق سكة الموصل ـ بغداد ، وسار الموكب الى هناك عصر ٢٢ آب ١٩٣٩ ، ودامت جولتنا حتى غروب الشمس •• ولمـا كانـت سياراتنا واقفة في مكان بعيد عن موقع الحفريات ، بالنظر الى وعورة الطريق اضطررنا الى قطع المسافة بين الموضعين مشيئا على الاقدام • وقد صدف أن تأخرت قليلا في السير في أثناء العودة ولم أصل الى موقف السيارات الا بعد حركة سيارة الامير ، فلما رآى الارتباك باديا علي خوفا من أن لا أجد سيارة تنقلني ، أشار علي أن أستقل سيارته الثانية التي تسير خلفه ••

و) في يوم سفري الى القدس لتسلم عملي فيها قنصلا عاما وكان ذلك في أواخر آذار ١٩٤٠ ، كان الامير عبد الاله عائدا من احتفال جرى لتدشين مشروع الحبانية ، على ما أذكر ، وبينما كانت سيارتي تشق طريقها بين بغداد ـ الفلوجة ، لاحظت أن موكب الامير يتقدم نحونا من بعيد •• وفي مكان مناسب أوقفت السيارة ونزلت منها ووقفت في حافة الطريـق •• ولما لاحظني الامير واقفا وكان علي مقربة مني ، أمر السائق بالوقوف وترجل من السيارة وترجل معه كل أفراد الحاشية وصافحوني وودعوني واحدا بعد الآخر ، وامتطيت سيارتي بعد ذلك واستأنفت السفر الـى القدس على طريق بيروت ••

أما والامير عبد الاله قد انتقل الى رحمة الله بميتة محزنة فجيعة ، أرى من الانصاف ، وأنا أدون أوراق أيامي أن أقول : ان هذا الامير كان يتصف بأخلاق حميدة للغاية وكان هادىء الطبع ، قليل الكلام ، بعيدا عن الثرثرة ، لا يدخن ولا يستعمل أي نوع من المشروبات الكحولية •• كان مجاملا في محادثاته مع الغير •• يحترم الكبير ويرعى الصغير •• الا أن طباعه هذه تغيرت تغيرا واضحا بعد مدة من توليه الوصاية ، وذلك بتأثير زمرة من رفاق السوء ممن لازموه ردحا من الزمن ، وصاروا يزينون له الفسق ويحبذون له الفجور •• حتى كان البعض منهم يحضر له النساء بنفسه ، أو يجلبهن الى داره ويدعو الامير اليها معتبرا عمله هذا مما يكسبه شرفا ويزيده رفعة ومجدا •• وبتأثير هذه البطانة من خلان السوء، صار الامير يحتسي الويسكي في الحفلات العامة على مشهد من الناس ، وأخذت الالسن في المجالس الخاصة والاندية المختلفة تلوك أخباره وأفعاله القبيحة بصراحة تامة دون مبالاة أو وجل •• وكانت تصرفاته خلال ثورة ٢ أيار الوطنية وأفعاله بعد عودته الى بغداد في اثر فشل ثورة ٢ أيار تحت حماية الحراب الانكليزية مما سودت صفحات تاريخية بمداد العار والشنار ••

نوري السعيد

سمعت وأنا في بغداد ان ميتة نوري السعيد المرحوم كانت أفظع وأفجع من ميتة الامير عبد الاله ، فقد تمكن في صباح يوم الثورة من أن يهرب من الكاظمية ، واختفى في دار أحد أصدقائه هناك .. ثم رأى أن يعود الى بغداد ويلتجيء الى دار (...) في محلة السعدون ، وكان صاحب الدار هذا شقيق الاخوين (...) و (...) وفضل نوري السعيد المرحوم على هذين الشقيقين يعرفه الخاص والعام في بغداد .. كانت الحكومة آنذاك تعلن باستمرار ضرورة القبض على نوري السعيد حيا أو ميتا ، وقد خصصت مكافأة ، قدرها عشرة آلاف دينار ، لمن يلقي القبض عليه ، أو يخبر محل اختفائه .. وكان في الدار الذي اختفى فيها نوري السعيد شاب يستمع الى هذا الوعد المغري ، بالمكافأة الضخمة لمن يقبض على الهارب المختفي ، والشاب هذا ابن صاحب الدار ويظهر أن المبلغ استغراه ورأى من الحيف أن يدع الفرصة تفلت من يديه ، فهرع الى وزارة الدفاع ليخبرهم المكان الذي يختفي فيه نوري السعيد .. ونوري السعيد رجل ذكي الى حد الافراط ، وقد أحس ان هناك حركة غير عادية في داخل مخبئه ، وساوره الشك وأحاطت به الهواجس ورأى من الحكمة أن يبتعد عن الدار ، فارتدى عباءة نسائية فوق (بجامته) وتحجب وخرج

من الدار وهو يسير على غير هدى ولا يلوى على أحد •• وفي أثناء سيره بين الازقة ، بانت (بجامته) وشك فيه بعض الصبية ، وأخذوا يصيحون ويصرخون : نوري السعيد •• نوري السعيد •• فتجمهر حولـه الناس ، ولحقت به الشرطة ، وعندئذ سحب نوري السعيد مسدسه في حال من اليأس وأخذ يطلق الرصاص ارهابا للاخرين وأملا في أن يتمـكن من الهرب ووقع في اثر ذلك صدام مسلح بينه وبين المتشبثين بالقـاء القبض عليه خر في أثره صريعا •• (١)

وقد قيل لي : انه بعد أن أصبح نوري السعيد جثة هامدة وانكشفت للناس شخصيته وصل العقيد وصفي طاهر الى مكان الحادث ولما تأكـد من شخصية نوري السعيد ورآه جثة جامدة لا حراك فيها شهر مسدسه وأطلق على رأسه طلقتين اضافيتين ، ولا أدري بأي دافع أطلقهمـا ؟•• هل أراد أن يحرز شرف قتل نوري السعيد ، ولو كان ذلك على طريق التضليل والتدجيل ؟•• أم انه خشي أن يكون في هذا الجسـم الممدد عرقا لا يزال ينبض وأراد أن يريح صاحبه بالقضاء عليه ؟•• (١)

---

(١) وهناك رواية تقول : ان نوري السعيد المرحوم عندما تحرج موقفه وتأكد من ان القبض عليه سيتم حتما ، اطلق الرصاص على رأسه ومات منتحراً ، وانني شخصياً أميل الى تصديق هذه الرواية ...

(٢) بعد ان تأكدت السلطات الحكومية من موت نوري السعيد ، امرت بدفن الجثة في مقبرة باب المعظم ، ولكن بعض الغوغاء ذهب الى المقبرة في اليوم التالي يسأل قبر نوري السعيد ولما لم يدلهم عليه احد أخذوا ينبشون بعض القبور الحديثة وقد اخرجوا جثثاً عديدة من لحودها قبل ان يعثروا على جثة نوري السعيد . ولما استولوا على الجثة ، اخذوا يسحلونها في الشوارع ويرغمون اصحاب السيارات ان يمروا فوقها بسياراتهم ... فأية شريعة سماوية ترضى بمثل هذا العمل المخالف للكرامة الانسانيـــة ، واي قانون مدني او عرف انساني او مبادىء اخلاقية تقر مثل هذه الاعمال البربرية التي لا يستسيغها انسان يهاب ضميره ويخاف ربه ؟...

ان العقيد وصفي طاهر المرحوم اشتغل ردحا من الزمن مرافقا لنوري السعيد ، وكان يظهر له ولاءه واخلاصه في كل فرصة تسنح له ، وسبق لي شخصيا أن شهدته مرارا يتحبب لنوري مستعملا كل أساليب التبصبص والرياء •• كان يفتح له باب السيارة ولا يترك هذا الشرف للسائق •• كان يحرق أمامه البخور ملتمسا عطفه ورضاه •• ولما أصبح نوري السعيد جثة هامدة جاء متبرعا لاطلاق رصاصتين خائبتين في رأسه ، فيا لها من قسوة وفظاعة ..

كان نوري السعيد المرحوم بغداديا بكل ما في الكلمة من معنى •• كان بغداديا بأخلاقه وشمائله ، بغداديا في الانواع المفضلة اليه في طعامه ، بغداديا في وفائه لاصدقائه ، بغداديا في معاشرته ونكته ، بغداديا في ذوقه الموسيقي وان ولعه بالمقام العراقي معروف لدى جميع أصدقائه ومعارفيه ••

كانت ثمة صداقة تربط بين عائلتينا • كان والدي صديق والده وأمه المرحومة صديقة جدتي (من ناحية والدتي) وأمه هي التي خطبت أمي لوالدي •• قال لي يوما نوري السعيد انه حضر ليلة زفاف أمي لابي، ونقل لي مظاهر العرس بجميع تفاصيلها ودقائقها ، ووصف لي ملابس أمي وقصائبها المزينة بالاسلاك الذهبية (الكلبدون) •• وأضاف قائلا : وكنت أجلس على ركبتها في ذلك الاحتفال ••

وبقي نوري السعيد الى آخر أيامه يذكر الطائرات الورقية التي كان يعملها له والدي وتسمى حسب اصطلاح ذلك الزمن (طيارة أم سناطير) لانها كانت تخرج أصواتا شبيهة بأنغام السنطور •

ومن الصفاة المميزة التي كانت تلازم نوري السعيد المرحوم حنينه

الى الماضي ووفائه لتلك الذكريات •• حضر فاتحة والدتي المرحومة وبقي جالسا في مجلس الفاتحة حوالي خمسة وأربعين دقيقة ، وعندما هم بالخروج ودعته حتى الباب الخارجية من الدار ، ولما صافحني معزيا لاحظت الدموع تجري من عينيه على خديه ••

عندما كان نوري السعيد طالبا في الكلية العسكرية في استانبول، حصلت له معرفة بعائلة تركية من أصل عراقي ، وبمر الزمن انقلبت هذه المعرفة الى صداقة وصار نوري المرحوم يزورها بين حين وآخر في أيام عطله ، وكانت هذه العائلة ترعاه وتعطف عليه وتدعوه أحيانا ليشاركها الغداء أو العشاء ، ولما تخرج نوري في الكلية وأصبح ضابطا وعاد الى العراق لم ينس هذه العائلة التي لم يبق من أفرادها سوى شقيقتين عجوزتين كان يساعدهما بمخصصات شهرية حتى أواخر أيامه ••

كان من عادتي أن أزور نوري السعيد المرحوم كلما سافرت الى خارج العراق ، وفي احدى زياراتي له بمناسبة السفر ، سألني : « الى متى تبقى بعيدا عن الخارجية ؟•• أما آن الاوان لعودتك اليها ؟••• أجبته : انني مرتاح من عملي الحالي يا باشا وليست لي أية رغبة في العودة الى خدمة الدولة •• » وقبل أن أترك مكتبه سألته : هل تريد يا باشا أن تساعدني في الحصول على شيء أرغب فيه ؟•• قال : نعم ، وبكل ممنونية •• قلت : هناك عضوية شاغرة في مجلس ادارة البنك المركزي فاذا كنت تراني أهلا لذلك أرجوك أن تأمر تعييني فيها •• وعند ذلك تناول قلمه وخط بضع كلمات في مفكرته ، ثم نهض وودعني حتى الباب وقال : سأعمل كل ما يمكن لتنفيذ رغبتك •• ولما عدت الى بغداد بعد شهرين من المقابلة وجدت قرار مجلس الوزراء بتعييني عضوا في البنك المركزي في غلاف كان ينتظرني على مكتبي في البنك العربي ••

في احدى زيارات نوري السعيد لانقرة نظمت حفلة عشاء كبيرة في فندق « أنقرة بالاس » حضرها الغازي مصطفى كمال نفسه وكذلك نوري السعيد وكانت الحفلة لمنفعة الهلال الاحمر التركي ، وقد وضعت طاولة خضراء كبيرة في احدى قاعات الاستقبال للعب « الباكارة » فجلس مصطفى كمال وأخذ يلعب ، وقال لنوري السعيد : انه يلعب شريكا له .. وفي نتيجة اللعب كانت خسارة مصطفى كمال « أتاتورك » قد بلغت عشرين ألف ليرة تركية(١) . ولما عدنا الى السفارة ، كان الباشا مرتبكا : كيف يسدد هذا المبلغ ؟.. ومن أين يأتي به ؟.. قلت له : لا تهتم للامر يا باشا ، فمن المستحيل أن يقبل منك الرئيس مصطفى كمال المبلغ الذي يصيبك من الخسارة .. فأنت ضيفه ، وضيف عزيز عليه ، فكيف تفكر بأنه يستسيغ أن تدفع من جيبك الخاص مبلغا كهذا ؟.. وأضفت : ومع ذلك ، أترك الامر لي وأنا سأدبره في الغد وستكون النتيجة سارة بالنسبة لك . وفي صباح اليوم التالي أخذت التلفون وتكلمت مع توفيق بك السكرتير العام لرئاسة الجمهورية وقلت له : ان نوري باشا أعطاني صكا بمبلغ عشرة آلاف ليرة تركية ، وهو ما يصيبه من خسارة (الباكارة) في لعبة ليلة الامس في « أنقرة بالاس » ولا أدري الى من أرسل هذا الصك ، فهل تتفضل بتنويري في ذلك ؟.. وعند ذلك صاح توفيق بك : لا ، لا تفعل ذلك .. ان الغازي سيتألم كثيرا اذا ما أقدمتم على عمل مثل هذا ، وأرجوك أن تعيد الصك الى نوري باشا ، وتبلغه تحياتي واحترامي. وهكذا أنقذت نوري السعيد من موقفه الحرج آنذاك ..

هذه بعض لمحات عن حياة نوري السعيد المرحوم كشخص ، وعن

---

(١) كان سعر الليرة التركية في ذلك الوقت ، يساوي ٧٥ فلساً عراقياً .

بعض صفاته ومميزاته كفرد في المجتمع العراقي ، وبي حرى الآن أن أتكلم بايجاز عن نوري السعيد السياسي • نشأ نوري السعيد في بغداد عربيا بلغته وشعوره وثقافته ، ولما سافر الى استانبول طالبا في الكلية العسكرية ثم تخرج بعد ذلك ضابطا في الجيش العثماني تعــرف بزمرة من رجال العرب وشبابها • وفي مقدمة من تعرف بهم من أولئك الرجال كان عزيز علي المصري المرحوم مؤسس حزب العهد السري ، فتأثر نوري السعيــد بآراء تلك الزمرة ومبادئها وانغمر في الميدان السياسي قوميا عربيا •• ولما شكت السلطات الحكومية في تصرفاته ونوايــاه حاولت القبض عليه ، واستطاع بعض رفاقه أن يمهدوا له سبيل الهرب ، فهرب الى العراق وأقام مدة من الزمن في البصرة متخفيا ، ولما اشتعلت الثورة العربية في الحجاز التحق بها وأبلى في معاركها بلاء حسنا مكنته من أن يحتل مركزا رفيعا بين رجالها ، فكان الملك حسين المرحوم ، به من المعجبين وكان ولــده الامير فيصل كثير الثقة فيه الى حد بعيد •• وكان نوري السعيد في أيام الملك فيصل الاول الدعامة الكبرى التي يستند اليها الملك في سياسته الخارجية والداخلية •• لم يكن السعيد المرحوم عميلا للانكليز وعبدا لهم يأمرون فيطيع وينهون فيذعن ، كما يزعم بعض العراقيين ، بل كان يحمل عقيــدة في نفسه : ان العراق سيكون في حاجة الى مساعدة أجنبية الى مدة طويلة حتى ترسخ قدماه في الحكم ، ويستقر له الامر ، ويصبح ذا قوة وبأس ، وكان يعتقد من الصميم ان الانكليز أولى من غيرهم بتقديم هذه المساعدة للعراق ، وأهون شرا من سواهم على كل حال •• انني لا أقصد بكلمتي هذه أن اؤيد هذا الرأي السعيدي ولا أعتبره رأيا سديدا له مبرراتــه ، ولكنني أريد أن أقول ان نوري السعيد المرحوم كان يسير في ركــاب

الانكليز بسبب عقيدته في أنهم أصلح حليف وأقوى مناصر للعراق •• ان هذا الاعتقاد جره في الأخير الى الانقياد التام والاستسلام لهم في كثير من المواقف . ولقد كنت من أشد المعارضين لنوري السعيد وأساليبه السياسية الملتوية ، وكتبت عدة مقالات ضده في جريدة الاستقلال ، وكنت ألقبه في بعض هذه المقالات بـ « الجندي الصغير » اللقب الذي كان يثيره ويغضبه ، ولم أهادن نوري السعيد المرحوم الا بعد انقلاب بكر صدقي ، وفي أيام وزارة حكمة سليمان ، ثم في عهد وزارة المدفعي المرحوم بعد ذلك • على انني رغم معارضتي نوري السعيد لم أعتبره خائنا ، بل مجرد مماشي الانكليز ومساير سياستهم •• الا أن كرهه لجمال عبد الناصر ، وخشيته من سيطرة النفوذ الناصري في العراق جعلاه ينحدر الى هوة تقرب من الخيانة في أثناء تأميم قناة السويس ، فقد حرض الانكليز على التصدي لحكم جمال عبد الناصر وتقويض هذه الحكم بقوة السلاح اذا اقتضى الامر ••

« يقول أنتوني تتنك ، في كتابه القصة الكاملة لازمة السويس — أو درس بلا نهاية ، ان ملك العراق السابق فيصل ، كان بالصدفة في زيارة رسمية لبريطانية حين أعلن تأميم قناة السويس وكان في صحبته عبد الاله ونوري السعيد • وكان ثلاثتهم يتناولون طعام العشاء في مقر رئاسة الوزراء في ١٠ دوائنغ ستريت حين وردت أنباء الخطاب الذي ألقاه جمال عبد الناصر وأعلن فيه تأميم شركة قناة السويس •• وقال تتنك : كانت تلك صدفة تعسة ، ولم يكن غريبا أن يظهر العراقيون الثلاثة غيظهم لان عبد الناصر لم يستشر أية دولة عربية •• ولا سيما الدول المنتجة للبترول ، قبل أن يقدم على اتخاذ خطوة يمكن أن تترتب عليها

آثار خطيرة بالنسبة للعالم العربي كله •• لـذا اتسـم رد الفعل عندهم بالغضب أكثر مما اتسم بالحذر ، وأعرب نوري السعيد •• بوجه خاص •• عن أمله في أن ترد بريطانيا بحزم على تحدي عبد الناصر •• وأضاف تتنك : ان نوري السعيد أخبره في ما بعد انه حذر ايدن(١) من الوقوع في اغراء التحالف مع اسرائيل أو مع فرنسة في محاولة اخضاع عبـد الناصر لان مثل هذا التحالف سيلحق أشد الضرر بالعلاقات البريطـانية العربية ••

وقال تتنك : انه لم يكن على علم بهذا التحذير في حينه ، وانه كلما تقدم بتحذير مماثل كان ايدن يرد بأن العراق يؤيده في أسلوب الضغط الذي يتبعه ضد مصر (٢) •••

---

(١) كان مستر انطوني ايدن اذ ذاك رئيسا للوزارة البريطانية .

(٢) من جريدة المنار (العدد ٣٧٢١ بتاريخ ٦ ايار ١٩٦٧) ترجمة عبدالله خياط .

فهرس الجزء الاول

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

انتهى الجزء الاول . ويليه الجزء الثاني

سفارتي في انقرة — ١٢ تشرين الاول ١٩٥٨ — ١ كانون الثاني ١٩٦٥

فهرست

الأعلام

« ب »

« ت »

« ج »

« خ »

« د »

« س »

« ش »

« ص »

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ن »

« هـ »

« و »

« ي »

هــذا الكتاب

إن هـــذا الكتاب يضم مذكرات الاستاذ طالب مشتاق (١٩٠٠ — ١٩٥٨) . وهي مذكرات تتناول حياة العراق خاصة والبلاد العربية عامة ، من نواحٍ مختلفة . ويعود ذلك الى ان المؤلف كان وطنياً يقـــوم بنشاطات سياسية ، وموظفاً كبيراً في وزارة الخارجية وفي السلك الدبلوماسي العراقي ، كما أنــه كان يعمل محامياً ومحرراً في بعض الصحف ، واصبح أخيراً مديراً للبنك العربي في بغداد ...

ولهذا فالكتاب يعطي صــورة واضحة لجوانب متعددة من حياة العراق باسلوب سلس حي .

الثمن : ١١ ل. ل.
١٤ ل .س.

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت